

العرب والهند...
جسور الثقافة

افتتاحية العدد

الدكتور رياض نعيان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

رهانات المستقبل الكبرى

وعلي الحكيم
رئيس التحرير
المدارس السريانية

الأب جوزيف شابو

الإرهاصات العلمانية المعاصرة
د. محمد فوزي الجبر

وحدة الثقافة العربية
د. أحمد زياد محبك

المقاومة في معاركها الأخيرة
حسن موسى النميمري

الفن دفتر الحضارة
باكير محمود باكير

الحكاية الشعبية ودورها في تربية الطفل
د. فائز زين الدين

طلائع الرمزية في الشعر العربي الحديث
إسماعيل عامود

الإسلاموفوبيا... والغرب
د. حفناوي بعلي

أجمل تاريخ للأرض
موسى ديب الخوري

الإبداع

الشاعرة الصغيرة (شعر) سليمان العيسى
ابتمامة طفل (شعر) د. طلال سعيد الجنيبي
خراب الذاكرة (قصة) عبد النبي حجازي
قصص قصيرة جدا (قصة) نجيب كيالي

AL - MARIFA
المعرفة
مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٥٢ السنة ٤٨ - رمضان ١٤٢٠ هـ - أيلول ٢٠٠٩ م



فارس الأحلام - للفنان عز الدين شموط

الأخلاق في فلسفات الشرق

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن

حوار العدد مع الباحث محمود الأرنؤوط

حوار العدد

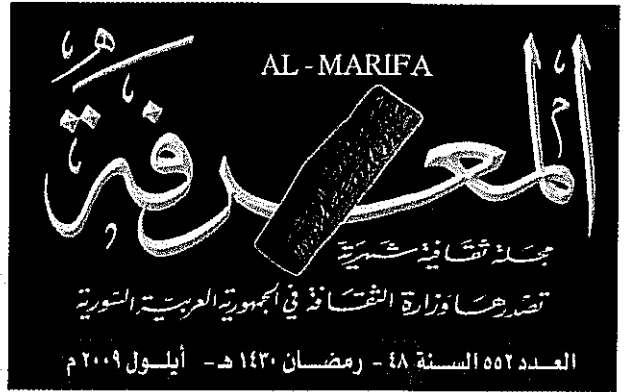
أدوات فخارية من أوغاريت



قدّمت لنا مكتشفات أوغاريت «رأس الشمرا» مجموعات كبيرة من القطع الفخارية المتنوعة الأشكال والأحجام والأنواع التي يعود تاريخها إلى عصر البرونز الحديث، وخاصة فترة ازدهارها الواقعة بين (١٤٠٠ و ١٢٠٠) ق.م، مما يدل بقوة على عظمة الإنجاز الحضاري في هذه المدينة - المملكة، وعلى مكانتها الكبيرة كمركز تجاري عالمي في حوض البحر المتوسط.

لقد كانت أوغاريت تنتج جرار التخزين التي تستخدم لحفظ ونقل الزيوت والخمور، وكانت تستورد ما ينقصها من أنواع أخرى من قبرص وجزر اليونان وبلاد الأناضول وفلسطين، وقد تميز الفخار المحلي بزخارفه الخارجية المتقنة، مع وجود بعض العيوب نتيجة احتواء الصلصال على نسبة عالية من المعادن التي لم يستطع الصانع في بعض الأحيان التغلب عليها، ويظهر جمال هذه الأدوات في الكؤوس والأباريق بشكل خاص.

وتعد القدور، الأكثر شعبية واستعمالاً في أوغاريت، وقد صنعها الحرفي بطرائق مختلفة وكانت بشكل عام تتميز بقعر مستدير، وفتحة واسعة، مع وجود عروتين شاقوليتين، وقد شغف الأهالي بالفخاريات الآتية من قبرص وبحر إيجه، مما دفع الحرفي الأوغاريتي إلى تقليدها وخاصة في صناعة الدنان وطاسات الماء والحليب، وفي الكاسات نصف كروية المزينة تزييناً هندسياً جميلاً، ويمكن تمييزها والتعرف عليها من خشونتها، مع الإشارة إلى أن الصانع الأوغاريتي أبدع أشكالاً جديدة متميزة ذات أنماط كنعانية أصيلة في الجرار الكبيرة، مما دفع بعض الباحثين إلى الإشارة بقوة إلى «مدرسة أوغاريتية» في صناعة الفخار والأواني الخزفية المستوحاة من الفنون والميثولوجيا السورية القديمة.



رئيس مجلس الإدارة
الدكتور رياض نعيان آغا
وزير الثقافة

رئيس التحرير
د. علي القسيم
معاون وزير الثقافة

أمين التحرير
م. سليمان حسن

الإشراف الفني والطباعة:
أحمد عكيدي

الهيئة الاستشارية

- د. طيب تيزيني
- د. عبد الكريم الأشر
- د. حسام الخطيب
- أ. جورج صدقني
- أ. شوقي بغدادي
- أ. وليد إخلاصي
- أ. محمد قجة

التصميم والإخراج:

أحمد إسماعيل

التمهيق اللطوي:

سمر الزركي

التنظيم:

ريما محمود - ابتسام عيسى

دعوة إلى الكتاب والمقنين العكس

- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتاب الفكريين العرب في مجل قنوات المعرفة الإنسانية
- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠-٤٠٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٤٠٠٠-٦٠٠٠ كلمة
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:
- اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق
- في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً
- ترجو المجلة من كتابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم
- ترجو المجلة أن تردها الإسهامات منقذة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها
- تلتزم المجلة بإعلام الكتاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلمها. ولا تُعاد لأصحابها
- يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة على العنوان التالي:
- الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة - رئيس تحرير مجلة المعرفة - ٣٣٣٦٩٦٣

سكان المستقبل في المجلة تعبر عن رأي صاحبها ولا تقدر بالضرورة عن رأي المجلة

www.moc.gov.sy

الإشراف الطباعي: مطابع وزارة الثقافة

سعر النسخة ٢٥ ل.س أو ما يعادلها
تُضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

في هذا العدد

كلية الوزارة

العرب والهند... جسور الثقافة
والرؤى رباح نفاذ أرفعا
وزير الثقافة

كلية العدد

وعلى القيم
رئيس التحرير

رهانات المستقبل الكبرى

الدراسات والبحوث

- ١٨ سيناريو فلسطيني من تراث النكبة إلى علمها د. بغداد عبد المنعم
- ٣٠ جدلية علاقة علم النفس بالتحصيل العلمي والتربوي د. فايز حداد
- ٤٢ النشر... لا الشعر د. صلاح الدين يونس
- ٥٥ وحدة الثقافة العربية د. أحمد زياد محبك
- ٧٢ هنري إبسن والدراما الحديثة د. غالب سمعان
- ٩١ في الاصطلاح الفلسفي: المذهب والنظرية د. عزت السيد أحمد
- ١٠٥ الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي د. عبد الكريم الأشر
- ١١٨ الإسلاموفوبيا.. والغرب د. حفناوي بعلي
- ١٣٩ موهبة التمثيل عبد الباقي يوسف
- ١٥٤ المدارس السريانية ودور المترجمين السريان الأب جوزيف شابو
- ١٦٦ المقاومة في معاركها الأخيرة حسن موسى النميري
- ١٧٨ طلائع الرمزية في الشعر العربي الحديث إسماعيل عامود
- ١٨٨ أجمل تاريخ للأرض موسى ديب الخوري
- ٢٠٥ سيكولوجية اللعب حسين محي الدين سباهي

الإبداع

شعر:

- ٢٢٢ الشاعرة الصغيرة سليمان العيسى
٢٢٥ ابتسامة طفل د. طلال سعيد الجنيبي

قصة :

- ٢٢٩ قصص قصيرة جداً نجيب كيالي
٢٣٥ خراب الذاكرة عبد النبي حجازي

آفاق المعرفة

- ٢٤٢ د. جيرو أوريتا
٢٤٧ الناقد إحسان عباس ومعايير مقارنة النص الحديث د. أحمد غنام
٢٥٥ الحكومة الإلكترونية د. أحمد طه
٢٦٥ الإرهاصات العلمانية المعاصرة د. محمد فوزي الجبر
٢٧٧ الاستثمار في الأعمال الفنية د. نبيل اللو
٢٨١ الحكاية الشعبية ودورها في تربية الطفل د. ثائر زين الدين
٢٩٢ الترجمة ودورها في ردم الفجوة الحضارية بين الشرق والغرب د. منير سويداني
٣٠١ قراءة في نثر الشاعر القروي محمد علي درويش
٣٠٧ شخصية المعري في سقط الزند تامر سفر
٣٢٢ شعر المغازي والفتوح في العصر الإسلامي وهدان وهدان
٣٢٧ الفن دفتر الحضارة باكير محمود باكير
٣٣٩ بؤادر تحول في منهج البحث العلمي وائل الأتاسي
٣٥٥ بديع الكسم محفوظ أيوب
٣٥٩ ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي أحمد منقال قشعم

حوار العدد

- ٣٧٨ محمود الأرنؤوط.. صيد الجواهر من كتب التراث إعداد: عادل أبو شنب

متابعات

- ٣٩٠ صفحات من النشاط الثقافي إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

- ٤٠٦ الأخلاق في فلسفات الشرق محمد سليمان حسن

آخر الكلام

- ٤١٤ جوهر الموسيقى رئيس التحرير

الدكتور رياض نساء أرغنا
وزير الثقافة



العرب والهند . . جسور الثقافة

يبدو أن النجاح الذي حققه مهرجان الفنون العربية الذي أقيم في الصين عام ٢٠٠٦ حفز العرب والهنود معاً على تدارك ما كان من تقصير طال مداه في تحقيق تواصل أكبر بين الثقافتين العربية والهندية. وهذا التواصل هو الأعرق بين الثقافات والحضارات القديمة. فقد حقق العرب مع أصدقائهم الهنود مثاقفة ضخمة قبل الإسلام. تبدو عند بعض الباحثين العرب أعمق من التأثر بثقافة اليونان. وهم يذكرون الطبيب

العربي الشهير الحارث بن كلدة الثقفي نموذجاً لهذا التأثر والإفادة من الحضارة الهندية وما قدمت في علوم الطب والفلسفة قبل الإسلام. وتبدو شهرة السيف الهندي والمهند في الأدب العربي وإطلاق اسم هند على حرائر النساء العربيات دليل صلات اجتماعية وتجارية عريقة. لكن المتأقفة بلغت ذروتها بعد ظهور الإسلام. فحين دخل أبو القاسم الثقفي إلى الهند وجد استجابة كبرى من الهنود الذين دخلوا في الإسلام وضخوا فكرهم وثقافتهم في حضارته. وكان ظهور كتاب «السند هنت، حدثاً ثقافياً مهماً في الحضارة العربية في القرن الخامس الهجري، ومثله كتابا «أركند» و«أرجهند»، وما نقل العرب عن الهند من علوم الرياضيات حتى دخلت الأرقام الهندية في حسابهم رغم وجود أرقام عربية (الغبارية التي يستخدمها الأوروبيون)، ويبدو البيروني تاريخياً أهم جسر تواصل حضاري بين الثقافتين. فقد عاش نحو أربعين سنة في الهند ونقل إلى العربية كتاب «ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة»، ويعبر اختيار البيروني لهذا العنوان عن انفتاح فكري كبير. وكان العلماء الهنود يجدون في بلاط الخلفاء المسلمين من أمثال المأمون مثلاً فرصة لتطوير علومهم. ولاسيما بعد ثورة الترجمة التي قام بها فمزع علوم الهند بعلوم اليونان. وقد ورثت البشرية من تلاقح هاتين الثقافتين أعمالاً أدبية رفيعة الشأن مثل كتاب «كليلة ودمنة» للفيلسوف الهندي بيدبا الذي ترجمه ابن المقفع. وقد دخلت إلى الثقافة العربية من بوابة واسعة كتب الهند الملحمية العظيمة مثل «الفيدا»، و«المهابهاراتا»، و«الراميانا». ومثلها كثير من الأساطير التي أفاد منها أدباء العرب. وفي الهند أوايد أثرية إسلامية مهمة باتت من عجائب الدنيا مثل تاج محل، وقطب منار حيث البناء الإسلامي البارع. وثمة جامعة عليكرة ذات المكانة العلمية النهضوية. وما تزال كنوز ثقافتنا الإسلامية من المخطوطات موجودة في الهند إلى اليوم. وعددها يزيد على مئة وخمسين ألف مخطوطة تنتظر من يقوم بتحقيقها وإثراء الثقافة الإنسانية بها. وعلى رغم حدوث انقطاع معرفي في العصور المتأخرة. إلا أن العرب سرعان ما عادوا إلى التفاعل مع إبداعات الهند. وحسبنا أن نذكر جهد بعض الدبلوماسيين السوريين مثل الشاعر عمر أبو ريشة ويديع حقي. فقد نقل لنا أبو ريشة تجربته الفريدة التي عاشها في الهند. وأعتقد أن قصيدته «كاجوراو» من أبداع ما في أدبنا العربي من وصف لأثر:

من منكما وهب الأمان

لأخيه أنت أم الزمان؟

شقيت على أعتابك الغارات

وانتحرت هوان

وبقيت وحدك فوق هذا الصخر

وقفة عنفوان،

وقد عرف الهنود قدير أبي ريشة وكرموه. وقد روى لي (رحمه الله) طرائف من هذه التجربة الفذة التي تركت أثراً ضخماً في أدبه وثقافته. أما بديع حقي فقد نقل لنا روائع طاغور وسواها. لكننا نجد غياباً لثقافة الهند الحديثة عن أدبنا عدا هذه الإشارات التي لا تكافئ عمق العلاقة.

وعلى رغم الانقطاع الذي طال مداه ثقافياً في فترات وقوع العرب والهنود تحت الاحتلال، فإن النهوض كان متوازياً وقد بلغ ذروته في منتصف الخمسينيات عبر العلاقة التي بناها الرئيس جمال عبد الناصر مع الزعيم نهرو؛ وحقاً معاً نجاحاً للعالم الثالث عبر مؤتمر بانكوك ١٩٥٥ حيث نهضت دول عدم الانحياز بدور مهم على الصعيد الدولي. وكانت الهند مؤيدة جادة لقضايانا العربية. لكن توقيع اتفاقية «كامب ديفيد» أفقد الدول الصديقة مثل الهند مبرر قطع علاقاتها مع إسرائيل من أجل العرب. وعلى رغم الفتور الذي ساد العلاقات العربية- الهندية السياسية بعد نمو علاقاتها مع إسرائيل، فإن التبادل الاقتصادي كان في نمو كبير. بل إن دول الخليج العربي فتحت أبوابها للعمالة الهندية حتى بلغ عدد الهنود المقيمين في دول الخليج بين عامين ومستثمرين الملايين. وكانت الهند قد طورت علاقاتها مع إسرائيل بقوة منذ مطلع التسعينيات وبنات التعاون الهندي- الإسرائيلي العسكري متسارع النمو، ولاسيما لكون الهند دخلت النادي النووي. وبالطبع لن نطلب من الهند أو سواها من الدول الصديقة أن تخلص لقضايا العرب أكثر مما يفعل بعض العرب أنفسهم. ولو أن العرب عادوا إلى جعل الموقف من القضية الفلسطينية معياراً لعلاقاتهم الدولية لتغير موقف العالم منهم. وحسبنا دول أفريقيا نموذجاً.

المهم أننا ننظر إلى استعادة العلاقة الحميمة مع الهند باهتمام. وتبدو العودة من بوابة الثقافة أرحب وأوسع لأن الثقافة تشكل الأرضية الصلبة التي تنمو عليها علاقات الدول. وسيكون مضيئاً التوقيع على مذكرة تفاهم بين الجامعة العربية وبين الهند لإنشاء منتدى التعاون العربي- الهندي المشترك. وذلك متابعة لما تم الاتفاق عليه بين

اتحاد الغرف التجارية والصناعية في الهند وبين منظمة «الأكسو» هذا العام. وأرجو أن تتمكن من بحث مستقبل علاقات العرب مع الهند على ضوء المستجدات الدولية التي تجعل العالم كله يتوقع تغيراً في خريطة السياسة الدولية، ولاسيما بعد أن أعلن النظام الرأسمالي إخفاقه، وبعد أن سقطت سياسة القطب الواحد الذي قاد البشرية إلى الدمار. ومع أننا لا نؤمن بسياسة التحالفات إلا أن استعادة مفهوم عدم الانحياز سيمكن العالم من استعادة توازنه. في وقت تشعر فيه البشرية بالحاجة الماسة إلى ظهور بدائل بات الأوروبيون أنفسهم أكثر حاجة إليها بعد طول الارتهان للسياسة الأميركية الأحادية. وأعتقد أن الخطوة العربية- الهندية وإن جاءت متأخرة بحساب ما بين العرب والهند من قواسم مشتركة فإنها تعالج التقصير الذي ينبغي أن يسعى الجانبان إلى تجاوزه. بقي أن نقول إن من المضجع ما حدث في مومباي مؤخراً من هجمات إرهابية قيل إن مسلمين خلفها. وأعتقد أن تستر الإرهابيين بالإسلام بات أمراً مبرمجاً هدفه الواضح هو الإساءة إلى المسلمين في كل مكان من العالم. ولا يخفى وجود هدف إقليمي هو إثارة الفتنة بين الهند وجيرانها في باكستان التي تتعرض لسيل من العمليات الإرهابية كل يوم. والمثير أن كل الجرائم الإرهابية التي تحدث في العالم تعلق اليوم على عنق الإسلام. ويستدعي الوضع سؤالاً مهماً: هل الإسلام جديد في العالم؟ وما السر في أن الإسلام عاش متصالحاً مع كل الثقافات الألفية أربعة عشر قرناً ولم يظهر كعدو للبشرية إلا حين قرر الصهاينة ومن يسمون «المحافظين الجدد» اعتباره عدواً؟ إننا نرجو استبعاد الأديان من الصراعات الدولية لأن الدين كله لله. ولا يوجد دين يببر الجريمة.



كلمة العَدْو



رهانات المستقبل الكبرى

وعلي القاسم
رئيس التحرير

«رهانات المستقبل الكبرى» عنوان حلقات بحث، ومحاورات تقوم منظمة «اليونسكو» العالمية، بعقدتها منذ سنوات عديدة، ويشارك في جلساتها العلمية والفكرية والإبداعية والأدبية شخصيات عالمية من ذوي الشهرة الكبيرة، وقد صدرت هذه الحلقات والمحاورات ضمن سلسلة عن «اليونسكو» تضم موضوعات شتى، تمثل تحديات كبيرة لا بد للإنسان، في كل زمان ومكان، من التصدي



لها صوتاً إنسانيته في عالم التحديات التي تقتضي علينا مواجهة أسئلتها في محاولة لاستباق أحداثها واحتمالات التطور الكامنة في كل مرحلة من مراحلها، على أساس أسئلة «كانط» الكلاسيكية: «ماذا يمكنني أن أعرف؟» و«ماذا يمكنني أن أفعل؟» و«ماذا يجوز لي أن أمل؟».

رهانات المستقبل تتطلب معرفة طبيعته التي تتجلى في المجالات التالية: مجالات الحرية، ومجالات القدرة، ومجالات العزيمة.

مجالات الحرية تكمن في أن المستقبل مفتوح لعدة تطورات ممكنة، لذا يتمثل أول عمل يقوم به المختص في الاستشراف، في محاولة استباق الأحداث، وتبين أشكال المستقبل، التي توجد، كالبذرة في طيات الحاضر، وبما أن المستقبل غير محدد سلفاً، فإن النتائج المنجزة ستكون شديدة التناقض، تبعاً لردود الفعل، إما كأشخاص عارفين، أو كأشخاص عاملين.

فبالنسبة إلى الشخص العارف سيكون المستقبل مصدر قلق، قد يتزايد كلما شعر، خطأً أو صواباً، بتسارع التغييرات، وتداخل التبعات وتكاثرها، وبأن المجتمعات أصبحت تجابه أكثر فأكثر مخاطر تحدق بأنظمة كاملة، وفي المقابل وبصفة لا شعورية أو شعورية يسعى الشخص العامل إلى مقاومة هذا الشعور بالقلق والغم، فيحاول أن يتبين وجود ثوابت في نظام الطبيعة، وفي النظام الاجتماعي تتيح له أن يفكر في الفرق بين اليوم والغد، كما لو كان مثل الفرق بين أمس واليوم.

أما مجالات القدرة فتعني أننا مقتدرون، كل الاقتدار، على خلق الغد الذي نحلم به، مثلما يفعل الملاح الذي يحاول استباق الريح التي أخذت تهب، وأن يسرع بالرجوع إلى الميناء سالماً.

ومجالات العزيمة عنوانها: «لا يوجد رياح موافية لمن لا يعرف أين يذهب» فما تفيدينا محاولتنا لاستباق أشكال المستقبل الممكنة، والتعرّف على التوجهات التي يحويها محيطنا الاستراتيجي، إذا كنا لانعرف، المكان الذي نعتزم الذهاب إليه؟ وهنا يعتبر المستقبل مجال التعبير عن الإرادة، ومجال التعبير عن حلم يمحصه العقل تمحيصاً، ومجال التعبير عن مشروع سوف يتجند الناس لتحقيقه.



لقد حدد العلماء المستقبل، القرن الحادي والعشرين، عندما اعتبروه «عهد الإعلام» وفي الواقع، تعرّض الاقتصاد الشامل لتغيير أعمق بكثير، لأن علوم الإعلام وعلوم الحياة، بعد تطورها خلال أكثر من أربعين سنة، على حدة، وبصفة متوازية، أخذت اليوم تلتحم لتكوّن قوة تكنولوجية واقتصادية واحدة، وستغدو القاعدة الأساسية للقرن الحالي.. قرن التكنولوجيا الإحيائية، ولقد صارت الأداة الإعلامية تستعمل أكثر فأكثر لمعالجة الكمية الكبيرة من المعلومات الجينية التي تمثّل المادة الأولية للاقتصاد الجديد والشامل، وذلك بفك رموزها ومراقبتها وتنظيمها، ويفضل هذه الأداة الإعلامية، أحدثت المؤسسات الدولية، مجمعات ضخمة مختصة في علوم الحياة بهدف بناء عالم صناعي إحيائي.

التجارة الجينية، تبشر بمغانم عظيمة على المدى القصير.. أجناس جديدة من النباتات والحيوانات، ومصادر للطاقة، وموارد متجددة ومصادر صيدلانية، ولكن من سوء النية التوهم بأن كل هذه المغانم ليس لها تكاليف.. إن انعكاسات هذا العلم الجديد على المحيط ونتائجه الاجتماعية والأخلاقية وتداعيات تطبيقاته التكنولوجية، ستكون مروعة حقاً.. هل سيؤول الإحداث الاصطناعي لأجناس مستنسخة ومتخطية للحدود الجينية إلى نهاية الطبيعة وتعويضها في القرن الحالي، بعالم اصطناعي

إحيائي؟ وهل سيؤدي التسويق على أوسع نطاق لأجسام مستحدثة بفضل الهندسة الجينية إلى التلوث الجيني؟ وهل سيتسبب ذلك في أضرار لا سبيل على جبرها قد تلحق بالمحيط الحيوي في القرن الحادي والعشرين؟ وما عسانا نقول عن عالم يصنع فيه الرضع على مقتضى الرغبات والشهوات منذ مرحلة الحمل؟ وما هي المخاطر التي قد تنتج عن صنع رضع متسمين لأول وهلة بـ «الكمال»؟

السؤال الذي يطرح نفسه: من يقود هذه الثورة؟.. تقودها مؤسسات عملاقة مختصة في علوم الحياة، تقوم حالياً بمناورات لمراقبة التجارة الجينية في القرن الحادي والعشرين، ذلك أن من يتحكم في الجينات يتحكم في القرن الحادي والعشرين، لأن الجينات تشكل المادة الأولية لهذا القرن، مثلما كانت المنتجات النفطية والمعدنية مادة العهد الاستعماري والصناعي.. أما رهان اللعبة الحالية فهو اقتناء البراءات، التي ستصبح بموجبها الجينات ملكية فكرية لإحدى تلك المؤسسات المختصة في البحث التكنولوجي الإحيائي.. فهي إذن بصدد استكشاف المعمورة على عجل، مفتشة عن الجينات النادرة في الطبيعة، ومتوجهة إلى النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، حيث يتكاثر التنوع الإحيائي، بحثاً عن أندر البكتريات والفيروسات والنباتات والحيوانات والأعراق البشرية، وما أن تستكشف هذه الجينات وتعزلها حتى تبادر بتسجيلها باسمها.. إننا نشهد اليوم سباقاً عنيفاً لإحاطة آخر الممتلكات العمومية بأسوار وسيارات بهدف حيازة الحدود البيولوجية للحياة..

لقد أخذت بلدان الجنوب تحتج، على ما يسمى بـ «النهب الإحيائي» الذي يعتبر الحياة نفسها مجرد قيمة نفعية ومجموعة من المشاريع والبرامج القابلة للمضاربة والاحتكار، والمشكلة لا تكمن في العلم، بل في استعمالاته التي كثيراً ما تكون لا أخلاقية..



رهانات المستقبل في الثقافة: «عولة، حيرة ثقافية، عنف» فنحن نجتاز اليوم فترة حاسمة، انقسمت آراء العلماء والخبراء حولها.. يعتقد البعض منهم أن نشاط «الشوفينية» العرقية قد يؤدي إلى «صدام الحضارات» على حد تعبير «صموئيل هنتنغتن» وإلى تفاقم الإبادات الجماعية، إنه السيناريو الأخطر يدعمه قلق اجتماعي وثقافي غائم في أكثر الحالات.. ويرى البعض الآخر في العولة الثقافية المتقدمة الآن، تهجيناً للثقافات والعرقيات، قد يسير فيها الترابط جنباً إلى جنب مع تطور الاختلاف، وقد يفضي هذا التعايش بين التعدديات في نهاية الأمر إلى مزيد من التسامح وإلى توطيد السلام، وإن حركات الهجرة والزيجات المختلطة والتباين الاجتماعي ظواهر تسير كلها في اتجاه هذا الافتراض، وكذلك شأن ظهور الهويات المختلطة، الثقافية منها والعرقية على حد سواء..

ووصلت رهانات المستقبل إلى استشراف مفهوم التراث، الذي يراه البعض، وعاءً وصندوقاً يجمع فيه الإنسان أغلى ممتلكاته بعد اغترافها من ذاكرته، يخزنها هناك لينقلها إلى خلفه، ولكن هذا الشيء الأفضل من كل ما فينا، والذي يضعه كل جيل في هذا الصندوق ليس متماثلاً في كل العهود، فسيكون الذهب والحجارة تارة، وكل أنواع الثروات، وقد يكون كذلك الأهرام، وقصر فيرساي، أي الممتلكات الثقافية والتاريخية، ويوجد أخيراً ما يسمى بالتراث المشترك بين الإنسانية (أعماق البحار- القمر أو التراث الجيني)...

وللتراث خصوصية تتمثل في تكثيف الزمان، ولكن هل يتعلق الأمر بالمحافظة على التراث لكي يُنقل بطريقة أفضل؟ ألا ينقل بالأحرى، لكي يحفظ؟ بداهة يجب المحافظة على التراث لفائدة الأجيال القادمة، ومع ذلك نحن لا نعرف شيئاً عن أذواق

وحاجيات هذه الأجيال، فكيف نعرف ما ينبغي أن ينقل إليهم؟ إن أفضل طريقة للحفاظ على مصالحهم هي إبقاء الخيارات مفتوحة، وبشكل التراث والجيل القادم والتنمية المستدامة، كلاً متماسكاً عجبياً، ولكن علينا أن نحدد لمن سينقل التراث.. فحامل التراث فرداً كان أو جماعة يحافظ عليه بشيء من الإيثار والمحبة والاحترام.. لذلك نحن مضطرون في رهانات المستقبل الكبرى إلى إعادة اختراع التراث من منظور الأجيال القادمة، من منطلق الافتراض للطبيعة الرمزية للتراث، لكل ما يجمع ويربط، داخلنا وخارجنا، وهذا يدعونا إلى اليقظة والانتباه والخوف من الالتهاس والنسيان.. ومن أجل ذلك أسست نظم قانونية للدفاع عن الموروثات الفنية والعلمية واللغوية، وعن كل العلامات التي يعبر بها الناس عن معنى العالم الذي يسكنونه، من بصمات الأيدي على جدران مغاور العصر الحجري القديم، إلى أكثر شهادات الفن المعاصر تطوراً.. ذلك هو التراث: شبكة احتمالات، قطعة فنية تنتظر شكلاً، نص ينتظر معنى، وحياة تنتظر تاريخاً، مادة بناء حية قابلة للتجدد، ومادة بناء ذات دلالة قابلة للتأويل.. التراث، أجداد أوائل شرعوا في التشييد والبناء، وأجيال قادمة، مستفيدة من الهبة، وبين الاثنين تقف الأجيال الحاضرة عابرة للتحويل..



في «رهانات المستقبل الكبرى» هل يقوى الأدب، كما نعرفه، على الصمود في القرن الحادي والعشرين؟ لقد تماهى، منذ قرون عديدة، مع الكفاح من أجل الحرية، حرية القول، قول كل شيء، وتصوير كل شيء، وتبليغ كل شيء، ورجاء كل شيء، دون عنف غير العنف الرمزي أو الخيالي، في كنف احترام الآخر، أو احترام القارئ..

الأوضاع غير سارة، قد نستطيع المرور من قصر الأحلام، إلى حضارة زاخرة بالكتب المفتقرة إلى القراء، وقد يكون عدد الناشرين في تناقص مستمر، وقد يصبح القارئ

البطل الكبير للمستقبل، وسيدعى إلى البرامج التلفزيونية المعدة للجماهير الكبيرة، وقد يكون الأدب - اليوم - شبيهاً بمندياع يبث في الفراغ.. وهذا ما تؤكدُه مقولة «أرنست هيمنغواي»: «عندما تتدهور الأشياء في المجتمع يكون الأدب في الخط الأول»..

نلاحظ أنه لم يعد للكاتب دور يقوم به بالقدر الذي كان له منذ بضع سنوات، عندما كان «القلم أقوى من السيف» وإن الاهتمام بالكاتب أصبح قليلاً في مجتمعات اليوم، وهذا دليل على تناقص دوره، ولكن هذا يجب ألا يجعلنا ننسى أن الأدب فن لا بد من وجوده في حياتنا، وأن القراءة تمكننا من الحلم ومن التعبير عن شكل من أشكال الحقيقة..

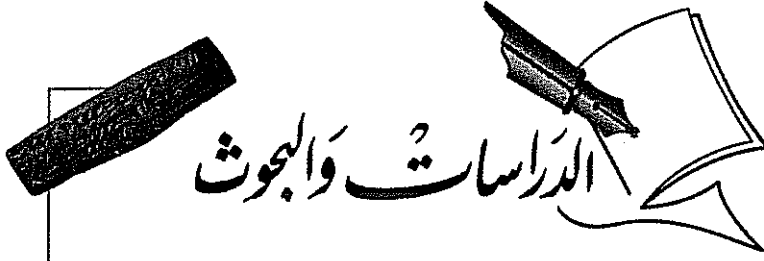
في العهد الذي ساد فيه الفيديو، شهدت دائرة الكتابة، سقوطاً بارزاً، ولئن حمل عهدنا سمة «الإلكتروني» فإنه يظل مؤسساً على الكتابة، وقد سجل استعمال الورق تدهوراً على ما يبدو، تدهوراً يحافظ على تراث الإنسانية الغابي، وبالإمكان من جهة أخرى تعويض الورق التقليدي بورق متغير، كيميائي أو مستنسخ، ولا تتصل تقنية الخطاب - التي هي الأدب - بشكل محدد في الكتاب فحسب، ومن الأكيد أن الكتاب جسم مناسب، ولكن إيجاد ركائز جديدة للقراءة خارج شاشة الحاسوب أمر ممكن أيضاً..

كثيرون هم الذين تزعمهم الأزمة التي تمرّ بها الرواية، عالمياً، ولكن الأزمة الفعلية هي أزمة الكتاب في علاقتهم مع ما يسمى «الرواية» لقد أصبح للمصطلح في الحقيقة معنى أوسع ليشمل أشكالاً عديدة من القص (في صيغة الغائب، أو في صيغة المتكلم) بينما أصبح الالتفات إلى القارئ في صيغة المخاطب مهملأ مهجوراً، على الإطلاق، وقد أصبح بالإمكان قبول كل أشكال الكتابة تحت تسمية «الرواية» - المذكرات - الرواية المجزأة - الرواية التقليدية..

إن مستقبل الرواية مرتبط بمستقبل الإنسان، وسيحافظ الناس، طالما تكلموا، على إرادة التعبير بالخطاب، ولن يكون زوال الرواية ممكناً إلا في مجتمع الصم والبكم، ولئن دفعتنا حضارتنا «التكنولوجية» نحو ثقافة وحدات التعداد الإلكتروني الأحادية المقطع، فإن وزن الكلمة سيبقى كاملاً لأن اللغة تولد من جديد مع ولادة كل إنسان..

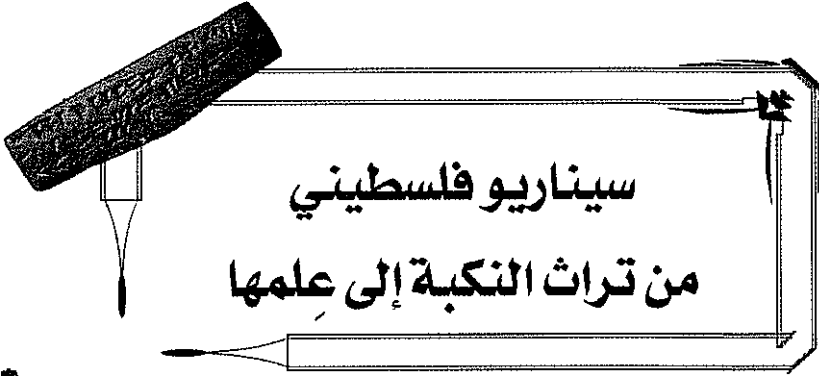
المشكلة اليوم أننا أضعنا كل صلة بكبار الكتاب الذين يعالجون مسائل مثل المنزلة الإنسانية والشك والأمل والرغبة في التقارب مع الآخرين، ومع كل ما حدث ويحدث نجد الكاتب يواصل كتابته رغم الفشل أو رغم الموت، وهو كالمقاتل يواصل القتال لأنه يؤمن بشيء أقوى من موته ذاته... ذلك أن الكتابة تعطي معنى لحياته، ولأن هممه الرئيسي يتمثل في إبلاغ صوته.





- سيناريو فلسطيني من تراث النكبة إلى علمها د. بغداد عبد المنعم
- جدلية علاقة علم النفس بالتحصيل العلمي والتربوي ... د. فايز حداد
- النثر... لا الشعر..... د. صلاح الدين يونس
- وحدة الثقافة العربية د. أحمد زياد محبك
- هنري إبسن والدراما الحديثة د. غالب سمعان
- في الاصطلاح الفلسفي؛ المذهب والنظرية د. عزت السيد أحمد
- الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي .. د. عبد الكريم الأشتر
- الإسلاموفوبيا.. والغرب د. حفناوي بعلي
- موهبة التمثيل عبد الباقي يوسف
- المدارس السريانية ودور المترجمين السريان الأب جوزيف شابو
- المقاومة في معاركها الأخيرة حسن موسى النميري
- طلائع الرمزية في الشعر العربي الحديث إسماعيل عامود
- أجمل تاريخ للأرض موسى ديب الخوري
- سيكولوجية اللعب حسين محي الدين سباهي

الدراسات والبحوث



د. بغداد عبد المنعم

نبحث في النكبة مرةً بعد مرة.. نقرأها.. نقلها.. ندرسُ يومياتها وخارطتها الضيقة والواسعة.. الإقليمية والعالمية.. العربية والخارجية.. ليس لأنها من أبشع وأدوم الصدمات التي تلقيناها.. بل لأن ظروفها لما تزل قائمة، خاصةً ظروف العلاقة المستديرة بين الكيان الصهيوني والقوى العالمية القائمة منذ نهاية الحرب الثانية وحتى الآن.. وإذ فعل ذلك مرة بعد مرة فلكي نزيد وعينا.. ولكي نزيد علمنا.. نحتاج إلى العلم.. ونحتاج أن نكون علميين واستراتيجيين كي نتقل أولاً الخطوة الأولى البعيدة عن رد الفعل والارتجال والشعاراتية..

* يا حثة في التراث العربي (سورية).

العمل الفني: الفنان مطيع حلي

سيناريو فلسطيني... من تراث النكبة إلى علمها

الإنقاذ (العربي الفلسطيني).. وكانت الجيوش العربية النظامية: الجيش المصري والجيش السوري والجيش اللبناني والجيش الأردني والجيش العراقي..

كان هناك الكثير من النقاط الغرائبية.. فقد كان الجيش الأردني تحت قيادة بريطانية (غلوب باشا)!! والجيوش العربية كلها تولى قيادتها الملك عبد الله ملك الأردن.. ومن النقاط الغرائبية كان انبثاق حضور عسكري (إسرائيلي) فاق عدده وجاهزته وخططه في مجموعه كل المجموع العسكري العربي والفلسطيني الرسمي وغير الرسمي..

كانت بريطانيا.. وحضرت الولايات المتحدة ولعلها بدأت منذ تلك اللحظات تلقي بثقلها داخل هيئات الأمم المتحدة وتمنحها (القرارات والشريعات) حسب الحالة!!

كان هناك الوكالة اليهودية والهاغاناه وشتيرن والأرغون.. وفي هذا السيناريو مساءلات تاريخية كبيرة.. كان فيها الانسحاب البريطاني تآمر دولة لصالح عصابة!! وكيف انتقل رنين قرارات مجلس الأمن باتجاه جامعة الدول العربية.. لإيقاف التقدم العربي داخل فلسطين ١٩٤٩ فكانت الهدنة الأولى والهدنة الثانية.. والاتفاقيات الفردية لاحقاً في رودس مع كل طرف عربي على حدا وهدنة دائمة!!

ربما لم تكن (النكبة) الصدمة الأولى التي تلقاها الفلسطينيون والعرب والمسلمون.. لكنها الأشد دون شك.. بقيت أمراً يفوق حتى كونها صدمة، فقد كانت إنجازاً وحلاً ومشروعاً بين القوى الغربية والصهيونية العالمية وتجسد هذا المشروع المشترك بإقامة دولة توسعية غرائبية فوق أشد النقاط حساسية من الجغرافية العربية والإسلامية بأن معاً .

سيناريو دولي - عربي فوق أرض

فلسطين

تكاثفت الأحداث وتشكلت منها مستويات كثيرة صدرت نتائجها لاحقاً.. هي أصلاً خرجت من مستويات عديدة أيضاً.. لكنها تلاقت في هذه المساحة الصغيرة - الكبيرة.. المساحة الفلسطينية التي خرجت من بين مساطر ومخططات سايكس وبيكو أشهر (عالمي حدود عربية) في القرن العشرين.. وهكذا خرجت فلسطين من بين أوراقهما بمساحة قدرت بـ ٢٧ ألف كم^٢.

من الأبعاد والمستويات التي حواها هذا السيناريو.. حضور عربي رسمي وغير رسمي.. عسكري وغير عسكري.. هُدن ومفاوضات ومراجعات.. كان فيه جامعة الدول العربية.. وكان فيه جيش الجهاد المقدس (الفلسطيني العربي).. وجيش

سيناريو فلسطيني... من تراث النكبة إلى علمها

حركة الجامعة العربية قبل هذا

التاريخ

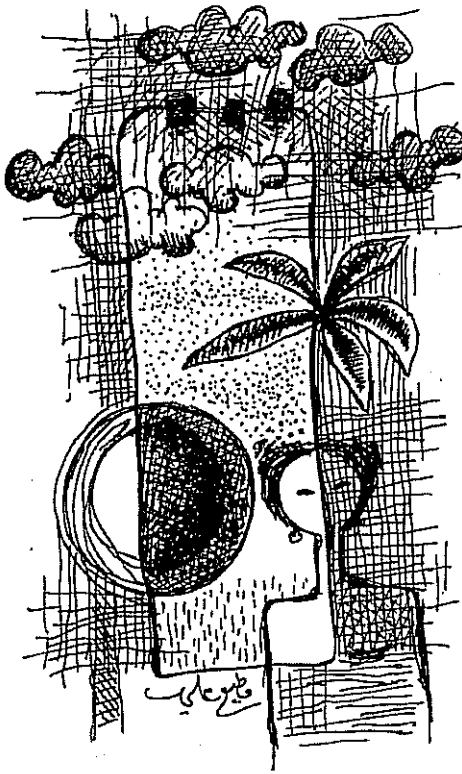
نشطت جامعة الدول العربية في مستوى الاجتماعات والقرارات بتاريخ ١٦/٩/١٩٤٧ عقدت جامعة الدول العربية اجتماعاً في صوفر بلبنان تقرر فيه تقديم أقصى ما يمكن من الدعم لأهل فلسطين في حال إقرار التقسيم. وبتاريخ ١٥/١٠/١٩٤٧ عقدت جامعة الدول العربية اجتماعاً آخر في عاليه بلبنان تقرر فيه تقديم /١٠٠٠٠/ بندقية مع ذخائرها إلى أهل فلسطين ولجنة عسكرية لإعداد الدفاع عن فلسطين وتنظيمه. وبتاريخ ٨/١٢/١٩٤٧ بعيد صدور قرار التقسيم وفي غمرة الهياج الشعبي عقدت جامعة الدول العربية اجتماعاً في القاهرة حضره رؤساء وزراء الدول العربية في ختامه صدر بيان يدين ويتعهد بإحباط مشروع التقسيم.

تشكيلات المقاومة العربية والفلسطينية وقرائبيات التآمر الدولي: ثمة حركة عسكرية عميقة انتابت الأرض الفلسطينية، لقد كان الحضور العربي والفلسطيني في مستويات معينة ملفتاً ويستحق إعادة الاعتبار والنظر.. كان خندق التآمر الدولي الذي تترسّت خلفه الصهيونية عميقاً بلا حدود..

من النقاط المثيرة التي ضمّتها هذا السيناريو: الشخصية الدولية المتميزة الكونت برنادوت ومشروعه الذي نوى أن يعدل به قرار التقسيم.. غير أن الصهيونية سارعت إلى اغتياله ..

كان قلب هذه السنة النكبية (١٩٤٨) قد امتلأ.. بأحداث جَمَّ وبالغرائب، ولعلها أول سابقة في تاريخ الأرض كلها تصبّ فيها القوى العسكرية الدولية تجاه (إنجاز محدد وغريب) هو إقامة دولة لا في مكانها ولا تاريخها، وتسجلت بسبب ذلك أكبر عملية اقتلاع وتهجير.. ما لبثت الأمم المتحدة أن تبنت هؤلاء (اللاجئين) تسجيلاً وإشراقاً عمومياً صحياً وغذائياً!!

وإذن كانت حرب ١٩٤٨ هي الجولة العسكرية الأولى التي خاضها العرب مع الغزو الصهيوني لفلسطين وشاركت فيها الجيوش النظامية لخمسة دول عربية هي: مصر - سورية - الأردن - العراق - لبنان. بدأت في ١٥/٥/١٩٤٨م وانتهت بعقد اتفاقيات هدنة فردية مع الكيان الصهيوني!! وسببها تصميم الصهاينة والقوى الدولية المؤيدة لها على إقامة الدولة اليهودية في فلسطين بناء على قرار التقسيم الأممي بتاريخ ٢٩ ٢٠١٩٤٧م.



غير أن هذا كله تعرض لتغيير جذري حين أصدر الملك عبد الله بصفته القائد العام للجيش العربية يوم ١٢/٥/١٩٤٨ تعديلاً على توضع الجيوش العربية داخل فلسطين...!! أي قبل دخول القوات العربية إلى فلسطين بيومين وكان ذلك بناءً على توصية من الجنرال غلوب وترتب على هذه التعديلات إرياقات وحدوث فجوات واسعة بين الجيوش العربية اعترضت عليه اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية ويعد أخذ

تشكلت مقاومة العرب الفلسطينيين لمقاومة قيام الدولة اليهودية عسكرياً من^(١): جيش الجهاد المقدس^(٢) وتعداده بين ٨- ١٠٠٠٠ مقاتل، وجيش الإنقاذ العربي^(٣) وتعداده بين ٣- ٤ آلاف مقاتل. وأما القوات النظامية العربية التي دخلت فلسطين فكانت: الجيش المصري: بقيادة اللواء أحمد علي المرادي وعدده ٥ آلاف، والجيش الأردني بقيادة الجنرال جون باجلوت غلوب البريطاني، والجيش العراقي بقيادة الزعيم الزبيدي وعدده ٢٥٠٠ والجيش السوري بقيادة عبد الوهاب الحكيم والجيش اللبناني بقيادة الزعيم فؤاد شهاب.. وبهذا يبلغ مجموع القوات العربية النظامية التي دخلت فلسطين يوم ١٥/٥/١٩٤٨ حوالي ١٥٠٠٠ مقاتل ضمن ١٢ كتيبة مشاة أو ميكانيكية.. وقد أوكلت جامعة الدول العربية في ١٥/٥/١٩٤٨ قيادة هذه القوات إلى ملك الأردن عبد الله.

نستطيع أن نلاحظ أن إطلاق اسم الجيوش على هذه القوات لا ينسجم مطلقاً وحجمها، إذ لم يتجاوز حجم بعضها الكتيبة الواحدة وحجم أكبرها اللواءين.. وكانت هذه القوات غير مستعدة وغير جاهزة لخوض حرب.. ولم تكن هناك خطة عسكرية واضحة واقتصر الأمر على إسناد مهمة حربية لكل جيش..!

سيناريو فلسطيني... من تراث النكبة إلى علمها

شطر من أرض فلسطين وشكل حكومة مؤقتة لها سارعت إلى الاعتراف بها: الولايات المتحدة الأمريكية. ثم تلاها الاتحاد السوفياتي، ثم توالى بقية الدول الأخرى المؤيدة للصهيونية.

لقد توالى الخطط العسكرية الصهيونية لتحويل هدف إقامة الدولة إلى أمر واقع فوق الأرض وبإيعاز من الوكالة اليهودية وضعت قيادة الهاغاناه تفاصيل الخطة (دال) وما بين مطلع نيسان وحتى ١٥/٥/١٩٤٨ تكون هذه الخطة قد سيطرت على المساحة المحددة في قرار التقسيم.. تشكلت القوات الصهيونية من ٤٠ ألف مقاتل جيد التسليح من الهاغاناه والبالماخ وهاشومير، وقوات العصابات الإرهابية من الأرغون وشستيرن وهذه حوالي ٥٠٠٠ مقاتل. وهذه القوات كانت جاهزة عسكرياً عدداً وتسليحاً وقد سيطرت على أهم المناطق الاستراتيجية في فلسطين.

الانسحاب البريطاني: تأمر دولة

لصالح عصابة

نَفَذَتْ بريطانيا انسحابها من فلسطين، لكنه كان انسحاباً مفروضاً بل يصبُّ مئة بالمائة في صالح الصهاينة.. فقد بدأ (الانسحاب-التأمر) منذ ١٩/٢/١٩٤٨ كما يلي: لم يُنْفَذْ الانسحاب من المناطق اليهودية والعربية

ورد وافق الملك عبد الله على إلغاء التعديل لكن الجنرال غلوب استمر في العمل وفقاً للخطة المعدلة!! إذن فالوضع العسكري عربياً عانى من غموض المهام وضعف التنسيق والتعاون.. ولم تكن هناك خطة عمليات موحدة للجيش العربية فكل جيش كان يعمل بأوامر دولته تلك الأوامر التي كانت تحكمها السياسات القطرية.

التشكيلة العسكرية الصهيونية الخارجية من فك الحرب العالمية الثانية

قامت هذه الخطط بشكل عام على إعداد جيش هجومي (٦٧ ألف مقاتل).. وخطة قتالية على درجة عالية جداً من التنظيم، ونظراً لافتقار الصهاينة إلى العمق الجغرافي فقد خلقوا عمقاً استراتيجياً عن طريق تنظيم هيكل الدفاع الشامل على أساس الارتكاز على المستعمرات وسكانها.. وبذلك انتقلت القوات الصهيونية إلى الهجوم بدءاً من مطلع نيسان أي قبل دخول الجيوش العربية، وذلك مع ارتكازها بقوة على مجموعة كبيرة جداً من المذابح منها ما سجلتها التقارير والكتب والصحف، ومنها ما سجلتها الذاكرات التي ما زالت حية.. أعلن دافيد بن غوريون بتاريخ ١٥/٥/١٩٤٨م قيام (دولة إسرائيل) على

سيناريو فلسطيني... من تراث النكبة إلى علمها

دفع بالولايات المتحدة الأمريكية وحسب عاداتها وتقاليدها المتبعة مع (إسرائيل) إلى أن تطلب من مجلس الأمن التدخل لوقف إطلاق النار.. وخلال ذلك حدث كثيرٌ من التفاصيل العسكرية المثيرة على أرض فلسطين.. وهي في غاية الاستبسال والاستمرار.. تحتاج إلى جهد بحثي عسكري - سياسي بغية استخراج حقيقة عربية استشهدت فوق أرض فلسطين وكأنها غدت جزءاً من نسيج النكبة.. حقيقة فاعلة في الكيان العربي.. لقد نجحت القوات العربية رغم قلة استعدادها وتسليحها في السيطرة على أقسام كبيرة من فلسطين، فقد وصلت الخطوط الأمامية المصرية شمالاً حتى بيت لحم ومستعمرة تليبوت في ضواحي القدس الجنوبية وغرباً حتى حدود منطقة يافا الجنوبية.. كما سيطر الجيش المصري على منطقة النقب الجنوبي وخليج العقبة بأكمله. وسيطر الجيش السوري وجيش الإنقاذ على الجليل كله حتى منطقة جنوب طبريا، ووصل الجيش اللبناني قريباً جداً من عكا.. وأمّا جيش الإنقاذ فقد وصل إلى جنوب قرى مدينة الناصرة.. وسيطر الجيش العراقي على قلب فلسطين وأحاط بتل أبيب. كما سيطر الجيش الأردني على منطقة الغور الجنوبي حتى التقى بالجيش المصري والعراقي.

في آن واحد. فبدأ الانسحاب من المناطق اليهودية مع تسليم السلطات الإدارية إلى الوكالة اليهودية وتسليمها المعسكرات والمستودعات والمطارات.

أما بالنسبة للمناطق العربية فلم تتسحب بريطانيا منها حتى آخر أيام الموعد المحدد للانسحاب وقاومت دخول الأسلحة والمتلوعين.

وحين دخلت الجيوش العربية فلسطين كان الصهاينة قد سيطروا على المدن الفلسطينية الكبرى وقاموا بإعادة توزيع قواتهم بما يتفق مع التصدي للهجوم العربي المعلن عنه يوم ١٥/٥/١٩٤٨ فتوزعت قواتهم بالشكل التالي: في الشمال ثلاثة ألوية بالإضافة إلى قوة المستعمرات^(١)، وفي الوسط لواءان يسيطران على تل أبيب ومنطقتها، وأمّا في الجنوب فتمركز لواءان، وترك في منطقة القدس وحدها ثلاثة ألوية.

بحث علمي في الحضور العسكري العربي.. الخروج من العُقدة

على الرغم من كل المالبسات والمحاولات التشغيلية والتقليصية فإن الجيوش العربية النظامية دخلت فلسطين في منتصف ليلة ١٥/٥/١٩٤٨ وحقت على الرغم من كل الضعف والفوضى واللاتسويق.. حقت هذه القوات نجاحاً لاسيما في الأيام الأولى، مما

سيناريو فلسطيني... من تراث النكبة إلى علمها

يحقق برأيه بعض العدل فأعد مشروعاً عرف باسم (مشروع الكونت برنادوت) وقدمه إلى الأمين العام للأمم المتحدة غير أن الإسرائيليين لم يرضوا عن هذا المشروع فاغتالوا الكونت برنادوت في القدس يوم ١٧/٩/١٩٤٨ واندلح القتال ثانية فأصدر مجلس الأمن قراراً بوقف إطلاق النار.. ومن ثم توقف القتال ووقعت اتفاقيات هدنة دائمة فردية في رودس.. وبذلك انتهت هذه الجولة العسكرية بين العرب والكيان الصهيوني..

كانت تلك أشهراً مليئة بالأحداث وصانعيها ولا صانعيها.. كانت حقيقة البطولة العربية مزلزلة ونييلة ما زال صدر فلسطين يحضن شهداءها إلى اليوم.. وكانت الخيانة وكان التواطؤ.. وكان انعدام الرؤيا وانعدام العملية السياسية العربية في مقابل عملية سياسية عسكرية دولية صهيونية واقفة بقوة توفر لها السلاح الحديث والخبرة في حدودها القصوى بضباطها الخارجين لتوهم من أتون الحرب العالمية الثانية.

ميزان النتائج: أمر واقع أم

كارثة؟؟

سرعان ما استوت النتائج وتحولت في البنى السياسية الدولية القائمة إلى (أمر واقع!).. كان في كل لحظة نتيجة خرجت

ولكن سرعان ما توقف اندفاع الجيوش العربية وجاءت الهدنة الأولى!! (١١/٦/١٩٤٨ لتقلب الوضع بتأمر تقليدي ما فتئ يتكرر منذ تلك اللحظات وحتى الآن.. أطلقت الولايات المتحدة ضغوطها وكذلك بريطانيا تجاه مجلس الأمن، والضغط والوعود للدول العربية كي توافق على وقف إطلاق النار، ونتيجة ذلك قبلت جامعة الدول العربية قرار مجلس الأمن رقم ٥٠ تاريخ ٢٩/٥/١٩٤٨ القاضي بوقف إطلاق النار لمدة ٤ أسابيع وأبلغت مجلس الأمن موافقتها مع أملها أن يتمكن الوسيط الدولي الكونت برنادوت من إيجاد حل عادل لقضية فلسطين .

في صباح ١١/٦/١٩٤٨ توقف القتال، لكن كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات الحربية والطائرات الحديثة والخبرات وصلت إلى اليهود بفلسطين وكذلك أفواج كبيرة من المتطوعين، وقد تلى ذلك هدنة ثانية بتاريخ ١٨/٧/١٩٤٨ وأصدر لأجلها مجلس الأمن القرار رقم ٥٤/ في

١٥/٧/١٩٤٨ وتركها مفتوحة بدون زمن محدد على أن تتحول بمرور الزمن إلى هدنة دائمة يحل فيها النزاع بالطرق السلمية بمعاونة الكونت برنادوت الذي انهمك بوضع خريطة جديدة لفلسطين وقد عقد العزم على تعديل قرار التقسيم بشكل

سيناريو فلسطيني... من تراث النكبة إلى علمها

العسكرية بين الطرفين؛ فالقوات العربية حديثة التشكيل، بعضها كان تحت قيادة أجنبية.. وكذلك لم يسبق لها الاشتراك الفعلي في القتال. بينما القوات (الإسرائيلية) امتصت واستقطبت واستقطبت⁽⁵⁾ لها خبرات قتالية وقيادات وأفراد ومصانع أسلحة من الحرب العالمية الثانية.. وكان التفاوت في المستوى بين قوة القيادتين، فقد افتقر العرب إلى خطة عامة موحدة جادة، في حين كانت القوات (الإسرائيلية) كلها من نظامية وغير نظامية ذات قيادة واحدة وخطة عامة موجهة.

إضافة إلى التفاوت العميق بين الطرفين في التعامل الدولي.. فالدول العربية لم تفهم استراتيجيات الدول العظمى المتحكمة بالسياسة العالمية.. مما حول الدول العربية الناشئة إلى العوية وساحة للمماطلات والهدن والعجز.. في حين كانت الصهيونية العالمية قد ارتفعت بأساليبها وطاقاتها المحلية والدولية لخدمة أهدافها الاستراتيجية بالتعاون مع الدول العظمى نفسها..

القدس في النكبة.. خصوصية أممية تمهد لخطة ابتلاع صهيونية اعتبرته مدينة القدس مع جوارها في قرار التقسيم منطقة منفصلة غير تابعة لأي من الدولتين (خضعت لنظام وصاية

من تغاض والتضاف وتآمر.. وما لبثت هذه النتائج أن انضوت داخل القرارات الأممية وكأنها أمر مفروغ منه..

وإذ تتضح الرؤيا شيئاً فشيئاً.. فنكون حيال قراءة في (روزنامة النكبة).. قراءة مهمة للغاية حين نتجاوزها.. نتجاوز حدودها ووجهها تجاه صنع أدوات واكتساب آليات وإعادة حسابات..

نقرأ في مساحات أسباب الفشل في حرب ١٩٤٨: أن القادة العسكريين ظلوا بعيدين عن القرار السياسي في أي نقاش مما جعلهم في وضع غريب مرتبك، فهم لم يطلعوا على قرار دخول الحرب إلا قبل وقت قصير جداً.. كان هناك أيضاً هشاشة واضحة في استطلاع العدو وتكوين (معلومات) عنه خاصة عند قيادات الجيوش العربية، بينما حصدت الصهيونية - بشكلها (العالمي) وبشكلها الذي جهز فوق أرض فلسطين - معلومات كثيرة ونوعية عن العرب.. وهكذا رجح ميزان القوى لصالح العدو رغم الكثرة السكانية العربية وذلك بسبب تفهم الصهاينة الأعمق لمعنى الحرب ومتطلباتها وإشراكهم كل القوى والتعبئة العامة.. في حين لم تفعل ذلك الدول العربية التي أشركت جزءاً من قواتها ونسبة لا تذكر من سكانها.

كان ثمة تفاوت كبير في الخبرة والقدرة

سيناريو فلسطيني... من تراث النكبة إلى علمها

ولو متأخرة وحدات من الجيش العربي الأردني في التاسع عشر من أيار ١٩٤٨. كانت تلك الأيام السوداء من منتصف سنة النكبة قد أوقعت في وجه المدينة حزناً مستديماً لما يذهب.. غرقت بشهادتها الذين لم تكف شهادتهم العظيمة لمنع هذه الوحشية غير المسبوقة.. أزيلت أحياء بكاملها.. نُسِفَت بيوت.. اقتلَع المقدسيون الخارجون من تراب المدينة ومن منعرجاتها السماوية.. كان ذلك شيئاً لم يحدث تاريخياً من قبل لا كيف تتم محاولات مستمرة لقهر الطبيعة والهوية والوجود الحقيقي لهذه المدينة العتيقة السَمْحَة.. المنفتحة بإيمانها القديم في وجه الإنسان؟ كيف يحاولون تحويل السماء من فوقها؟ كيف يتحركون فوق قاعدة هلامية رجاجة من قوانين موصولة ببعضها بعضاً بدءاً من المحيط الأممي إلى المركز الصهيوني؟

في تراث النكبة.. تقاليد خطابها

الظاهرة النكبوية المستمرة بمراحلها من النكبة إلى النكسة.. أو الهزيمة أو الكارثة.. هذه الظاهرة التي استمرت.. عمقت صدمة عسكرية ونفسية هائلة، وكانت محاولات تحليلها واستكشاف أسرارها.. أنتجت هذه المحاولات كما ضخماً من الكتب والمقالات والمداومات والمحاورات والتعليقات

دولي خاص!) وبناءً على هذا التمهيد المعقول والمريح -للصهيونية- فقد سارع (دافيد بن غوريون) لوضع خطة لاحتلال القدس بكاملها في شباط ١٩٤٨.. قُسمت خطة الابتلاع إلى مرحلتين: الأولى تستغرق زمناً يمتد إلى الخامس عشر من أيار وهدفها انتهاز كل فرصة سياسياً أو عسكرياً للاستيلاء على عقارات أو أراضٍ في مدينة القدس، وإيجاد حضور يهودي مستمر ومتواصل داخل المدينة. والمرحلة الثانية من الخطة تنفذ بعد الانسحاب البريطاني وهدفها احتلال القدس كاملة^(١) وبدأت الصهيونية فوق الأرض الفلسطينية بتنفيذ خطة (سرقة القدس) بعملية أولى أطلق عليها اسم (بيوسي) Jevussi بدأت بتنفيذها الهاغاناه في ٢٦ نيسان.. ووفق هذه الخطة وخلال شهر واحد تم احتلال معظم الأحياء السكنية الفلسطينية في القدس الغربية وبعض الأحياء في القدس الشرقية وتم طرد سكانها.. ومع اقتراب منتصف أيار انضمت العمليتان العسكريتان كلشون kalshon وشيفيفون Schiffon لاحتلال مدينة القدس القديمة ذاتها.. ولم يقف دون احتلالها في ذلك الوقت إلا استبسال المدينة بدون حدود منعاً لوقوع ذلك.. ووجود ثلة من المجاهدين النوعيين.. وتدخلت أيضاً

سيناريو فلسطيني... من تراث النكبة إلى علمها

بشكل تاريخي يمتد إلى الحاضر أحياناً.. وكثيراً ما كان يتداخل الاتجاهان بنسب متفاوتة بين كاتب وآخر.. امتدت هذه المحاولات في الإيدولوجيات.. فريق مال إلى (تحديث) الحياة العربية والفكر العربي ليغدو في سوية المواجهة..

محاولاتٌ أخرى انصبّت على التراث العربي أو التراث الإسلامي.. على أن كل منهما قاعدة انطلاق وخلص.. وفريق آخر قدم النضال السياسي، وآخر ارتكز على البناء الاقتصادي.. ثم قاعدة التعليم والتربية.. إلخ، وأما آلياتهم المقترحة للتنفيذ فكان منها (الثورية) وكان منها درب التدرج والتطور.

تمرُّ الأزمان على النكبة.. وعلى النكسة وتبقى قائمةً بأشباحها وفضائعها.. لكنها لم تعد مستقطبة للجهود التفكيرية والتحليلية مثلما ردة الفعل التي حدثت بعدها مباشرة.. لقد تمدد أثر النكبة.. وقلّت كثافتها وتميّهت المحاولات باتجاه تحليل حاضر العرب وماضيهم لاستخلاص أسباب تخلفهم وسبل تحررهم وتقديمهم.. هذه المحاولات الواسعة والممتدة مازالت تفتقر إلى أن تكون بحثاً علمياً متقنياً.. وتغدو مجموعة كبيرة من الأسئلة مشروعة: ما نوع الأثر (إن كان ثمة أثر) السذي قدمته هذه

والندوات.. ثم نتاجاً أدبياً عربياً.. كان في كل أصنافه لا يخلو من فلسطين.. ولا يخلو من النكبة أو النكسة.. ثم دراسات.. ودراسات سياسية.. كان في معظم هذا النتاج الفكري النكبي سمات عامة، بل في معظم المحاولات التي أنجزت في (النكبة) وحولها، أنها توجهات فردية أو جماعية محدودة^(٧).. انبعثت وتفجرت بفعل زلزال النكبة وآثاره الرجعية.. فلم تنتهياً لها وسائل البحث المتبع والتحري المتقضي، فكانت أقرب إلى الأدب التوجيهي منها إلى البحث العلمي. لقد تكوّن أدب النكبة ولم يتكون علمها ذلك لأن هذا العلم يحتاج إلى آلياته وأدواته.. يحتاج إلى المنهج والاختصاص الدقيق والتفصيلي.. يحتاج إلى تكوين فرق البحث وإنشاء المؤسسات والمعاهد.. يحتاج إلى الطاقة المادية والتعاونية وإلى أن يدخل في بعد استراتيجي.

في مجمل هذه المحاولات نميز اتجاهين رئيسيين^(٨)، الاتجاه الأول منها ركز على المؤثرات الخارجية التي أدت إلى النكبة وحملت بدوافع الاستعمار والآليات وعلاقته بالصهيونية وكونه استخدمها أداة قمع للمنطقة العربية بحركاتها التحررية والوحدوية. وأما الاتجاه الثاني فقد ركز على (النقد الذاتي) للكيان العربي داخلياً

سيناريو فلسطيني... من تراث النكبة إلى علمها

أخيراً وعوداً على بدء:

نبحث في النكبة مرةً بعد مرة.. نقرأها.. نقلبها.. ندرسُ يومياتها وخرائطها الضيقة والواسعة.. الإقليمية والعالمية.. العربية والخارجية.. ليس لأنها من أبشع وأدوم الصدمات التي تلقيناها.. بل لأن ظروفها لما تنزل قائمة، خاصةً ظروف العلاقة المستديمة بين الكيان الصهيوني والقوى العالمية القائمة منذ نهاية الحرب الثانية وحتى الآن.. وإذا نفعل ذلك مرة بعد مرة فلكي نزيد وعينا.. ولكي نزيد علمنا.. نحتاج إلى العلم.. ونحتاج أن نكون علميين واستراتيجيين كي ننتقل أولاً الخطوة الأولى البعيدة عن رد الفعل والارتجال والشعاراتية..

الجهود الفكرية النكبوية - نسبة إلى أنها دارت حول النكبة - في طبيعة الصراع مع العدو؟ هل استطاعت أن تنتقل من القراءة إلى التجاوز؟ هل استطاعت أن تقدم قراءةً لآخر أيضاً (للعالم - للغرب - للقوى صانعة القرار).. هل طوّرت في الحضور العربي على أي صعيد كان؟ الإجابة على هذه الأسئلة ليست سهلةً ولا سريعة.. الإجابات تتطلب مزيداً من النقد الذاتي الخالص الواعي الملهم العلمي.. كي نجيب على الأسئلة نحتاج إلى البحث العلمي في النكبة يتناول مستوياتها الحديثة: المستوى الخارجي الدولي والمستوى الداخلي العربي والإسلامي.. وإلى بحث علمي فكري يتناول تراث النكبة الأدبي والدراسي. نحتاج أن نحول التساؤلات إلى مشروعات بحث دقيقة.

الهوامش

- ١- الموسوعة الفلسطينية، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية - دمشق - ط١ - ١٩٨٤ - مح ٢ ص ١٥٠ وما يليها.
- ٢- تولى قيادة قوات الجهاد المقدس عبد القادر الحسيني في منطقتي القدس والخليل خلال حرب ١٩٤٨.
- ٣- تولى قيادة وحدات جيش الإنقاذ العربي غير النظامية فوزي القاوقجي.. ويعتبر اشتراكه في ثورة فلسطين ومنذ وقت مبكر أول تدخل عربي غير رسمي لنصرة الفلسطينيين.. نظم القاوقجي تحركاته في المناطق الوسطى من فلسطين وقاد معارك عنيفة مع القوات البريطانية التي استخدمت المدفعية الثقيلة والطائرات والدبابات.
- ٤- أقيم ما بين سنتي ١٨٨٢ - ١٩٤٨ / ٣٠٠ / مستعمرة ريفية جماعية (كيبوتز وموشاف) وغير جماعية.. لكن هذه المستعمرات لم يسكنها اليهود المديون.. فهي لم تكن إلا كتكات استراتيجية عسكرية معظم سكانها كانوا من المنظمة العسكرية الصهيونية (الهاغاناه). واستخدمت المستعمرات كذلك لهدف بعيد هو ابتلاع أراضي فلسطينية جديدة لا تدخل في حدود الدولة اليهودية الواردة في قرار التقسيم.

٥- في تفاصيل ذلك: إن دافيد بن غوريون كان لما يزل بعد رئيساً للهيئة التنفيذية للوكالة اليهودية زار في سنة / ١٩٤٥ / الولايات المتحدة لشراء مصانع حربية بكامل عدتها.. وتم تهريبها إلى فلسطين تحت أعين الانتداب البريطاني.. كما تم تركيبها سرّاً في مناطق يهودية مزدحمة بالسكان.

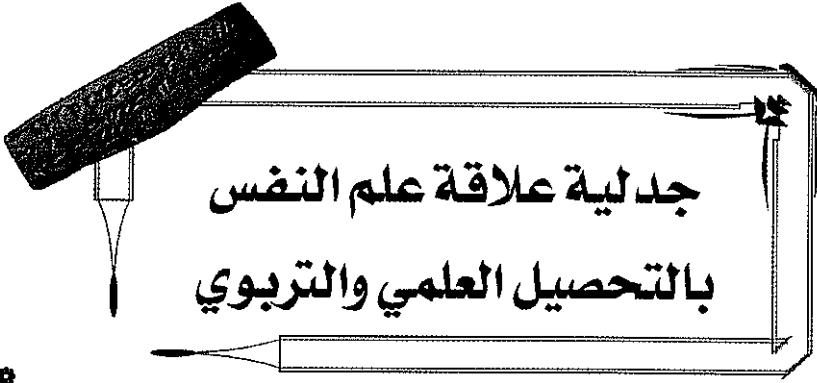
6 - P.J.Loufs, National Income of Palastine, 1944 (Jerusalem: Government Printer, 1946) p (48).

٧- بُعيد لحظة النكبة صدرت كتب ودراسات عربية، تناولت مستوى ما من مستويات النكبة، ما زالت تحتاج إلى إخضاعها لعمليات بحثية ونقدية استراتيجية.. وهذه بعض أهم العناوين التي (اختصت) ب النكبة:

- معنى النكبة، قسطنطين زريق. ١٩٤٨ - بيروت.
 - عبرة فلسطين، موسى العلمي. ١٩٤٩ - بيروت.
 - بعد النكبة، فدرى حافظ طوقان. ١٩٥٠ - بيروت.
 - من أثر النكبة، محمد عمر الخطيب. ١٩٥١ - دمشق.
 - حقائق عن قضية فلسطين، محمد أمين الحسيني. ١٩٥٤ - القاهرة.
 - النكبة، نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، عارف العارف. ١٩٥٦ - ١٩٦٤ - صيدا.
 - النكبة والبناء، وليد القمحاوي - ١٩٥٦ - بيروت.
 - ذكريات وعبر كارثة فلسطين وأثرها في الواقع العربي، محمد فاضل الجمالي - ١٩٦٥ - بيروت.
 - النقد الذاتي بعد الهزيمة، صادق جلال العظم. - ١٩٦٨ - بيروت.
 - من القعة إلى الهزيمة، أحمد الشقيري - ١٩٧١ - بيروت.
 - على طريق الهزيمة، أحمد الشقيري - ١٩٧٢ - بيروت.
 - الهزيمة الكبرى، أحمد الشقيري. ١٩٧٣ - بيروت.
 - التواطؤ الاستعماري مع إسرائيل، محمد حسنين هيكل - ١٩٦٧ - القاهرة.
 - أسرار ١٩٤٨، محمد فيصل عبد المنعم - ١٩٦٨ - القاهرة.
 - نحن وإسرائيل في معركة المصير، محمد فيصل عبد المنعم - ١٩٦٨ - القاهرة.
 - المعركة بين العرب وإسرائيل، المهدي بن بركة - ١٩٦٧ - القاهرة.
- ٨- الموسوعة الفلسطينية _ إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية - دمشق - ط١ - ١٩٨٤ - مج ٤ ص ٥٠٣ وما بعد.



الدراسات والبحوث



د. فايز حداد

يعد الأمريكي «لايتنر وبتمر» مؤسس علم النفس المدرسي.. بعد حصوله على الدكتوراه قام بإدارة مختبر نفساني، وقد استهل عمله بالتركيز على الأطفال الذين يعانون من صعوبات في التعلم، وفي عام ١٩٤٠ قام كل من العالمين الفرنسيين الفرد بينه وتوفاليل سايمون بوضع اختبار يهدف إلى التعرف على الأطفال ضعيفي التعلم، وقد تعزز دور علم النفس التربوي في الحياة بسبب إقبال عدة قطاعات حيوية على خدماته كمحاكم الأحداث والمدارس، وبخصوص هذه الأخيرة يمكن القول إن علم النفس التجريبي عمل على تزويد

* أديب وناقد سوري

العمل الفني، الفنان مطبع علي.

لنموذج حل المشكلة هي:

١- تحديد المشكلة وتعريفها: (*) إن الخطوة الأولى لحل المشكلة تكمن في مواجهة الفرد لها ومعرفة حدودها وحجمها.

٢- تحليل المشكلة: يقوم المدرس بتحليل العوامل المسببة لتلك المشكلة.

٣- تنفيذ الخطة: يقوم المدرس أو المرشد وأهما معاً بتقديم بعض الأفكار والحلول الكفيلة بتجاوز مضاعفات المشكلة.

٤- تقويم المشكلة: إن الفائدة من هذه المرحلة تتمثل في التأكد من نجاعة الوسائل المتبعة في حل المشاكل وتعديلها عند الضرورة حتى يتم التوصل إلى الحل.

أما نموذج (جتكن) فيتكون من سبع مراحل أساسية هي:

١- تحديد المشكلة وتعريفها.

٢- تحديد القوى والعوامل المتصلة بالمسألة.

٣- وضع استراتيجيات بديلة: المقصود بها هو إتاحة الفرصة للفرد كي يذكر كل ما يخطر على باله من أفكار وآراء تتعلق بموضوع الهدف، بهدف إثرائه والوصول إلى حلول فعالة.

٤- الاختيار بين مجموعة بدائل: يجب على المدرس أو المرشد أن يراعي أن التلميذ جزء من الفصل وجماعة الأصدقاء والأسرة والمجتمع والبيئة الطبيعية.

البيداغوجيا بالعديد من المفاهيم الشائعة حالياً مثل: الإحساس، الإدراك، الحاجات والدوافع، التذكر والنسيان، وتجدر الإشارة إلى أن علم النفس المدرسي يقوم على افتراض مضاده كلما «اكتشفت المشكلة بشكل أسرع سهلت معالجتها، وكلما كانت المعالجة قريبة زمنياً من حدوث المشكلة تكون فرصة نجاح المعالجة أفضل»^(١).

والمقصود بالمسألة: التفاوت بين مستوى أداء التلميذ ومستوى الأداء المنشود، وهناك من يعرفها بأنها تناقض ذو دلالة بين السلوك الملاحظ والسلوك المتوقع، ويتفق معظم رجال التربية على أن تحديد المشكلة بدقة وفعالية هو أول خطوة من شأنها المساهمة في حلها.

- ما هي العوامل المساهمة في حدوث المسألة؟

- كيف ترتبط هذه العوامل مع بعضها البعض؟

- ما هي السبل الكفيلة بحل المسألة؟
- هل المدرسة بمفردها قادرة على حل المسألة أم أنه يجب تضافر جهود الأسرة والمدرسة معاً؟

هناك عدة نماذج لحل المشكلة، وسنكتفي باستعراض نموذجين هما: (نموذج بيرجن Bergan)، ونموذج (جتكن Gutkin).
قدم بيرجن سنة ١٩٧٧ أربع مراحل أساسية

جدلية علاقة علم النفس بالتحصيل العلمي والتربوي

التي تفضي إلى الفشل في التربية، وهذا هو السبب في أن كل (بيداغوجيا) هي مراقبة من طرف ما سماه (جان شاطو) سنة ١٩٦٢ الإمبريالية البيداغوجية «إننا جد متلهفين إلى إزاحة كل سبب للفشل إلى درجة الإصرار على وضع الأطفال ليلاً ونهاراً تحت الرعاية من أجل وقياتهم من التأثيرات الأجنبية»^(٦). وسنتطرق الآن لبعض المشاكل التي تعترض سبيل التلميذ، والتي تعد في نفس الآن مجالاً خصباً لتدخل علم النفس المدرسي.

القلق والخوف من الامتحانات

يمكن التمييز بين نوعين من القلق:

١- القلق السوي: هو قلق عادي ومعقول، وهو نوع من الانفعال المصحوب بالحماسة والتفاؤل والرغبة الأكيدة في تحقيق النجاح، وبالتالي يمكن القول إن هذا النوع من القلق مستحب لأنه قد يساهم في تحقيق الأهداف المنشودة بكل ما فيها من إنجازات ومكتشفات ومخترعات وأنظمة وفلسفات وإبداعات فنية وليدة القلق ولكن القلق المتوسط القدر.^(٧)

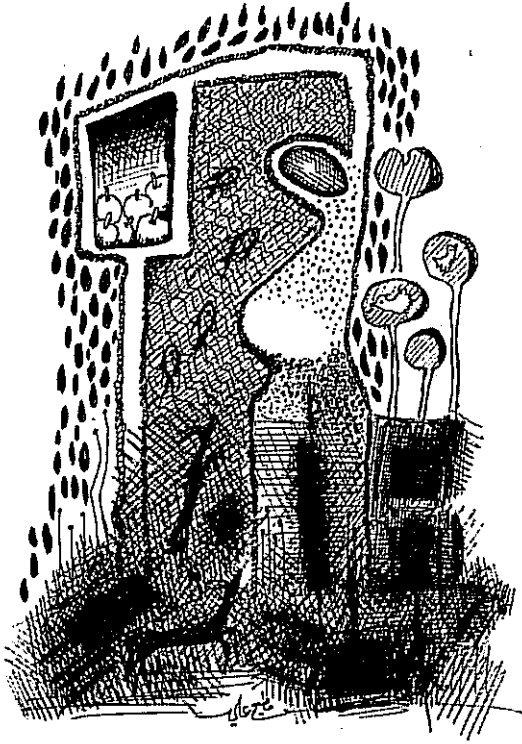
٢- القلق المرضي: هو عبارة عن شعور بخوف متوقع، غير محدد، لا يرتبط بشيء بعينه، ويعرفه (جالاتين) بأنه انفعال غير سار يصاحبه شعور دائم بالخوف علماً بأن مصادر هذا الأخير غير محددة، وقد يتزامن ذلك مع زيادة في ضربات القلب

٥- تحديد مسؤوليات المدرس أو المرشد والتلميذ: يجب مناقشة جميع جوانب المشكلة من خلال تضافر جهود كل من المدرس والمختص النفسي أو المرشد ومعرفة دور كل واحد منهما، ويجب مراعاة متى وأين وكيف تتم معالجة المشكلة، ما هو التوقيت المناسب للتدخل الفعال؟ هل ستحدث المعالجة في المنزل أو المدرسة أو هما معاً؟ ما هي السبل الكفيلة بتحقيق النجاح في المهمة المنشودة؟

٦- تنفيذ الاستراتيجية التي وقع عليها إجماع الفاعلين التربويين: يواجه المدرس أو المرشد عدة صعوبات سواء عندما يكون بصدد تجريب بعض الاستراتيجيات أو عندما تخيب آماله بسبب فشل الاستراتيجية المتبعة أو بسبب كون الوقت غير كاف لحل المشكلة، وهذا يقتضي نوعاً من التتبع المستمر بقصد تجاوز الثغرات والصعوبات الآتفة الذكر.

٧- تقويم فعالية الإجراءات والخطوات المتبعة في الاستراتيجية السابقة الذكر: إذا تأكد المدرس أو المرشد بأن الإجراءات التي قام بها قليلة الفعالية فإنه مطالب بتعديل الإجراء الذي لاحظ فيه خللاً أو تغييره جذرياً إذا اقتضى الأمر ذلك.

وتبغى الإشارة إلى أن رجال التربية حاولوا في كل العصور إقصاء الأسباب



والعرق والرعدة وصعوبة في التنفس. أما (انجلس) فيصف هذا النوع من القلق بأنه حالة انفعالية غير سارة، وتجدر الإشارة إلى أن سلوك الفرد الذي يعاني من القلق المرضي يتسم بالارتجال وكثرة الأخطاء لأنه يركز على قلقه محاولاً التغلب عليه والتخفيف من حدته عوض التركيز على السبب الذي كان وراء حدوثه، تبعاً لما سلف ذكره يمكن الجزم بأن التلميذ الذي يعاني من القلق الزائد عن الحد المعقول يخفق في استرجاع وتذكر المعلومات والمعارف السابقة، وقد لاحظ العديد من الباحثين

في شؤون التربية والبيداغوجيا بأن هناك عدة عوامل تكمن وراء شعور التلميذ بالقلق منها طول المقررات (المناهج)، الاكتظاظ، وضع استعمالات الزمن من خلال تصور إداري يراعي الإكراهات المادية والطاقة الاستيعابية لقاءات الدرس ولا يأخذ بعين الاعتبار الجوانب التربوية، عادات التلميذ السلبية أثناء مراجعة الدروس، وهي النقطة التي ستحظى بالتحليل الآن.

عادات التلميذ السلبية أثناء

مراجعة الدروس

الاستذكار أو المراجعة معناها ترسيخ المعارف والمعلومات في الذاكرة، وإن «من تمام ترسيخ المعلومات وبناء المفاهيم وتملك المتعلم لها، وتجذرها في مخيلته هو قدرة هذا الأخير على تعميمها، وعلى تطبيقها في وضعيات جديدة»⁽⁴⁾. والاستذكار يتأثر بعدة عوامل منها إحساس التلميذ بالتعب، انشغالاته، حبه أو نفوره مما يريد استذكاره، توفر الفضاء الذي يراجع فيه

جدلية علاقة علم النفس بالتحصيل العلمي والتربوي

الحررة طويلة المدى، كما تخضع المعلومات في الذاكرة طويلة المدى لعمليات بحث مهمة هي التي تحدد استرجاعها من هذا الخزان»^(١).

(ذاكرة حسية) الانتباه (ذاكرة قصيرة المدى) الإعادة (ذاكرة طويلة المدى) والتكرار

ويمكن إجمال العوامل التي تؤثر في الذاكرة في المراحل الثلاث التالية:

١- مرحلة الترميز أو الاكتساب: يجرى فيها اكتساب المعلومات الداخلة أولاً على شكل آثار حسية سمعية أو بصرية، ثم تعالج في وقت لاحق بدرجة أعلى من ذلك حيث تتحول إلى آثار على مستوى الذاكرة قصيرة المدى، أما إذا لم تكتسب فإنها تتعرض للتلاشي والاضمحلال.

٢- مرحلة الاحتفاظ أو التخزين: تعرف لوفتش هذه المرحلة بأنها الفترة الزمنية التي تتقضي بين الحدث وإعادة جمع أجزاء خاصة من المعلومات المتعلقة به، وهذه الفترة الزمنية بالغة الحساسية لأنه حالما يتم اكتساب المثير والحدث تشرع عدة عوامل في التأثير فيه أما فيما يتعلق بالنسيان، فهناك نوعان:

أ - التلاشي أو الذبول السلبي: يشمل هذا النوع من النسيان فترات قصيرة فقط،

الدروس على شروط صحية ونفسية مريحة، بعيدة عن كافة عناصر التشويش الداخلي والخارجي.. واستناداً إلى مقال مشهور نشر سنة ١٩٥٦ أشار George Miller إلى أن الذاكرة لا تحتفظ سوى بسبع وحدات تقريباً (أرقام، كلمات، أصوات..) خاصة إذا تعلق الأمر بكلمات شائعة، ففي تجربة أنجزت في أحد المختبرات وطبقت على ٢١٠ تلميذاً لوحظ بأن التذكر الفوري للائحة تتكون من ١٦ كلمة شائعة (كلب، وتد، شاحنة) كان هو ٦,٩١ أي ما بين ٦,٥ و٧ في المتوسط» هكذا وعلى الرغم من أن الذاكرة قصيرة المدى يمكننا من تخزين سبع كلمات فإننا سنعجز عن تذكر هذا العدد إذا تعلق الأمر بلغة أجنبية، إن تفسير هذه الظاهرة يتمثل في كون المعلومات الجديدة تتشكل من خلال حركة مستمرة (ذهاب وإياب) بين الذاكرة طويلة المدى حيث يتم استرجاع هذه المعلومات والذاكرة قصيرة المدى التي تجمعها في تنظيم أو ترتيب جديد. وتجدر الإشارة إلى أن العالمين أكتنسون وشفرن لاحظا بأن الانتباه L attention هو العملية المركزية الأولى التي تفرز انتقال المعلومات من الذاكرة الحسية إلى الذاكرة قصيرة المدى «أما عمليتا البحث والتكرار في الذاكرة قصيرة المدى، فهما اللتان تحددان انتقال هذه المعلومات إلى الذاكرة

وهو مرتبط بالذاكرة قصيرة المدى، ويحدث بسبب غياب الانتباه.

ب - التداخل الفعال: يمتد هذا النوع من النسيان ليشمل فترات زمنية طويلة، وبالتالي فهو يرتبط بالذاكرة طويلة المدى، وهو يحدث عندما تكون معلومات أخرى حدثت قبل أو بعد المعلومات المستهدفة المطلوبة التي تداخلت معها. وتجدر الإشارة إلى أن حفظ الذاكرة للمعلومات يكون أفضل حين يكون الفاصل الزمني بين الاكتساب والاسترجاع غير قصير.

ج - مرحلة الاسترجاع: يعرف الاسترجاع بأنه عملية يتذكر فيها الشخص ما احتفظ به من معلومات، وهو حصيلة التفاعل المعقد بين طريقة اكتساب المعلومات والسياق الذي يحدث فيه الاسترجاع، علماً بأن هذا الأخير يتضمن إشارات وتلميحات تعد بمثابة مثيرات تستدعي المعلومات، ويكون الاسترجاع جيداً أو سيئاً تبعاً للشروط التي يتم فيها. ويمكن إجمال عادات التلميذ السلبية فيما يلي:

- إهمال مراجعة الدروس باستمرار، الأمر الذي يؤدي إلى تراكمها، وبالتالي يحاول التلميذ مراجعتها دفعة واحدة في فترة وجيزة فيتعذر عليه الأمر بسبب النسيان والخلط.

- الاعتماد على الحفظ الآلي البعيد عن

الفهم الصحيح.

- استصغار شأن بعض المواد الدراسية وتأجيل مراجعتها إلى فترة وجيزة سابقة للامتحان بدعوى أنها ثانوية.

- الجنوح إلى القراءة المتسرعة والسطحية.

- عدم وضع جدول زمني فعال يجمع بين مراجعة الدروس وأخذ قسط من الراحة.

- تعاطي المنبهات والأقراص التي تسبب السهر وبالتالي تضر بالصحة.

وسأخصص ما تبقى من هذا العرض للحديث عن عوامل أخرى مؤثرة في التحصيل الدراسي وهي:

(النسيان، انعدام التحفيز، الانتباه، الرتبة واستعمال الزمن).

- النسيان: هناك نظريات كثيرة تفسر النسيان:

أ - نظرية التلاشي والضمور: ترى أن ذكرياتنا وخبراتنا تسجل في الدوائر الكهربائية والعصبية في المخ وأن هذه الآثار المسجلة تزول أو تتلاشى تدريجياً مع مرور الزمن وخصوصاً إذا لم تستعمل مراراً.

ب- نظرية التداخل: لوحظ أن الفرد إذا نام بعد تعلمه مادة فإنه سيتذكرها بطريقة أوضح وأفضل من تعلمها أثناء النهار دون الخلود للنوم، وقد علل العلماء ذلك بأن تداخل أوجه النشاط والتعلم أثناء النهار

جدلية علاقة علم النفس بالتحصيل العلمي والتربوي

إلى التسرع أثناء الشرح بسبب عدم تحضيره وتخطيطه للدرس بشكل جيد.

- غياب العلاقة الوجدانية بين التلميذ وما يدرسه أو يلحق له أي أن ما يدرسه التلميذ لا يثير اهتمامه.

انعدام التحفيز

هو حالة تتدنى فيها دوافع التعلم بحيث يفقد المتعلم الرغبة في التفاعل مع الدروس والارتقاء نحو الأحسن في مساره الدراسي الأمر الذي ينعكس سلباً على انتباهه واستيعابه الدروس. وبالتالي يفضي ذلك إلى الإخفاق. ومن خلال التجربة في مجال التدريس لاحظتُ بأن هناك عدة مؤشرات تدل على انعدام التحفيز عند التلاميذ منها: (كثرة الالتفات إلى الورا، عدم المشاركة في الأنشطة المبرمجة في المدرسة، عدم إحضار الكتاب المدرسي أو الدفتر، عدم إحضار القلم، النظر إلى الساعة باستمرار) الأمر الذي يوحي في عرف وتصور التلميذ، بأن الدرس طويل وممل، افتعال المشاكل مع الزملاء في المدرسة قصد التشويش على من يريد الاستفادة من الدروس، السخرية من بعض الأجوبة قصد حمل أصحابها على الامتناع مستقبلاً عن المشاركة في الأنشطة التعليمية والتعلمية تفادياً للإحراج. وإذا تدبرنا ملياً المؤشرات السابقة سيتضح لنا بأنها تقضي غالباً إلى تفشي الشغب

وكثرة الأعمال الحركية والذهنية يؤثر في عملية التدعيم وبالتالي يسهل نسيانها.

ج - نظرية الكبت: تستمد مرجعيتها من التحليل النفسي الذي يبين بأن الحوادث المرتبطة بخبرات وذكريات مؤلمة يتم نسيانها لتفادي القلق الناجم عن تذكرها، تبعاً لما سلف ذكره نلاحظ بأن النسيان عملية دفاعية لا شعورية تتيح الهروب من موقف يثير حالات وجدانية مؤلمة.

د - النظرية الجشتالطية: تؤكد هذه النظرية على دور التنظيم في تذكر المعلومات والمواد التي يتم تعلمها، وهذا يعني أن انعدام التنظيم يفضي إلى نسيانها وزوالها. ويمكن إجمال العوامل التي تؤدي إلى النسيان في النقاط التالية:

- التعب الناجم عن سوء تدبير زمن التعلم.

- لا مبالاة التلميذ وعدم اهتمامه بالتحصيل.

- كتابة المعلومات في الدفتر بشكل غير منتظم (انظر النظرية الجشتالطية التي تؤكد على دور التنظيم في تذكر المعلومات) والاقتصار على الكتابة بلون واحد الأمر الذي يحول دون تذكر الكلمات المفاتيح والجمل الرئيسية.

- غموض المادة العلمية وجنوح المدرس

المتعلم المتنوعة، ويمدى قوة العلاقة بين تلك الحاجات وموضوع التعلم»^(٧).
ذلك أن التلميذ يقبل فقط على تعلم الموضوعات التي تلبي حاجاته. ويمكن إجمال أهم سلوكيات الارتياح والمتعة التي تعكس وجود التحفيز في المؤشرات التالية:
- أن يبدي المتعلم إعجاباً واهتمامه بموضوع التعلم.

- أن تظهر على محياء مؤشرات الارتياح والانشرح أثناء التعلم.
- أن يتطوع للقيام بأنشطة مرتبطة بالتعلم دون أن ينتظر تعيين المدرس له شخصياً للقيام بذلك.
- أن يتقبل ملاحظات المدرس بصدق ورحب ويعمد إلى تصحيح الأخطاء.
- أن يستمر في القيام بأعمال وأنشطة إضافية كالمساهمة في العروض وطرح الأسئلة والبحث عن المعلومات والتحضير القبلي للدروس.

تشنت الانتباه

يمكن القول إن تدني الحوافز والدوافع يفضي إلى تشنت الانتباه، وهذا الأخير ينعكس سلباً على التحصيل الدراسي، وبالتالي قد يكون من الأسباب التي تقضي إلى الفشل المدرسي، ويعد الانتباه والتحفيز بمثابة شرطين أساسيين لإرساء دعائم الفترة الأولى من التعلم وفق أسس سليمة، ذلك أن توافر

الذي قد يتطور بدوره ويؤدي إلى ارتكاب العنف في حق أحد قطبي العملية التربوية أي المدرس أو التلميذ. وتجدر الإشارة إلى أنني لاحظت بأن بعض التلاميذ لا تبدو عليهم مؤشرات الارتياح والبهجة أو الاستياء والسخط عند حصولهم على علامات (نقط) جيدة أو متدنية، وبالتالي يمكن أن نستنتج بأن انعدام أو تدني تلك الانفعالات يندرج في إطار انعدام التحفيز، وهذا الأمر ليس هيناً لأن العديد من الفاعلين التربويين أكدوا على أن التحفيز يعد من أهم شروط الإقبال على التعلم. وتجدر الإشارة إلى أن هناك عدة تعاريف عنيت بالتحفيز، فهناك من يعتبره حالة داخلية تثير سلوك التلميذ وتوجهه صوب تحقيق هدف معين، وهناك من يتحدث عن إثارة خارجية تصدر عن محيط الفرد وتقود سلوكه وتوجهه نحو موضوع أو شيء معين والمقصود بالتحفيز مطالبة التلميذ بأن يهتم بموضوع معين لأنه كلما ارتفعت درجة الاهتمام، زاد الإقبال على هذا الموضوع واجتهد المتعلم في طلبه، وكلما ضعف هذا الاهتمام يتقلص ذلك الطلب، وسواء كان مصدر التحفيز داخلياً أو خارجياً، وسواء كانت درجته عالية أو منخفضة فإن عملية خلق حالة التحفيز ترتبط ارتباطاً قوياً بحاجات

جدلية علاقة علم النفس بالتحصيل العلمي والتربوي

المدرس أن يأخذ هذا المعطى بعين الاعتبار وأن يبتكر وسائل وتقنيات تمكنه من إثارة انتباه المتعلم، منها على سبيل المثال: التنوع في طرح أسئلة دقيقة ومثيرة من شأنها خلق ما يشبه الصدمة قصد إثارة تفكير التلميذ ورفع درجة التحدي لديه، تقديم الدرس تارة في قالب سردي تلقيني وتارة أخرى في قالب إشكالي حوارى، افتعال الاختلاف بين التلاميذ قصد دعم قدراتهم الحجاجية والإقناعية، ربط دروس المقرر (المنهاج) بمستجدات الواقع في أبعاده الاجتماعية والسياسية والفكرية.. تحسيس التلاميذ بين الفينة والأخرى بأن ما يقوله المدرس في لحظة معينة قد يطرح في أسئلة الامتحان، وهذا الأمر من شأنه أن يرفع درجة الانتباه ويقلص من الرتابة.

استعمال الزمن وتأثيره في التحصيل الدراسي

يلاحظ بأن المسؤولين عن قطاع التربية والتعليم في معظم الدول العربية لا يأخذون بعين الاعتبار هذا المعطى وهم يضعون استعمال الزمن (جدول الحصص)، فهم ينطلقون دائماً من وجود إكراهات مرتبطة بقلّة القاعات المخصصة للتدريس وكثرة التلاميذ وقلّة الأطر التعليمية في بعض مواد الدراسة الأمر الذي يقضي إلى عدم رضا قطبي العملية التعليمية والتعلمية

قدر أعلى من اليقظة والانتباه والرغبة في التعلم والتحصيل عند التلميذ يفضي إلى تخزين المعلومات في الذاكرة بشكل جيد والعكس صحيح. ومن خلال التجربة لوحظ بأن التلميذات أكثر انتبهاً للدرس وأكثر اندفاعية ورغبة في التحصيل من الذكور، وقد يكون ذلك راجعاً إلى عوامل نفسية واجتماعية تتمثل في حرص الأنثى على إثبات ذاتها ورد الاعتبار لكرامتها بحكم أنه جرت العادة أن تفضل الأسرة العربية الذكور على الإناث، إن انخراط الأنثى في هذا المسار الإيجابي كان له بالغ الأثر على النتائج التي حصلت عليها في السنوات الأخيرة والتي بينت تفوقها على زميلها الذكر. وتجدر الإشارة إلى أن هناك عدة تعاريف لمفهوم الانتباه منها: أنه تركيز للنشاط العقلي على موضوع أو مهمة ما، واختيار وتهيئ ذهني أو توجيه الشعور وتركيزه على شيء معين استعداداً لملاحظته أو التفكير فيه، علماً بأن ذلك يكون مصحوباً بانتقاء المعلومات وإقصاء آلاف المثيرات الأخرى.

الرتابة

إنها تؤثر سلباً على فعالية واستمرارية الانتباه فإذا طالت مدة الانتباه أكثر من عشرين دقيقة دون أن يحدث أي تنوع في الوضعية التعليمية التعلمية فإن مستوى الانتباه يضعف ويفتر، ولهذا يجب على

جدلية علاقة علم النفس بالتحصيل العلمي والتربوي

كان ٢٦,٠٦% أي إن التلاميذ يظنون بأنهم يحافظون فقط على ربع المعلومات التي درسوها في الموسم الدراسي الماضي، وهذه النسبة المثوية جد متفائلة خاصة إذا علمنا بأن استفسار التلاميذ عن المعلومات التي درسوها في السابق يوحي بأن النسبة المثوية الحقيقية أقل من تلك التي صرحوا بها.

إن أهم عيب يعاني منه تعليمنا في وطننا العربي هو تغليب الكم على الكيف وشحن أذهان التلاميذ بمعارف ومعلومات سرعان ما تتبخر عقب انتهائهم من إنجاز الامتحان، ولهذا يجب تفادي كثرة المعلومات أو المهارات التي نود تلقينها، ويجب الاهتمام بالاستعمال الفعال للمعلومات المكتسبة. كلما كان الدرس أو المقرر طويلاً كلما مال التلميذ إلى استظهار المعلومات بدون إعمال العقل والتفكير، وفي هذا الصدد يرى نيومان أننا نحصل على فائدة عظيمة إذا تناولنا مواضيع قليلة بعمق. وقبل أن نختم هذا العرض سأقدم للتلاميذ الأعزاء هذه النصائح والتوجيهات التي من شأنها مساعدتهم على الاستذكار أو المراجعة السليمة للدروس.

- ضرورة البدء بمراجعة الدروس منذ بداية السنة الدراسية بشكل يتيح استذكارها في فترات زمنية متباعدة بحيث يتم التعلم بشكل موزع وليس بشكل مكثف فهذا النوع

(المدرس والتلميذ) عن توقيت دراسة بعض المواد وبالتالي إحساس المدرسين والتلاميذ بالغبن.

لقد أجمعت العديد من الدراسات على عدم انتظام وثيرة الاستيعاب والتحصيل طيلة أيام الأسبوع نتيجة عدم مراعاة الضوابط التربوية السليمة لإيقاع استعمال الزمن، ذلك أن أحسن توقيت صالح للتعلم في اليوم يتمثل في الساعات الثلاث الممتدة من الثامنة صباحاً إلى الحادية عشرة صباحاً، أما في فترة ما بعد الزوال فإن التوقيت المناسب يتراوح بين الثالثة والخامسة مساءً. وهذا يعني أن الحصص التالية المعتمدة في الإعدادي والثانوي. (من ١١ صباحاً إلى ١٢ / - من الثانية زوالاً إلى الثالثة / - من الخامسة إلى السادسة مساءً كلها تدرج في إطار ما يصطلح عليه حالياً بهدر الزمن الدراسي. لقد تنبته بعض دول الشرق والخليج العربي منذ مدة زمنية طويلة إلى أهمية الاكتفاء بحصص الصباح لكن بعض المسؤولين عن قطاع التربية والتعليم مازالوا مصرين على ارتكاب هذا الخطأ الفادح الذي يستفحل بسبب إصرارهم على طول المقررات الدراسية.. فبعد تجميع المعطيات الخاصة بالسؤال التالي: كم في المئة تعتقد أنه يبقى في ذاكرتك من المعلومات التي درستها في العام الماضي: اتضح بأن المتوسط الحسابي

جدلية علاقة علم النفس بالتحصيل العلمي والتربوي

والصراع والقلق لأن من شأن هذه العوامل التأثير سلباً على ذهنك وتركيزك.

- تأجيل الانشغالات والمهام غير الضرورية إلى ما بعد الامتحان.

- يجب عليك أن تتفادى السهر والاستعانة بالمنبهات كالشاي أو القهوة أو الأدوية التي تفضي إلى الأرق لأن هذا الأخير يؤدي إلى الاستيقاظ العسير وبالتالي الإحساس بالإرهاق العصبي الذي ينعكس سلباً على صحتك.

- ينبغي أن يتخلل أوقات مراجعة الدروس فترات من الراحة والاسترخاء قصد تجديد حيويتك ونشاطك لكن يجب عليك ألا تمكث كثيراً أمام شاشة التلفاز حتى لا تهمل دروسك، وفي هذا الصدد ذهب فرماي إلى أن قدرة الأطفال على الانتباه في الفصل الدراسي تبدأ في التناقص بسرعة بعد أربعين دقيقة في حين يستطيعون المحافظة على الانتباه ساعات طويلة أمام التلفاز. وقد تأكد لي هذا الأمر في البحث الأنف الذكر، قيد الإنجاز، عندما تضمنت الاستمارة التي وزعتها على تلاميذي السؤالين التاليين: كم ساعة تخصصها يومياً في المتوسط لمراجعة دروسك في الأيام العادية؟

- حدد كم ساعة تقضيها أمام شاشة التلفاز: فقد بلغ المتوسط الحسابي في الحالة الأولى ٦٤,٢٠س وبلغ في الحالة

من التعلم يزيد من معدل التذكر، علماً بأن قراءة الدرس أو المادة الدراسية مرة واحدة في اليوم طيلة خمسة أيام مثلاً يعطي احتفاظاً في الذاكرة يعادل ثلاثة أضعاف ما قدمته قراءتها خمس مرات متتالية في اليوم.

- اعتبار جميع المواد الدراسية مهمة، بمعنى أن التلميذ مطالب بتسطير جدول زمني يمكنه من إيلائها ما تستحقه من اهتمام حتى لا يكون انشغاله بمواد معينة على حساب أخرى، علماً بأن تفوقه في المواد الثانوية، إلى جانب الرئيسية، قد يكون حاسماً في حصوله على علامات تمكنه من تحقيق أحلامه، وفي المقابل يمكن القول إن تفوقه في المواد التي يعتبرها ثانوية قد تمكنه من النجاح وإنقاذ الموسم الدراسي إذا كان الأداء في المواد المهمة متوسطاً أو ضعيفاً.

- ضرورة الابتعاد عن القراءة المتسرفة، السطحية والجنوح إلى القراءة الفاحصة.

- ابدأ بمراجعة المواد السهلة أو تلك التي تعجبك وتثير فضولك حتى تفتح شهيتك لباقي المواد.

- ناقش ما راجعته مع زملائك وأساتذتك لأن الحوار والمناقشة يساهمان في ترسيخ المعارف في الذاكرة ويمكنناك من تصحيح معلومات لم تستوعبها في السابق.

- ابتعد قدر المستطاع عن التوتر

جدلية علاقة علم النفس بالتحصيل العلمي والتربوي

إلى المزج بين القراءة والخراائط والتلخيص وتقنية أخذ النقط التي (تساعد على تخزين المعلومات في الذاكرة.. تسهل التركيز وتثمي القدرات الفكرية كالفهم أو الحكم).

وبما أن ما يقدمه المدرس في المدرسة يعتمد على المزج بين إملاء المعلومات على التلاميذ أو كتابتها على السبورة من جهة، وشرحها (الجانب الشفهي) من جهة ثانية، فإن التلميذ مطالب باستيعاب تقنية أخذ النقط علماً بأنها يمكن أن تفيده أيضاً في الندوات والمحاضرات والعروض الشفوية.

الثانية ٣٠، ٣١، وهذا يعني أن التلاميذ يمكنون أمام جهاز التلفاز وقتاً أطول من ذلك الذي يقضونه في مراجعة الدروس..

- حاول أن تخلق في نفسك حافظاً قوياً يجعلك تُقبل على مراجعة الدروس بحماس مستحضراً إبان ذلك طموحات شخصية أو الرغبة في إسعاد أسرتك وإنقاذها من المشاكل التي تتخبط فيها، علماً بأن التوسل بأحلام اليقظة بقدر معقول يمكن أن يساهم في تحقيق الأهداف المنشودة.

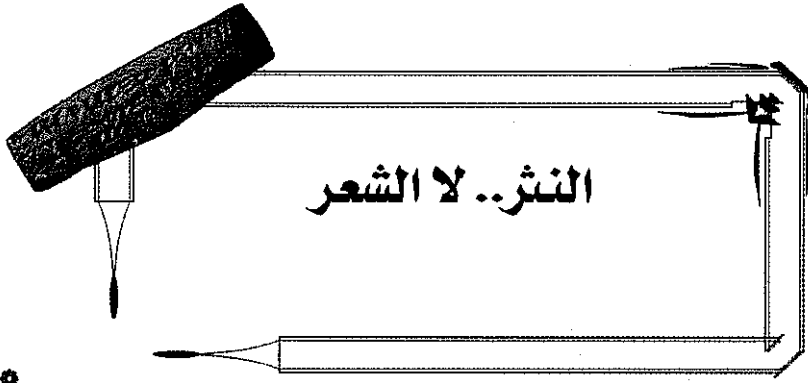
- يستحب أن تعتمد أثناء مراجعة دروسك

المراجع

- ١- علم النفس المدرسي - د. نايفة قطامي، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الثانية، ١٩٩٩، ص ٢٨.
- ٢- لغة التربية، تحليل الخطاب البيداغوجي، أوليفييه روبول، ترجمة عمر أوكان أفريقييا الشرق- المغرب ٢٠٠٢، ص ١٨٥.
- ٣- علم النفس التعليمي، د. عبد الرحمن العيسوي، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠١، ص ٥١.
- ٤- مجلة علوم التربية، دورية مغربية نصف سنوية، المجلد الثالث، العدد الحادي والعشرون، تشرين الأول ٢٠٠١، ص ٦٩.
- ٥- مرجع سابق.
- ٦- سيكولوجية الذاكرة، قضايا واتجاهات حديثة، تأليف د. محمد قاسم عبد الله، عالم المعرفة، عدد ٢٩ شباط ٢٠٠٣، ص ٣٥.
- ٧- التعلم والاكتساب- سيكولوجية التربية، مجلة سيكوتربوية، ٢٠٠٠-٢٠٠١، ص ١٤.



الدراسات والبحوث



* د. صلاح الدين يونس

في اللحظة التي وطنت فيها العزم على وضع النثر أمام الشعر.. كنت أعلم أنّ في هذا مغامرة من نوع خاص، وكنت على علم تشاطره الخطورة موقعه. إنّ هذه اللغة. لغة العرب لا غيرها «على الأدعاء العربي».. لغة شعر، وإنه «الشعر» مرادف للعربي ولعربيته ولتاريخه وتاريخيته.. أو يكاد يكون.. فإذا ما وجّهنا السياق - كتأريخ.. كتنقد.. كمراجعة.. نكون قد وضعنا «السياق» ذاك في مواجهة المؤلف.. والمألوف على تراكماته - يلبس ثوب «الفضيلة» التي تتجاوز حدّ الفضائل ثمّ لتغدو - على التراكم أيضاً - ميتافيزيقا من

* أديب وتلقّد سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمله.

كوسيلة لإثبات الذات النوعية - حينها وإلى مفاوضة الآخر - والشعر هنا رصيد لا كبقية الأرصد.. وهو أيضاً أداة استعمالية تستجيب لنداء الموقف.. ويتابع (بروكلمان) قوله - بعد أن ذكر كيف وصل (حسان بن ثابت) إلى «مايكرفون الدعوة المحمدية».. «وأكثر شعر حسان بن ثابت قريب الألفاظ إلى حدّ الابتذال، ولا يصل إلى مستوى جد رفيع، وإنما يرجع فضل انتشاره والتعلق به في الأزمنة المتأخرة، إلى غرضه العظيم الأهمية وهو مدح النبي»^(٢)

بناءً على هذا - وهذا عندي في مكانه - فإن الشعرية هنا لم تكن شعراً فنياً.. موهبة بالقدر الذي كانت فيه موقفاً سياسياً عمل على التعامل مع الأنداد والخصوم والحلفاء بالمستوى نفسه، باللغة نفسها.. بل بالعقلية نفسها.. الشعرية تلك هي أسلوبية سياسته باللغة السائدة.. وإن شئت على الأخص الأدق، قلت: إنها أيديولوجية ذلك الجنس «من اللغة» وهي تصل بين مرحلتين: مرحلة الفضاء القبلي المألوف، والشعر فيه هو السيد السائد، وبين المرحلة الجديدة «الدعوة» القائمة على الإزاحة والإلغاء والسيد السائد هو النثر.. لكن الشعر الذي سمح له النبي^(ص) بالظهور والمهاجاة مع قريش على السنة حسان بن ثابت، وكعب

نوع خاص، وما إن تتوضع تلك الميتافيزيقا في أبنية «الشعرية» حتى تعيش مع أصحاب اللغة انبهارهم بذواتهم الماضية الحية الحاضرة.. على مستويات الدلالة بين التاريخية منها والدلالية والاشتقاقية.. فإذا تم لها ذلك واجهت فريقاً آخر من أبناء «اليوم» اليوم الذي يوثق الغد.. ويفضله على ذاته.. لتعيش معهم من جديد «خرافة الميتافيزيقا».. وأية خرافة لا يمكن لها أن تكون - وحدها - تاريخاً.. وهنا تحدث الصدمة أو المصادمة بين «مألوف» متوضع.. وبين طارئ يحمل في داخله ضحىً جديداً.. هذا الضحى يصدم الحساسيات المألوفة لتبدو القنوات الجديدة حاملة بالانتقال من طور «الطارئ» الدخيل إلى «العضوي» المنتظم.. الحالم بتأسيس «بنى» بناء «هو» من دون أن تصاحبه «خرافة» جديدة..

لقد وقفت - بتأمل وحيرة - أمام مقولة المستشرق (بروكلمان): «حقاً كان الرسول شديد الكراهية للشعر والشعراء، ولكنه كان محتاجاً إلى شاعر يجيب على شعراء وفود القبائل التي كانت تفسد كثيراً على» المدينة «معلنة دخول قبائلها في الإسلام»^(١).

فالخطاب السياسي الذي أتبعه «الرسول (ص)» كان من طبيعة تلك الوفود، فهي طبيعة شعرية.. وأنها تلجأ إلى صناعة الشعر

ابن مالك، وعبد الله بن رواحة، كان خطوة واحدة وحيدة.. لا تتبعها خطوات، فما إن انتزع النبي (ص) الاعتراف من الخصوم حتى بدأ يتلو عليهم ما «أوحى له به».. وما «أوحى به» ليس بشعر وليس بنثر، لكنه، بإزاحته للشعر - أفضى بالضوء الأخضر للجديد أن يتقدم..

للشعر وظيفة لا تفارقه هي «الهيمنة» فإما أن يهيمن أو.. يتخفى.. و«هنا» فضاءات أخصّ بل أفضّل.. أولها.. الفضاء «الإعلامي».. والإعلامي موقف متورط مع صاحب المؤسسة.. ومن هنا «وما تزال» هنا «قائمة» كانت قصيدة المديح التي أسست لغير ظاهرة.. منها الصحافة السلطوية اليوم.. سواء بشكلها المكتوب أم بشكلها المرئي المسموع.. وفي ذلك التأسيس فارق الشعر «الأدبية» لصالح «السلطوية» وعلى الأخص في شكلها الفردي.. نقول فارق الشعر «الأدبية» لتفقد الشعرية جماليتها.. ليس جمالية اللغة وإنما الجمالية القادمة من تضايف «اللغوي» مع «المعري».. بل تم فك الارتباط بين الطرفين عند العرب على التعميم رغم صعوبته ومحاذيره إلا في «الشعر الوجداني».. غادرت الشعرية العربية منذ حسان بن ثابت الجاهلي الإسلامي إلى سليمان العيسى، الجامع بين «الجاهلي»

و«الإسلامي» السياسي طبعاً.. كما غادر النثر النقدي من «الدينوري» العباسي إلى «شوقي ضيف» المصري مشروعه، وضيف فارق المشروع العقلاني لـ «طه حسين» ليكون صورة جديدة، بل نسخة معاصرة عن المحتضرات في عصرها.. غادر هذا أو ذلك ليؤسس جماليات «السلطة» ويقصي جماليات «المعرفة» ومصنفة «تاريخ الأدب العربي» تاريخ معاصر بفعل تراثي، لكنه صار أقدم منه، وإن أردت القول: «كأن أبا العباس السفاح وأخاه أبا جعفر المنصور وحفيدهما المتوكل قد كلفوا شوقياً بن ضيف التأريخ لهم، بل إحضارهم أمام الناشئة بما يحلمون».. نعني دولة الخلافة.. وأشكالها الجديدة المتجلية في الأمصار المعاصرة وقد فرضت هجرة المصطلح، فرضته على ذاته أولاً، وفرضته على سياقه الاجتماعي ثانياً وفصلته عن سياقه الثقافي ثالثاً.. ومع الفرض كانت ثقافة أخرى.. أنتجها العقل السلطوي على مدى أربعة عشر قرناً. أنتجها بالشعر.. الحدث الشعري.. آل به الشاعر «إعلامي» الخليفة إلى حدث غير شعري.. إلى حدث سياسي لاحق، بل إعلامي ناطق باسم الحدث السياسي.. مفارقاً بـ «إيالاته» تلك ما يعرف اليوم بـ «شعرية الشعر»..

استفراق «الشعر» في العصر الحاضر

للشعر وظيفة لا تفارقه هي «الهيمنة» فإما أن يهيمن أو.. يتخفى.. و«هنا» فضاءات أخصّ بل أفضّل.. أولها.. الفضاء «الإعلامي».. والإعلامي موقف متورط مع صاحب المؤسسة.. ومن هنا «وما تزال» هنا «قائمة» كانت قصيدة المديح التي أسست لغير ظاهرة.. منها الصحافة السلطوية اليوم.. سواء بشكلها المكتوب أم بشكلها المرئي المسموع.. وفي ذلك التأسيس فارق الشعر «الأدبية» لصالح «السلطوية» وعلى الأخص في شكلها الفردي.. نقول فارق الشعر «الأدبية» لتفقد الشعرية جماليتها.. ليس جمالية اللغة وإنما الجمالية القادمة من تضايف «اللغوي» مع «المعري».. بل تم فك الارتباط بين الطرفين عند العرب على التعميم رغم صعوبته ومحاذيره إلا في «الشعر الوجداني».. غادرت الشعرية العربية منذ حسان بن ثابت الجاهلي الإسلامي إلى سليمان العيسى، الجامع بين «الجاهلي»

للشعر وظيفة لا تفارقه هي «الهيمنة» فإما أن يهيمن أو.. يتخفى.. و«هنا» فضاءات أخصّ بل أفضّل.. أولها.. الفضاء «الإعلامي».. والإعلامي موقف متورط مع صاحب المؤسسة.. ومن هنا «وما تزال» هنا «قائمة» كانت قصيدة المديح التي أسست لغير ظاهرة.. منها الصحافة السلطوية اليوم.. سواء بشكلها المكتوب أم بشكلها المرئي المسموع.. وفي ذلك التأسيس فارق الشعر «الأدبية» لصالح «السلطوية» وعلى الأخص في شكلها الفردي.. نقول فارق الشعر «الأدبية» لتفقد الشعرية جماليتها.. ليس جمالية اللغة وإنما الجمالية القادمة من تضايف «اللغوي» مع «المعري».. بل تم فك الارتباط بين الطرفين عند العرب على التعميم رغم صعوبته ومحاذيره إلا في «الشعر الوجداني».. غادرت الشعرية العربية منذ حسان بن ثابت الجاهلي الإسلامي إلى سليمان العيسى، الجامع بين «الجاهلي»



تخييلاً كما كان لشاعر تلك المراحل أن يتخيل، فإن الشاعر الإحيائي ومن تلاه.. بنى «شعريته» تخيلاً لاستعادة العصر والشاعر.. أما هو فظل خارج الشعرية.. لم تكن - بالمقابل - ولادة النثر باليسيرة.. وذلك لارتباط النثر بتأسيس الدولة.. وإقالة «الشاعر» من عقلية الدولة.. فتدعيم مواقع النثر إنما تعني إضعاف مواقع الشعر، بل تعني إضعاف الاستعمال والاعتماد عليه.. فالنثر وأساليبه لا يتم توريثهما بيولوجياً، إنما يتم التأسيس لهما عبر مشروع الدولة وعبر مشروع ثقافة الدولة.. وهذا يعني أمراً آخرأً إضافياً هو إلغاء الخبرات التي راكمها الشعر والتأسيس لخبرات جديدة، أي الإلفة مع إعادة بناء تامة لتكوين المعلومات،

على أنغام «النهضة»، بل على الأدق على أوهام النهضة.. وما استفاقته إلا إفاقة.. وقد أفاق معه «النظم» نظم الاستعادة.. استعادة الأزمنة الأولى أزمنة الـ «غير» لأزمنة «الذات».. ولم يكن النظم نعني به حصراً «الإحياء» صورة ذاته.. إنما كان صورة جامدة داخل ذلك التاريخ.. وما قوي على أن يكون «الحركة» الواعية.. النافذة في داخلية «الصياغة».. أو البناء الأدبي.. الناقد من جيل النهضة - هو شاعر بشكل آخر.. المعتمد عنده صناعة اللغة وإجراؤها وفق الوزن المستسخ والقافية «المتحملة».

فإذا كان الشعر في نسخته الأولى «العصر البطولي» ثم عصر دولة الخلافة وامتداداتها

النثر.. لا الشعر

افتراق الشعر مع السلطة وعلامة اتّفاق
النثر «الفكر» مع النزعة الفردية..

وفي القرن الرابع عشر كان (ابن خلدون)
- بتقدمه الفردي - يعني الشعر والسلطة
معاً، محاولاً تأسيس فلسفة للتاريخ - و«كان»
هنا لا تفيد التشبيه - الرجل يعترف بأنّ ما
عند العرب لم يقارب التاريخ ولا الفلسفة،
فكيف عند التضاييف بينهما ؟ وفي هذا
يتّهم (أرنيسست رينان ١٨٢٣-١٨٩٢) العرق
السامي بالبعد عن الفلسفة، ففي كتابه «ابن
رشد والرشدية» ١٨٥٢ : ينفي الفلسفة عن
النشوء أو التطور في الشرق:

«ليس العرق السامي هو ما ينبغي أن
نطالبه بدروس في الفلسفة، ومن غرائب
النصيب ألاّ ينتج هذا العرق الذي استطاع
أن يطبع على بدائعه الدينية أسمى سمات
القوة، أقلّ ما يكون من بواكير خاصة به في
حقل الفلسفة، ولم تكن الفلسفة غير استعارة
خارجية صرفة خالية من كثير خصب، غير
اقتداء بالفلسفة اليونانية»^(٤).

من الواضح أنّ البعد الاستشراقي
يفرض على (رينان) هذا الرأي الذي يؤيده
دعاة الاستشراق عند العرب، ويرفضه
أصحاب الرأي الثاني القائم على تأصيل
الدرس الفلسفي العربي في إثر مشروع
الترجمة للمأمون «١٩٧- ٢١٧ هـ... ابن

والشعر أداة «الثقافية» التي تمّ ابتناؤها
بوساطة اللغة.. من جهة أخرى تعني قطع
الأواصر مع الماضي بل مع التاريخ.. لكن
القطع ذلك.. كان قطعاً يقوم على الوصل..
انتشرت العربية في أرجاء دولة الخلافة
وقد أقصت من طريقها لهجات القبائل
ولغات الأعراق الأضعف.. وبالنتيجة تغيرت
الخريطة اللغوية لما يعرف بالشرق الأدنى،
وشمال أفريقيا وبعض من جنوب أوروبا وما
وراء القفقاس وآسيا الوسطى^(٣).

كان الانتشار مهماً.. حشدت الأطراف
من خلاله حشودها في وجه المركز.. فكان
المركز مضطراً ليعلن قبوله بالواقع الجديد..
«لم يعد الشعر وحده كافياً»..

تنفّس النثر - كما يقال - الصعداء..
عندما ضعف السلطان المركزي في بغداد،
وآل الأمر إلى أمراء «الأطراف» وتجلّى النثر
على صورة أعمق وأشمل عندما ضعف
سلطان الأندلس المركزي، فرأينا فلاسفة
الأندلس (ابن باجه، ابن حزم) لتبلغ الفلسفة
العربية الإسلامية شأوها على يد (ابن رشد)
ت ١١٩٨، بل تبلغ شأوها المتجاوز الحدود
العربية الجغرافية والسياسية والثقافية..
ومن قبلهم علماء القرن الهجري الرابع..
وكان (المعري) الملتقى الإجباري لتقدّم النثر
والشعر في نقطة واحدة.. فالمعري علامة

النثر.. لا الشعر

إنجازها.. أو التي حدثت نتيجة مشروع سابق في العوالم المتحضرة.. والمهمة عند «النخبوي» لا «الاستعلائي» أن يُقنع أبناء لغته أن النمط الغربي - أوروبية - أمريكا - ليس ممراً إجبارياً، إنما هو مشروع ذو أبنية من داخل التاريخ يمكن أن تتلاقى أبنيته تلك مع أبنيتنا السياسية أو الثقافية.. من دون أن يقع الناخب العربي في الانبهار المعاكس أو في تأنيب الذات وإخراجها من التاريخ، كما فعل (محمد عابد الجابري) في «تكوين العقل»:

«اللغة العربية تبني على خاصيتين اثنتين هما: لا تاريخيتها وطبيعتها الحسية، وأنها - بناء على ذلك - لا تتوفر على الأدوات والآليات الضرورية للتفكير، ومن ثم فهي ليست لغة ثقافة وفكر...»⁽⁵⁾

ففي القرن السابع عشر يشهد الفكر الغربي الأوروبي اتجاهاً عقلياً أسس ذاته وأفاقه على قيام «العقل» الناقد بمهمة جليلة هي تفكيك التراث اليوناني الروماني - على أنه مرجعية الأوروبيين المقدسة - فقد أزيلت القداسة وصار «المقدس» تاريخاً.. ومع التاريخ يصبح كل شيء ممكناً.. هذه البنية - الاتجاه العقلي - كان يمكن نقلها - كمنهج - إلى تراثنا القديم.. وما يزال «الممكن» ممكناً، وقد نهض به، أو بدأت بالنهوض نخب المشرق والمغرب..

خلدون.. وقد قام بمشروعه ليغدو المصطلح السياسي - فيما بعد ابن خلدون - فائضاً على الحاجة، في إثر دخول العرب كافة، كدويلات، كثقافة في الأنفاق المظلمة.. فالقرون الميلادية منذ الخامس عشر إلى نهاية الثامن عشر.. يغيب العرب عن التاريخ ليحلحوا بالماليك والعثمانيين وليعيشوا متعة الاستبداد المزدوج.. استبداد الخارج للداخل، واستبداد الإرث السياسي والفقهي، وهو يغشاهم ببريقه ويقدم لهم متعة «النحو والصرف والبلاغة».. متعة التركيز حول النجاحات الأولى.. بل متعة التقاعد عن الاستمرار أو البحث عن الإبداع الآخر، وقد استعاد مفكرو النهضة العرب المتون الأولى.. بل المصطلحات الأولى «وكانها سقطت من الأعلى» فوق التاريخ وخارج الأرض..

إن النهضة 1795-1948 - على تقديرنا - لم تبدأ إلا عندما بدأت عمليات الانتقاد، وتلك العمليات لن تحقق «نهضة» حقيقية إلا عندما تغدو العمليات مشروعاً ليس للنخب الماركسية في المشرق أو البنيوية في المغرب، إنما مشروع لأمة ودول.. مستلهمة عصر النهضة الأوروبية واليابانية.. فمن أولويات «النخبوي» لا «الشاعر» أن ينقل إلى لغته، إلى حضارته، إلى رصيده أمته. أهم المتغيرات والمتحولات الفكرية التي تم

ومن سمات الفكر الفلسفي للقرن السابع عشر.. وعلى رأسه (اسبينوزا ١٦٣٢-١٦٧٧) أنه لم ينجز حقيقة مطلقة، بل قال نصفها، وترك النصف الباقي لاحتمالات التطور أو لتاريخ الفكر، فالانقلاب على الفكر وصاحبه من سمات التاريخ والفكر نفسه، فقد أقام (هيجل ١٨٣١-١٧٧٠) فكره على (كانط ١٧٢٤-١٨٠٤)، وأقام (ماركس) فكره على (هيجل)، وأقام (لينين) على (ماركس).. والقرن الثامن عشر أقام فلسفته على فلسفة القرن السابع عشر.. وعلى الرغم من القفزات العلمية للقرن المذكور إلا أنه كان مهماً على المستوى التاريخي، يقول المفكر (طيب تيزيني): «كان القرن التاسع عشر حاسماً على صعيد البحث التاريخي، بل لعلنا نرى أهم الكشوف أو واحداً من أهم الكشوف.. تمثل في» المنهج التاريخي «فلقد نيطت بهذا المنهج مهمة تفكيك التاريخ وتحليله، وذلك عبر تناول النظم السياسية والاقتصادية والسوسيوثقافية القائمة آنذاك، ومن ثم إذا كانت هذه البنى خاضعة للتحول التاريخي والتجاوز من موضع بني أخرى قد تكون أكثر تقدماً، وقد اقترن ذلك المنهج بتصاعد وتأثر التفاؤل.. وكان من شأن ذلك أن اتجه علماء وباحثون إلى مواضيع علومهم وأنساقهم المعرفية في ضوء

مفهومي «التحول» و«النسبي» وكان الفضل الحاسم بما أنجزه (هيجل وماركس).^(١)

وإذا كان القرن الثامن عشر - كما رأى المفكر (تيزيني) - حاسماً على صعيد النقد العلمي - فإن القرن السابق عليه أسس لمشروع النقد الفلسفي، وما كان له - القرن التاسع عشر - أن يفيد من نجاحات العلم التجريبي - وخاصة على مستوى نقل البنية - لولا النقد الفلسفي الذي تقدم عليه.. وخاصة نقد (اسبينوزا) للأهوت اليهودي ثم المسيحي، وليس ادعاءً ندّعيه أن (اسبينوزا ١٦٣٢-١٦٧٧) أقاد من مشروع (ابن رشد) وعلى الأدق في مقولة «ثنائية الحقيقة»، ويبدو أن (موسى بن ميمون) كان الوسيلة بين الفيلسوفين رغم بعد المسافة.. ولكن الذي قرّب المسافة هو القضايا المشتركة بين الفلسفة العربية الإسلامية في طورها العقلاني النقدي - ابن رشد - وبين الفلسفة الأوروبية وهي تعيد تأسيس ذاتها في طور عقلاني يقوم على المراجعة والشك - اسبينوزا - وهنا تفرض الحلول المنبثقة من صميم الأبنية المتشابهة رؤى متشابهة، بل حلولاً تكاد تكون متشابهة، بل تفرض غير مدخل للحل.

لم يكن الفيلسوف (ابن رشد) و(اسبينوزا) بشاعرين.. لكنهما أسسا «شعرية» من نوع

فوكنر، DH لورنس، ديفيد ثورو» بدؤوا شعراء غير موفقين وباعتراقاتهم، لكنهم عندما كتبوا الرواية أبدعوا فيها، وبعد ذلك عادوا ليكتبوا شعراً موفقاً أكمل مروعهم في الرواية، ويعود سبب ذلك إلى أن حرية الشكل في الرواية قد حررتهم من جبرية الشكل الشعري في الطور الأول.

وعلى المستوى العربي.. بدأت الهموم، بل المؤشرات على إعادة هيكلة المجتمعات العربية في الأمصار الجديدة، أو الولايات القديمة.. وقد بدأت عملية إعادة من مواقع غير مفكر بها سابقاً، أي على خلاف جوهرى مع «شعرية» الإحياء التي رأت أن عملية الاستعادة، استعادة الزمن الجاهلي وتجلياته في الأطوار التالية له.. هي نهاية المطاف، أي حضور التراث وغياب الحاضر، بل حضور البادية وغياب المدينة..

وهنا يحضرني قول الإيطالي ماريو ألبرتيني في كتابه معنى الأمة: «من المدنية الدولة POLIS أتت السياسة، وهي في يومنا هذا ذات صلة بشكل رئيسي بوصفها علم السلطة وقتها وعقدة في العلاقات بين الحاكمين والمحكومين بالأمة الدولة، أو بشكل آخر أكثر استعمالاً بالدولة الأمة.. وهكذا تبدو اللغة المعاصرة وكأنها تطرح - كمسألة - تطابق فكرة الدولة وفكرة الأمة» (A).

خاص.. إنها شعرية «الحرية»، بل حرية الإنسان المفكر بعد طول جهاد مع الطبيعة أرضاً وسماءً، ومع «الإنسان» الآخر إنسان الملكية.. وكان الجهاد بحثاً عن حق طبيعي بل فطري، ومن هنا تدخل (روسو 1712-1778) قائلاً: «مبادئ الحق الطبيعي للبشر لا يمكن استنتاجها إلا من الطبيعة البشرية.. إن تطوّر المجتمعات قد سار في اتجاه تعميق اللامساواة بين البشر بنوعيتها: الفيزيائي والاجتماعي منذ ظهور الملكية، بحيث توسّعت الفوارق بينهم وساد فكر الطبيعة البشرية» (V).

إن «الشعرية» الجديدة لفلاسفة القرون الغربية الأخيرة فتحت آفاقاً للكتابة لم يعرفها تاريخ الآداب عند أمم أخرى، فإذا كانت الثورة الصناعية حدثاً تجريبياً علمياً، فإنه أفضى بإضاعات على المستويات كلها ليتقدم النثر بأشكاله الجديدة.. وأهمها «الرواية» التي أفصحت عن قضيتين: الأولى هي عمق الشعر، بل انسداد آفاقه في عصر أغنت الصناعة فيه الإنسان عن المجاز، والثانية أن العالم الجديد، الطبقات الجديدة، المعرفة الجديدة، التصور الجديد للكون.. لم يعد الشعر ساحته ولم يعد قادراً على تغطية مساحاته.. فكبار كتاب الأدب الأنجلوسكسوني «توماس هاردي، ولیم

وفيهما أنشأ فكرياً مديناً حديثاً، انطلق من حيث توقف الشعر، توقف عند «التاريخ» المتوقف، فكان مشغولاً بنفسه، كيف ينتظم وظيفياً في بنية الإنجازات الأولى التي رآها، بل رؤوها، ونعني شعراء «الإحياء» نهائية «فمن تجاوز فهو من أهل الجاهلية»، وعلى الرغم من الانبهار لدى الذائقة العامة بالشعر، إلا أن النثر جاء معترضاً طالما كان الشعر موافقاً متصلحاً.. فالشعر منسجم مع الطبيعة الفطرية، أما النثر فهو مؤشر على تقدم الذهن البشرية وتجاوزاتها لطبائها الأولى، فـ (جان جاك روسو ١٧١٢-١٧٧٨) يرى أن: «التقدم في مجال الفنون والآداب مؤشر على فساد طبيعة الإنسان، فالتقدم أبعد عن ثقافة الجسد ومهاراته التي كانت المرتكز الأساسي للحياة..»^(١)

من الجلي أن الفنون والآداب فارقت المسوغات التي يتحدث عنها (روسو)، على أننا نضع في حسابنا - مفهوم الطبيعة البشرية كما يعينها روسو - فالطبيعة الأولى لا بد من أن يفسدها صاحبها، الإنسان نفسه، وهو ينتقل من تشكيلة تاريخية إلى أخرى.. تحت شرط الحاجة أولاً وتحت شرط الانتقال من الحاجة كماً إلى الحاجة نوعاً.. ثانياً.. ومن هنا كانت المدنية تفرض شروطاً للفن - ولا سيما الشعر - مختلفة..

فالولايات العربية القديمة - بشكل ما - هي أقطار اليوم، بل دول اليوم، وبعضها دويلات المرحلة لم تعد قادرة على عملية إعادة التهيكل إلا في أحلام شعراء الإحياء.. لكنما رجالات الفكر المعاصرين.. وهم ليسوا بشعراء كيفما تصرفت كلمة «الشعر» وإلى أي مضاف أضيفت، أو مع أي جميل تضيفت.. بدأت عملية البناء «الهيكل» مع الموقع الأخطر «وهي السلطة» والثروة والمدنية الحاضنة والأيدولوجيا الرافعة.

وما أشبه اليوم بالأمس - رغم مخالفة هذه العبارة لعلم التاريخ -، فكما نمت الدولة المحمدية الباكورة في المدينة «يثرب» وهي تمثل إقليمياً مناخياً مهيباً للدولة المدنية، ومجتمعاً قابلاً للتعايش

- رغم تغاييره - نمت الدويلات المعاصرة.. فمات الشعر مع التجربة الإسلامية في المدينة، وإن لم يمت فقد صار لاهتاً لاحقاً.. ومع النهضة المعاصرة - بعد أن وضعت مدرسة الإحياء أوزارها.. فعلت المدينة العربية - على ضعفها - فعلها في المناخ المهيئ لولادة الكتابة نثراً.. ومع النثر يتجاوز العقل الشعر.. ويحقق الفكر ذاته بل أدوات الانعتاق من سلطة الفكر نفسه.

ومع المدنية كتب (قاسم أمين ١٨٩٩): «تحرير المرأة» وكتب «المرأة الجديدة» ١٩٠٠

لمركز الفاعلية الشعرية عند الشاعر وتمثل في طغيان قصيدة النثر لدى الموجة الراهنة من الشعراء»^(١١)

وقصيدة النثر لم تكن تعرف تجربة فكرية عميقة أو رائدة - نستثني أدونيس - ولم تكن قادرة على تأسيس وعي نقدي وخاصة في مسألة «نقد النصوص الدينية» إنما كانت تتجه نحو الاتهامية والقذف والإعراض، وهي بهذا تعيش حالة الاضطراب الذي صعب النخب العربية في مرحلة ما بعد ١٩٦٧، لكن أهم ما جاءت به هو إحلال «الذات» محل «التاريخ» وعلى الأذق ما حققه (أدونيس)، ومن هنا أحلت اللغة الفردية محل اللغة الشعرية، والاضطراب محل الاستقرار.. فجاءت اللغة في تلك القصيدة خارج اللغة.. ولم تقوَ على اختراق البنى الأخرى..

لا يستطيع الناقد - كيفما تلقى المناهج الغربية الحديثة - وهو على أرضية الشعر أن يقف موقفاً معارضاً من الشعر، فالشعر لم يضعف بعد ١٩٤٨، ولم يضعف في العقدين الأخيرين وحسب، إنما تراجع منذ أن ظهر النثر الفني في القرن العاشر الميلادي، عندما احتوى بطلاً متخيلاً، وهنا نشير إلى جنس «المقامة» على أنها فن أصيل في النثر العربي، ورائد من حيث هي قصة

فقد أشار (قاسم أمين) إلى أن: «المرأة في الريف تعرف ما يعرفه الرجل، أما في المدينة فقد آلت إلى الركون والاستسلام». إن عالم المدن هو عالم طبقي لا يقبل التجانس، بل تزداد الفوارق كلما ازدادت المدن مدنية، وفي هذا يبدو الأمريكي (فيبلن) دقيقاً «إن أفراد الطبقة العليا أو الطبقة الاستحواذية، تجاهد كثيراً في سبيل ابتكار الفوارق الاصطناعية التي تميزها عن الطبقات الكادحة»^(١٢)

والفوارق الحائزة لابدأ أنها حاصلة على المستويات كلها، وتلك المستويات تحتاج إلى مسوغ في الثقافة وآخر في غيرها.. ومن هنا سوغ الناقد السوري المعروف د. (كمال أبو ديب) الشعر في العقود الأخيرة: «أظن أن ما حدث لا يمثل تراجعاً أو انحساراً أو ضعفاً في الشعر العربي على الإطلاق، إنه يمثل التحولات الجذرية في مفهوم الشعر واللغة الشعرية، وفي علاقة الشاعر بذاته وبالعالم الذي يحيط فيه، وقد حدث انحسار في هذه المفاهيم جميعاً أدى إلى بروز لغة شعرية مختلفة وأنماط من القصيدة مختلفة، وبرز بشكل خاص ما سميته انهيار العقائد الأيديولوجية والمشاريع الكبرى، وتخلي الشعر عن دوره الجماعي واحتلال الذات الفردية التي وصفتها بأنها ذات صغيرة

فاعلاً في تكوين الفلسفة العربية الإسلامية ك(الكندي والقارابي والرازي وابن سينا وابن حزم وابن رشد) لم يؤثر في البنية الشعرية، إنما أتجه النثر على أيديهم اتجاهات مغايرة للشعر.. في حين ظهرت «شخصية فاوست» خلال عصر النهضة في الأدب الألماني عند (غوته 1749-1832) فقد نشأ على إثرها أكثر من 200/ مئتي عمل حول شخصية الشيطان، وكذلك ظهرت عشرات الدراسات عن فكرة «الشر».

ولو عدنا إلى (داروين 1809-1882) والداروينية لوجدناها فاعلة في الآداب الغربية كلها سلباً أم إيجاباً، وخاصة في الشعر الفيكنتوري.. وكذلك نجد النزعة التجريبية فاعلة في البنية الذهنية والفنية في الغرب، وقد نشأت الرواية بعد تطور التجريب التطبيقي، ولو عاينا (هيربرت سبينسر 1820-1903) لوجدنا كم كان فاعلاً في فلسفة التطور حتى لُقّب بـ «فيلسوف التطور» في كتابه «المبادئ الأولى»، ولم يقتصر أثره على العلوم الدقيقة، إنما تعداها إلى علم النفس وعلم اللغة، واستند إلى فكرة مؤداها: «فما يمكن معرفته هي مقارنته بغيره» وقد بين في كتابه «أصول البيولوجيا» كيف تقدمت الحياة بفعل المواءمة الدائمة بين العلاقات الداخلية في الكائن الحي..

ذات مضمون درامي، بطلها ماكر وخبيث يقع عادة في مأزق صعب معقد، ولكن بفضل حيلة ما يتجاوز العقبة خادعاً الناس، وهو يصوغ بواعث تصرفه بفجور يبدو مناهضاً للقواعد الأخلاقية التي كانت تعظ بها الكتب ذات الشأن - الأخلاق بالملقوب - (١٢).

إن تجربة الشعر العربي بعد 1967 - أخذت بالتجريب الشكلي محاولة ابتداء البنية المناسبة بعد هزيمة المشروع النهضوي الذي بدأ مع (نابليون) في مصر والإرساليات التبشيرية في البلاد السورية، لكن تلك التجارب لم تستطع أن تتجز المشروع النقدي أو الفني على المستوى العربي العام، ولذلك أتجه الشعراء الكبار - أدونيس - إلى الكتابة النثرية، فكان كتابه «الثابت والمتحول» أهم من شعره، وكان كتابه «فاتحة لنهاية القرن» أهم من مجلة شعر التي أسسها، أو ساهم في تأسيسها وشهرتها.

إن ضعف مركزية الخلافة أتاح للنثر فرصة الانبثاق من قلق الواقع الاجتماعي لا السياسي.. فلم تحدث التيارات الفكرية ولا المؤسسات النظرية ك(إخوان الصفا)، ولا الأحداث الكبرى كثورة الزنج، حتى ولا حملة نابليون على مصر أية آثار تذكر على حركية الشعر.. بل ظل الشعر خارج هذه «التاريخية»، حتى إن الأفراد الذين أدوا دوراً

وفي كتابه «في التربية الجسدية والخلقية والفكرية» ١٨٦٧ ذهب إلى أن غاية التربية هي إعداد الإنسان للحياة الكاملة، ثم قدّم رأياً مؤداه: أن التربية تفقد معناها إذا لم تعتمد على علوم الطبيعة، فالاعتماد على اللغة والأدب لا يكفي.. ومن اللافت للانتباه أن الأدباء واللغويين قد أفادوا من (سبنسر) أكثر من التربويين وذلك لأهميته المنهجية وليس لأهمية أفكاره..

لقد حاول (أبو تمام ٧٨٨-٨٤٥ م) من خلال مصنفه الانتقائي «الحماسة» أن يؤسس لعقيدة جديدة في الشعر لكن لم يتأثر بها أحد غيره.. ولم تسهم مؤلفات (المعري) النثرية «رسالة الغفران» في تحولات الشعر العربي.. والسؤال قائم لماذا؟..

والإجابة لا تكون واحدة، ولا تكون فردية.. ولا تكون مغلقة.. إنما نلتمس المدخل إليها من غير طريق. فالثورة المعرفية في الغرب ارتبطت بالتجريب، والتجريب معقله الأرض، ومن هنا رفض الغرب، العقل

وبناءً على هذا الرجوع لا يمكن التوصل إلا إلى النتيجة نفسها.. أي إعادة اكتشاف المكتشفات.. وقد رسم «الشعر العربي» عبر أطواره لهذه الفكرة طريقها إلى الذائقة العامة وأقنعها بأنها التجربة التي لا غنى عنها..

بينما كانت الحضارة الغربية تعيد اكتشاف الإنسان على أنه الحقيقة واليقين في وجه «التيولوجيات» التقليدية على أنها قابلة للتحويل والنسبية ومن ثم الانزياح.

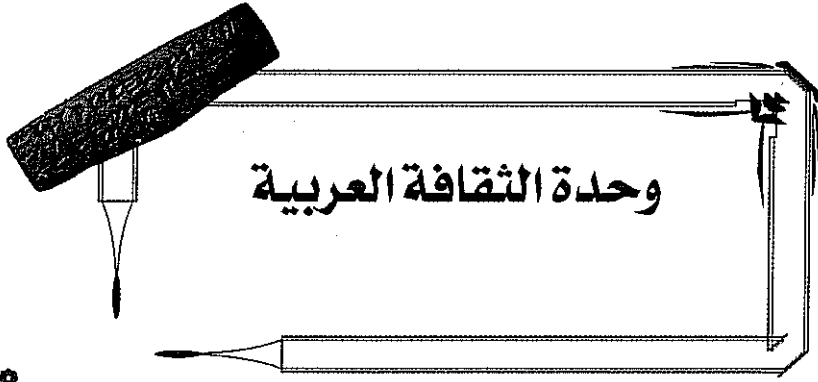
الهوامش

- ١- بروكلمان- كارل- حول «حسان بن ثابت» ١/١٥٢ وفي فلسفة الاستشراق لأحمد اسماعيلوفيتش- القاهرة. دار الفكر- ١٩٨٩- ص ٣١٨- ومنه أخذنا الشاهد.
- ٢- المصدر السابق. ج ١/١٥٣.
- ٣- دراسات في تاريخ الثقافة العربية- القرون- ٥-١٥- مؤلفون سوفيت- ترجمة أمين أبو شعر- ص ٤٥ دار التقدم- موسكو- ١٩٨٩.

- ٤- ابن رشد والرشدية- ترجمة عادل زعتر- ص ١٥-١٩٥٧.
- ٥- الجابري- محمد عابد- تكوين العقل العربي- ص ٨٠- دار الطليعة- ط ٢.
- ٦- تيزيني- طيب- من اللاهوت إلى الفلسفة العربية الوسيطة- ج ١- دار بترا- ص ٩- دمشق ٢٠٠٢.
- ٧- عبد الحق- منصف- نقد فكرة الاستبداد في الفكر السياسي الحديث- الفكر العربي المعاصر- ع ١٤٤- ص ٤٧.
- ٨- ألبرتيني- ماريو- وعدد من المؤلفين- معنى الأمة- ترجمة- أديب العاقل- ص ٥٥- دمشق ١٩٧٠.
- ٩- عبد الحق منصف- الفكر العربي المعاصر- ع ١٤٤- ص ٤٧- ٢٠٠٩. مصدر سابق.
- ١٠- نقلنا الشاهد من كتاب « فوارق اللاشعور » لـ د. علي الوردی- دار الوراق- لندن- ص ٢١٧.
- ١١- جريدة تشرين- ع- ٩٨٩٤- ٩ حزيران- ٢٠٠٧.
- ١٢- راجع «دراسات في تاريخ الثقافة العربية»- مؤلفون روس- ترجمة أمين أبو شعر- دار التقدم- موسكو- ص ٢٥٠- ١٩٨٩.



الدراسات والبحوث



د. أحمد زياد محبك

مقدمة:

هناك من الأمور ما هو بدهي ولا يحتاج إلى الكلام عليه أو البرهان، ولكن يبدو الكلام في بعض الحالات ضرورياً على مثل تلك الأمور، ولا سيما حين يشكك فيها المشككون، وحين تكون هناك نقاط اختلاف كبيرة وكثيرة، ومن هذه الأمور البديهية: وحدة الثقافة العربية ووحدة الشعب العربي، وما يواجهه العرب من تحديات معاصرة، وما هو أمامهم من آفاق الغد والمستقبل، وعلى الرغم مما يبدو عليه الأمر من بدهية وبساطة فثمة نقاط اختلاف

* أديب وناقد سوري.

العمل الفني، الفنان علي الكفري.

أقطار الوطن العربي يقع في قارة أخرى غير القارة التي يقع فيها القطر الآخر الشقيق أو المجاور، وكأن لغة هذا القطر العربي هي غير لغة القطر العربي الآخر، أو كأن عادات هذا القطر ليست عادات ذلك القطر، وهي في المحصلة متشابهة إن لم تكن واحدة، وإذا وجدت بعض الفروقات فهي الفروق التي تميز الأخ الشقيق عن الأخ الشقيق، مما يقتضيه تباعد المكان والزمان واختلاف الطبائع والأهواء.

ومما لاشك فيه أن مثل تلك الدعوات باطلة، وسوف تذهب أدراج الرياح وسيطوبها الزمن، ولكن لا بد من التصدي لها لتأكيد وحدة الثقافة العربية ووحدة الشعب العربي، وقد ظهرت من قبل دعوات انفصالية وإقليمية كثيرة ولكنها لم تصمد، ولم تحقق شيئاً، ولكن تركها من غير التنبه إليها ومقاومتها سيؤدي إلى رسوخها وفعاليتها، وكثيراً ما يكون للأكاذيب والأباطيل فاعلية وقدرة على التأثير أكثر مما يكون للحقائق. ومن المؤسف أن تظهر مثل تلك الدعوات من جديد في الوطن العربي الواحد لتتمكيه وتجزئته وتحويله إلى عالم خليط مختلف في شعوبه وثقافته، في الوقت الذي تحقق فيه أوروبية وحدة اقتصادية وثقافية، وهي ذات لغات وأعراق وأمم مختلفة، وفي الوقت الذي

كبيرة وكثيرة حول هذه الأمور بين العرب والعرب أنفسهم، وبين العرب والآخرين، ولذلك من الممكن أن يبدو بعض ما سيقال هنا غير مقبول، ومن الممكن أن يبدو بعضه الآخر مقبولاً، وفي الحالتين تظل الأمور كلها نسبية، وقابلة للنقاش والحوار، ولعل القيمة الأولى للاختلاف لا للاتفاق، لأن الاختلاف يقدح الذهن، ويحرض على التفكير، ويجعل العقل ينشط، ومثل هذه الفعاليات الذهنية النشطة هي ما يقود إلى الجديد.

ثمة مخاطر كثيرة تواجه العرب، وكل خطر يبدو أشد خطورة من غيره، ولكنها في الواقع مجموعة مخاطر متفاعلة، ومنها ما هو قديم، ومنها جديد، أو متجدد، وغالباً ما يراد من الخطر الجديد أن يُسَيَّ الخطر القديم. ومن الأخطار التي يواجهها العرب في القرن الحادي والعشرين الدعوة إلى اختلاف الثقافات بين قطر عربي وقطر عربي آخر، أو بين منطقة عربية وأخرى عربية، والمناداة بالخصوصية الإقليمية، والاختلاف في الثقافة، والمقصود بالثقافة المعنى العام الشامل للفنون والآداب والعادات والتقاليد وكل ما يشكل الوجدان والذوق، وأكثر ما يتضح ذلك في وسائل الإعلام وتكريسها الأغنية المحلية والمسلسل المحلي والعادات الشعبية، وكأن كل قطر من

الجودة والتميز، وجعلها مبعثاً على الثقة، أو للزينة والجمال، والأكثر إبلاماً من ذلك إطلاق أسماء أجنبية على المحلات والفنادق والمطاعم والبضائع والمنتجات وكتابتها بالحروف اللاتينية وهي في كثير من الحالات مجرد كتابات لا دلالة لها ولا معنى أو خاطئة وكأن الحرف اللاتيني أصبح مصدر ثقة وجمال وزينة ودليل جودة، أو هي في بعض الحالات كلمات ذات دلالات فاسدة ومسيئة وربما بذئنة.

وقد يحتج بأن هذه مجرد عادات عابرة ولا تدل على موقف أو رؤية، وما هي إلا من صنع التجار الذين يريدون الترويج لبضاعتهم وبيعها وتحقيق الكسب، ولا يقصدون بها فكراً ولا ثقافة، ولا يعبرون بها عن رأي أو موقف، ولكن مع ذلك فإن ظهورها ووجودها بوصفها عادة ودعاية يرسخ في الوجدان أن ما هو غير عربي أفضل مما هو عربي، وأن المستورد أفضل من المصنع محلياً، وسرعان ما ينسحب هذا إلى الحياة اليومية، من غير أن يدري المرء، وإلى جوانب أخرى في الفكر والثقافة والأدب والفن، مثلما انسحب من قبل على الطعام والشراب واللباس، وهو ما يحقق بصورة عفوية غسل الدماغ وتفريغ الذات وطمس الهوية، مع الزمن، بصورة غير مباشرة، ولو كانت المواجهة مع الفكر

تظهر فيه دعوات كثيرة في العالم إلى العولمة والقول بأن العالم كله قد أصبح قرية واحدة، ومن المدهش أن بعض الأقطار العربية تدعو إلى مثل هذه العولمة، وترى نفسها جزءاً من المنظومة العالمية الافتراضية، وتتسى انتماءها إلى الأمة العربية، وتقول في الوقت نفسه بخصوصيتها الثقافية واختلافها عن ثقافة الأقطار العربية الأخرى، ولا تقول باختلافها عن ثقافة الأمم الأخرى.

مشكلة العامية والفصحى:

ومن مظاهر هذا التشتت في بعض الدول العربية اعتماد لغة أجنبية كالفرنسية أو الإنكليزية في أسواق العمل وفي المصارف والفنادق وفي بعض مؤسسات الدولة وفي طلبات العمل والتوظيف في المؤسسات الثقافية نفسها وفي التدريس في الجامعات والمعاهد، ومما لا شك فيه أن العربي لا يعادي اللغات الأخرى ولا يرفض ثقافتها ولا يرفض تدريسها وتعليمها، بل يقدرها حق قدرها، ويسعى إلى تعلمها والإفادة من ثقافتها، ولكن لإغناء ثقافته ورفدها، لا لتكون بديلاً عن ثقافته القومية.

ومن مظاهر هذا التشتت أيضاً اعتماد الحروف اللاتينية في كتابة الأسماء العربية فوق الملابس والمنتجات الصناعية وفي لوحات الإعلان واتخاذها وسيلة لتأكيد



(١٩٢١) «كانت مدارس الأندلس العربية في إبان عزها بالنسبة إلى بلدان أوروبا كمدارس أوروبا وأمريكا اليوم إلى البلدان العربية في آسيا وأفريقية، وكانت اللغة العربية لغة العلم وعنها يترجمون» (كامل الخطيب، ص ١٩)، ولقد أنشأ الفونسو العالم (١٢٥٢ . ١٢٨٤) مدرسة المترجمين في طليطلة، وكانت «تنتقل عن التراث العربي كثيراً من الفلسفة والمنطق والطب والفلك والرياضيات والطبيعة» (الصالح، ٣٥٦).

ولدى العرب مقولة تتلخص في أن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، وقد وعد الله بحفظ القرآن الكريم، بقوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»، وقد استنتجوا من ذلك أن اللغة العربية

والثقافة والأدب والفن مباشرة لحصلت ردة الفعل، وكان الرفض والمقاومة، والتشبث بما يؤكد الهوية ويحمي الذات.

ومن المؤسف أن ينحدر العربي إلى هذا المستوى وينسى أن لغته هي لغة القرآن الكريم، وبها نزل كلام الله تعالى، وأن ينسى أنه مر وقت تعلمت فيه شعوب كثيرة في ظل الإسلام اللغة العربية، وبها كتبت علومها وأدبها وشعرها وأتقنتها أيما إتقان، بل بالحروف العربية كتبت تلك الشعوب لغتها وما يزال بعضها إلى اليوم يكتب بحروف عربية كاللغة الفارسية واللغة الأوردية في وقت بدأ فيه بعض العرب يتخلسون شيئاً فشيئاً عن لغتهم.

يقول جبرضومط (١٨٥٨ . ١٩٣٠)

من الفصيحة إلا لغة القرآن الكريم، ولا يستخدمونها إلا في المساجد للخطب والصلاة، مثلهم مثل الأمم الأخرى، بل أقل، وهذا ما يريده أعداء العرب واللغة العربية، بل هذا ما يقولونه اليوم، إذ يزعمون أن العربية في الوقت الراهن محصورة في المساجد، وأن العرب في أقطارهم العربية لا يتكلمون العربية، وإنما يتكلمون لهجات مختلفة، وأن بعضهم لا يفهم كلام بعضهم الآخر.

وفي كثير من جامعات العالم تقوم بحوث ودراسات على اللهجات المحلية في هذا القطر العربي أو ذاك، بل في هذه البلدة أو تلك المنطقة من القطر الواحد، لترسيخ اللهجات، وتأكيدهم التفريق، ومن المؤسف أن كثيراً ممن يقومون بهذه الدراسات هم من العرب أنفسهم، ويفرحون إذ يسهل عليهم البحث والجمع والدرس، وسرعان ما ينالون الشهادة العلمية، من غير أن تضيف إلى رصيدهم المعرفي شيئاً، ويعودون إلى وطنهم وقد رسخ في ثقافتهم مفهوم اللهجة، وهم يقدمون لأعداء العربية خدمات لا يقدرون مخاطرها.

ويخطئ بعض المثقفين في فهم العولة، وهم يظنون أنها تعني وحدة شعوب العالم، وأن يصبح العالم قرية واحدة، مما يعني.

محفوظة، ولكن هذا الحفظ ليس ألياً، ولا بد له من أمة تقوم به، وتعمل على تحقيقه؛ بالجد والعمل، وبإتقان العربية، وخدمتها، وتحقيقها في الواقع، كتابة وقراءة وثقافة وتعليماً، والنطق بها سليمة في المقام الأول، لأن علماء اللغة يعدون اللغة المنطوقة هي اللغة الحية، وهم يميزون بين اللغة والكلام، فالكلام هو الأساس في تأكيد أن اللغة تعيش في الواقع، ولا تكفي الكتابة بالعربية الفصيحة والنطق بها في المؤتمرات والمحافل لتأكيد أنها لغة على قيد الحياة.

ومما لاشك فيه أن الله عز وجل حافظ للذكر الحكيم، وأن العربية ستحفظ بحفظه، ولكن هذا لا يعني بالضرورة نهوض اللغة العربية أو قوتها أو قوة العرب أو نهوضهم، ولا بد لهم من العمل والجد لتحقيق النهوض. ومن الممكن أن يكون هذا الحفظ للذكر الحكيم بأشكال مختلفة، فقد يكون محفوظاً بالعربية الفصيحة لدى أقوام ليسوا عرباً، ولا يعرفون العربية إلا في تلاوة القرآن الكريم، ثم هم بعد ذلك يفهمونه ويدرسونه ويفسرونه وينشئون عليه دراسات كثيرة بلغتهم، وقد يكون محفوظاً بالعربية وعند العرب أنفسهم، ولكنهم أميون متخلفون لا يقدمون جديداً ولا يشاركون في النهضة، تطفئ عليهم العاميات ولا يعرفون

احتلت فرنسا الجزائر مئة وخمسين عاماً وحاولت أن تتسي الشعب العربي لغته ودينه، ولكنها لم تفلح، واستطاع الشعب العربي في الجزائر أن يسترد حريته السياسية وأن يستعيد هويته الثقافية.

ومن الطريف أيضاً أن يدعو بعض المثقفين العرب إلى عولمة عربية، وهي دعوة قوامها في الواقع التقليد لكل ظاهرة عند الغرب، ومثل هذه الدعوة في الواقع تفقد قيمتها بعد أن يعرف المرء معنى العولمة، ولا سيما ما تتضمنه من معنى الجبر والاضطرار والقهر والسيطرة، إن ما يحتاج إليه العرب هو تحقيق وحدة ثقافية عربية، وهي حرية واختيار، بل هي حاجة عربية.

أمثلة على وحدة الثقافة العربية:

وثمة أمثلة كثيرة على وحدة الثقافة العربية، ومنها: صحف ومجلات تطبع في هذه الدولة أو تلك من الدول العربية وتوزع في سائر الدول العربية، وتلقى الإقبال عليها أكثر مما قد تلقاه في البلد الذي طبعت فيه، ومن الممكن ذكر عشرات من الصحف والمجلات في هذا السياق، ولكن يخشى أن يظن ذكرها هو محاولة لترويجها، مع أنها في الحقيقة رائجة وليست بحاجة إلى ترويج. وهذا المثال لا يدل على وحدة اللغة فحسب، بل يدل على وحدة الهم والهدف والاهتمام،

وفق تصورهم. إلغاء المسافات والفوارق بين شعوب العالم، وتحقيق العدالة والمساواة، والحقيقة ليست كذلك، فالعولمة تعني أولاً هيمنة نموذج اقتصادي واحد على العالم، عبر الشركات المتعددة الجنسيات، وسيطرة رؤوس الأموال الفردية بشرائها شركات الخدمات العامة كالمواصلات والاتصالات، وهو ما يدعى بالخصخصة أو الاقتصاد المفتوح، وهو شكل آخر من أشكال النظام الرأسمالي، أو النظام الاقتصادي الحر، وهو من غير شك النموذج الأمريكي، الذي يسعى إلى فرض نفسه تحت أشكال مختلفة، هذا هو الجانب الاقتصادي للعولمة، أما الجانب الثقافي فهو سيطرة النموذج الثقافي الواحد، وهو النموذج الأمريكي، الذي يسعى إلى إلغاء ثقافات الشعوب، ومحو هويتها الثقافية في ظل النظام العالمي الجديد، وهو ما يفرح به بعض المثقفين ويروجون له ويظنون أنه يعني الحرية والديمقراطية، في حين لا يعني في الواقع سوى سيطرة الثقافة الأمريكية، وهو ما يتنافى مع طبيعة الشعوب التي تسعى دائماً إلى الحفاظ على شخصيتها وتأكيد هويتها، وما يتنافى مع حقائق التاريخ التي أكدت حرص الشعوب دائماً على تميزها، ورفضها الذوبان في ثقافة أخرى، وهذا ما تؤكد التجربة الفرنسية في الجزائر، فقد

من أقطار الوطن العربي ويفوز بها أدباء من الأقطار العربية كلها. وكثير من دور النشر العربية تعمل في هذا القطر العربي أو ذاك، ولكن مبيعاتها في أقطار الوطن العربي كله، ولبعض دور النشر الفضل في نشر الثقافة العربية في أقطار الوطن العربي كافة.

وللفضائيات دورها، فهي توحد الثقافة العربية، وتؤكد وحدتها، على الرغم مما يؤخذ من أخطاء على كثير منها، والأمر نفسه يقال بالنسبة إلى الشبكة أو الشبكة العالمية، فيها يلتقي أبناء الوطن العربي حيثما كانوا في العالم، وهناك مواقع أصبحت ذات دور معرفي في الوطن العربي مثل موقع القصة العربية وموقع المترجمين العرب وموقع ديوان العرب وموقع الإبداع العربي، وغير ذلك كثير، مما يدل على وحدة الثقافة العربية، هذه أمثلة تدل على واقع، وليست مجرد حالات فردية، بل هي ظواهر شاملة، ذات حضور فاعل.

بالإضافة إلى ما هنالك من مؤسسات رسمية أو شبه رسمية مثل اتحاد الكتاب العرب الأمانة العامة الذي يضم كل روابط الكتاب العرب واتحادات الكتاب العرب، وكذلك اتحاد الجامعات العربية والمنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم ومركز التعريب ومقره في المغرب العربي وله فروع

فحين يطالع عربي في المشرق العربي صحيفة في المغرب العربي فهذا يعني أنه مهتم بأمور المغرب العربي ويقضايه وأنه يتابعها، لأنها جزء من هموم أمته العربية.

ومن الأمثلة على وحدة الثقافة العربية عمل كثير من المدرسين والأساتذة الجامعيين من هذا القطر أو من ذاك في أقطار عربية أخرى، والأمر لا يتعلق بمجرد العلم أو الاختصاص، إنما يتعلق بقدرته على الانسجام مع المجتمع في القطر الذي يعمل فيه، وهو يصطحب زوجته وأولاده، وهؤلاء يتعلمون ويدرسون في هذا القطر، ويقيمون علاقات مع المجتمع، مما يؤكد وحدة الشعب العربي.

ومن الأمثلة رواية وليمة لأعشاب البحر، فهي لكاتب سوري، وحوادثها تدور في الجزائر، وموضوعها الجزائر، وقد راجت الرواية في مصر، وفيها جوبهت بالاتهام والرفض وأثارت من الضجة ما لم تثره في سورية أو الجزائر. ومن الأمثلة على وحدة الثقافة العربية المسابقات والجوائز العربية، ومنه على سبيل المثال مسابقة الملك فهد والسلطان عويس ومسابقة نجيب محفوظ في مصر وأبي القاسم الشابي في تونس ومسابقة ديوان العرب الفضائية، وغيرها كثير، وهي تقام هنا أو هناك في هذا القطر أو ذاك

والإعلامية، وهي مؤسسات تسير وفق أنظمة وقوانين ولوائح داخلية صيغت في معظمها وفق ما يخدم الأنظمة الحاكمة لا وفق ما يحقق حرية التعبير والإبداع، وفي كثير من الحالات ما يدافع المثقف نفسه عما استقر من قانون المؤسسة أو نظامها ولا يريد له التغيير أو التعديل، ويتمسك به أشد التمسك، لأنه اطمأن إليه وارتاح، ولا يريد التغيير، أو لأنه لا يعي الأخطاء وهو الناظر من الداخل ولا يملك النظرة الموضوعية من الخارج، أو لأنه مستفيد منتفع، وأي تغيير سيحرمه موقعه.

إن ظهور اللهجات قانون عام ينطبق على لغات العالم كافة، وما من لغة في العالم إلا وفيها لهجات، وما من لغة في العالم إلا ويصعب فهم نصوصها القديمة، حتى النصوص التي تعود إلى ما قبل مئتي عام، فلغة شكسبير وقد توفيت عام ١٦١٦ لا يعرفها اليوم المثقف الإنكليزي، بل إن كثيراً من بلاد العالم ليس فيها لغة واحدة سائدة، بل فيها عدة لغات، و«يوجد مثل هذا التنوع في اللهجات واللكنات الإنجليزية إذ يظهر الأطلس اللغوي لإنجلترا The Linguistic Atlas of England وأطلس الأصوات الإنجليزية Atlas of English Sounds المبنيان على أساس مسح اللهجات

في أرجاء الوطن العربي ومجامع اللغة العربية وإلى ما هنالك من اتحادات عربية كاتحاد الصحفيين العرب واتحاد المحامين العرب واتحاد العمال العرب واتحاد البرلمانين العرب إضافة إلى جامعة الدول العربية بمنظوماتها الثقافية المتنوعة.

ولكن هذا كله لا يجعل المرء ينسى التحديات في الماضي والحاضر، ولقد كانت التحديات السابقة ظاهرة ومباشرة كالدعوة إلى كتابة العربية بحروف لاتينية وكالدعوة إلى العامية، وقد جوبهت بالردود وشغلت التفكير العربي طويلاً، والتحديات اليوم غير مباشرة، وهي مبطننة كالدعوة إلى الديمقراطية والعولمة، وإلى دراسة العاميات، أو اللغة المحكية، أو تشجيع الأغنية المحلية والمسلسل المحلي والشعر باللغة المحكية، وكثيراً ما تتبنى بعض الأنظمة العربية مثل هذه الدعوات لأن فيها خدمة لها، وتساعد على ذلك وسائل الإعلام، ولا سيما المرئية، فهي في معظم الأقطار العربية جزء من النظام الحاكم، وهي بيده، تطوعه لمصلحتها وتسوقه إلى حيث يحقق أهدافها، والناس من متقفين وغير متقفين يعيشون في أجواء تلك المؤسسات ويفكرون وفق نسقتها، وهم لا يدرون، ويصاغ نمط تفكيرهم وفق النمط الذي بنيت عليه المؤسسات الثقافية

التي نسميها اللغات العربية التي تشمل لغات الوطن العربي القديمة في الرافدين والشام ووادي النيل والشمال الأفريقي» (خشيم، سفر العرب الأمازيغ، ص هـ) كما انتهى به البحث إلى وضع معجم عربي بريري مقارنة «الهدف منه تأثيل المفردات الأمازيغية البربرية وتأصيلها وإعادةها إلى أرومتها العربية الأولى» (خشيم، لسان العرب الأمازيغ، ص أ).

ومن المؤسف أن يروج كثير من الأدباء والمثقفين للعامية، عن وعي وقصد وسوء نية، أو عن عفوية وبراعة وحسن نية، ولا سيما حين يتكلمون على الواقعية في الأدب، ويدعون إلى الشعر العامي كي يفهمه الناس، أو كتابة الحوار في المسرح بالعامية، أو كتابة الحوار على الأقل في الرواية والقصة بالعامية بدعوى الواقعية، مع أن الواقعية لا تعني التصوير المباشر للواقع ولا النقل الآلي، وإنما تعني تصوير الواقع فنياً، ولا بد في الفن من حرفية، ولا بد من وسيلة فنية خاصة، ودعوى الوصول إلى العامة دعوى غير سليمة، إذ بأي عامية سيكتب الأديب؟ هل سيكتب بالعامية القاهرة أو بالعامية تونس أو بالعامية دمشق؟ وهل سيكتب بالعامية حي الزمالك ومصر الجديدة في القاهرة أو بالعامية حي سبط اللبن؟ وهل

الإنجليزية توزع عدد من البدائل الجغرافية المألوفة في اللهجات الإنجليزية» (دورل، مارتن، الموسوعة اللغوية، ص ٩٢٧). وضمن فرنسا نفسها فإن الفرنسية القياسية هي اللغة الوحيدة التي منحت اعترافاً رسمياً كاملاً، غير أنها ليست اللغة الأولى أو الوحيدة بالنسبة لمجموعة كبيرة من السكان، إذ نجد أشكالاً من اللغة الهولندية في الفالندرز الفرنسية وأشكالاً من الألمانية في الألزاس وشمال اللورين، وينطق بالبريتانية في غرب بريتاني (شمال غرب فرنسا)، وتستعمل لغة الباسك في غرب بايرينز (جنوب غرب فرنسا)، وتستعمل الكاتلان في روزيلون (جنوب فرنسا)، وفي قسم كبير من جنوب فرنسا يشار إلى اللهجات الأصلية عادة على أنها بروفانسالية» (دورل، مارتن، الموسوعة اللغوية، ص ٩٢٢) ومع ذلك تظل اللغة القومية والرسمية لفرنسا هي اللغة الفرنسية، وفي الوقت نفسه تشجع فرنسا البربر في الجزائر على الاستقلال الثقافي على الأقل وتدعوهم إلى التمسك بلغتهم الأمازيغية مع أن كثيراً من الدراسات تذهب إلى أن الأمازيغية هي لهجة عربية فصيحة، فلقد أنهى البحث بالدكتور علي فهمي خشيم إلى أن اللغة الأمازيغية «ليست إلا واحدة من اللغات أو اللهجات

من الانتقاء والاختيار والصياغة الفنية، إن الحوار في الرواية والقصة والمسرحية هو حوار فني، مكثف مركز، يعبر عن الشخصية، وهو يصاغ بعناية، وبلغه فنية، ليست العامية، وليست الفصحى الراقية المتكلفة، وإذا ما سجل المرء بوساطة جهاز تسجيل أي حوار في الشارع بين متخاصمين أو بين بائعين أو بين عاشقين لا يمكن أن يصبح كما هو عليه حواراً فنياً، ولا يمكن أن يكون جزءاً من قصة أو رواية أو مسرحية، والأديب في الحالات كلها لا يكتب للأمين، إنما يكتب لمن يجيد القراءة على الأقل، وهو مسؤول عن تزويد القراء بلغة فنية، تمي شعورهم، وتقده أفكارهم، وتصل لغتهم وتهذيبها. وهنا يمكن أن نميز بين العربية الفصحى، ويمكن أن نخص بها المستوى الراقى في القرآن الكريم، وفي الشعر العربي القديم، واللغة العربية الفصيحة، ويمكن أن تطلق على لغة الصحف والمجلات والكتب ووسائل الإعلام.

إن وجود العاميات لا بد منه لأنه قانون عام، ولا يمكن بحال من الأحوال إلغاء اللهجات العامية، وما العامية في الحقيقة إلا العربية الفصيحة في أدائها اليومي العادي، فالعامية هي بنت الفصيحة، فالفصيحة تقوم على الإعراب بتحريك أواخر الكلمات،

سيكتب بعامية النصف الأول من القرن العشرين؛ أو بعامية النصف الثاني منه؛ أو بعامية القرن الحادي والعشرين؛ إن العامية ظاهرة متحركة وليست مستقرة، وهي اليوم ليست كما كانت عليه بالأمس، وهي فقيرة بموادها في ألفاظها ودلالاتها وفي بناها وتراكيبها، وما يتوهمه بعض الناس من إحياءات لها ودلالات هي عابرة ومؤقتة، فما توحيه كلمات حنطور وكارو وأتومبيل وأنترك وكركون وجندرمة لجيل النصف الأول من القرن العشرين لا توحى بشيء من مثله لجيل القرن الحادي والعشرين، بل هذا الجيل لا يفهم منها شيئاً.

والواقعية في الأدب لا تعني نقل الواقع كما هو، فمثل هذا الفهم هو تشويه للواقعية، وإنما تعني تصوير النموذجي الذي يمثل الواقع، أي المثال الذي يمكن أن يقع، وليس الذي قد وقع فعلاً، إن سقوط طفل من الطابق الخامس وعدم إصابته بأذى، هو حادث قد وقع فعلاً، ويمكن أن تتقله الصحف، ولكنه حادث فردي، لم يتكرر، ولا يمكن أن يتكرر، فما هو بالحادث الواقعي، إنما هو حدث استثنائي، أما الواقعي فهو ما وقع، وما يمكن أن يقع، ويتكرر، وتصوير الحادث المتكرر الغالب الوقوع هو ما يجعل العمل واقعياً، وهذا التصوير لا بد فيه

وظهرت الحداثة الشعرية في العراق وسرعان ما امتدت إلى القاهرة وبيروت ودمشق والمغرب العربي.

إن انتشار أي ظاهرة في أي قطر عربي سرعان ما يرافقها انتشار الظاهرة نفسها في معظم أقطار الوطن العربي، سواء في الفن أو الأدب أو الفكر، على الرغم من التنوع والتعدد والاختلاف، بل على الرغم من المعارضة وعدم الاتفاق، سواء ظهر في بيروت أو دمشق أو القاهرة أو الكويت أو تونس أو الرباط أو الرياض، والأمثلة على ذلك كثيرة، ففي كل مكان من أقطار الوطن العربي حضور لشواهد من أقطار عربية مختلفة، ومن الممكن أن يذكر في السياق الثقافي والفكري والأدبي أسماء كثيرة لم يعد أحد منها ملكاً للقطر الذي ظهر فيه، بل أصبحت تلك الأسماء ملكاً لكل الأقطار العربية، وهي معروفة فيها جميعاً، ومنها في مجال الرواية فقط الطاهر وطار وواسيني الأعرج من الجزائر، وإبراهيم الكوني من ليبيا، ونجيب محفوظ من مصر، والطيب الصالح من السودان، وغالب هلسا من الأردن، وحنا مينة من سورية، وسهيل إدريس من لبنان، وعبد الرحمن منيف من العراق، وغازي القصيبي من السعودية، وليلى العثمان من الكويت، ومثل تلك الأسماء

والعامية تقوم على تسكينها، والفصيحة تقوم على الأداء الفصيح الهادئ الذي يعطي كل حرف حقه في النطق، فيخرجه من مخرجه الصحيح، والعامية تقوم على الأداء السريع الذي قد يغير في مواقع الحروف أو يستبدل بعضها ببعضها الآخر ولا يخرجها بصورة عامة من مخارجها الصحيحة، ولذلك لا بد من وجود العامية، ووجودها لا يفرق العرب، ولا يضرهم في شيء، مادامت العاميات في سياق الحياة اليومية، ولكن الضرر كل الضرر حين تتحول العاميات إلى لغة الثقافة في الصحافة والإذاعة والتلفاز والتعليم والأدب، وعندئذ تخلق بيئات متنافرة، وتصنع ثقافات متمايضة، وعندئذ تفرق العرب بعضهم عن بعضهم الآخر.

أمثلة على وحدة الشعب العربي:

ومما يؤكد وحدة الشعب العربي الاتجاهات والتيارات الفكرية والأدبية في أقطار الوطن العربي، فقد كانت في معظمها متشابهة ومتزامنة في نشوئها ونهوضها وضعفها وفي تحولاتها، وتكفي الإشارة إلى التيارين الوجودي والاشتراكي في الثقافة العربية فقد شهدا معاً الانتشار والازدهار في الخمسينيات في معظم الأقطار العربية، وفي السبعينيات انتشرت البنوية ثم سرعان ما انتشرت الدراسات الأسلوبية واللغوية،

عام ١٩٧٣، ومنها أيضاً الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨، واتحاد دول الخليج، وغيرها من أشكال الاتحاد أو الوحدة، على الرغم مما يعتريها من إيجاباط أو إخفاق، وهذا أمر طبيعي في وجود المؤامرات والتحديات الخارجية.

إن الصورة ليست حالكة، بل هي متألقة، ولا سيما حين نذكر عوامل الوحدة، فهي بين ظهرانينا، وهي قائمة ومتحققة، ولكننا ننسأها، أو نطمح إلى ما هو أكثر منها، وحسبنا هي، ولا يمكن أن نفكر في الوحدة السياسية، على الأقل في الظروف الراهنة، ولكننا نتطلع إلى تعاون أكبر، ولقاء أكبر، نتطلع إلى زيادة في المواصلات والاتصالات، إلى خطوط نقل بحرية وجوية وأرضية تساعد الأشقاء العرب إلى تواصل أكبر، من غير عقبات ولا حدود ولا تأشيرات دخول أو خروج ولا جوازات سفر، ومن قبل في مطلع القرن العشرين كان العثمانيون قد ربطوا اسطنبول بمكة بخط حديدي عبر سورية والأردن، وقد امتد إلى بغداد في العراق، وإلى طرابلس في لبنان، وإن مد مثل هذا الخط بين أقطار الوطن العربي في القرن الحادي والعشرين ليس بأصعب مما كان عليه في مطلع القرن العشرين، وإذا كان من السهل لقاء وزراء الداخلية العرب

وبغيرها كثير في عالم الأدب والفن والموسيقى والشعر والغناء، أصبحت كلها ملك العرب جميعاً، وأصحاب تلك الأسماء هم صناع الثقافة العربية، وفي كل قطر من أقطار الوطن العربي هم معروفون جيداً، وغيرهم كثير ممن هم معروفون، وهم جميعاً من عناصر الوحدة العربية وقواها الفاعلة.

ومما يؤكد وحدة الثقافة العربية ووحدة الشعب العربي تشابه الأحزاب وأنظمة الحكم وتشابه أشكال المعارضة في معظم أقطار الوطن العربي، وكل ما طرأ على معظم أقطار الوطن العربي من تقلبات وصراعات وثورات وانقلابات ومشكلات داخلية وأزمات اقتصادية وسياسية كان في كثير من الأحيان متشابهاً بل يكاد يكون متزامناً، وفي هذا ما يؤكد وحدة الشعب العربي ووحدة الثقافة العربية ووحدة الظروف، ولعل من الطريف أنه مما يؤكد ذلك أيضاً تشابه المؤامرات التي حيكت لمعظم الأقطار العربية، وتزامنها، وتشابه معظم أشكال التدخل الخارجي المباشر وغير المباشر.

ومن الممكن بعد ذلك الإشارة إلى أشكال من الوحدة المباشرة، ومنها مشاركة الجيوش العربية في حرب تحرير القدس عام ١٩٤٨، ومشاركة الجيوش العربية في حرب تشرين

إلى طاقة شمسية، ومن يد عاملة إلى عقول مبدعة، وليظلوا متخلفين، لا دور لهم في صنع الحضارة، ولا دور تاريخياً لهم، ولذلك يتم على الفور إحباط أي مشروع نهضوي، أياً كان شكله أو فكره أو انتماءه، إن الهدف ألا يعيد العرب أمجاد التاريخ، وألا يكون لهم مستقبل.

والطريق إلى إبقاء العرب متخلفين هي عزلهم عن لغتهم ودينهم وزرع الشقاق فيما بينهم، وإبقاؤهم ممزقين وإشغالهم بمشكلة العامية والحروف اللاتينية وإثارة مشكلة القوميات والأمم الأخرى والثقافات الإثنية والخلافات الدينية والطائفية، وهي مشكلات موجودة في كل مكان في العالم، في فرنسا وإنكلترا وأمريكا وفي الصين والهند، وما من دولة تقوم على لغة واحدة أو شعب واحد أو عرق واحد أو دين واحد أو مذهب واحد، ولا بد من التعدد والتنوع والاختلاف، ولكن قوة الدولة وتقدمها وحضارتها ورفيها تجعل تلك المشكلات غير فاعلة، لأن الهدف هو الوطن والمواطن، وحق المواطنة للجميع، وتقوى تلك المشكلات وتظهر في حال الضعف والتخلف.

إن مواجهة العرب للمخاطر لا يمكن أن تكون بالحرب والسلاح، إنما يمكن أن تكون بالحريسة والعلم، وأول خطوة على

لوضع خطط التعاون لضبط الجريمة أو قمع الإرهاب فإنه من الأسهل لوزراء التربية والتعليم العالي والثقافة والنقل والمواصلات اللقاء من أجل تعاون أكبر. **التخلف هو الخطر الأكبر:**

إن الخطر الذي يتهدد الشعب العربي هو خطر دائم ومتجدد على مر العصور، ولا يتمثل في اللهجات العامية، فهي أمر واقع لا بد منه، ولا في كتابة العربية بحروف لا تينية، فهذا أمر لن يكون، ولا في انقراض العربية أو موتها، فهذا لا يمكن أن يتحقق، لأن الله وعد بحفظ الذكر الحكيم، واللغة العربية محفوظة بحفظه، ولأن العربية يتكلم بها أكثر من ثلاثمئة مليون نسمة، وبها يبدهون وينتجون علماء وأدباء، ولا يتمثل في تفرق العرب وتمزقهم وعدم قيام دولة الوحدة، لأن دولة الوحدة لا يمكن أن تقوم في الوقت الراهن على الأقل، إن هذه المخاطر كلها هي أخطار قائمة وموجودة، ولكن أكثرها جانبي، وللإشغال أكثر مما هو للتحقق، هي مخاطر تقود إلى تحقيق الخطر الأساسي وهو بقاء العرب متخلفين، وبقاؤهم سوقاً للبضائع، وبدلاً عاملة رخيصة، وحقل تجارب، وبقاء منطقتهم مورداً للخيرات ومصادر ثروات متعددة لا نفاذ لها، طبيعية وبشرية، من نفط إلى ذهب إلى فوسفات

المختص والوزير، والمعلم هو الذي يحفظ القيم الدينية والخلقية والوطنية والقومية وينقلها من جيل إلى جيل، والمقصود بالمعلم المعلم في المستويات كافة من أدنى مراحل التعليم إلى أعلاها.

إن الدعوة إلى نهوض الأمة لا يمكن أن يكون بالعامية ولا بحروف لا تينية، وإنما يكون بالاهتمام بالتعليم والنهوض باللغة الأم، ويؤكد ذلك أنه «عندما أطلقت روسيا القمر الصناعي عام ١٩٧٥ اهتزت الأوساط التربوية في أمريكا، وتساءلوا عن السبب الذي جعل الروس يتفوقون عليهم في هذا المجال، وجاءت الدراسات تشير إلى أن السبب في ذلك يرجع إلى إخفاق المدرسة الأمريكية في تعليم الناشئة القراءة الجيدة، ورفض أحد المسؤولين التربويين شعاراً هو: حق كل طفل في أن يكون قارئاً جيداً في السبعينات» (السيد، ص ٣٢٨)

إن العلم هو الذي سيفتح أمام العرب أبواب المستقبل، ولم يعد بإمكان أي شعب من شعوب العالم الانتماء إلى الحضارة والمشاركة فيها من غير العلم، فمن الممكن بالمال شراء السيارة والحاسوب والقمر الفضائي والآلة الحربية المتطورة، ولكن شراءها بالمال يعني أن يصبح المرء عبداً لها، وأن تصبح البلاد التي تشتريها خاضعة للبلاد التي تنتجها،

العرب اتخذوها هي التعليم، لا بد من إصلاح التعليم، ورصد ميزانية كبيرة له، أكبر من ميزانية التسليح، ولذلك لا بد من النهوض بالعربية، والنهوض بها لا يكون من سبيل واحدة، كعقد الندوات والمؤتمرات، وإنشاء المجامع وسن القوانين، أو تغيير كتب التعليم بين عام وعام، أو الدعوة إلى تبسيط العربية وتسهيلها بحجة الصعوبة، فهذه السبل وحدها غير كافية، لا بد للنهوض من حافظ اقتصادي، لأن هذا العصر هو عصر الاقتصاد، ومن خلال الاقتصاد من الممكن تغيير مفهومات كثيرة.

ولا بد أن يشمل هذا الإصلاح المؤسسة التعليمية بمستوياتها وعناصرها ومكوناتها كافة، من التلميذ في الصف إلى المعلم، ومن التعليم الابتدائي إلى آخر مراحل التعليم العالي، ومن البناء الحجري إلى الكتاب والحاسوب، ومن الإدارة إلى الخدمات، ومن وسيلة انتقال الطالب إلى صحته ومعيشته، إن كل مؤتمرات تطوير التعليم تقف عند المناهج والكتب، وتتسى الإنسان، لا بد أن يحظى المعلم بالمكانة الاجتماعية والمعيشية اللائقة، ليتمكن من العطاء، وليكون قدوة ومثالاً، ولا يكون هزأة، فالمعلم هو الذي يبني الإنسان، وهو الذي يصنع شرائح المجتمع كافة، من العامل والأجير إلى العالم

معاً، فأصبح كل عربي متهماً، كما أصبح كل مسلم متهماً، وهذه التهمة في الحقيقة هي شكل آخر من الأشكال المستغلة لإبقاء العرب في حالة من التخلف والقلق وعدم الاستقرار، ولم يتفق العالم إلى اليوم على تحديد مصطلحات من مثل الديمقراطية أو العولمة أو الإرهاب أو العنف أو المقاومة أو حرب التحرير، ولا يراد لأي مصطلح سياسي أن يحدد معناه، بل يراد أن يظل معناه غامضاً، ليستخدم في وقت ما ومكان ما وفق المعنى المناسب الذي يحقق مصلحة من يستعمله.

ولعل من أهم الطرق في معالجة هذه التهمة العلم، وذلك بتعريف العالم كله بحقائق الإسلام وقيمه، وتاريخ العرب وأخلاقهم، ولا يكون نشر هذا العلم إلا بأساليب وطرق علمية تساعد على إقناع الآخر وتمكن من إيصال المعرفة إليه، عبر قنوات ووسائل معاصرة، من فضائيات وكتب ودوريات تترجم إلى مختلف لغات العالم، ويعتات ثقافية، ودعوات لطلاب من مختلف بلاد العالم لزيارة الوطن العربي، والإقامة فيه، وتقديم المنح الدراسية للأجانب لدراسة العربية في الوطن العربي، ومعرفة العربي في حضارته وتاريخه وواقعه معرفة صحيحة، ومثل هذا كله لا يحتاج إلى المال فقط، بل

وتابعة لها، وبذلك تظل البلاد التي تشتريها متخلفة، وهذا ما يراد للوطن العربي، ولا يمكن التعامل مع آلات الحضارة ووسائلها التعامل الصحيح إلا بالعلم، وهذا العلم سيساعد على إنتاجها بدلاً من شرائها، أو إنتاج ما تحتاج إليه الدول المنتجة لها، للتبادل معها، على أساس من القوة لا على أساس من الضعف. إن العلم اليوم حاجة أساسية لكل مواطن، سواء في ذلك العامل والفلاح، والموظف والتاجر، لأن على الجميع أن يتعاملوا مع أدوات الحضارة ووسائلها التقنية المتعددة والمتطورة، ولم يعد في الإمكان الاعتماد على الطبيعة من غير تدخل علمي فيها، ولا على المهارة الشخصية من غير علم وقدرة على التعامل مع أدوات الحضارة. والعلم هو الذي سينتج جيلاً جديداً يبني مستقبلاً جديداً للعرب، وهو الذي سيساعد على الاستفادة من الثروات والموارد في الأقطار العربية، وسيساعد على تحقيق اللقاء بين الأشقاء العرب، وتحقيق الوحدة العربية في شكل يصوغه المستقبل وفق معطيات جديدة لا يمكن التنبؤ بها.

ولعل أخطر ما يواجه العرب مباشرة في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين هو تهمة الإرهاب والأصولية، وكانت نتيجة هذه التهمة الإساءة إلى الإسلام والعروبة

وبها يتلقى العلوم والمعارف، ويعترف إلى الكون والعالم والمجتمع من حوله، وبها يدرك المقولات والمفاهيم، وبها يصاغ وجدانه، وتتمو مواهبه، وتقوى أحاسيسه، وتعمق مشاعره، واللغة هي حاملة التاريخ والهوية والمعبرة عن الذات الشخصية والوطنية والقومية، ومن هنا تظهر أهمية اللغة ودورها في تحقيق وحدة الشعب العربي، وخطورة السعي إلى إضعافها، وتمزيقها إلى لهجات أو لغات.

وقبل نحو سبعين عاماً كان أحمد حسن الزيات قد قال: «استقلال اللغة مظهر استقلال الذات، ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة، واتحاد البيان سبيل إلى توحيد الرأي والهوى والثقافة، فإذا سمعت امرأ يتكلم غير لغته من غير ضرورة أو يلهج بغير لهجته من غير مناسبة فلا يخامرك شك أنه كذلك في خليقته وعقيدته ونمط تفكيره وأسلوب عمله، وإذا رأيت أمة تدير في أفواهها ألسنة الأمم وتستعير في أعمالها دلالات الناس فلا تتردد في الحكم عليها بالتبعية المدنية والعبودية الأدبية والوجود الملقق» (الزيات، ص ٣٣٦)، وفي قول الزيات ما يدل على تاريخية الصراع بين العربية وأعدائها، وما يؤكد قوة العربية واستمرار حياتها وحيويتها.

يحتاج إلى العلم في المقام الأول، وبالعلم يمكن أن تتلاقى الشعوب، وأن تتعارف، وأن تنتهي الحروب والصراعات، لأن الإنسان عدو لما يجهل، وصديق لما يعرف.

خاتمة:

إن وحدة الشعب العربي متحققة، وواضحة، ويكفي مراجعة جوانب الحياة في الوطن العربي، ليرى المرء الوحدة قائمة، فمجالات كثيرة كالطب والصيدلة والرياضة والتعليم والجيش والزراعة والإدارة والقانون والاتصال والمواصلات وغيرها من جوانب الحياة واحدة في أقطار الوطن العربي، هي واحدة في نظمها وأشكالها وأسمائها ومصطلحاتها، وقد يكون بعض الاختلاف هنا وهناك، ولكنه اختلاف التنوع، وهو أمر لا بد منه، وهو من سنن الحياة، وليس بالاختلاف الكلي الشامل، بل إن شوارع كثيرة تحمل في هذا القطر أسماء مدن في ذلك القطر، عدا عن أسماء المواطنين هنا أو هناك في معظم أقطار الوطن العربي، فهي متشابهة ومكررة بل هي واحدة.

وتبقى اللغة العربية أبرز أشكال الوحدة بين أقطار الوطن العربي، وتبقى من أهم عوامل الوحدة، واللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم، بل هي وسيلة للتفكير، وباللغة يفكر الإنسان، ومن غير اللغة لا يمكن أن يفكر،

ومن هنا لا بد من العناية بالعربية، في لغة الحديث اليومي، وفي التعليم، وفي وسائل الإعلام كافة، مقروءة ومسموعة ومرئية، ولا بد من الرقي بها، لتكون لغة الكلام أقرب العربي

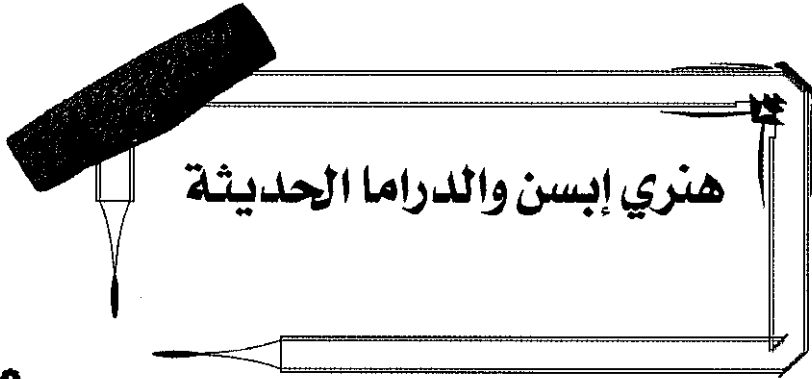
ما يمكن أن تكون من العربية الفصيحة، لأن الرقي باللغة هو رقي بالوعي، وتحقيق لوحدة الثقافة العربية ووحدة الشعب العربي.

المراجع المشار إليها في البحث

- ١- خشيم، علي فهمي، سفر العرب الأمازيغ، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ١٤٢٤ ميلاد الرسول محمد (ص).
- ٢- خشيم، علي فهمي، لسان العرب الأمازيغ، معجم عربي بربري مقارن، ج ١، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط. أولى ١٤٢٤.
- ٣- الخطيب، محمد كامل، اللغة العربية، القسم الرابع، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤.
- ٤- دورل، مارتن، «اللغة انتماء جغرافي»، الموسوعة اللغوية، المجلد الثالث، تحرير ن. ي. كولنج، تر. محيي الدين حميدي، ود. عبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود، ١٩٩٩ م ١٤٢١ هـ.
- ٥- الزيات، أحمد حسن، وحي الرسالة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، المجلد الأول، ط. سادسة، ١٩٥٧.
- ٦- السيد، د. محمود، في طرائق تدريس اللغة العربية، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٨.
- ٧- الصالح، صبحي، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط. ثالثة، ١٩٦٨.



الدراسات والبحوث



د. غالب سمعان

اتصف الكاتب المسرحي النرويجي هنري إبسن Henrik Ibsen (1828-1906) بالانطواء على الأخلاقية القوية، وبالميل إلى الأداء التحرري معاً، دون أن يكون في طبيعته، تناقض مبدئي، ودون أن يكون تجاوزه للشكليات والأعراف الاجتماعية، مترافقا مع مشاعر انحطاط أخلاقي، وهو تجاوز سلوكي بسيط بالمقارنة مع غيره. وعلى الرغم من النظرة التقليدية التي ترفض إمكانية أن يكون المرء أخلاقياً وتحررياً في الوقت ذاته، فإن

* أديب وكاتب جزائري (جامعة عنابة)

العمل الفني، الفنان جورج عشي.

Homer ووليم شكسبير William Shakespeare (١٥٦٤-١٦١٦) الذي صوّر في بعض من مسرحياته، نماذج بشرية ليست أخلاقية مثالية بالضرورة، وحتى الشاعر الإنكليزي الرومانتيكي الآخر جون كيتس John Keats (١٧٩٥-١٨٢١) استطاع إدراك معرفة ما عن هوميروس، ذي النزعة الإرادية القتالية، وعن وليم شكسبير أيضاً، على الرغم من أنه مال إلى حياة اللاكترات والتراخي، ويبدو أن الشاعر اللبناني خليل مطران (١٨٧٢-١٩٤٩) الذي احتفظ باعتقاده الإيماني العريق، قد فاقهما، عندما أظهر في بعض من أشعاره، دراية بما انطوى عليه نابليون بوناپرت، وجنوده، والفرعون المصري رمسيس الثاني، وأنصاره، من قدرات حربية، وميل إلى التفرد بالحكم، وإلى الطغيان، وفي الوقت ذاته، إلى الاهتمام بالعمران، وأوجه الحضارة المتوّعة.

وفي تضاعيف بعض من مسرحياته، تطرّق هنري إبسن إلى أوضاع إنسانية، وإمكانيات جوانيّة، لا يستطيع إدراكها والتعبير عنها، من يكتفي في حياته، بالانتقال من حيز الرذيلة إلى حيز الفضيلة، والمعروف أن الكاتب الأيرلندي أوسكار وايلد لم يُصوّر في مسرحياته، نماذج تحررية اعتقادية وسلوكيا، أو نماذج إرادية، وأكثر من أن تكون

التمعّن في حقائق هذه الحالة، يكشف وجود توافق بين الأخلاقية، والأداء الذي يتجاوز الشكائيات المألوفة، وهكذا فإنه ليس من المنطقي الاعتقاد بأن هذا الكاتب الهام، قد انتقل من طور الرذيلة إلى طور الفضيلة، أو أنه اختبر مقياس الخير والشر بكافة مظهراته، مثلما هو الحال لدى أدباء كأبي نواس (٧٦٢-٨١٣) العباسي، وأوسكار وايلد Oscar Wilde (١٨٥٤-١٩٠٠) الأيرلندي. وعلى القارئ أن ينتظر ممن امتلكوا تكويناً أخلاقياً كمثل، نوعية من الإبداعات التي تطال خبرات سيكولوجية أخلاقية، لا تستطيع النماذج التي اختبرت مقياس الخير والشر، من ألفه إلى يائه، أن تأتي بأشباهاها. والواقع أن التكوين الأخلاقي يفسح المجال أمام إمكانية إدراك التحررية، بمعناها الأكثر أصالة، أي بالمعنى الذي تكون فيه تحررية شاملة للفكر والسلوك معاً، وليست تلك التحررية السلوكية، التي تعني أن المرء واقع في حيز الضلال الأخلاقي. وأهم ما في هذه الحال، كون من ينطوي عليها، قادراً على إدراك قدر ذي شأن، من مكنونات النماذج البشرية الإرادية القوية، فالشاعر الإنكليزي الرومانتيكي الأخلاقي بيرسي شيلي Percy Shelley (١٧٩٢-١٨٢٢) استطاع إدراك شيء ما عن الشاعر هوميروس

وميلاً إلى تأكيد ذاته، ورفضاً لضيق الأفق الذي يتصف به الآخرون من حوله، والواقع أنه أمضى فترة شبابه في حالة من العزلة عن العالم، وعمل مساعداً في صيدلية عدة سنوات، وسعى إلى دراسة الطب، غير أنه اتجه إلى المسرح، واستمر على إخلاصه للإنتاج المسرحي حتى نهاية حياته، وأمام تدهور الحال القائمة في بلاده، ومظاهر التخلف التي تطال النواحي الإبداعية، هاجر إلى إيطاليا وألمانيا، واستقر فيهما ما يقرب من ثلاثة عقود من الزمن، وأخيراً عاد إلى وطنه، وتوفي فيه، بعد أن اكتسب شهرة عالمية، ككاتب مسرحي عظيم، وكرائد ثقافي.

ومما يُعرف عنه تفضيله المتمرّد على رجل السياسة، وامتداحه الحرّيات الشخصية، التي لفتت الثورات الأوروبية الأنظار إلى ضرورة أخذها بعين الاعتبار، وإذا كان قد اكتسب صفة الكاتب التقديمي، لدى طائفة الشباب الأحرار خارج بلاده، فإن المتابعة النقدية كشفت أنه كاتب أخلاقي وعظي في نهاية المطاف، وأكثر من هذا فإنه كاتب محافظ، بالنظر إلى إصراره العظيم على القيم الأخلاقية المثالية. ووفق المنظور ذاته، سيكون بالإمكان الادعاء بأن كتاباً أخلاقيين تحرّرين، كجبران خليل جبران،

أخلاقية مثالية فقط. ومع أن هذا الكاتب النرويجي واقفي في إبداعاته، فإنه زواج بين الواقعية والرمزية في كثير منها، وهو أقرب إلى نماذج رومانتيكية رمزية كجبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) في جوهره الأخلاقي، وأدائه العام، على أنه انطلق من الواقع، باتجاه التأكيد على المثال الأخلاقي الرفيع، وكشف القناع عن البطل الرومانتيكي، الحالم وغير الواقعي، ولم ينظر إلى العيوب الاجتماعية والنفسية، انطلاقاً من إمكانية كونه ألصق بالمثالية منه بالوقائع العينية القائمة، كالكاتب اللبناني المذكور، وكالشاعر الإنكليزي الرومانتيكي المثالي بيرسي شيلي، وإنه لمن المؤكد أن تكون المتاعب التي رافقت هذين الكاتبين المثاليين، أعظم مما يتعرّض له الواقعيون عادة. ومن ناحية أخرى، فإن الطبيعة الأخلاقية التحرّرية تفسح المجال أمام رؤية أعمق، وأكثر اتساعاً، وأمام رغبة في تأكيد الذات، وتحقيقها، وإصرار على مبادئ الصدق والحرية والحقيقة العارية، في حين أن النماذج الأكثر تمسكاً بالأعراف الاجتماعية، تكون أقل قدرة على إدراك أبعاد العيوب القائمة في الواقع، وأقل حماساً من النماذج الأخلاقية التحرّرية على مكافحتها، وتسليط الأضواء عليها. ومنذ بداياته أظهر هنري إبسن عناداً،



وبيرسي شيلي، هم كتاب محافظون، فالحقيقة المموسة هي أن كتاباتهم التي بدت لدى نشرها، غير عابئة بالشكليات والأعراف المألوفة، وغير أخلاقية لهذا السبب الظاهري، أعطت دفعة هائلة للتعاليم الأخلاقية المثالية، التي تركز إليها تلك الأعراف الاجتماعية، وهكذا فإن أولئك المثاليين الواقعيين، الذين مالوا إلى المثال الأعلى، ونفروا من الواقع ومظاهر التردّي فيه، والذين انطلقوا من الواقع العيني، وأخرجوا أفكارهم ومشاعرهم المثالية في إبداعاتهم، حافظوا في النهاية، على النظام المعرف القائم في العالم، وكان لهم الدور الأكبر في حمايته، ولا يُقل.

النرويجي قاوم ضيق الأفق لدى عامة الناس في زمانه، وإنه من هذه الناحية، أشبه ما يكون بالفيلسوف الألماني فريدريك نيتشة Friedrich Nietzsche (1844-1900) فإن التأمل الفكري يكشف اختلافاً حاداً بينهما، فالمشروع الذي أنجزه هنري إبسن، هدف إلى استئصال العيوب الاجتماعية والنفسية، ولم يتطرق أبداً إلى النظام المعرف المثالي، الذي قدّره العالم، واعتقد به آلاف من السنين، أما الفيلسوف الألماني فقد جعل جلّ اهتمامه إثارة الإشكاليات التي ينطوي

اتهم البعض لهم، بأنهم تصرفوا بطريقة غير أخلاقية أحياناً، من هذه الحقيقة أبدأ. والمعروف أن هنري إبسن أنجب ابناً غير شرعي من امرأة خادمة، ووجب عليه أن يرعاه، وأن جسران خليل جبران، وبيرسي شيلي، أقدموا على إنشاء علاقات غرامية في حياتهما، دون أن تكون علاقات شرعية، وكل هؤلاء يركّزون أكثر ما يركّزون، على صدق النية والقصد، وعلى الحرية والنبيل الداخلي. وعندما يُقال إن الكاتب

واستغنى عن اهتمامه بها، عندما بدأ واضحا أن مشروعته الحقيقي هو تمرّد أخلاقي واجتماعي على أسس عالمه المعاصر له. ومما هو لافت لدى الشاعر العباسي أبي العتاهية (٧٤٨-٨٢٥) الذي تنقل بين الاندفاع وراء الرغبات الدنيوية، وبين التزهّد وإشراطاته، أنه واصل امتداحه للمتّع والجماليات الحسية التي طاردها أثناء حياته، في الفترة التي أصبح فيها واقعاً داخل دائرة التزهّد تماماً، وغير قادر على استعادتها، أو إعادة اختبارها، وأن الكاتب الأيرلندي أوسكار وايلد الذي انتقل كمثله، من طور جمالي حسي، إلى طور أخلاقي صوفي، أعلن في النهاية أنه ابتكر ابتكاراً عظيماً الشأن عندما أعلن مبدأ الفن من أجل الفن، أي عندما بلغت إشادته بالمتّع والجماليات الحسية، أقصى درجات احتدادها، وأغرب ما في الأمر أن تكون المتّع الدنيوية لديهما، مما يمثل الحقائق البشرية، بأكثر مما تمثلها متطلبات الأخلاق والتصوّف، وأن يواصل الناس إيمانهم بأشياء ليست من صميم تكوينهم الجواني. وفي ميدان الفلسفة أشار الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون Henry Bergson (١٨٥٩-١٩٤١) إلى طائفة التقليديين، الذين يحافظون على الشرائع والقيم من الناحية الظاهرية،

عليها ذلك النظام المعرفي، وتبيان ما اعتقد أنها عيوبه الكامنة فيه، ومن الطبيعي أن يكون الرواد والعظماء قليلي العدد، بالمقارنة مع الأكثرية، التي تتبنى النظام المعرفي القائم، تبنياً تقليدياً، دون أن تكون قادرة على إعادة إنتاجه ذاتياً، وهكذا فإن البنية التقليدية السكونية الراكدة، تؤدي إلى ظهور النفاق والعيوب على اختلافها، مع بقائها على اعتقادها بالمبادئ الأخلاقية، التي تكون نظرية لا غنى عنها للحياة البشرية، مع العلم أن أتباعها لا يكونون قادرين على تطبيق وصاياها، والأخذ بها في حياتهم العامة، أي أن عيوبهم إنما هي عجزهم عن أن يكونوا أخلاقيين تماماً، على افتراض أن النظام المعرفي أو النظرية التي يؤمنون بها، صائبة تماماً، وخالية من أية عيوب أو نواقص، وهذه الأجواء تحرّض النماذج المتفوقة كهنري إبسن، وجبران خليل جبران، وبيرسی شيلي، على التمرّد والثورة، الهادفة إلى إعادة التوافق والتناغم بين النظرية، والتطبيق الحياتي الواقعي لمتطلباتها وتعاليمها، ومرة أخرى تبدو حقيقة الدور الذي يؤدونه في الحفاظ على المبادئ الأخلاقية المثالية.

وفي هذا السياق اهتم الكاتب النرويجي في البداية، بالجماليات في حد ذاتها،

سورن كيركجارد Soren Kierkegaard (1813-1855) الذي أصر على أن التجربة الأخلاقية الإيمانية، تجربة وجودية ذاتية، وأثار في مؤلفاته قضايا القرار والاختيار الحر، واحتمال المسؤولية الناجمة عنهما، بالإضافة إلى جملة من القضايا الأخرى، كالصدق مع الذات، ومع الرسالة التي يهدف المرء إلى إنجازها، وكإشكالية الذنب الذي يقترفه ويعكّر عليه صفو حياته الداخلية، فيدفعه إلى معاناة ضميره، وإلى إراحة وجدانه، عبر الإقدام على القيام بالواجبات والأفعال الأخلاقية الإيثارية. أما جورج برنارد شو George Bernard Shaw (1856-1950) فقد كان أهم كاتب مسرحي تأثر بالكاتب النرويجي، وأتى في كتابه (جوهر الإبسية) على مسرحياته، التي تناولت الأحوال الاجتماعية تحديداً، واعتبر عنصر الحوار البناء، أعظم إنجاز أدخله إلى المسرح، والمعروف أن هذا الكاتب اهتم بالمبادئ الاشتراكية، وأظهر مرة أخرى، التوافق الكبير بين الفكرين الأخلاقي المثالي من ناحية، والاشتراكي من ناحية أخرى، وأن أولئك الذين ينتمون إلى أحدهما، ويحاربون الفريق الآخر، لا يكونون أفراداً متفوقين من الناحية الفكرية أو الوجدانية. أما عن طبيعة ومضمون المسرحيات التي كتبها هنري

ويحاولون عبثاً في قرارة أنفسهم، أن يتقدموا باتجاه الانطواء عليها، والذين تكون أخلاقهم المنغلقة على توافق مع العادات، وساعية إلى التلاحم الاجتماعي، وليس مع مبادئ الحرية والاستقلالية الفردية، وطائفة المتفوقين أخلاقياً، الذين يتمكنون من إدغامها في ذاتهم، ومن إعادة إنشائها، والدعوة إليها، وهؤلاء هم الأبطال والرواد الذين تكون أخلاقهم منفتحة، أي فردية وشخصية وطافحة بالحرية والحب، وعلى صلة مع مبدأ الحياة ذاته، وفي هذا إشارة إلى أن نماذج هنري إبسن، وجبران خليل جبران، وبيرسي شيلي، أرقى من الناحية الأخلاقية، من النماذج الركودية المحافظة، على الرغم من الاتهامات التي كالتها لهم أولئك الذين أخرجتهم إبداعاتهم الأدبية عن طورهم. ومع أن الشاعر العربي السوري نزار قباني (1922-1998) اعتاد على مهاجمة ضيق الأفق، والطبيعة التقليدية الخاملة لدى عامة الناس، من خلال إبداعات شعرية متتالية، واكبت مسيرته الإبداعية، التي تواصلت أكثر من خمسين عاماً، فإنه لم يخلف وراءه مشروعاً أخلاقياً مثالياً، يتصف بالتمام والاتساق والنضج.

وفي هذا السياق تأثر الكاتب النرويجي أكثر ما تأثر، بالفيلسوف الدانماركي الوجودي

إلى حيِّز الواقع، وأخيراً مات في محطة للسكك الحديدية، بعيداً عن أبنائه وزوجته، وربما أمكن اعتبار سعيه الذي أخرجه في إبداعاته الأدبية، سعيّاً أخلاقياً مثالياً، ظافراً إلى درجة كبيرة، وهو في كل الأحوال، أعظم من أن يتخلى عن الواجب والحب، وإنه لمن الغريب أن يوجّه الكاتب البريطاني المحافظ بول جونسون Paul Johnson في كتابه (المثقفون Intellectuals) اتهامات هامة لهذا الكاتب الروسي الكبير، من مثل الغيرة، والتناحر مع أفراد العائلة، وعدم الاهتمام بأحوالهم الحياتية، فالحقيقة هي أن المثال الأخلاقي الأعلى قائم في العالم، وعندما يفشل أحدهم في إدراكه، أو تتضح لدى محاولته الإقدام على الاقتراب منه باستمرار، طائفة من العراقيين والعيوب، والأحوال الطارئة الغربية، فإن على المرء أن يفكر في إمكانية أن تكون فكرة المثال الأعلى لدى الإنسان الساعي إلى الاتحاد بها، مما ينطوي على عيب ما، كأن تكون وهما أو شأنا لا يعبر عن الحقيقة البشرية الكامنة، وهو الأمر الذي لم يتطرق إليه هنري إبسن، واهتم بإيضاح خفاياه فريدريك نيتشة، اهتماماً أنزله من عليائه، وأزال عنه الأقنعة البدیعة التي يتخفى وراءها، ومن ناحية أخرى، ما من غرابة أبداً، عندما يسعى

إبسن، فقد جرت العادة على تصنيفها إلى مسرحيات شعرية، مكتوبة في المرحلة الأولى من إبداعه الأدبي، ومسرحيات اجتماعية في المرحلة الثانية، وأخرى نفسية تركّز على الأزمت الأخلاقية، التي تعيشها النماذج البشرية من الداخل، وتسعى جاهدة إلى التطهر من ذنوبها، التي التصقت بها، ومن مسرحيات الكاتب الشعرية تبرز مسرحيته (براند Brand) التي تسوي حكاية كاهن يتبع مبادئه العليا بإصرار، دون أي اهتمام بالتسويات، أو أي قدر من التنازل، إلى أن يؤدي به أداؤه، إلى تجاوزه متطلبات الواجب والحب، فينأى عنه أبنائه وأتباعه، بالإضافة إلى زوجته، وأخيراً يموت في كتلة هائلة من الثلج، والفكرة التي يعرضها الكاتب، تركّز على أداء مثالي، غير قادر على إدراك المثالية الحقيقية، والنأي بالنفس عن الزيف الذي قد يطرأ عليها، وهو ما يُعطي انطباعاً أن هذا النموذج البشري أراد أن يكون مثالياً، غير أنه أخطأ سواء السبيل. والمأثور عن الكاتب الروسي الأخلاقي ليون تولستوي Leo Tolstoy (1828-1910) تقدّمه عبر مراحل حياته، باتجاه المثالية الأخلاقية، التي انتهت بتخليه عن أملاكه، وعن العائلة التي اضطربت أحوالها، جراء ميله العميق إلى إخراج قناعاته الأخلاقية

دون أن يكون هذا الموقف في جوهره، غير أخلاقي، ما دامت الغاية النهائية أخلاقية مثالية، لا تتوانى عن تخطي الشكليات، والمخاطرة باتهامها بالانتهازية والأنانية، والواقع أن الكاتب أتى على هذه الشخصية المسرحية، وأشار إلى أن أهم ما فيها، هو رفضها المألوف والعادي، والاختزال داخل نطاق الواقع العادي، ذي المحدودية الفكرية والشعورية. ووفق هذه الرؤية فإن إقدام البطل إينياس في ملحمة (الإنيادة) للشاعر الروماني فيرجيل، على فراق ملكة قرطاجة ديدو، والشاعر بيرسي شيلي على فراق زوجته الأولى، والفرار مع امرأة أخرى، إنما هو أداء هادف إلى تحقيق الذات، على الرغم من أنه أدى إلى انتحار ديدو، وزوجة الشاعر الإنكليزي الأولى. ومما يُذكر عن الشاعر الفرنسي شارل بودليير Charles Baudelaire (1821-1867) إحساسه بالرعب من المؤلف كهنري إبسن، والبطل بير جنت، وعدم احتفائه بالمثال الأخلاقي الأعلى، وعدم كونه على الرغم من هذا انتهازياً أو أنانياً، بطريقة تدفع باتجاه إلحاق أذى عظيم بأي ممن التقاهم في حياته.

وفي بداية المرحلة الاجتماعية أنتج هنري إبسن مسرحية (أعمدة المجتمع Pillars of Society) التي تكشف أقمعة من اعتبروا

أحدهم إلى المثال الأعلى، ما دام قائماً في الواقع الذي تحيا فيه عامة الناس. ودائماً تبرز في مؤلفات هنري إبسن، من خلال الوقائع الحياتية العادية، إشكالية العلاقة بين الفرد والمجتمع، وإشكالية العلاقة بين الواقع والخيال، أو الأحلام اللاواقعية، بالإضافة إلى إشكالية المثالية الحقيقية والمثالية الزائفة.

أما مسرحيته الشعرية الأخرى (بير جنت Peer Gynt) فقد قدّرها الإسكندنافيون، كتقدير الألمان لكتاب (فاوست) الذي أبدعه جوته Goethe (1749-1832) وتقدير الإسبان لكتاب (دونكيشوت) الذي أبدعه سيرفانتس Cervantes (1547-1616) وفيها يعتمد المؤلف على الفن الشعبي، الغني في إسكندنافية، ويُعبّر من خلالها عن تطلعاتهم، ورغباتهم في تحقيق ذواتهم، وبير جنت هو ذلك البطل الأسطوري، الذي اتصف بالأنانية والانتهازية، وانقضت حياته في مغامرات كوّنت في مجموعها العام، أوديسة غير مثمرة، إلى أن انتهى بين ذراعي محبوبته الغفورتين، بعدما تخلى عن حبها في البداية، وهنا يبرز إصرار الكاتب وتأكيده على ضرورة أن يسعى المرء إلى إنجاز رسالته، وتحقيق مشروع الحياتي، بصرف النظر عن الاعترافات الاجتماعية الأخلاقية،

باستقلالية، وتزور إمضاء والدها على وثيقة رسمية، هادفة إلى إنقاذ زوجها من موقف تعرّض له، وفيما بعد يصبح هذا الزوج الفيكتوري التقليدي، صاحب بنك، ويعمد الموظف كروجستاد إلى ابتزازها، وتعريضها للفضيحة، وأمام هذا التطور يرتكس زوجها باشمئزاز، ويرفض أن تقوم بأي عمل دون معرفته، ولا يُصدّق أنها قادرة على احتمال أي نوع من المسؤولية، وهذا كله يترافق مع إصراره على أنه يجبها، ومتمّم بها، وأخيراً تكتشف أنها تحيا كما لو كانت دون شأن، وتهجر زوجها وأطفالها، كي تفي بواجبها تجاه ذاتها، التي أهملتها، وتجاهلت بإهمالها لها أنها كائن إنساني عاقل، ووفق هنري إبسن فإنه من المعيب أن يعيش الزوج مع زوجته، دون أن تكون هناك إمكانية كي يتقبّل كل منهما الآخر، وإن واجب المرء تجاه نفسه، أكثر أهمية من أية واجبات أخرى، وهو طرح على قدر رفيع من المعقولة، فالمبادئ الأخلاقية، والمثال الأعلى، في حال كونها حقائق إنسانية، فإنها مما يجعل المرء قادراً بالفعل على تحقيق ذاته، أما سيطرة الإلزامات الاجتماعية القسرية على الأفراد، فلن تؤدي إلى غير عرقلة إمكانيات نموهم الذاتي. والمعلوم أن الكاتب الحقوقي المصري قاسم أمين (١٨٦٣-

أنفسهم قادة مهمين، وفيها يُطالعنا نموذج رجل أعمال انتهازي ثري، مجرد من المبادئ الخُلقية، أي إنه يمثل نقياً للنموذج الأخلاقي المثالي، ويكاد يؤدي أدائه إلى وفاة ابنه، والواقع أن الكاتب حاول كشف الزيف والأكاذيب، التي يقتات عليها الناس في السياق الحياتي الاجتماعي، وغياب مظاهر الصدق والحق، والإصرار على المظاهر الخارجية، دون اهتمام بالاعتبارات الإنسانية الحقيقية. وبعد ذلك أخرج الكاتب مسرحيته (بيت الدمية A Doll's House) التي نالت شهرة واسعة في العالم، واعتبرت أهم مؤلفاته الداعية إلى تحرير المرأة، ومساواتها بالرجل، أما هو فقد أعلن أن هدفه الأساسي اقتصر على إظهار الأسس السليمة، التي ينبغي أن ترتكز عليها العلاقات الإنسانية الأوسع، وفيها تبدو الزوجة نورا هيلمير أشبه ما تكون بالدمية، في مجتمع ذكوري، ينظر إلى المرأة وسلوكها، اعتماداً على المبادئ الموضوعية من قبل الرجل، ويحرمها من المشاركة الفاعلة في الحياة العائلية والاجتماعية، وأكثر من هذا فإن زوجها تورفالد الأناني، يسعى إلى إحاطتها بكل أسباب العناية، ويرفض فكرة أن تكون قادرة على الاستقلال بآرائها وسلوكياتها، على أنها تلجأ إلى التصرف

ذاته، وإنماء قدراته الذاتية المستقلة، وثمة فارق بين أن يكون هناك اهتمام بالمعايير الاجتماعية، واعتراف بها، على حساب الأحوال الفردية الخاصة، وأن تكون هناك اعتقادات تدفع باتجاه تحرير الكائن الفرد من سطوة السلطات الاجتماعية القاهرة. والهام أن مسرحية (بيت الدمية) أثارت اعتراضات هائلة في أوروبا، وأن الممثلات في ألمانيا رفضن أن يلعبن دور نورا هيلمر، ما لم يُغيّر الكاتب النهاية، وهكذا فإنه استجابة للضغط العام، غيرّها، وجعل البطلة تعود إلى بيتها للاعتناء بأطفالها، وفيما بعد ندم على ما بدر منه، وفي كل الأحوال، فإن الإخراجات اللاحقة والحالية، اكتفت بالنص الأصلي، ووفق المعايير الفيكتورية للزواج، في القرن التاسع عشر، فإن نورا هيلمر تمثل نموذج الزوجة الكاملة، وزوجها يبدو كاملاً هو الآخر، ولدى تراجع كروجستاد عن ابتزازها، فإن حلّ الأزمة التي تعصف بالعائلة، يصبح أمراً واقعاً، على أن المعطيات الجديدة وفق الكاتب والبطلة، اختلفت عما كانت عليه، ولم تعد قائمة إمكانية أن تحيا كدمية، دون استقلالية، ودون أن تكون قادرة على التصرف المستقل، واحتمال المسؤولية المترتبة على تصرفها. ويبدو أن أولئك المفكرين والأدباء الذين طالبوا

(١٩٠٨) كان من الرواد الأوائل، الذين دافعوا في العالم العربي، عن حقوق المرأة، وضرورة تحريرها، ومساواتها بالرجل، وإفساح المجال أمام مقدراتها كي تنمو، وتصبّ في خدمة الرقي الاجتماعي العام، وأن دعوته هذه التي أبرزها في كتابيه (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) لاقت ردوداً عنيفة، من المرجعيّات المحافظة، على الرغم من إصرار المؤلف على المبادئ الأخلاقية الرفيعة، وعدم تجاوزه للأعراف والشكليات القائمة في المجتمع، وهو ما يُوحى بأن الاعتراضات قد أعلنها من يرون في واجب المرء تجاه النظام الاجتماعي القائم، أهمية أكبر من واجبه تجاه نفسه. والواقع أنّ طرح هنري إيسن يدفع باتجاه التقدم، فمن تكون ذواتهم نامية، أقدر على الارتقاء، ممن يكونون مكبلين بالأغلال الاجتماعية، وانطلاقاً من الرؤية الرومانتيكية الصوفية الثورية، هاجم جبران خليل جبران في مؤلفه (العواصف) وتحت عنوان «المخدرات والمباضع» الأداء الأخلاقي التقليدي المتخاذل، الذي لا يأنف من اتخاذ النفاق، والتسويات المؤقتة للمشكلات الزوجية، وغيرها من المشكلات الاجتماعية، سبيلاً للإبقاء على الحال القائمة، الأمر الذي يؤدي إلى محاصرة الإنسان، وإعاقة تقدّمه باتجاه تحقيق

أنه ورث عن والديه داء السفلس، ووقع في غرام ريجينا إنغسترا، التي أنجبها والده بطريقة غير شرعية، وهو ما يعني أنه وقع في غرام أخته غير الشقيقة، وفي النهاية يتمنى الحياة في النور، واختبار البهجة، غير أنه يُعاني الخوف من الكآبة والظلمة، ويصبح مجنوناً، وراغباً في الموت الرحيم، الذي يخلصه من مأساة حياته، ويبدو أن الزوج ألفينج الذي اختار حياة المجون والفسق، لم يستطع الفكك من أسر الرذيلة أبداً، وهو ما يقرّبه من نماذج أدبية معينة، كنموذج «دوريان غراي» في رواية (صورة دوريان غراي) للكاتب الأيرلندي أوسكار وايلد الذي ورث عن والديه، جملة من العيوب الوراثية والنفسية في أغلبها، والتي لعبت دوراً هاماً في انحرافه الأخلاقي الكبير، وتورطه التام في الخطيئة. واللافت أن النماذج البشرية الأخلاقية لا تنفر ممن اقترفوا الأخطاء، واعتذروا عما بدر عنهم من أفعال أثمة، واندفعوا باتجاه الندم والتكفير الصادق عن ذنوبهم، فالكاتب المسرحي الإنكليزي توماس ستيرن إليوت (1888-1965) T. S. Eliot يهتم بالشعراء الميتافيزيقيين اهتماماً خاصاً، ومنهم الشاعر جون دن John Donne (1572-1631) الذي عبّر في واحدة من أشعاره، عن رغبته في مواصلة

بإبقاء مسافة بين الزوجين، واحتفاظ كل منهما باستقلاليته، كالفيلسوف الدانماركي سورن كيركجارد، والشاعر الألماني فريدريك هولدرلين، واللبناني جبران خليل جبران، كانوا على صواب، فيما ذهبوا إليه، وليس من المعقول أن يعرقل الزوج زوجته، ويمنع إمكانياتها الذاتية من التفتح التام.

وابتداء من هذه المسرحية تظهر في مسرحيات الكاتب الاجتماعية الأخرى، نماذج تقليدية تؤمن بالمعايير الفيكتورية، ولا تقدر على مواجهتها أو تجاوزها، ونماذج أخرى تسعى إلى تحقيق ذاتها، وإبراز الجوانب الأخلاقية المثالية، التي تفضح النفاق والكذب، ففي مسرحية (الأشباح Ghosts) تتغلب الأعراف الاجتماعية على النماذج البشرية، وتلعب دوراً مدمراً لحياتها، دون أن تكون قادرة على مواجهتها أبداً، فالبطلة هيلين ألفينج تحيا مع زوجها، حياة قائمة على أسس أخلاقية فيكتورية، وعلى الرغم من انصراف زوجها الكاتب ألفينج، إلى إنشاء العلاقات الغرامية الفاسقة، فإنها تقبل في هجره، والواقع أنها تحاول بناء ميثم، كي تستنزف ثروة زوجها، وتقوم بإرسال ابنها أوزفالد إلى باريس، تحت ستار زائف، يُقدّم انطباعاً بأن أباه عاش حياة أخلاقية فاضلة، إلى أن يتضح

أن تنشره الصحف، ويقوله الناس، وقبل ذلك رفض تأمينها، خوفاً من اتهامه بأنه لا يؤمن بالعناية الإلهية، وأخيراً تكتشف السيدة ألفينج أن معتقداته مكونة من ضرورات وواجبات، لها تأثير قاتل ومدمر، وأنها أشبه ما تكون بالنسج الآلي. أما عن ردود الأفعال التي رافقت ظهور المسرحية، فقد اتصفت بالرفض والغضب، ومما قالتها إحدى الصحف اللندنية أنها «عمل قدر مصنوع للعامّة» وفي بلاده شعر الناس بالصدمة، بأكثر من شعورهم بأن المسرحية تمثل ثورة فكرية، من أي نوع، والواقع أن التحرريين والمحافظين انقلبوا ضد الكاتب، الذي أراد إزاحة ما أسماه المراكز الحدودية، وإفساح المجال أمام إظهار أدوار مسرحية، غير مألوفة في تاريخ المسرح. وثمة شأن لافت، وهو أن المجتمع الفيكتوري العريق، الذي يصفه الكاتب، يتدهور باتجاه الانحطاط الأخلاقي، وهذه الظاهرة مُنتظرة من ناحية واقعية، وهي تحرّض النماذج الأخلاقية المثالية، على كشفها، وتسليط الأضواء عليها، وهكذا فإن تلك النماذج تُعاود التأكيد على المبادئ السامية، التي نادى بها النظام المعرفي القائم في السياق الاجتماعي، وثمة فارق بين إعادة إنتاج نظام أخلاقي مثالي قائم، أو إدخال تعديلات عليه، وبين إنتاج

مُطاردة النساء، في الوقت الذي أعلن فيه لله الخالق، أن لديه المزيد من الذنوب التي يرغب في اقترافها، وأنه يأمل على الدوام، في عفوه وغفرانه، ونحن أمام حالة غريبة يتم إعلانها، والترويج لها، وهي الحالة التي تطل العلاقة بين الخالق والمخلوق، وبالطبع فإن أوسكار وايلد ينتمي إلى الطائفة ذاتها من البشر، فقد طلب المغفرة أخيراً، وندم على فساده الأخلاقي. وإذا كان هنري إبسن قد فضح في هذه المسرحية الكذب والنفاق في المجتمع الفيكتوري، الخائف من النور والبساطة والحقائق العارية، والعاجز عن احتمالها، إلى الدرجة التي تجعله يفضل العيش على مبادئ زائفة، أقرب ما تكون إلى «الأشباح» البالية، المأخوذة من الماضي، والقادرة على التدخل السافر في مصائر الشخصيات، وتدميرها، أي على اقتصاص الحاضر، وفرض ضوابطها عليه. وبالمقارنة مع نورا هيلمر، فإن هيلين ألفينج تبدو أضعف من أن تكون قادرة على مواجهة «الأشباح» التي تحاصرها من كل اتجاه، أما ماندريز فيلعب دور الفيكتوري التقليدي، المنافق بطبعه، فقد طلب إلى السيدة المذكورة أن تبقى مع زوجها، على الرغم من أدائه القاسق، وعندما احترق الميثم الذي أقامته، فإنه لم يهتم بضياعه، بل بما يُمكن

شكره على تقريره، غير أنهم جميعاً يفضلون المكاسب التي تحققت، ويهاجمونه ويتهمونه بأنه «عدو الشعب» وهنري إبسن يطرح في هذه المسرحية، أفكاراً تتعلق بالديموقراطية والبيروقراطية والانحطاط الأخلاقي، والميل إلى الغش والتخلف، عندما يتعلق الأمر بالحياة الروحية للمسؤولين في البلدة، ولعامة الناس فيها، وبالذور الذي ينبغي للطليعة المتفوقة أخلاقياً، أن تقوم به، ومما يقرره أن العقل المستقل، يبقى متقدماً على العقل التقليدي بأعوام عديدة، وأنه يواصل تقدّمه باطراد، دون أن يكون التقليديون قادرين على اللحاق به أبداً، وأن الرجل الأقوى في العالم، هو من يقدر على الوقوف وحده أطول فترة من الزمن، والواقع أن الدكتور ستوكمان يتصف كالكاتب، بالعناد والإصرار على موقفه، والقدرة على مواجهة الآخرين، وتحدي اعتراضاتهم، دون أن تكون الوشاية أو الخيبات المتلاحقة، قادرة على النيل من إرادته وتصميمه، وثمة صراع بين الحق والقوة، وأهمية أن يكون الحق ذاته مدعوماً بالقوة، التي تمكّنه من تحقيق الظفر، وكان الشاعر الإنكليزي روديارد كيبلينغ Rudyard Kipling (1865-1936) قد أشار في قصيدته التي حملت عنوان (إذا) إلى أن تلك الميزات مما يتصف

نظام معرّف في مُغاير، مثلما فعل الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، الذي اتهم النظام الأخلاقي المثالي، بأنه غير صائب تماماً، في الوقت الذي اتهم فيه هنري إبسن، وجبران خليل جبران، وغيرهما، كالفيلسوف ابن مسكويه في كتابه (تطهير الأعراق وتهذيب الأخلاق) الأداء البشري القائم في ظله، بأنه كاذب ومنافق، ومتأنق ظاهرياً، ومتعفن من الداخل.

والواضح أن المعارضة أثارت الكاتب النزويجي، ولم تمنعه من إظهار أفكاره، والتصريح بها، وهكذا فإنه ردّ على اعتراضات النقاد، وعامة الناس، بإنتاج مسرحية (عدو الشعب An Enemy of the People) التي يُصوّر فيها رجلاً شجاعاً واحداً، في مواجهة الآخرين، فني إحدى البلدات الساحلية، يتم تطوير حمّامات طبيعية، وتنتظر البلدة تدفقاً في السيّاح، وشهرة ومكاسب مالية، وعندما تبدأ هذه التطورات بالظهور، يكتشف الدكتور ستوكمان أن الحمّامات ملوثة، وغير صالحة للاستشفاء الطبيعي، وأنها تؤدي بالحقيقة إلى إصابة السيّاح بالمرض، ويعتقد أن إيصال الخبر إلى السلطة التي يمثلها أخوه العمدة، وإلى عامة الناس، سوف يدفعهم إلى إغلاق الحمّامات، وإلى

الحلمة، التي تلعب دوراً وقائياً، قادراً على حماية الحياة الوجدانية، عبر أساليب هروبية، كالاعتماد على طاقة الخيال، وعلى التراخي والتكاسل، والتعلق بالأحلام اللاواقعية، ومع ذلك فإن إبداعاته الأدبية الرومانتيكية لها مضامينها الفكرية والوجدانية ذات القيمة العالية، وإن كان هنري إبسن الواقعي من أولئك الكتاب الذين أصروا على الواقع، وضرورة التخلي عن الأوهام والتهويمات الباطلة، ففي مسرحيته (البطة البرية *The Wild Duck*) تعيش الشخصيات وتقتات، على أوهام كاذبة، وادعاءات فارغة، فالزوج هجلمار إيكدال المصنوع، يعتقد أنه مخترع عظيم، والعجوز إيكدال يلجأ إلى الماضي عندما كان رياضياً قديراً، والعائلة بشكل عام، تخاف النور والحقيقة، وتفضّل الأوهام، والاكتفاء بالحال القائمة، دون أن تكون لديها الجرأة للكشف عن الحقائق التراجيدية في العائلة، ومن أسرارها أن التاجر هاكون ويرل يبنى علاقة حب مع جينا إيكدال ربة بيته، ثم يزوجها إلى هجلمار، كي يجعل الطفلة شرعية، وهو يقترف جريمة قتل، ويدفع بالعجوز إيكدال إلى السجن، وعندما يكشف هذه الحقائق أمام ابنه جريجرز ويرل، فإنه يُعبر عن مشاعر الذنب، والواقع أن البطل

به الرجل الحقيقي، دون غيره من الناس. وفيما يتعلق بالتطبيقات السياسية اعتبر المفكر الفرنسي جان جاك روسو *Jean Jacques Rousseau* (1712-1778) أن إرادة الأغلبية ينبغي أن تكون على توافق مع الإرادة العامة؛ أي مع إمكانية ارتقاء المجتمع، وتقدمه، فإذا تعارضت معها، فإنها تكون حمقاء وجاهلة، والشأن التراجيدي في المسرحية يتمثل في أن الدكتور ستوكمان يدافع عن الإرادة العامة وحده. ومما يلفت النظر أن أصالة هنري إبسن، وإصراره على إعلان مواقف، استمر طوال حياته، فعندما قابل الملك السويدي أوسكار الثاني *Oscar II* (1829-1907) في المأدبة التي أقامها على شرفه، اعتبر أن كتابة (الأشباح) أمر واجب عليه أن يقوم به، وذلك عندما أشار الملك المعروف بالنزعة المحافظة، إلى أنها مسرحية ما كان ينبغي له أن يكتبها.

ومما يقال عن الشاعر الإنكليزي الرومانتيكي جون كيتس أنه تأثر بالانتقادات العنيفة التي وجهتها الدوريات المحافظة، لقصيدته الطويلة (إنديميون) على أنه في الواقع تابع مشروعه الإبداعي، وكتب أشعاراً كثيرة أخرى، تتصف بالنضج الفني، وبالأصالة الإبداعية، وجون كيتس هو ذلك الشاعر الذي أبدى اهتماماً بالرومانتيكية

تدخلها جيداً، فإن الأوهام تبقى قائمة إلى درجة كبيرة، ومثل هذه الطريقة في النظر إلى الأمور، بصرف النظر عن قضية التشاؤم واليأس وغيرها، تجعل من أدباء مفكرين كجياكومو ليوباردي وفريدريك نيتشة، مالكين أفقاً فكرياً ووجدانياً، أكثر اتساعاً مما لكتاب واقعيين كهنري إيسن، دون أن تكون هناك إمكانية واثقة للادعاء بأن أمثاله، أكثر أهمية للحياة البشرية من شعراء رومانتيكيين حاملين كجسون كيتس، ففي الوقت الذي اعتقد فيه الكاتب النرويجي بالمبادئ الأخلاقية المثالية، فإن الشاعر الرومانتيكي الإنكليزي نأى بنفسه عنها، واتجه إلى التعلق بالمبادئ الجمالية، واقتصر اهتمامه بالأخلاق على امتداح التعاطف والحنو بين البشر، قصد تخفيف المعاناة القائمة في الحياة البشرية، ومثل هذا التجاوز للمعايير التي ينطوي عليها النظام المعرفي، القائم في العالمين الغربي والشرقي معاً، يجعل منه شاعراً تحريراً تماماً، وليس تحريراً مدافعا عن القيم المحافظة، كهنري إيسن، وجبران خليل جبران، وبيرسي شيلي. وثمة إشكالية على قدر رفيع من الأهمية، فالمعرفة الواقعية الحسية، وفق الفيلسوف اليوناني أفلاطون، باطلّة وعابرة، وواقعة داخل دائرة الأوهام، في حين أن معرفة

في المسرحية هو جريجز، الذي يسعى إلى اكتشاف ما وراء الهياكل الجوفاء، التي توجد في العائلة، المستقرة استقرارها الهش، غير أن قدراته على متابعة قضية المثال الأعلى، لا تكون في مقدوره تماماً، وهكذا فإن الشخصيات المجروحة تحاول العيش في ظل أوهامها، وادعاءاتها الفارغة، كالبطلة البرية المجروحة، التي تغوص في البحر، وتربط نفسها بالأعشاب في قاعه. وفي النهاية يستيقظ هجالمار، ويفكر بهجر زوجته، أما الابنة المجروحة فتعمد إلى إطلاق النار على نفسها، وفي المسرحية يؤكد الدكتور ريلينج أن حياة الوهم مطلوبة، وأنه ما من داع للبحث عن المثل الأعلى، ومن الأفضل أن يحيا البشر العاديون على الأكاذيب، التي تؤمن لهم نوعاً من الاستقرار، في مقابل الاضطراب الذي يقود إليه اكتشاف الحقائق، والخروج من الظلمة إلى دائرة النور. وثمة فارق هائل بين هذه النوعية من الأوهام، وبين تلك التي أشار إليها المفكر والشاعر الإيطالي المتشائم جياكومو ليوباردي Giacomo Leopardi (1798-1837) الذي اعتقد أن الأوهام تشكّل النصب الأوفر، بما في الحياة البشرية من اعتبارات واعتقادات، أي إن العدالة والفضيلة والسعادة تدرج في هذا النطاق، وحتى عندما يتدخل العقل

على حياتها بالفشل، وتعتبر الموت حدثاً جميلاً، ليس بمعنى أنها تقبله كي تنهي حياتها، بقدر ما ترى أن على المرء أن يكون موفقاً في موته على الأقل، إذا لم يكن موفقاً في حياته، وهي فكرة أشار إليها فريدريك نيتشة في مؤلفه (هكذا تكلم زرادشت) تحت عنوان «تخيّر الموت» وربما أمكن اعتبار موت كارتون في نهاية رواية (قصة مدينتين) للكاتب الإنكليزي تشارلز ديكنز Charles Dickens (1812-1870) موفقاً تماماً، وهو الذي عانى الفشل أثناء حياته، فأقدم على سلوكه الإيثاري الختامي، وأنقذ دارنيه وزوجته لوسي وابنتهما الصغيرة من الموت. ومن ناحية أخرى، فإن الشاعر الفرنسي شارل بودلير رفض إمكانية وجود الخير والجمال في الحياة البشرية، واعتبرهما من إنتاج الفن، في مقابل اعتبار هيدا غابلر أن الحياة خالية من الحب والجمال، وأن لحظة الموت هي اللحظة العظيمة حقاً، وكمثلها رفض الكاتب الفرنسي الآخر جوستاف فلوبيير Gustave Flaubert (1821-1880) فكرة أن يكون الحب طبقاً شهياً في الحياة، وفي سياق المسرحية يظهر تنافس بين تيسمان ولوف بورغ، على منصب الأستاذية في الجامعة، وينجح هذا الأخير في إنجاز مخطوطة عظيمة القيمة

المثل الماورائية يقينية، وغير وهمية أبداً، ووفق فريدريك نيتشة فإن المثال الأعلى ليس وهماً فقط، بل إن المثالية ذاتها شأن غير باعث على الارتياح، وما من إمكانية للمقارنة بين نماذج بشرية هزيلة كتلك المذكورة في مسرحية (البطة البرية) وبين نماذج هذين الفيلسوفين الهامين، ويبقى أن هنري إبسن الأخلاقي المثالي أقرب إلى النوعية الأفلاطونية أو الكيركجاردية.

ومن مسرحياته الأخرى التي نالت الاهتمام الكبير، تلك التي حملت عنوان (هيدا غابلر Hedda Gabler) وفيها تبدو هذه الشخصية النسائية، من القائلين بالمساواة بين الجنسين، دون أن يكون اتجاهها هذا، ناجماً عن الأوضاع الاجتماعية القائمة، بقدر ما هو تعبير عن جوهرها الأصلي البدئي، والواقع إنَّها نشأت في أسرة ضابط أنهى خدماته، وكان من المتوقع أن تتزوج زوجاً تقليدياً ناجحاً، يحقق لها الاستقرار والثروة والمركز الاجتماعي، غير أنها تقترن مع جورج تيسمان الأكاديمي الطامح، هادفة إلى تحقيق الضمان الاقتصادي، دون أن يكون الحب محرِّكاً لها، وقبله تحب لوف بورغ الكاتب الكحولي، وتبدو قوية الإرادة وذكية وواثقة، وفي الوقت ذاته خاوية من الداخل، وممزقة بالملل والإحباط، وهكذا فإنها تحكم

واعتبارها شيطاناً في صورة إنسان، ويبدو أنها تجاوزت إمكانية أن تكون امرأة مثالية بالمعنى المعروف، وانطلقت باتجاه إمكانية أخرى، ليس من الضروري أن تكون غير إيجابية، بكل ما تتطوي عليه من معانٍ.

على أن الكاتب هنري إبسن اتجه أخيراً إلى إنتاج مسرحيات تركز على الأزمات الإنسانية الذاتية، ومنها مسرحيته التي حملت عنوان (معلم البناء The Master Builder) وفيها يحاول المهندس سولنيس مدفوعاً بالطموح الأعمى، الوصول إلى القمة، وينجح في تحقيق هدفه، ويبنى كنيسة ضخمة في بلدة هيلدا الشابة الحمقاء، ويصعد إلى برجها العالي، دون أن يكون أحد من البنائين الآخرين، قادراً على مجاراته، والواقع أن طموحه يمنعه من أن يحيا مع زوجته حياة ناجحة، ويستهلكه، ويستنفذ مقدراته، وهو يعترف أنه لم يصل إلى حالة الرضى بتأثير طموحه، على الرغم من الرابطة، التي أقامها بينه وبين السعادة المنشودة، وعندما يحاول البنائون الآخرون اللحاق به، فإنه يسعى إلى إعاقتهم، ومنهم من تحقيق النجاح الذي يهدد مركزه، وأخيراً يبني بيتاً له ولزوجته، ويشعر أن التسلق إلى القمة خطر على حياته، على أن هيلدا تحثه على ذلك، وتذكره بأنه وعدها

عن «مستقبل الحضارة» وتسانده السيدة إلفستيد التي تهجر زوجها من أجله، وهي امرأة قادرة على أن تحيا حياتها الحرة، في ظل الأعراف الاجتماعية، والأخلاقية القائمة، ويدافع الغيرة، تعمد هيدا غابيلر إلى إحراق المخطوطة، التي أضعها لوف بورغ، بينما كان منهمكا بالشرب، وتُخبر زوجها أن منصب الأستاذية أصبح من نصيبه، غير أنه يسعى مع السيدة إلفستيد إلى إعادة كتابة المخطوطة، وهكذا فإن البطلة التراجيدية تفشل في قولبة القدر الإنساني، وتحديداً عندما يكتشف براك أن انتحار لوف بورغ حدث في مبقى، بصورة تصادفية، ودون أن يكون موته جميلاً أبداً، وأنها قدّمت له المُسدّس، وحثته على الانتحار، وعلى خلافه تختار موتها الجميل، وتتحرر تخلصاً من سلطان براك عليها. وهناك من يرى أنها امرأة تكافح ضد النظام الاجتماعي الجائر، وضد الضوابط التي تفرضها مؤسسة الزواج وغيرها، وأن ما يُحرّكها شيء أقرب إلى نظام سرّي من القيم، وغير عقلاني، ومن ناحية أخرى فإن سعيها إلى تحقيق ذاتها، ترافق مع إقدامها على أداء غير أخلاقي، وغير إنساني، أي على أداء قاس، وليس من الإنصاف التام أن تكون هذه الفكرة، على افتراض أنها صائبة، سبيلاً إلى إدانتها،

يمكن رصده لدى أبي الطيب المتنبي. وفي المسرحيتين ثمّة أفكار كانت قد ظهرت في الأدب المسرحي السابق، ففي مسرحية (ماكبث) للكاتب الإنكليزي وليم شكسبير يفشل هذا الحاكم المدفوع بالطموح، في الإبقاء على نفسه ملكاً، وفي قولبة القدر الإنساني، وأخيراً يسقط عن العرش، الذي استولى عليه اغتصاباً وقهراً، عندما يتمكّن خصومه الأخلاقيون من مقارعتة، والقضاء على حكمه.

بأن يبني لها ما دعاه «المملكة» وعندما يتسلق البرج يسقط إلى حتفه، وربما أمكن اعتبار هيلدا قوة طامحة وإغرائية في الوقت نفسه، أما الطموح الذي حفز سولنيس من الداخل، فكان أقرب إلى الطمع، والرغبة في تحقيق إنجازات برّانية، بأكثر مما كان ارتقاءً جوائياً، كذلك الطموح المثالي، الذي يمكن رصده لدى الشاعر الرومانتيكي أبي القاسم الشابي، والطموح الإرادي الذي

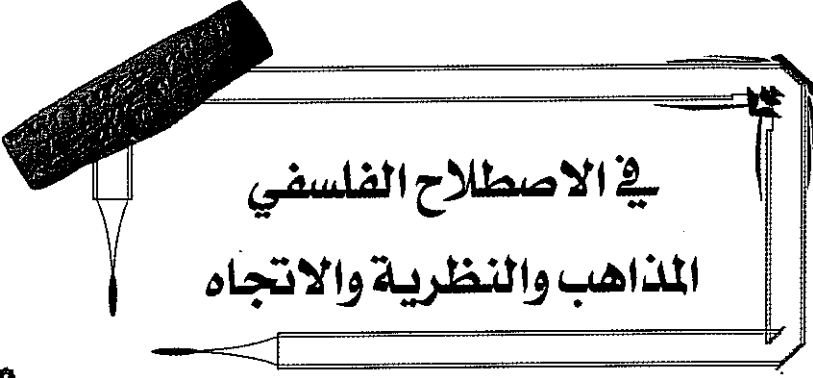
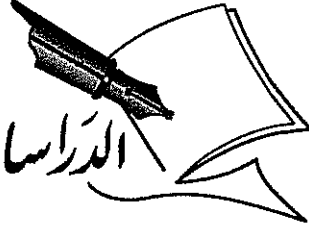
الهوامش

- ١- شبكة الإنترنت (باللغة الإنكليزية): هنري إبسن، براند، بير جنت، أعمدة المجتمع، بيت الدمية، الأشباح، عدو الشعب، البطلة البرية، هيدا غابيلر، مُعلّم البناء.
- ٢- مجموعة من المؤلفين، دليل القارئ إلى الأدب العالمي، هنري إبسن، فريدريك نيتشة، شارل بودلير، فولفغانغ جوته، سيرفانتس، جورج برنارد شو.
- ٣- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي: أبو نواس، خليل مطران، أبو العتاهية، أبو الطيب المتنبي.
- ٤- الأستاذ رمسيس عوض، صورة دوريان غراي، أوسكار وايلد، تراث الإنسانية.
- ٥- الدكتور عبد الوهاب المسيري ومحمد علي زيد، مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنكليزي، بيرسي شيلي، جون كيتس.
- ٦- جبران خليل جبران، المؤلفات العربية والمُعربة، العواصف، النبي، تقديم: ميخائيل نعيمة.
- ٧- محمد صقر خلفا، الإلياذة، هوميروس، تراث الإنسانية.
- ٨- وليم شكسبير، ماكبث، أنطونيو وكليوباترة، يوليوس قيصر، وغيرها.
- ٩- إ. م. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، هنري برجسون، عالم المعرفة ١٦٥، ترجمة: عزت قرني.
- ١٠- نزار قباني، القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى، اختيار: فادية غيبور، تقديم: الدكتور حسين جمعة.
- ١١- تاريخ الفلسفة الحديثة، سورن كيركجارد، كلية الآداب، جامعة دمشق.
- ١٢- الأستاذ علي أدهم، الحرب والسلام، ليون تولستوي، تراث الإنسانية.
- ١٤- الدكتور محمد الميحيي، المثقفون، بول جونسون، العربي ٣٧٠ أيلول ١٩٨٩.
- ١٥- الدكتور إبراهيم سكر، الإنيادة، فيرجيل، تراث الإنسانية.

- ١٦- قاسم أمين، تحرير المرأة، دار البعث، وزارة الثقافة.
- ١٧- توماس ستيرن إليوت، جريمة قتل في الكاتدرائية، ترجمة: صلاح عبد الصبور.
- ١٨- شبكة الإنترنت (باللغة الإنكليزية): جون دن، مختارات شعرية.
- ١٩- الدكتور حسن شحاتة سعفان، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه، تراث الإنسانية.
- ٢٠- شبكة الإنترنت (باللغة الإنكليزية): روديارد كيبلينغ، مختارات شعرية.
- ٢١- الدكتور حسن شحاتة سعفان، العقد الاجتماعي، جان جاك روسو، تراث الإنسانية.
- ٢٢- الأستاذ علي أدهم، المحاورات، جياكومو ليوباردي، تراث الإنسانية.
- ٢٣- الدكتور عادل العوّا، أفلاطون، المذاهب الفلسفية، جامعة دمشق.
- ٢٤- فريدريك نيتشة، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس.
- ٢٥- تشارلز ديكنز، قصة مدينتين، دار أسامة.
- ٢٦- الأستاذ علي أدهم، مدام بوفاري، جوستاف فلوبيير، تراث الإنسانية.
- ٢٧- أبو القاسم الشابي، الديوان، إرادة الحياة، دار العودة.
- ٢٨- وليم شكسبير، ماكبث، دار مكتبة الحياة، بيروت.



الدراسات والبحوث



د. عزت السيد أحمد

المذهب اصطلاحٌ قديمٌ استخدمه المفكرون والنقاد للدلالة على الخصوصية التي يرى بها المبدع شيئاً ما أو أمراً ما. ونركز هنا على الخصوصية في الرؤية لأنه لا يجوز أن نسمي أي رؤية مذهباً ما لم تكن تتمتع بالخصوصية المستقلة والتمایزة. وإن كان ذلك ممكناً فهو بالمجاز وحسب يمكن أن يكون ممكناً.

* باحث سوري.

✍ العمل الفني، الضمان علي الكسري.

كليّةً أو مبادئٍ محدّدة ترجع إليها مختلف الميادين، فلا يكون من الضروريّ أن تتوافق تفسيرات المفكر أو تحليلاته في هذا الميدان أو ذلك على مبدأ أو مبادئ تفسّر على أساسها مختلف الميادين.

هذا الاحتمال صعبُ الوجود ولكنّه غير ممتنع، لأنّه من الصعب أن يكون المفكر، وهو مفكّرٌ صاحب أفكار أو رؤى متناقضة ما بيّنَ ميدانٍ وآخر، أو حتّى أن تكون مختلفةً أو متباينةً إلى درجة تقرب من التناقض، ولذلك عندما نتحدّث عن تباينات في رؤى المفكر بيّنَ هذا الميدان وذلك فإننا لا نعني أن يكون المفكر متناقضاً في فكره ما بيّنَ هذا الميدان وذلك، وإنما نعني أن يكون للمفكر رؤاه الخاصّة لأكثر من ميدان من دون أن تجمعها منظومةٌ مذهبيّةٌ واحدة، أي خلاف ما هو عليه شأن الفلاسفة. وريّما يتفق أن يكون لهذا المفكر أو ذلك رؤيته المذهبيّة الواحدة لميادين كثيرة ولكن لسبب أو لآخر يخرج عن هذا المذهب الكلّيّ أو الرّؤية المذهبيّة لتكون له رؤيته الخاصّة في ميدانٍ من الميادين التي تتباين بمستوى من التباين عن رؤيته المذهبيّة الواحدة.

في المستوى الثالث من خصوصيّة الرّؤية المذهبيّة نجدنا أمام مفكرين يختصّ الواحدٌ منهم بميدانٍ من الميادين وحسب،

الخصوصيّة في الرّؤية ذات أكثر من بعدٍ ومستوى:

في المستوى الأوّل قد تكون خصوصيّة الرّؤية للموضوع أو الأمر أو الشّيء جزءاً من منظومةٍ متكاملة في فهم الوجود وتفسيره، فنكون هنا أمام فلسفة أو مذهبٍ فلسفيّ، وهذا هو شأن الفلاسفة كلّهم منذ نشأت فلسفة وحّتّى أواسط القرن العشرين، وإن كان يفترض إلى اليوم أيّ يوم سيأتي⁽¹⁾؛ فلكلّ فيلسوفٍ مذهبه الفلسفي الذي هو رؤيةٌ منهجيّةٌ موحّدة منظّمة للوجود وما وراء الوجود، ترجع إلى مبدأٍ أساسيٍّ أو جملةٍ قليلةٍ من المبادئ الأساسيّة التي يفهم أو يفسّر الوجود من خلالها في مختلف ميادينه وتمظهراته وتمثّلاته وفروع دراسته من زواياه المتباينة والمختلفة.

المذهب الجمالي مثلاً أو الاقتصادي أو السياسي هو صورةٌ من صور المذهب الكلّيّ للفيلسوف، وزاوية من زوايا رؤية الفيلسوف للوجود، تتسجم هذه الرّؤية مع مبادئ المذهب الكلّيّ، بل تنطبق مبادئ المذهب الكلّيّ على هذا الميدان أو ذلك.

في المستوى الثّاني من خصوصيّة الرّؤية المذهبيّة نجد إمكان أن تتنوّع رؤى المفكر أو رّيّما الفيلسوف فلا تجمعها وحدةٌ مذهبيّةٌ

المناسب أو التوفيق بين معطيات مذهب أو أكثر في ممارسته الاقتصادية ضمن بيئة محدّدة هي التي يعمل فيها، خاصّة وأنّ اختيار المذهب الاقتصادي هو في كثير من الأحيان خيار سياسي تحدّده الدولة أو النظام السياسي أو السّلطة الحاكمة في الدولة أو بمعنى آخر البيئة التي يعمل فيها الاقتصادي. أمّا المفكر الاقتصادي فيقدّم نظريّة أو مذهباً خاصّاً يتسم برؤية متمايضة عن النظريّات أو المذاهب الاقتصاديّة الأخرى.

هنا تجدر الإشارة إلى أنّه ليس من الضروري أن يكون المفكر الاقتصادي أكثر براعة في الممارسة الاقتصادية من الاقتصادي أو رجل الاقتصاد، حتّى في تطبيق نظريّته أو مذهبه الخاصّ، لأنّ الممارسة الاقتصادية ليست تطبيق النظريّة وحسب، إنّها عمليّة متكاملة مع المنظومة السياسيّة والاجتماعيّة وحتّى الأخلاقيّة في المجتمع أو الدولة، ناهيك فوق ذلك عن أنّ الممارسة الاقتصادية هي مهمّة أخرى أو ميدان آخر مختلف عن مهمّة المفكر وميدانه.

هذه المستويات الثلاثة هي أبرز مستويات المذهب، وأكثرها ظهوراً ووضوحاً، وهي وفق وجهة نظرنا على الأقلّ ليست

وتكون له فيه رؤيته الخاصّة التي ترتقي إلى أن تكون مذهباً في هذا الميدان، فنكون أمام مفكر اقتصادي، مفكر سياسي، مفكر اجتماعي، مفكر أخلاقي.. وغير ذلك من الميادين الأخرى. وثمّة من يرى جواز تسمية المفكر من هذا الطراز بالفيلسوف، ولكن الفيلسوف الجزئيّ إن صحّ التعبير؛ أي ما يسمّى فيلسوفاً اجتماعياً، فيلسوفاً سياسياً.. وهلمّ جرّاً. وربما لا يكون في ذلك كبير مشكلة، وخاصّة في عصرنا هذا الذي عزّ فيه وجود الفيلسوف بالمعنى التقليدي.

ما تجدر الإشارة إليه هنا هو ضرورة التمييز بين المفكر صاحب المذهب من جهة أولى، والمختصّ في ميدان من الميادين من جهة ثانية كالاقتصاد مثلاً أو الجمال أو الأخلاق، فليس كلُّ اقتصاديٍّ مفكراً، ولا صاحب مذهب مهما كان بارعاً في اختصاصه، إلا إذا كان له مذهبه الخاصّ الذي يميّز به عن غيره من أصحاب المذاهب الأخرى في الميدان ذاته.

الاقتصادي أو رجل الاقتصاد، ونقيس عليه أي اختصاص آخر، يقوم بتطبيق مذهب ما أو خلاصة أكثر من مذهب اقتصادي في ممارسته الاقتصاديّة، ومهارة الاقتصاديّ وبراعته ومدى تمكّنه وسعة اطلاعه هي التي تلعب الدور الحاسم في اختيار المذهب



تقسيماً يجب بالضرورة أن يلقى الاتفاق أو التوافق التام، ريثما نكون أمام وجهات نظر أخرى في تحديد مستويات المذهب، بما يعني أنه قد تزيد هذه المستويات عدداً وقد تختلف توصيفاً وتحديداً، ولذلك لا ندعي أن ما قدمناه هو التّحديد النهائي لمفهوم المذهب ومستوياته، وإن كان مفهوم المذهب تحديداً لا يخضع لكثير من تباين وجهات النظر وليس عرضة لها لأنه مفهوم يحظى بالتوافق الاصطلاحي بين المفكرين عامةً، ولكن ضمن حدوده العامة التي اكتفينا بها.

مقومات المذهب

المذهب، كأبي مفهوم، يرتبط تحديده بمجموعة من المقومات التي هي جزء من المفهوم، وهي الجزء الأساسي من تحديد المفهوم وتمييزه عن غيره من المفاهيم عامةً، أو المفاهيم المشابهة أو المقاربة خاصةً. ومقومات المذهب هي:

١. الخصوصية: صحيح أن أول وأهم مقومات المذهب عامةً هو خصوصية الرؤية التي يتخذها الفيلسوف أو المفكر في هذا الميدان أو ذلك، ويتميز بها عن غيره من المذاهب الأخرى السابقة والرأهنة للمفكر

أو الفيلسوف. إلا أن الخصوصية ليست هي كل المحددات اللازمة لإطلاق تسمية المذهب على ما يقدمه الفيلسوف أو المفكر من فكر اقتصادي أو جمالي أو غيره، فقد تكون الخصوصية متحققة ولكنها مفتقرة إلى كل المقومات اللازمة أو معظمها أو بعضها للارتقاء بهذه الخصوصية إلى مستوى المذهبية، ولذلك نحن بحاجة إلى استكمال لوحة المقومات الأخرى اللازمة إلى جانب الخصوصية من أجل إطلاق اسم أو وصف المذهب على ما يقدمه المفكر الاقتصادي

وحتى لو تمتعت بالخصوصية فإن ذلك لا يكفي لإطلاق اسم أو وصف المذهب عليها إذا لم تكن رؤية متكاملة لمختلف الجوانب التي يتطلبها المذهب الفكري.

٤. الكفاية: الشرط أو المقوم الرابع من مقومات المذهب هو الكفاية، وهذا المقوم من أكثر المقومات أهمية وضرورة لأنه ربما يجوز لعذر أو آخر الاستغناء عن مقوم من المقومات السابقة، ولكن لا يجوز الاستغناء عن الكفاية شرطاً من شروط إطلاق وصف المذهب على مجموعة الأفكار المحددة. والكفاية هي أن تكون المبادئ الأساسية للمذهب كافية ليعنى عليها المذهب من جهة أولى، وأن يكون المذهب كافياً لتفسير أو فهم النشاط الاقتصادي من جوانبه المختلفة أو الأساسية منها على الأقل.

٥. الأساس الأيديولوجي: الشرط أو المقوم الخامس من مقومات المذهب موضع خلاف على الأغلب. فهل من الضرورة أن يستند المذهب إلى أساس أيديولوجي أم لا؟ ربما تختلف الإجابات، بل من المؤكد أننا سنكون أمام الكثير من الإجابات المتباينة ما بين الآلاف على ضرورة الاستناد إلى أساس أيديولوجي، وما بين ضرورة عدم الاستناد إلى أي أيديولوجيا، وما بين هذين الطرفين مستويات كثيرة من القبول والرفض.

من أفكار اقتصادية.

٢. الوحدة: أول ما يتطلبه المذهب من مقومات بعد الخصوصية هو الوحدة المذهبية، إذ لا يجوز إطلاق اسم مذهب على أي مجموعة من أفكار متناثرة مهما كثرت وتوعدت ومهما امتلكت من الأهمية.. إذا لم تجمعها رابطة واحدة من المبادئ أو ربما المبدأ الواحد غالباً، وهذا يصح في عالم الاقتصاد كما يصح في كل الميادين الأخرى، فمجموعة الأفكار مهما كثرت وتوعدت تظل ككومة الأحجار التي لا يمكن أن نطلق عليها اسم بيت ولا بناء ولا برج.. ما لم ترتبط ببعضها بمجموعة من الروابط الكافية والمناسبة التي تسوّج لنا أن نطلق عليها هذا الاسم أو ذلك من بيت أو بناء أو غيره.

انتظام هذه الأفكار بمبدأ واحد أو أكثر هو الذي يحولها من أفكار إلى فكرة مذهب أو مذهب اقتصادي أو غير ذلك، لأن المبدأ أو مجموعة المبادئ المنسجمة هي الرابطة التي تشبك الأفكار في منظومة واحدة تسمح بتسميتها بالمذهب الاقتصادي أو الجمالي أو الأخلاقي..

٣. التكاملية: الشرط أو المقوم الثالث من مقومات المذهب هو تكاملية الرؤية، فتقديم بعض الأفكار الجمالية مثلاً حتى ولو كانت تقوم على مبدأ أو جملة مبادئ منسجمة،

تحقيقها وعبئاً وتخطيطاً وترتيباً وتبويباً وتفكيراً بمنهج ما من المناهج.

الأيدولوجيا بوصفها جزءاً أو مقوماً من مقومات المذهب هي الجزء الذي يحدد هوية المذهب ويوجه المفكر أو الفيلسوف في اختياره الأفكار والمناهج والأدوات، وتحديد الخيارات وتنسيقها وتنظيمها ومناقشتها.. وهي أخيراً ليست شرطاً مسبقاً أبداً، وربما ليست شرطاً أبداً بقدر ما هي جزء منبث في فكر الفيلسوف أو المفكر لا ينفصل عنه.

النظرية والمذهب والاتجاه

ثمة ثلاثة مفاهيم أو اصطلاحات تستخدم في كثير من الأحيان بدلالة واحدة أو ملتبسة فيما بينها، وهي التي جعلناها رأس هذه الفقرة؛ النظرية والمذهب والاتجاه. التشابه الكبير في المبدأ بين النظرية والمذهب والاتجاه، هو الذي أدى إلى وجود التباس في التمييز بينها، والخلط في استخدامها، ولذلك نجد الكثيرين يخلطون بين هذه المفاهيم فيستخدمون أحدهما عوضاً عن الآخر في كثير من المواضع. ومن ذلك مثلاً نجد من يقول: المذهب الوجودي والاتجاه الوجودي والنظرية الوجودية، والمذهب المادي والاتجاه المادي والنظرية المادية.. وغير ذلك.

الخلط مسوّغ إلى حد ما بسبب كبير

الحقيقة التي لا بد من ذكرها هنا هي أنّ الاستناد إلى الأيدولوجيا ليس مطلباً لتكوين المذهب أو تأسيسه، وإنما هي جزء صميمي من مكوناته. لا نقول لا يقوم المذهب من دونها ولكننا نقول لا يخلو المذهب من قاعدة أو أساس أيدولوجي هو البنية الفكرية التي يقوم عليها فكر الفيلسوف أو نظريته. فالأيدولوجيا مبنوثة في كل فكر وكل نظرية، شاءت ذلك أم أبى، لأنه لا توجد فلسفة ولا يوجد فكر بلا انتماء سابق على تكون الخصوصية الفكرية أو الفلسفية للمفكر أو الفيلسوف. وحتى العالم في كثير من الأحيان والحالات. بل ليس من الخطأ أبداً القول بأنه لا يوجد فكر غير منتم، لا يوجد فكر بلا غايات قبلية أو بعدية أو معاً، ولا يمكن إلا أن تكون هذه الغايات في المحصلة مرتبطة بأيدولوجيا أو مبنية على أيدولوجيا معينة.

بهذا المعنى نجد أنّ الأساس الأيدولوجي أو الأيدولوجيا جزء أساسي من مقومات المذهب، وهذا الجزء يوجد في المذهب بغير إرادة صاحب المذهب ولا قراره المباشر إلا قراره السابق باعتماد هذه العقيدة أو المنظومة الفكرية التي ستكون هي مادة الأيدولوجيا أو مضمونها، أي خلاف الشروط أو المقومات الأخرى التي يتطلب

محددات المذهب هذه هي تقريباً ذاتها التي يحتاجها الاتجاه أو الاتجاه الفكري أو لنقل هي ذاتها أيضاً المقومات التي يبنى عليها الاتجاه . Direction . ومع ذلك ثمة اختلاف غير قليل بينهما . انتبه عزت قرني في المادة التي كتبها للموسوعة الفلسفية العربية إلى أن ثمة فرقا بين المذهب والاتجاه فقال : «الاتجاه اصطلاح أقل تحديداً من مذهب، فتعبير الاتجاه العقلي أقل مضموناً بكثير من المذهب العقلي، كذلك فإنك تقول: الاتجاه التجريدي في فن التصوير، ولكنك لا تستطيع أن تقول المذهب التجريدي»^(١) . ويعقب على ذلك محتجاً لعدم جواز إطلاق اصطلاح المذهب على الاتجاه التجريدي بقوله: «لأن ذلك الاتجاه الفني لم يصل ولا يمكن أن يصل إلى درجة المذهب ذي المفاهيم والقواعد المؤصلة إلى درجة تشبه التقنين»^(٢) .

لن نطيل في مناقشة ما جاء به عزت قرني لأن له موضع آخر، ولكن لا بد من الإشارة إلى أنه ليس من شروط المذهب أن يصل إلى حد التقنين أو حتى شبه التقنين . والتجريدية كما هي اتجاه فهي مذهب، وإنما الفرق بين الاتجاه والمذهب أن المذهب ابتكار أصيل ينسب إلى مفكر أو فيلسوف على الأغلب، بينما الاتجاه هو اعتناق من

الشبه بينهما . ولكن هذا الشبه الكبير ليس يعني أنها مفاهيم متساوية في الدلالة أو المعنى ولا كليهما . وإن جاز استخدام أحدها مكان الآخر في مستوى من المستويات فإن ذلك يجب أن يكون مقروناً بالتمييز بينهما ومعرفة حدود كل منهما ومساحته الدلالية .

المذهب . Doctrine اصطلاح قديم استخدمه المفكرون والنقاد للدلالة على الخصوصية التي يرى بها المبدع شيئاً ما أو أمراً ما . ونركز هنا على الخصوصية في الرؤية لأنه لا يجوز أن نسمي أي رؤية مذهباً ما لم تكن تتمتع بالخصوصية المستقلة والتمايزة . وإن كان ذلك ممكناً فهو بالمجاز وحسب يمكن أن يكون ممكناً . وللمذهب كما أشرنا قبل قليل مجموعة من الشروط والضوابط والمقومات هي إلى جانب الخصوصية الوحدة التي هي أول ما يتطلبه المذهب من مقومات بعد الخصوصية على نحو مباشر . ثم تكاملية الرؤية لمختلف الجوانب التي يتطلبها المذهب الفكري . ثم الكفاية التي تعني أن تكون المبادئ الأساسية للمذهب كافية، وأن يكون المذهب كافياً لتفسير أو فهم الميدان الفكري من جوانبه المختلفة أو الأساسية . ثم الأساس الأيديولوجي الذي ربما يكون موضع خلاف .

ارتباطاً وثيقاً، ومع ذلك عندما نقول الاتجاه الجدلي أو نسمع اصطلاح الجدل فإنه لا يخطر هيجل وحده في بالنا وإنما يتداعى إلى ذاكرتنا كل فلاسفة الجدل مثل هيرقليطس وهيجل وماركس... بل يخطر في بالنا الاتجاه الجدلي في التفكير وكل المفكرين الذين ينتمون إلى هذا الاتجاه.

هذا الحكم قابل للتعميم من دون تردد بعد بعض الاستثناءات والتحفّظات القليلة جداً. ومن الأمثلة على ذلك الاتجاه المثالي الذي ابتدعه أفلاطون الذي إن ذكر خطر المثاليون في البال وليس أفلاطون وحده، ولكن عندما أقول المذهب الأفلاطوني يقتصر الأمر على أفلاطون وحسب.

ومثل ذلك تماماً يقال على ديكارت الذي يوسم مذهبه بالعقلي ومع ذلك فذكر الاتجاه العقلي يشير في ذهن تداعيات كثيرة ليس ديكارت إلا واحداً منها فقط.

ما تجب الإشارة إليه هنا هو أن هذا الفرق بين المذهب والاتجاه لا يقلل من قيمة الاتجاه، ولا يعني أبداً أن الاتجاه أقل شأناً وأهميّة من المذهب، أي ليس من الضروري أبداً أن يكون ما يقدمه المفكر الذي يعتق مذهباً لفيلسوف أو مفكر آخر أقل قيمة أو أهميّة من الفكر الذي قدّمه صاحب المذهب ذاته، اللهم إلا في الأصالة والجدة.

مفكر لمذهب من المذاهب. أي إن الاتجاه على كل ما يتسم به من شروط المذهب ومقوماته فإنه يفتقر فقط على الأقل إلى الأصالة في ابتكار هذا المذهب. ولذلك مثلاً عندما نتحدّث عن المذهب الوجودي فإننا نقصد كل صاحب مذهب وجودي أو أصحاب المذاهب الوجودية، بينما عندما نتحدّث عن الاتجاه الوجودي فإننا نتحدّث عن المفكرين أو النقاد الذين اعتنقوا المذهب الوجودي من دون أن يضيفوا إليه من خصوصياتهم ما يرتقي باعتقادهم المذهب الوجودي إلى أن يكون أصحاب مذاهب فيه. ويصحّ ذلك على المذاهب الأخرى كلها ومنها مثلاً أيضاً أننا عندما نتحدّث عن المذهب الوضعي فإننا نقصد كل صاحب مذهب وضعي أو المذهب الوضعي كله، بينما عندما نتحدّث عن الاتجاه الوضعي فإننا نتحدّث عن اعتنق المذهب الوضعي من دون أن يكون فيه إضافة أصيلة.

ثمّة فرق آخر بين المذهب والاتجاه يزيد في وضوح الفرق بينهما وهو أن المذهب لصيق بالخصوصيّة والفردية المنسوبة إلى صاحب المذهب، بينما الاتجاه ينطوي على عموميّة ترفعه فوق التّحديد والحصر. ومن ذلك على سبيل المثال أن المذهب الهيجلي أساسه الجدل، وقد ارتبط الجدل بهيجل

المعرفة الخالية من الفرض، المتجردة من التطبيقات العملية.

٢. وإذا أطلقت النظرية على ما

يقابل العمل في المجال المعيارى دلت على ما يتقوم به معنى الحق المحض أو الخير المثالي المتميز عن الإلزامات التي يعترف بها جمهور الناس.

٣. وإذا أطلقت على ما يقابل المعرفة

العامة دلت على ما هو موضوع تصور منهجي منظم ومتناسق تابع في صورته لبعض المواضع العلمية التي يجهلها عامة الناس.

٤. وإذا أطلقت على ما يقابل المعرفة

اليقينية دلت على رأي أحد العلماء أو الفلاسفة في بعض المسائل الخلافية، مثال ذلك نظرية الخطأ عند ديكرات.

٥. وإذا أطلقت على ما يقابل الحقائق

العلمية الجزئية دلت على تركيب عقلي واسع يهدف إلى تفسير عدد كبير من الظواهر، ويقبله أكثر العلماء في وقته من جهة ما هو فرضية قريبة من الحقيقة، مثال ذلك نظرية الذرة.

هذه الزوايا الخمس لمفهوم النظرية التي قدمها صليبا ذات بعد دلالي واحد لا تتعداه، هو الفصل بين جانب نظري وجانب عملي، والعملي إذا فتحنا آفاق دلالاته وجدناه يعني

وقد وجدنا كثيراً من المذاهب كان فضل انتشارها واشتهارها وقوتها لمعتقبيها وليس لمبدعيها.

أما النظرية Theory فهي أقل في المستوى من المذهب والاتجاه، إنها في المستوى الأول من التحديد جزء من المذهب أو جزء من الاتجاه، بمعنى أنها عنصر من العناصر المكونة للمذهب الفلسفي أو الفكري، لأن المذهب هو جملة من النظريات التي تتكامل مع بعضها لتكون المذهب.

بهذا المعنى يمكن إقرار جميل صليبا فيما ذهب إليه من أن «النظرية قضية تثبت ببرهان»، ويتابع موسعاً المفهوم بأن النظرية «عند الفلاسفة تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ»^(١).

هذا التحديد الذي قدمه صليبا تحديداً عاماً، ولكنّه على عموميتّه ضيق المساحة الدلالية، ولذلك عندما راح يعدد ما يمكن أن تكون عليه النظرية من أنواع أو مستويات دلالية ظلّ يدور إلى حد كبير ضمن حدود هذه الضيق الذي حصر به نفسه بداية. أما هذه التفصيلات التي قدمها صليبا فيقول فيها^(٢):

١. إذا أطلقت النظرية على ما يقابل الممارسة العملية في مجال الواقع دلت على

في الاصطلاح الفلسفي المذاهب والنظرية والاتجاه

الفرق الثالث: هو أن النظرية، وخاصة العلمية منها مثل نظرية التطور في علم الحياة، يمكن تعديلها وتحسينها، أما المذهب فتأبث.

الفرق الرابع: هو أن المذهب غالباً ما يكون ذا امتداد أبعد من امتداد النظرية التي تختص بجانب معين من ميدان ما. أصاب قرني في هذا التمييز بين المذهب والنظرية لأن هذا التمييز كان ضرورياً من جهة أولى، ويضع بعض اللمسات التي توضح الأبعاد الدلالية لمفهوم النظرية. ولكنه أخطأ في هذا التمييز إذ خلط بين النظرية في العلوم الطبيعية والنظرية في العلوم الإنسانية ولم يميز بينهما.

نميز في العلوم الطبيعية بين مفهومي النظرية والفرضية؛ الفرضية هي تصور علمي تفترض صحته بناء على ضوابط وأسس معينة مرتبطة بطبيعة العلم، وتظل افتراضاً حتى تثبت، فإذا أثبتت أو برهننت سميت نظرية، وفي بعض الأحيان تسمى مبرهنة، ولا فرق بين المبرهنة والنظرية في العلوم الطبيعية إلا من جهة الاختلاف في الترجمة أو التعريب.

في العلوم الاجتماعية أو الإنسانية الأمر مختلف تماماً، بل معاكس تماماً، فليس في العلوم الإنسانية مبرهنات على طريقة العلوم

الواقعي والمحقق، أما النظري الذي يقابله فهو الذهني أو التخيلي أو غير المثبت. وهذا الفهم للنظرية غير بعيد عن البعد الدلالي له لغة واصطلاحاً. ولكنه كما أشرنا قاصر على جانب واحد من جوانب دلالة الاصطلاح.

مع ما كتبه عزت قرني في الموسوعة الفلسفية العربية ننقل إلى بعد آخر. ولكنه قبل أي شرح أو توضيح يقع في لغط كبير إذ وحد بين المذهب والنظرية من خلال العنوان وحتى الشرح، فعنوان المادة الموسوعية هو المذهب. النظرية دالاً على كليهما باللفظ الأجنبي. Doctrine الذي يعني المذهب. ولكنه مع هذا التوحيد بينهما فقد أشار إلى أربعة فروق بين المذهب والنظرية تقدمها على النحو التالي^(١):

الفرق الأول: هو أن صاحب النظرية يقدمها عادة على أنها فرض، أما المذهب فإنه يقدم على أنه موضوع اقتناع صاحبه ويقترحه لإقناع الآخرين به بل هو فرضه عليهم.

الفرق الثاني: هو النظرية يجب أن تكون ممكنة التحقق منها عن طريق التجربة، أما المذهب فإنه يقوم على رأي أساسي أو مجموعة من الآراء يقدمها صاحب المذهب لتوجيه الفهم والسلوك وذلك مستقلاً عن التجربة.

مبرهنة ولا مثبتة، ومثلها أيضاً نظريات طبيعة الضوء التي تم برهانها على الرغم من تناقضها. والسبب في قبول هذا الاستثناء هو: تعدد إثبات مثل هذا الفرضيات إثباتاً يقينياً قاطعاً للشك، ومع ذلك فإن القرائن أو القوانين الموجودة تذهب معها إلى شوط بعيد، وإن كانت تذهب في عكس اتجاهها أيضاً.

هذا النقطة الأخيرة تقودنا إلى سمة مهمة تتشابه فيها النظرية في العلوم الطبيعية والنظرية في العلوم الإنسانية، وهي كما قال الدكتور عزت قرني في الفرق الثالث «أن النظرية يمكن تعديلها وتحسينها». أما ما أضافه بقوله: «وخاصة العلمية منها مثل نظرية التطور في علم الحياة»، فهو تخصيص غير موفق وفي غير مكانه لأن أي نظرية، حتى المبرهنة في العلوم الطبيعية قابلة للتعديل والتطوير والتحديث. والقابلية إمكانية وليست حتمية.

بعد هذا التمييز بين النظرية والمذهب والاتجاهات من السهل القول إن تاريخ الفكر الاقتصادي مثلاً فيه النظريات والمذاهب والاتجاهات. ولكن في أغلب الأحيان لا يميز المؤرخون بين هذا الاصطلاحات الثلاثة لدى تاريخ الفكر الاقتصادي، مثلما هو الشأن في الفكر الجمالي والأخلاقي والاجتماعي..

الطبيعية، لأن البرهان في العلوم الإنسانية لا يمتلك من قوة الإقناع ما يمتلكه البرهان في العلوم الطبيعية، وليس ملزماً بقوة إقناعه. كالبرهان في العلوم الطبيعية. قوة الإقناع في العلوم الإنسانية مرتبطة بصاحبها وحده ومن يؤمن بالنظرية موضع الإقناع ليس أكثر. وبهذا المعنى تتساوى الفرضية والنظرية في القيمة في العلوم الإنسانية، أو في معظمها، ولذلك درج استخدام اصطلاح النظرية على الفرضية أو الرؤية التي يفترض صاحبها صحتها، ويقتنع بها. وبهذا المعنى كان الفرق الأول الذي قدمه عزت قرني بين النظرية والمذهب صحيحاً عندما ذهب إلى «أن صاحب النظرية يقدمها عادة على أنها فرض». ومن ذلك مثلاً النظريات الجمالية والأخلاقية والاجتماعية.. وكذلك الاقتصادية وإن امتازت بمزيد من القرب من العلوم الطبيعية أكثر من ميادين العلوم الاجتماعية الأخرى.

هذا المعنى للنظرية الذي ينطبق على العلوم الإنسانية عامة، إلا في بعض الاستثناءات النادرة، يستخدم في العلوم الطبيعية باستثناءات نادرة أيضاً، إذ يطلق اصطلاح النظرية على فرضية غير مبرهنة مثل فرضية داروين التطورية التي تسمى النظرية التطورية على الرغم من أنها غير

في الاصطلاح الفلسفي المذاهب والنظرية والاتجاه

في أي من الميادين. لم تظهر إلا في مراحل متأخرة نسبياً من عمر البشرية لأنها احتاجت بالضرورة إلى أربعة شروط على الأقل، وهي ما سنعرض له الآن تاركين التعليق عليها ليكون شرطاً أو عنصراً خامساً.

أولاً: ظهور الكتابة ويسر أدواتها

قبل ظهور الكتابة ويسر التدوين لم يكن من السهل أبداً على الإنسان أن يتجاوز ظروفه التاريخية والتفكيرية في نظريات فكرية اقتصادية أو جمالية أو أخلاقية أو سياسية.. لأن أي مذهب أو نظرية بحاجة إلى التدوين لتبيان أوجه التكامل وتثبيتها، وإلا بقي الكلام أفكاراً متناثرة يحكمها التداول الشفاهي وما يكتنف التداول الشفاهي من نقص وتشويه وتحريف وارتباط بالخصائص الشخصية للمناقش. ولذلك كثر فيما قبل ظهور التدوين الفكر الأسطوري المتناقل شفاهاً بملاحم شعرية.

ثانياً: التراكمية المعرفية

ظهور الكتابة شأنه شأن أي اختراع آخر رهين الحاجة، والحاجة الأساسية التي كمنت وراء اختراع الكتابة هي أطراد التراكمية المعرفية التي احتاجت إلى وسيلة تحفظها، فكان لا بُد من اختراع وسيلة تحفظ هذا التراكمية المعرفية، وكانت هذه الوسيلة هي الكتابة، وتزايد الإنتاج المعرفي فرض البحث

وربما غيرها، إذ إذا فتحنا فهرس ثلاثة كتب؛ واحد للنظريات الاقتصادية وآخر للمذاهب الاقتصادية وثالث للاتجاهات الاقتصادية لأمكن أن تكون المضامين هي ذاتها في الكتب الثلاثة. وهذا وإن كان فيه شيء من الخطأ بعدما عرفنا الفرق بين هذا المفاهيم الثلاثة فإنه جائز ولا مشكلة كبيرة فيه.

شروط ظهور النظرية

إذا كانت الممارسة الاقتصادية مثلاً أو غيرها، بصيغة أو أخرى، قد ظهرت مع ظهور الإنسان، فإنها لا تختلف من جهة المبدأ عن أي من ضروب الممارسة البشرية الأخرى التي وجدت مع وجود الإنسان وجود حاجة أو ضرورة. لاشك في أن ثمة قاع قناعات وراء السلوك أو الممارسة الاقتصادية الأولية، ولكن هذا القناعات التي هي فلسفات أولية للفعل، ليست نظرية ولا مذهباً ولا اتجاهاً فكرياً، إنها منظومة تفكير خاصة بالممارس الفرد أو الجماعة، أما النظرية أو المذهب الاقتصادي أو غيره، ولا يختلف الأمر عن ميادين أخرى كثيرة، فلم يظهر في الحياة البشرية إلا بعدما قطعت البشرية شوطاً من التقدم والتطور في ميادين محددة بعضها عام وبعضها الآخر خاص بالميدان موضوع البحث أو الدراسة.

هذا يعني على نحو مباشر أن النظريات

رابعاً: غنى المعرفة الاختصاصية وتنوعها

الشروط السابقة الثلاثة شروط عامة تحتاجها النظرية أي نظرية فكرية أو علمية في أي ميدان. ولكن هذه الشروط كلها لا تكفي لنشوء النظرية الاقتصادية مثلاً إذا لم تكن المعرفة الاقتصادية ذاتها قد حققت التراكمية المعرفية الاقتصادية، والمتطورة من جهة أولى، والفنى والتشوع من جهة ثانية. ذلك فإنه من الممكن نظرياً أن يكون هناك تراكم معرفي اقتصادي، وتطور في المعرفة الاقتصادية، ولكنها في جانب واحد مفتقر إلى الفنى والتشوع. وهذا يعني الدوران في دائرة ضيقة واحدة تحتجب بانغلاقها أفاق الرؤى وإمكانات قيام منظومة معرفية اقتصادية.

خامساً: ملاحظات على الشروط

ما تجب الإشارة إليه بآين يدي هذا الشروط أكثر من واحدة من الملاحظات، أولها أنها خلاف بعض الشروط لبعض الحالات الأخرى التي تدخل فيها الشروط بعلاقة جدلية تكاملية تجعل التقديم والتأخير في هذا أو ذاك من الشروط أمراً شكلياً لا جوهرياً ولا تصنيفياً، ولا ترتيبها على ما رتب عليه لم يكن إلا لمحض ضرورة

عن تيسير التدوين فكان اختراع أنواع الورق البدائية والحبر.

التراكمية المعرفية كانت وراء اختراع الكتابة ولكنها في الوقت ذاته كانت شرطاً من شروط الانتقال بالمعرفة من حالة المعرفة الشفاهية الضرورية إلى المعرفة المنظمة في أطر نظرية ومذهبية. ولا يختلف حال المذهب الاقتصادي مثلاً أو النظرية الاقتصادية عن أي نظرية أخرى في الحاجة إلى التراكم المعرفي مثل الجمالية والأخلاقية والسياسية وغيرها.

ثالثاً: التطور المعرفي

إذا كانت التراكمية المعرفية شرطاً من شروط نشوء المذهب أو النظرية أو مذهب، فإن التراكمية المعرفية وحدها ربما لا تكون كافية لنشوء المذهب أو النظرية الجمالية مثلاً. لأنه بمنتهى اليسر يمكن أن يكون ثمرة تراكم معرفي كبير ولكنه ليس على درجة من التطور كافية لتنظيم في نظرية أو مذهب فكري أو جمالي، ولذلك فإن التطور المعرفي شرط ثالث من شروط نشوء النظرية أو المذهب الجمالي مثلاً، وأي نظرية أو مذهب في أي ميدان فكري، لأن التطور المعرفي هو الذي يتيح إمكانية التنظيم من جهة أولى، ويتطلبها حتى يفرضها فرضاً من جهة ثانية.

تدرجياً ورويداً ورويداً. كان ثمة ترابط بين تحقق الشرط والشرط التالي، ولكن لم يكن هذا الترابط خطياً مباشراً، أو سببياً، ذلك أن تحقق كل شرط مستقل بذاته غير مرتبط بالتطور في الميدان الفكري وحده، وإنما هو شرط تاريخي عام لا يتصل بالتطور في الميدان الفكري أكثر من اتصاله أو ارتباطه بأي من جوانب حياة الإنسان الأخرى.

العرض. أما شروط ظهور النظرية فهي ترتيبية يقوم فيها اللاحق على السابق ضرورة، وهذا الضرورة منطقية وواقعية في آن معاً. وهي كذلك استقراء لوقائع مضت وليس تنبؤاً بما يمكن أن يأتي.

ثاني هذا الملاحظات أن هذه الشروط على ما هي عليه من ترتيبية تتابعية فإنها لم تتحقق دفعة واحدة وإنما راحت تتحقق

الهوامش

- ١- المفاهيم والاصطلاحات قابلة للتطور والتغير والتبدل، وربما يصعب الاعتراض على ذلك. ولكن لا يجوز وربما لا يمكن أن يكون ذلك إلا ضمن شروط تاريخية ومعرفية قوية تسمح بذلك أو تفرضه فرضاً في بعض الأحيان، وكله أيضاً وفق منظومة يجب أن تكون مقنعة أو تمتلك ما يكفي من الحجج والمسوغات، وكل ذلك لم يتحقق في تقزم مفهوم الفيلسوف ومسخره على النحو الذي بدأ ينتشر منذ أواسط القرن العشرين، ولذلك نجدنا على تحفظ حتى الآن على المفهوم الجديد للفلسفة والتفلسف والفيلسوف.
- ٢- عزت قرني: الموسوعة الفلسفية العربية - مادة مذهب.
- ٣- م. س - ذاته.
- ٤- جميل صليبا: المعجم الفلسفي - مادة نظرية.
- ٥- م. س - ذاته.
- ٦- عزت قرني: الموسوعة الفلسفية العربية - مادة مذهب.



الدراسات والبحوث



الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

د. عبد الكريم الأشر

القاضي الجرجاني

وكتابه «الوساطة بين المتنبى وخصومه»

• مصادر درسه:

- ١- «الوساطة بين المتنبى وخصومه». وهو أكبر آثاره وأشهرها.
- ٢- تفسير القرآن (ضاع).

* أديب وناقد وأستاذ جامعي سوري

العمل الضئي، الفنان رشيد شمه.

الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

يقوتون لي فيك انقباض، وإنما
وأورجلاً عن موقف الذل أحجماً

.....

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظماً

ولكن أهانوه فهانوا، ودنسوا
محياه بالأطماع، حتى تجهما

يبدو أنه لم يكن ميسور الرزق، أو لعله لم
يصل إلى الفنى، ففي شعره شكاة من ذلك،
يسترها فخره بإباء نفسه:

إذا قدموا بالخير قدمت دونهم
بنفس فقير، كل أخلاقه وقر

هذا بالتقريب كل ما نعرفه عن الجرجاني
الرجل، مما نصت عليه الترجمات القديمة،
وحفظت من شعره. وبنبغي، من بعد، أن
نكمل نحن صورة تكوينه النفسي والفكري،
من درس أثره النقدي الكبير «الوساطة»،
والتأمل في الحقائق القليلة التي تبقت لنا
عن حياته ونتاجه.

٢- يبدو لمتتبع أخباره وآثاره، أن ثقافة
الجرجاني واسعة. ولكنها لم تتعد حدود
الثقافة العربية الإسلامية المعروفة لوقته:
اللغة والأدب والفقه والتاريخ والتفسير.
ولعله من غير المؤلف أن يصل مثله إلى
مثل تخصصه في الفقه، ثم يبلغ في النقد
مستوى الأستاذية الذي بلغه في كتابه

٣- تهذيب التاريخ (لم يبق منه إلا فصلان
نجدهما في بيتمة الدهر للثعالبي).

٤- ديوان شعر (بقيت منه نتف في الكتب
التي ترجمت له).

٥- رسائل مدونة.

٦- ويقال: إنه صنّف كتاباً في «الوكالة»،
فيه أربعة آلاف مسألة (ضاع).

• ملامح تكوينه العامة:

١- ولد الجرجاني بجرجان (في فارس،
بين طبرستان وخراسان)، وولّى قضاءها. ثم
ولّى قضاء الرّي في فارس أيضاً، فقضاء
القضاة. وتوفي بنيسابور وهو دون السبعين،
وحمل تابوته إلى جرجان.

هذه جملة الحقائق الكبيرة التي نستقيها
من ترجماته القديمة، ربما ينفع أن نزيد
عليها قول ياقوت: إنه أستاذ الجرجاني
الأخر (عبد القاهر) صاحب نظرية «النظم»
المشهورة في «دلائل الإعجاز»، وإنه من كبار
القضاة عند الشافعية، في القرن الرابع،
وإنه رحل في صباه، في تحصيل العلم، حتى
قال عنه الثعالبي في «البيتية»: «إنه خلف
الخضير»، قبل أن يلزم صاحب بن عبّاد
فيوليه قضاء جرجان. ثم ولي، قبل وفاته،
قضاء الرّي، حتى وفاته. يصور ما بقي لنا
من شعره نفساً عزيزة غالية على صاحبها:
(أبياته المشهورة التي مطلعها:

الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

وهو ثالث الشعراء الأصلاء الكبار الذين ثارت من حولهم المعارك النقدية (أبو نواس، وأبو تمام، وأبو الطيب). فهذه المعركة، خلافاً للمعركتين السابقتين، لم تُثر من حول مذهب فني جديد، أو دعوة فنية جديدة، وإنما ثارت من حول شاعر كبير أثار هو نفسه من حوله العواصف، بأسلوبه في الحياة وفي الشعر معاً:

كان شديد الاعتداد بنفسه، واسع الإدلال، يرغب في أن يتميز ممن حوله بلباسه وسلوكه وترفعه، إلى حدٍ يُثقل معه على نفوس الناس، ويثير حفاظهم.

ثم هو في شعره، على نحو ما هو في حياته، قادر جبّار يسيطر على اللغة فيعركها عركاً مذهلاً لا يبالي فيه بقواعدها المقررة أحياناً. يطويها ويبسطها، ويجمعها ويفرقها، كأنه يملئها إملاء.

وهو محيط بتراث العرب الشعري إحاطة مكنته من تمثّل أدق خصائصه: في صياغته الرائعة الموحية الجزلة القوية، وصوره الدقيقة النابعة من منافذ الحس العربي النافذ بالأشياء، ومعانيه القوية المتألّثة بمثالية نادرة تخطف الأبصار.

ولكنه، في الوقت نفسه، يصوغ الشعر صياغة غريبة توقع الناس، من حوله، في ارتباك شديد، فيأخذون يقتتلون في قراءتها

«الوساطة». على أن ثقافته هذه أدنته من فهم المتبّي، وذوق شعره. وعمله في القضاء مكّنه من التجرد في الوساطة بين الشاعر وخصومه، تجرداً استلزم أن يقف على عيوبه ومحاسنه.

وأبرز ما يحظى بالتقدير، من ملامح تكوينه، الحرص على استجماع أداة الحكم النقدي (حسن الفهم، وتقصي الحقيقة، والصبر على تحصيلها، والتمكن من اللغة، وذوق الظاهرة الشعرية ذوقاً واضحاً ممتازاً، والانفتاح على الجديد، والتحرر من تخرج الفقهاء، الذين ينتسب إليهم، في ثقافته العامة، وتخصّصه العملي)، بالإضافة إلى التماسك الخلقي البادي في تواضعه الجَمِّ، وبعده عن الادعاء، وتحوّطه من ظن العصمة عن التورط في الخطأ، وسعيه إلى التجرد في الحكم، وتحفظه من سوء التهمة، وحرارة التهجم، واللفظ الجارح (الأمدي، في «الموازنة بين الطائيين»، يغلبه انفعاله أحياناً، فيرمي أبا تمام باللفظ القاسي: الحمق، والغثاثة والبرّد، مما كان الجرجاني يتحوّط منه بحكم تكوينه القضائي وتغليب منطقتي الأحكام).

٣- وقبل أن نتناول كتاب «الوساطة» بالتحليل، ينبغي أن نحيط بحقيقة المعركة النقدية التي ثار غبارها من حول المتبّي،



وتفسيرها ومراد الشاعر منها. ويأتي
بالصور الغامضة التي تفوح منها
روائح التصوف والغلو والتشيع.

وتبدو معانيه مدرّعة أحياناً
بدروع فلسفية ثخينة، أو مجنّحة
بأجنحة وجدانية رقيقة. فأين
يقف هذا الشاعر المقتدر: في صف
القدامي أم في صف المحدثين؟ أم هو
في صف بينهما؟ أم هو يعلو عليهما
جميعاً؟ ما أعجز المقاييس فيه!

هذه معطيات الخصومة فيه:
يحبّه المحبون حتى ما يعلو عليه
شاعر في نظرهم. ويكرهه الخصوم
حتى ما يجدون فيه فضيلة تُذكر.
تلك هي صورة الموقف الذي تصدّى
الرجلاني القاضي لفك عقدة
«التوسط» فيه، بين الأنصار والخصوم.

ولكنّا ينبغي أن نعود إلى أول الطريق، في
حركة التأليف النقدي التي أثارها الشاعر،
لفهم موقع «الوساطة» منها.

٤- بدأ الشاعر يثير الناس منذ حلّ
بطلب، وأخذ نجمه، في إصرار وثبات،
يطلق شموع الشعراء الآخرين الذين كان
بلاط الحمدانيين يحفل بهم. ويثير اللغويين
والأدباء والنحويين. فاعتصب الخصوم من
حوله وانكبوا يتفحصون شعره، ويتعرضون

له في مجالس سيف الدولة بالنقد والتجريح
(ابن خالويه، وأبو فراس، والنامي وغيرهم).
ثم انتقل يثير الناس في بلاط كافور، في
الفسطاط (ابن جنزابة وزير كافور، والشاعر
المدّاح الأنصاري) وفي العراق وفارس (ابن
وكيع، والصاحب بن عباد، وابن العميد،
والوزير المهلبّي، وأبو الفرج الأصفهاني،
والحاتمي).

وقد كتب الشاعر المصري (ابن وكيع
التبّيسي - ت ٣٩٤هـ) أول كتاب في نقد شعر
المتبّي، سماه «المنصف للسارق والمسروق من

الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

الجرجاني كتابه «الوساطة بين المتبني وخصومه». وهو الكتاب النقدي الثاني أو الثالث في المكتبة النقدية العربية. وهو، من غير جدال، من الكتب الأساس فيها، ومما يقف منها في الصف الأول.

٥- يقع الكتاب في ما يقرب من خمسمئة صفحة، تشغل التحقيقات قدراً كبيراً منها. ويصلح أن يعدّ كلّه مقالة طويلة متصلة، خرج فيها الجرجاني إلى استطرادات كانت تستدعيها المناسبات. على أنه يمكن أن نتبع مجراه على النحو التالي: فقد بدأ الكتاب ببيان ضرورة الإنصاف في الأحكام (طابع القضاء ولغته واضحان منذ مطلع الكتاب)، وانعطف إلى الأدب، فذكر أبا الطيب واختلاف الناس فيه اختلافاً زال عن موقع الإنصاف. فأبو الطيب شاعر من الشعراء له حسناتهم وله سيئاتهم.

واستدعى هذا منه، أن يدخل في أغاليط الشعراء، منذ الجاهلية وصدر الإسلام، فضرب أمثلة لها (أكثرها متناقل في كتب النحو. وانظر فيها: «الموشح» للمرزباني)، خرج منها إلى تنبيه القارئ: إلى أنه لا يريد الانحراف عن المتقدمين إلى المحدثين، فالشعر خط طويل ذو مراحل. ودخل هنا في الكلام على الشعر عند العرب، ولوازم العمل الشعري: (الطبع والرواية

شعر المتبني» (١) جار فيه على المتبني كثيراً، فاتهمه بسرقة أكثر معانيه ممن تقدمه من الشعراء.

ثم كتب الحاتمي (ت ٢٨٨ هـ) رسالته «الموضحة في ذكر سرقات المتبني والساقط من شعره» حكى فيها حكاية ثلاثة مجالس زعم أنه جادل فيها الشاعر، وانتصر عليه، وأفحمه. وله فيه أيضاً رسالتان أخريان، ردّ في إحداهما معاني المتبني التي سرقها من أرسطو، كما يقول هو.

وكتب النامي (ت ٣٧١ هـ أو بعدها) رسالة في عيوب المتبني نال فيها منه إلى حد الشتيمة، وتتبع سرقاته.

ثم كتب صاحب بن عبّاد (ت ٢٨٥ هـ) رسالته المعروفة «الكشف عن مساوئ شعر المتبني» يتهمه فيها بالتفاوت، واختلال النسيج، وسقوط بعض معانيه وتهافتها وغموضها، ورداءة الصور، وإيراد القوافي الصعبة.

ووضع ابن جنّي (ت ٣٩٢ هـ) صديق الشاعر، شرحه لديوان المتبني، فأثار الشرح من حوله جدلاً، ووسّع من حدود المعركة، وأدخل فيها عناصر جديدة، فألفت كتب أخرى في الرد عليه. في هذا المعترك، وبعد أن بلغت الخصومة، في الشاعر وشعره، هذا المبلغ، كتب القاضي

الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

تحديد خصائص «عمود الشعر» عند العرب، وخروج المحدثين إلى «البديع»، واختلافهم فيه بين الاقتصاد والإفراط، فعرض هنا صوراً من الاستعارة المقتصدة، عند القدامى والمحدثين، وعارضها بصور أخرى مُفْرِطَة، نُصَحَ بتجنب مثلها، في حدة ذات دلالة صريحة على ذوق الجرجاني: «فاسدٌ مسامعك واستغش ثيابك، وإياك والإصغاء إليه، واحذر الالتفات نحوه، فإنه مما يُصدئ القلب ويُعميه، ويطمس البصيرة ويكدّ القريحة».

وما مضى كله يعتبر مقدمة «للساطة» توطئاً للجرجاني أن يبدأها، بين المتنبى وخصومه، وهو القسم الثاني الكبير من الكتاب، ويشغل ثلاثة أرباعه على الأقل.

٦- يحدد الجرجاني، في بدء «الوساطة»، مسلكه فيها (وهو يقوم على تحكيم مقياس خارجي موضوعي: «أخذ شعر المتنبى بما يؤخذ به شعر الشعراء المحدثين من طبقته» داعياً، مرة أخرى، إلى الإنصاف، وترك التعصب للقدامى على المحدثين، مبيّناً صعوبة ما يقون في عملهم الشعري «لأن أحدهم يقف محصوراً بين لفظ قد ضيق مجاله، وحذف أكثره، وقلّ عدده، وحظر معظمه. ومعانٍ قد أخذ عَقْوُها وسُبِقَ إلى جيدها»، منتهياً، بعد هذا التقديم،

والذكاء والدراية)، وتطوره مع اختلاف أطوار الحياة وطبائع الشعراء (تجد أصول ذلك عند ابن سلام الجُمَحي في «طبقات فحول الشعراء»)، منذ الجاهلية إلى ما بعد الإسلام وتحضر العرب، وصعوبة تجاوز الشعراء مرحلتهم الزمنية إلى قديم الشعر، إلا بالتكلف المقوت (يبدو هنا دفاعه القوي عن مكانة الشعر المحدث. ونجد أصول الموقف عند ابن هتيبة في مقدمة «كتاب الشعر والشعراء»)، على نحو ما وقع لأبي تمام، في أمثلة من شعره الذي نزع فيه إلى تقليد القدامى. وقد أتى الجرجاني على أمثلة منها واستدرك، في آخرها، دعوته إلى التطلع والتسهيل، باختيار صورةٍ للتعبير في الأدب، من «التمط الأوسط» على حد تعبيره: «ما ارتفع عن الساقط السوقي، وانحطّ عن البدوي الوحشي»، وتنويع أساليب الشعر بتنوع موضوعاته وأغراضه.

وأفاض، من بعد، في تصوير موقع الشعر المطبوع من القلب (ينكشف هنا ذوق الجرجاني القريب من ذوق الأمدي)، واختار أمثلة له، من شعر البحترى وجريز، ووازن بينها وبين شعر الصنعة (دون أن يَغْفَلَ عما في شعر الصنعة، أحياناً، من حسن المطابقة والمجانسة والاستعارة، ومن الإحكام والمتانة والقوة). وانتهى إلى

عليه)، يعود بعدها إلى ذكر ما يُستقبح من ابتداءته، فيقرنها إلى ما يُستحسن منها .

ثم ينتقل إلى شوارد أبياته فيورد طائفة صالحة منها (من خصائص «عمود الشعر»:

الحكم والشوارد في الشعر) يحيل بعدها القارئ إلى ديوان المتبني ليستكملها منه .

ويقول محذراً القارئ في هذه المناسبة: «ولعلك إذا رأيت هذا الحد في السعي،

والعنف في القول تقول: إنما وقفت موقف الحاكم المسدّد وقد صرت خصماً مجادلاً .

وشرعت شروع القاضي المتوسط، ثم أراك حزياً منازعاً . فإن خطر ذلك بيالك،

وحدثك به نفسك فأشعرها الثقة بصدقي، وقرّر عندها إنصافاً وعدلي، واعلم أنني

رسولٌ مبلغٌ وسامعٌ مؤدّبٌ، وأني كما أناظرك أناظر عنك، وكما أخاصمك أخاصم لك،

فإن رأيتني جاوزت لك موضع حجة فردّني إليها، ونبهني عليها، فما أبرئ نفسي من

الغفلة، ولا أدعي السلامة من الخطأ» .

٨- ثم انتقل، في النظر من المنتقد من

شعر المتبني، إلى ما سرّقه من أبي تمام، وادعاء الخصم وقوع المتبني في التعقيد،

وفساد الترتيب، واضطراب النسج، إذا اعتمد على قريحته ولم يعمد إلى السرقة .

فأقرّ بالكثير مما يقول الخصم، ولكنه عمد إلى تفصيل القول في السرقة، ليثبت أن

إلى إيضاح أن «وساطته» تقوم بين المتبني وخصومه ممن لا يتعصبون للشعر المحدث، وهم مع ذلك يحطّون من قدر المتبني عن قدر طبقته من الشعراء المحدثين .

وهنا يبدأ الجرجاني في الكلام عن عيوب الطبقة الأولى من هؤلاء الشعراء المحدثين

الذين يقدمهم خصوم المتبني، فيتكلم عن التفاوت في شعر أبي نواس، والمجون وضعف

العقيدة (لأن بعضاً من خصوم المتبني نال من شعره لفساد مذهبه فيه . والجرجاني

هنا يذهب مذهب الصولي^(٣)، من قبله، في التفريق بين العقيدة والشعر، فيقول: «الدين

بمعزل عن الشعر»، والتفاوت في شعر أبي تمام «ما تكاد قصيدة من شعره تسلم من

أبيات ضعيفة وأخرى غثّة، لاسيما إذا طلب البديع وتتبع العويص»، وأخطائه فيه (جمع

بين أبي نواس وأبي تمام عن عمد لأنهما زعيما المطبوعين وأهل الصنعة).

٧- ثم انتقل إلى المنتقد من شعر المتبني لغة واختلالاً، أو إحالة، أو تعسفاً وغثاء،

أو ضعفاً وركاكة، أو تعدياً في الاستعارة، أو تعقيداً، فسرد طائفة كبيرة منه، وأقر

بعبئه . ولكنه دعا إلى أن تُذكر، إلى جانبه، بدائعه الكثيرة التي يأخذ في ضرب الأمثلة

المستفيضة لها، في أكثر من خمسين صفحة (عذره فيها أن خصوم الشاعر ينكرونها)

الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

تعدُّ من أجود ما كتبه في الكتاب، قَسَمَ فيها المنتقد من شعر المتنبى على هذا الوجه، قسَمين:

قَسَمٌ هو «من باب ما يُمتحن بالطبع لا بالفكر، لاحظْ فيه للمُحاجَّة، ولا طريق إلى المحاكمة». فهذا الوجه «غامض يوصل إلى بعضه بالرواية (الثقافة). ويوقَّف على بعض بالدُّرية (المران)، ويحتاج، في كثير منه، إلى دقة الفطنة وصفاء القرينة، ولطف الفكر، ويعدُّ الغوص». فملاك هذا الباب وزمامه، في رأي الجرجاني، صحة الطبع وإدمان الرياضة، فإنهما، كما يقول، «أمران ما اجتماعاً في شخص فقتصراً في إيصال صاحبهما عن غايته».

وما يقوله الجرجاني في هذا الوجه صحيح، فإن من المعرفة النقدية ما تجده في النفس، ويعصى، في بيانه، اللسان. وما تحصَّله المعرفة وتقعده به الصفة، على ما يقولون. ولكننا كنا نرجو أن يحاول الجرجاني التصدي لمثله، على نحو ما فعل أستاذه الأمدى. فإنه لو فعل لكان أتى بنقد موضعي يعين على صقل الأدواق، وتوسيع الخبرة النقدية، وإغناء الطبع. وفي مثله يتفاوت النقاد في رأينا. فإن النقد أن تعين القارئ على فهم النص وتدوقه واكتشاف مصادره جماله أو نُقْطه الغامضة. فأما المصادر

خواطر الشعراء تتساقق في المعاني المشتركة والمتداولة؛ وأن أخذ المعاني، مع الزيادة فيها، لا يُعدُّ من العيوب (الجرجاني هنا يردُّ على طائفة من الكتب التي أُلِّفت قبله في سرقات المتنبى. ثم خاض في سرقات الشعراء القدامى والمحدثين خوضاً أخذ فيه بتساقق الخواطر والمعاني المتداولة، كأنه نسى احترازه السابق. ثم أخذ يفند دعاوى السَّرْق في شعر أبي نواس ويردُّها.

وانتهى أخيراً إلى أن السَّرْق داء قديم، وأن المحدثين أولى بالعذر فيه «لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها». ومن هنا انتقل الجرجاني إلى نقد ما قيل في سرقات المتنبى والإقرار بها، وإيرادها، دون تعليق، مع أصولها من أشعار الشعراء القدامى والمحدثين، أو تبين تجويد المتنبى لها أو نقصه فيها. وقضى في هذا الجهد العقيم، في نظرنا، ما يكاد يقرب من نصف الكتاب كله!

٩- وانتقل بعده إلى المنتقد من شعره على غير جادة السَّرْق (اللحن في الإعراب، والخروج عن اللغة، والاختلال، والتناقض، والمعاني الفاسدة، والإحالة، والتقصير عن الغرض، والتعقيد والتعويض وغموض المراد، والاستعارة البعيدة، والإفراط في الصنعة)، فقدم له بمقدمة نقدية قصيرة

الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

ولم يُخَسَّ التثقيف شرطه، لانقطعت عنها
السن العيب».

في هذه الصفحات الثمينة من النقد
الموضوعي، دلَّ الجرجاني على ذوق
وخصاصة في النقد، وعلى معرفة ممتازة
باللغة وموسيقا الشعر، وخبرة بأساليب
الكلام، لا يؤخذ عليه فيها إلا تمسكه
المفرط بالقواعد إلى حد الحظر، مهما تكن
الدواعي الشورية للخروج عليها أحياناً.
على أنها تبقى أقرب الصفحات إلى النقد
الحقيقي وأوفاهها بغرض الناقد من كتابة
كتابه، وهو إثبات مكانة المتبني من شعراء
عصره وشعراء العرب، وعدّه واحداً منهم.
وفي هذه الصفحات دان الجرجاني التعقيد
وغموض المعنى في الشعر، والإفراط والغلو،
سواء وصلاً إلى الإحالة أم وقفاً دونها.

وقد وقع أبو الطيب، في رأيه، في الإحالة،
لأنه حاول أن ينافس بعض الغلو في شعر من
تقدمه من الشعراء. ولكنه، على كل حال
«عيب مشترك، وذنوب مقتسم، فإن احتمل
فللكل، وإن رُدَّ فعلى الجميع». وإنما حظ أبي
الطيب فيه حظ واحد من عرض الشعراء،
وموقعه منه موقع رجل من المحدثين». ودان
الجرجاني الإفراط في الاستعارة، مما
يحدده، في رأيه، «قبول النفس ونفورها،
وسكون القلب ونبوّه». وربما تمكنت الحجج،

المكشوفة التي تلمس وتحدد وتتحصر فيه
الدلالة، «وتحسسه النواظر» على نحو ما
يقول الجرجاني. وهو ما انصرف إليه في ما
تبقى من الكتاب. فأمره أيسر على الناقد.

١٠- على أن الجرجاني انتقى نحو
أربعين بيتاً مما يُنقَد على المتبني في رأيه،
(وهو القسم الثاني في رأيه، ويتيسر بيان
مواضع نقده والردّ عليه)، فأوردتها وأورد
نقدها، ورد عليه هو حيناً، أو جاء بردّ المتبني
نفسه أو بردّ أنصاره حيناً آخر. وعلق عليها
بالردّ أو بالتأييد. فكشف عن قدرة رائعة
على تجرد المدافع، لصدقه معها في توطئته
التي وطأ بها لها: «ليس بغيتنا الشهادة لأبي
الطيب بالعصمة، ولا مرادنا أن نبرئه من
مقارضة زلة. وإنما غاييتنا، فيما قصدناه،
أن نلحقه بأهل طبقتيه، ولا نقصر به عن
رتبته. وأن نجعله رجلاً من فحول الشعراء،
ونمنعك عن إحباط حسناته بسيئاته، ولا
نسوّج لك التحامل على تقدمه، في الأكثر،
بتقصيره في الأقل». فإنه، على حدّ قوله: «لا
بد لكل صانع من فترة. والخاطر لا تستمر
به الأوقات على حال».

وقد حكم الجرجاني، بمثل هذا التجرد،
على هذه الأبيات ومثلها، حكماً جامعاً
في قوله: «وجملة القول في هذه الأبيات
وأشباهها: أنه لو وُفِّيَ فيها التهذيب حقّه،

الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

مندوحة، وفي المجتمع عليه متسع... غير أن أبا الطيب عندي غر معذور بتركه الأمر، القوي الصحيح إلى الشكل الضعيف الواهي، لغير ضرورة داعية، ولا حاجة ماسة». «وقد يجيء عن العرب شواذ لا تجعل أصولاً ولا يلزم لها قياس، لأن ذلك لو ساغ واستمر لانقلبت اللغة وانتقضت الحقائق».

١٢- والخلاصة أن منهج الجرجاني النقدي، في جانبه التأثري، موصول بنهج أستاذه الأمدي: منهج الذوق والتعليل. يذوق الشعر بذوقه المدرب بالثقافة والمران، ويعلل له بالمعرفة المتسعة باللغة والأدب، وتقائيد العرب الشعرية، ودواعي النفس وإقبالها أو كزازتها.

ويعزز فعالية هذا المنهج انفتاح في العقل على الجديد، واحتواؤه وقبوله، وتحرر من قيود التعصب الضيقة، وقدرة رائعة على التجديد، والدفاع الموضوعي عن الحقيقة، بعد تبيينها والإيمان بها. ولو أنه، في كتابه، شغل نفسه بمثل هذا النقد، بدل أن يشغلها بالجهد الضائع في تتبع السرقات، لكان وصل، في النقد العربي، إلى مثل مكانة الأمدي.

ثم إنه سلك، في نقده، مسلك الوساطة بين المتبني وخصومه، على نحو ما سلك الأمدي، من قبله، مسلك الموازنة بين أبي

في رأيه، من إظهار بعضه، واهتدت إلى الكشف عن صوابه. ورأى الجرجاني أن أبا تمام «هو أول من أخرج الاستعارة عن طورها، حتى تعدت ما كان عليه مقياس العرب في أمرها، على وجه من المناسبة وطرف من الشبه والمقاربة».

١١- ثم عرض للمنتقد من شعر المتبني، على جادة اللغة والإعراب والعروض، فرأى «أن المعترضين عليه أحد رجلين: إما نحوي أو لغوي لا بصر له بصناعة الشعر، فهو يتعرض، من انتقاد المعاني، لما يدل على نقصه، ويكشف عن استحكام جهله». أو «معنوي مدقق لا علم له بالإعراب، ولا اتساع له في اللغة، فهو ينكر الشيء الظاهر وينقم الأمر البين». وكلا الرجلين، في رأي الجرجاني، ظالم للمتبني. وإنما ينبغي أن يتصدى لنقد المتبني من اجتمع له البصر بصناعة الشعر والاتساع في اللغة معاً.

وقد احتكم الجرجاني، في نقده هنا أيضاً، إلى تقائيد العرب في كلامها وأساليب خطابها، وما اجتمع عليه النحاة من قواعد اللغة المقررة، حتى جار على دواعي النفس المشروعة، في توجيه الصياغة الشعرية. واستبهمت عليه، في بعض الأحيان، هذه الدواعي فأنكرها. وكان دائماً يتمسك بمثل قوله: «وقد كان لأبي الطيب في الصحيح

الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

كما يقول «بلاشير». وإذا كان عرضاً للمنتهي في صورة مَنْ يحبه ويمعن في الدفاع عنه أحياناً، فلأن خصوم الشاعر عرضوا له في صورة من يكرهه ويمعن في التهجم عليه، كما يقول أمجد الطرابلسي في كتابه⁽³⁾ (La Critique poétique des Arabes).

١٣- وتبقى في الكتاب دلائل كثيرة على حسن الجرجاني الدقيق بتطور الأدب عبر العصور، وضرورة وفاء الشاعر بحاجات عصره، والاستجابة لها، والانفتاح عليها في شعره (اقرأ الصفحات الخمسين الأولى في كتابه)، على نحو يقرب الجرجاني مما نقوله اليوم، كما يقول «بلاشير» أيضاً، ونفاذه الرهيف إلى ارتباط صورة الأدب بصورة النفس والخليفة والعصر والبيئة والموضوع، لدى الشاعر، وضرورة تحرر الشعر من الزيف والنفاق في المذهب والمعتقد (التفريق بين الشعر والدِّين)، وإعلاء شأن الطبع (الموهبة) في العمل الشعري، واعتباره أساساً لا يفني عنه شيء في عملية الخلق الشعري، والدعوة إلى التزام الشعراء طبائعهم، والكف عن الحمل عليها بالتكلف والاصطناع، والتعمّل والتعويض، والإغراق والإحالة والتعسف، والتزام الشاعر قواعد اللغة العامة (وإن جار هنا إلى الحد الذي أشرنا إليه)، وأخذة الشاعر بالثقافة (الرواية) والمران (الدُّربة)،

تمام واليحتري (ما نشك نحن في أنه نظر إلى أستاذه نظراً متصلاً، وأخذ عنه، وتجنب بعض ما تورط فيه الأمدى، بحكم حرارة مزاجه، من العنف والغضب أو الاسترسال في الرضا). وكلا المسلكين ما كان يُمكن لصاحبيهما أن يسلكا مسلكاً يغيّره، وفاءً بما أرادوا بيانه في كتابيهما: فالأمدى كان يريد أن يوازن بين طريقتين في العمل الشعري، إحداهما تحكمها، في الإجمال، الحركة النفسية (وهي التي رأى خصائصها ممثلة في «عمود الشعر» عند العرب) والثانية تحكمها الحركة الذهنية (وهي التي رأى خصائصها ممثلة في مذهب «البدیع» الذي ذهب إليه أبو تمام وغالى فيه)، فكتب كتابه من هذه الوجهة.

والجرجاني كان يريد أن يُقنع معاصريه بأن المنتهي شاعر من الشعراء المحدثين: له ما لهم، وعليه ما عليهم، فلم تكن أمامه إلا الوساطة بين الشاعر وخصومه، يُقرُّ لهم بسيئاته ليقربهم من الإقرار بحسناته، ويصلوا جميعاً إلى هذه الحقيقة البسيطة التي يثيرنا اليوم تواضعها، وهي: عدُّ المنتهي العظيم في شعراء عصره!

ويلغ، في مسلكه، من القدرة على ضبط النفس، والتحوط في الأحكام، ما يبلغ عنده مبلغ الشك العلمي في طوره الجيني الأول،

الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

الشعراء المحدثين، ولكنه لم يكشف من المتبني شيئاً كبيراً عميق الأصاله والتفرد. من هنا عجزت «الوساطة»، على نحو ما لاحظ إحسان عباس^(١)، عن أن تُرضيَ الفريقين اللذين دخلت بينهما: فلا هي أرضت أنصار الشاعر، ولا هي كسبت رضا خصومه الذين لا يرون في الشاعر ما يراه الجرجاني، فظلاً، في نظرهم، كريبه التعقيد والسَّرْق والتبجح والتبدي في الشعر، والخروج عن قواعد اللغة، وتهجين الشعر بمصطلحات الصوفية والمتللفة.

ثم إن الجرجاني بتصلبه أحياناً وأخذه بالروح التعليمية، في غير نظر إلى حاجات الشاعر النفسية من قنّه وصياغته، كان بداية الإرهاص بتحول النقد إلى قواعد بلاغية جامدة تحكمها الروح التعليمية التي لا تتسع لحوافز الإبداع الكبيرة، ولا تُقرُّ بها.



وبعد، «قالوساطة» كتاب أفاد من جهد الناقدين السابقين دون تمييز (ابن سلام، والجاحظ، وابن قتيبة، وابن المعتز، والمبرد) وأفاد أيضاً مما سبق به خصوم المتبني وأنصاره، في بيان سرّقه وعيوبه، وشرح شعره وخصائصه (مما كتبه الحاتمي، والصاحب

واجتماعهما إلى الطبع (الموهبة) في العمل الشعري (وهو ما نفض عنده، إلى اليوم، في نقدنا الحديث)، وأخذَه، تبعاً لهذا، بمنهج التذوق الواعي المدرب، والتعليق المدرّس في نقده.

وعند هذا المنهج فرّق الجرجاني بين ما تُحصّل معرفته الصدور، ويلجّج به اللسان، وبين ما يسهل على المتذوق بيانه. وفرّق بين المحكم المتقن من الشعر، على غير حلاوة ولا قبول، وبين الحلو المقبول منه، على غير إحكام. ولم يرغب في قَلَج الخصم قدر ما رغب في اكتسابه وعطف قلبه على دعواه، والإيحاء له بالثقة، تيسيراً للوصول إلى قلبه، واجتثاث الكراهية منها للشاعر وشعره، والمنادين به، حتى ينفث على الشاعر ويقبله، ويتذوق حلاوة شعره ويتملاها وينحاز إليها.

١٤- وكل ما يقال في نقد الجرجاني: إنه، كما يقول مندور، أقرب إلى أن يكون توفيقاً إنسانياً واسع الصدر بين المتخاصمين، منه إلى أن يكون نقداً فنياً. وهو في نقده الفني، على ما رأيناه، يهمل، من الشعر، ما يتطلب، في تحليل نقده، النفوذ إلى أبعد مما يقف عليه الحس.

لعله حقّق الغرض الذي كتب له «الوساطة»، وهو الإقرار بمكان المتبني من

الجمع بين التأثرية والموضوعية في العمل النقدي

له قدرأ أوفى من التطبيق. ووقف موقفه من الإخلاص لخصائص العمل الشعري عند العرب، وهي الخصائص التي تضمنها عمود الشعر، وأهمها التمسك بالطبع ومقت الحمل عليه في التعبير والتصوير.

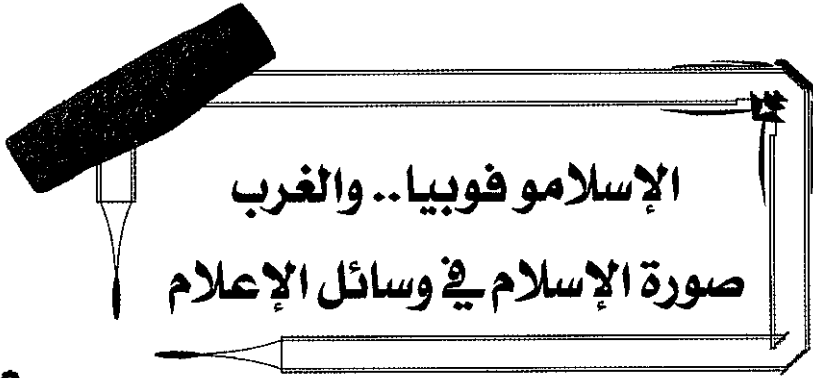
ابن عبّاد، وشرّح ابن جنّي للديوان). وربما أفاد أيضاً مما كتبه ابن وكيع التّيسيّ المصري). وتلمذ للآمدي في «الموازنة»، وأخذ عنه، في الجانب التأثري، منهجه في تحكيم الذوق والتعليل له، وإن كان مسلكه الذي اختاره، في الدفاع عن المتبني، لم يُتّج

الهوامش

- × تحقيق وشرح: علي محمد البيجاوي وأبو الفضل إبراهيم: (القاهرة- دار إحياء الكتب العربية، ط ٣، ١٩٤٥).
- ١- نُشر بعنوان: «المنصف في نقد الشعر، وبيان سرقات المتنبي» (دمشق - دار قتيبة ١٩٨٢).
- ٢- محمد بن يحيى (ت ٢٣٥هـ) وكتابه «أخبار أبي تمام» (القاهرة - لجنة التأليف ١٩٣٧).
- ٣- دمشق - المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٩٥٦. راجع الترجمة العربية ص ٩٥ - ١٠٠.
- ٤- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٣٣٥ - ٣٣٦.



الدراسات والبحوث



د. حفناوي بعلي

لقد تمّ في وسائل الإعلام الغربية التصوير الزائف للإسلام، بأقلام وأصوات وصور صناع الرأي والمتقنين والإعلاميين في الغرب؛ بطريقة ظاهرة التناقض والتشويه والتجني. وميل خطاب المثقفين الإعلاميين إلى تشويه صورة الإسلام/ التطرف والاقتراب تدريجياً من خطاب الخبراء الأمنيين. ما مسؤولوية وسائل الإعلام في تزييف وتشويه ونشر رهاب الإسلام داخل المجتمعات الغربية، فالإعلام الغربي لا يخلق ويتبنى تشويه صورة الإسلام

* أديب وناقد من الجزائر - جامعة عنابة

العمل الفني، الفنان رشيد شمه.

الإسلامو فويبا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

التي توحى بأنهم قوم أشرار ومتطرفون. فإن الصورة النمطية للمسلم الهمجي المتعطش للدماء؛ هي التي تقدم في وسائل الميديا، مع سبق الإصرار والترصد. فتعرض المسلمين غاضبين يتظاهرون في الشوارع، يطالبون بقتل مؤلف أو صحفي أو سياسي. أما السينما فقد استأثرت بنصيب الأسد في عملية تشويه العرب والمسلمين، حيث تظهر شخصيات عربية وإسلامية سلبية منفردة. والخطر في الأمر أن الإعلام الغربي دأب على الخلط بين الإسلام وبعض التصرفات الخاطئة.. وفي هذه الصور اليومية يتم الإلحاح على ربط الإسلام بالعنف والإرهاب والتطرف، وتجعله يعتقد أن جميع المسلمين أصوليون، وأن كلمة أصولي تعني «عدواني ومتعصب». ولا بد من الفصل بين الإسلام كدين وعقيدة، وبين ممارسات المسلمين التي تصيب وتخطئ، وإن الإرهاب ظاهرة عالمية لا ظهر لسه ولا أرض ولا وطن. ومن الخطأ نسبته إلى ملة دون أخرى، أو أمة دون أخرى.

رهاب الإسلام/ أو خوف الغرب من الإسلام

ظهر في الغرب مؤخراً كتاب يحمل عنوان «رهاب الإسلام الجديد» وضعه فانسان جيشسر، الكاتب المعروف بمناهضة

فحسب، بل يؤطر المفهوم الشائع حوله وعن المسلمين؛ من خلال اختيار المقالات والتحقيقات والصور والأفلام الموجهة إلى القراء والمشاهدين.

وفي ظل الإرهاب وهاجس الخوف من الإسلام، أضحت وسائل الإعلام الغربية أداة تلبى في الواقع طلباً اجتماعياً ضمناً، وتقريباً عن مدى خطر عدوى «التطرف الإسلامي». وقد أذكى الإعلام نيران حالة الإسلاموفوبيا/ الخوف من الإسلام، نتيجة التصور الزائف له؛ فالحركات الإسلامية نوع من التبشير ومن منطلق روح الحرب الصليبية.

وتحدثت ذات الأوساط عن حرب باردة/ مجتمعية يقودها العرب والمسلمون ضد الغرب؛ تكون أوروبية وأمريكا مسرحاً لها. وهناك صورة نمطية مشوهة للعرب والمسلمين؛ في الموروث الغربي أضيف إليها بعض التروش إلا أنها لاتزال قابعة في العقل الغربي. فتعرضها وسائل الإعلام صوراً، وقد نفخت فيها من روحها ونشرتها في الأرجاء كافة، بحيث أصبحت عبارة «أنا عربي مسلم» مرادفة تماماً لعبارة «أنا إرهابي.. أنا وغد شرير متعطش للدماء».

ويصل تشويه صورة العرب والمسلمين إلى أقصى درجاته في حصص وبرامج الأطفال،

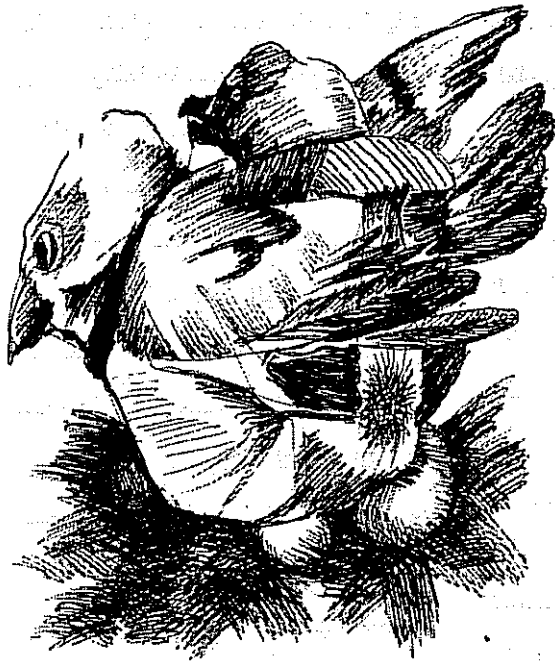
الإسلامو فوبيا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

ما مسؤولية وسائل الإعلام تجاه نشر رهاب الإسلام داخل المجتمع الفرنسي؟ منذ قضية الحجاب العام ١٩٨٩، بدأت صوة المسلمين تأخذ طابعاً نمطياً: أعداد كبيرة من المؤمنين مصورة من الخلف ظهورها منحية إلى الأمام، جموع متراصة تصرخ وتتوعد، نساء محجبات.. إلخ. لكن الخطاب الإعلامي ليس واحداً، ولا هو في الميدان؛ فهناك ثلاثة أو أربعة خطابات تحاول منافسته، وهذا يعني أن الإعلام لا يخلق رهاب الإسلام، ولكنه يوظف المفهوم الشائع حوله من خلال اختيار المقالات والتحقيقات والصور الموجهة إلى القراء. لهذا فإن النقد الذي نوجه إلى الصحافة في موضوع الإسلام، لا ينفصل عن النقد الذي نوجه إليها في صناعة الخطاب الإعلامي عموماً: غياب الاختصاص، غياب المتابعة، الرقابة الذاتية. فالصحفيون الذين بذلوا جهوداً حقيقية في معرفة موضوع الإسلام، وجمعوا الوثائق وحققوا في المعلومات، لا يتعدون أصابع اليد في الصحافة الفرنسية.^(١)

كما أن تطور ملف الإسلام منذ الثورة الإيرانية، مروراً بمأساة الجزائر وأحداث سبتمبر. وفي ظل التهديد المستمر لـ «الإرهاب الإسلامي الدولي»، جعل معالجة هذا الملف تتم من خلال صورة الإسلاميين،

التمييز ضد المسلمين في فرنسا، وتناول فيه أربعة محاور كبرى. المحور الأول هو الربط بين الرهاب الاستعماري للإسلام، والرهاب الجديد للإسلام على أقلام قادة الرأي والمثقفين والإعلاميين بطريقة ظاهرة التناقض، فمع أن هؤلاء القادة كانوا من المدافعين بصلابة عن قضايا العالم الثالث، وتحرير الشعوب من الاستعمار، فإن مواجهمتهم للظلامية والأصولية الإسلامية باسم الدفاع عن الحرية والعلمانية والديمقراطية؛ يرافقها اليوم شيء من الرهاب الضمني للإسلام.^(٢)

والمحور الثاني هو محاولة أصحاب هذه النزعة الإنسانية إخفاء أيديولوجية الانطواء، التي تحركها الرهبة من الإسلام، وميل خطاب المثقفين الإعلاميين إلى الاقتراب تدريجياً من خطاب الخبراء الأمنيين، الذين اكتسبوا عقب أحداث سبتمبر مكانة وطنية حقيقية. المحور الثالث هو غزو الأيديولوجيا الأمنية للأوساط اليهودية «الملتزمة» التي ترى في تنامي المؤسسات الإسلامية خطراً على هويتها كـ «ضحية» ونضال هذه الأوساط اليوم للاحتفاظ بوضع «الضحية الشرعية» للعنصرية. أما المحور الرابع فهو دخول رهاب الإسلام إلى بعض أوساط المسلمين «المعتدين».



وحول الإسلاميين العاديين إلى جنس في طريق الانقراض. فوسائل الإعلام تلبي في الواقع طلباً اجتماعياً ضمناً: لا يطلب الناس معلومات عن الإسلام والممارسات الاجتماعية لاتباعه، بل تقريراً عن مدى خطر عدوى «الإرهاب الإسلامي» وتسله داخل الهيئة الاجتماعية. نجد التطور نفسه في تصوير وسائل الإعلام للحجاب، الذي تكاد تجمع وسائل الإعلام الفرنسية على رفضه، خصوصاً المجالات السياسية الأسبوعية. فالحجاب في المخيلة الإعلامية ملازم لخضوع المرأة

وغياب الحريات الفردية، ولكن شيئاً بدأ يتغير في هذه النظرة، لم تعد الفتاة المحجبة تصور دوماً كضحية لتسلط الأب أو الأخ، بل صار هناك ما يسمى بالعبودية الاختيارية، التي هي نتاج التزام شخصي، وبالتالي تعبير عن موقف متزمت يجعل من هذه الفئة من النساء فئة خطيرة. (٢)

هل يوجد في فرنسا رهاب إسلام على المستوى الفكري، على غرار «العنصرية الفكرية»، الجواب هو بالنفي. فليس في رهاب المثقفين الفرنسيين شيء من التسويغ

الفكري، إنما هو جزء من الرهاب الشعبي. أما السؤال عن مسؤولية المفكرين الفرنسيين عن نشر بعض الأحكام المسبقة حول الإسلام، فالجواب هو بالإيجاب دون شك. ولسنا نتهمهم بالعنصرية ضد الإسلام؛ بل نتهمهم بالخلط بين الإسلام ومظاهر بعض المسلمين العنيفة. بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ بدأت برامج التلفزة والإذاعة والندوات السياسية تدعو صنفاً جديداً من المتكلمين، هم خبراء الخوف، الذين يستمدون شرعيتهم من الواقعية الأمنية. وقد تمكن

الإسلاموفوبيا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

نفسه من معاداة إسرائيل واليهود، انطلق في نشر رهاب الإسلام تحت ستار التحليل العلمي.^(٥)

ما كان لهذا الاتجاه أن يحقق نجاحاً لولا التطور الذي طرأ على الوسط الإعلامي، وحتى الأكاديمي. فما كان يعتبره هذا الوسط قبل سنوات قليلة، نوعاً من التعصب الذي يطبع أوساط اليمين المتطرف، صار له نوع من الصدقية باسم الواجب نحو المجتمع، وصار على كل مثقف أو إعلامي أن يتحدث عن الإسلام والمسلمين بمسؤولية، كما لا يعتبره الآخرون غيباً أو مناصراً للمسلمين. وهذا ما يفسر الحملة على علماء الإسلاميات الفرنسيين واتهامهم بقلة الحذر؛ من خلال تأكيدهم على تراجع الإسلام السياسي، وبالتالي تشجيعهم على تراخي السلطات الغربية أمام تهديدات «الإرهاب الإسلامي». هكذا أدت أحداث سبتمبر إلى تراجع النظرة العلمية للإسلام أمام نظرة شعبية يحملها صنف جديد من الخبراء، لا صلة لهم أحياناً بحقل الدراسات الإسلامية.^(٦)

يشكل رهاب الإسلام المعاصر ظاهرة شديدة التعقيد، لا يتم التعبير عنها بكلام مباشر (عنصرية ضد الإسلام)؛ بقدر ما يتم بطريقة كامنة، تؤدي إلى تراكمات وآراء

هؤلاء الخبراء، من خلال تهميش كلام علماء الاجتماع والسياسة والإسلاميات، من أن يفرضوا أنفسهم كمراجع في موضوع الإسلام والإسلاميين.^(٧)

أبرز هؤلاء الخبراء وأكثرهم إثارة للشك هو «ألكسندر دلفان»؛ الذي جاء من دوائر اليمين المتطرف الوثني الغامض، ليبنى لنفسه موقفاً في الحقل الإعلامي. أصدر دلفان العام ١٩٩٧ كتابه الأول «الأصولية الإسلامية والولايات المتحدة»؛ دافع فيه عن نظرية اتفاق المصالح بين أمريكا والإسلاميين في العالم على ضرب أوروبية. وهي مصالحي استراتيجية (محرارية أوروبية) وفقهية (الأنجلوسكسونية البيضاء البروتستانتية، والأصولية الإسلامية أيديولوجيتان معاديتان للفكر القومي). بعد أحداث سبتمبر لم تتغير تحليلات دلفان لجهة خطر الأصولية الإسلامية، ولكنها تغيرت تماماً لجهة الخطر الأمريكي، الذي اختفت كل إشارة إليه. وهناك تغيير آخر مهم هو إسرائيل التي اعتبرت كتابات دلفان الأولى بلداً تابعاً لأمريكا، فصارت بعد أحداث سبتمبر الضحية الأساسية لـ «الإرهاب الإسلامي»، وبعدمها برأ دلفان

الإسلامو فوريا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

والخبراء في الأمن، لا يصادفهم الفرنسيون في أعمالهم وعلاقاتهم اليومية. إن مشكلة هؤلاء المثقفين أنهم يدركون حملتهم على أشكال الظلامية الدينية؛ من دون أن يلتفتوا إلى الإسلام المعيش. فكأن هذا الإسلام المعيش لا يعينهم، إنما يعينهم ذاك الإسلام المتخيل الاستيهامي، الذي يسمح لهم بقيادة حملة أيديولوجية. تبقى مسألة العنف والإرهاب، لا يمكن تغييرها. فاعتداءات نيويورك وكراشي وكازابلانكا ليس من خيال هؤلاء المثقفين الإعلاميين. إنها فعلاً أعمال إرهابية، نفذتها مجموعات تعلن انتماءها إلى الإسلام. لقد طرح أحد الصحفيين في نيويورك أخيراً سؤالاً على بطل العالم السابق في الملاكمة محمد علي: كيف تشعر أمام فكرة أنك تتقاسم الديانة نفسها مع هؤلاء الذي تعتقلهم وكالة المخابرات الأمريكية؟ فأجاب محمد علي: وكيف تشعر أنت أمام فكرة أنك تتقاسم الديانة نفسها مع هلتر؟^(٧)

ليست مقولة الإسلام المعتدل، والإسلام المتطرف عملية ولا مفيدة، لأنها لا تسمح بفهم النمو القلق لشبكات الإرهاب على مستوى العالم، فهذه الظاهرة العنيفة، التي تربط نفسها بالإسلام، ما زالت غامضة، وغموضها ينبغي أن يجبر الغرب على الابتعاد

مسبقة وسوء فهم للإسلام والمسلمين. وما يعزز هذا الكمون، هو أن رهاب الإسلام ليس عبارة عن صراع ديني بين الغرب والشرق؛ فالمواقف المناهضة لأسلمة المجتمع الفرنسي، تنطلق من مفاهيم علمانية، تدافع عن الحداثة والكونية. كما لا يمكن اعتبار إرهاب الإسلام نزاعاً دينياً متجدداً بين الغرب والشرق، كما كانت مشاهد الحملات الصليبية والجهاد تتكرر دورياً، إنه إلى حد كبير نتاج عملية «دنيوية»/ عنصرية جمهورية على طريقة إرنست رينان، بل عملية علمانية يقوم بها المجتمع. أولاً لأن رهاب الإسلام ليس ظاهرة شعبية وحسب، بل ظاهرة ثقافية وإعلامية أيضاً. ثانياً، لأن الرهبة ليست من المسلمين العاديين، بل من الإسلاميين، بحيث يمكن القول إن الرهاب هو في الحقيقة إسلاموي (نسبة إلى الإسلاميين الأصوليين)، لا إسلامي، نسبة إلى الإسلام أو المسلمين. بحيث نجد من يتولى الصراع باسم المسلمين لإنقاذهم من أشكال الأصولية التي تهدد العالم.

الإسلام المعتدل.. الغرب وثقافة

الكرهاية

وهذا الصراع جذاب بطروحاته، وفقير بحججه، فالإسلاميون والإرهابيون الذين يتحدث عنهم المثقفون في الإعلام، والمتخصصون في الجغرافيا السياسية،

انعكست هذه الظاهرة على الوجود العربي والإسلامي في أوروبا والغرب.^(٨)

وهكذا بدأ العالم الغربي وكأنه مصاب بلوثة عقلية؛ جعلته يكره فعلاً العرب والمسلمين، ويراهم أقواماً من الأشرار. ولذلك أعطى لنفسه الحق أن يتعامل معهم بوحشية مستهينة بأرواحهم ومقدساتهم؛ لأنهم من وجهة نظره لا يستحقون غير ذلك: فمعشر العرب والمسلمين لا كلمة لهم، ولا رؤية، ويكره بعضهم بعضاً، وتغيب عن قواميسهم كلمة «اتفاق»، وتغمرهم أوحال الأنانية، والشماتة، والتخاذل، وتقسو قلوبهم على ذويهم. وأهم من كل ذلك أن الملايين من بينهم قد رحلوا شمالاً، وأقاموا في المجتمعات الغربية لشيء واحد هو «أسلمة الغرب وأوروبية». وبات راسخاً في الأذهان أن «الإسلام» هو مصدر الإرهاب. والمؤلم أن أطروحات كثيرة ومغلوطة، قد انتشرت في الغرب أن المهاجر المسلم يعمل ما في وسعه كي يقود المجتمع الغربي باتجاه حضيرة الإسلام. ومنها أيضاً أن الإسلام «الأصولي» قد تغلغل في القطاع الاقتصادي الغربي؛ مما يسهل توفير الدعم لـ «جنود الإسلام»، الذين يحاربون في أفغانستان والعراق.^(٩)

وفي ظل هذه الأجواء المشحونة بالعداء للعرب والمسلمين، سكبت (الإسلاموفوبيا)

عن التبسيط، وعلى تجاوز الأفكار المسبقة، والتمثيل النمطي للإسلام والمسلمين. ولكن هذه الظاهرة ومفاعيلها، ينبغي أن تجبرنا، نحن العرب/ المسلمين، على أخذها بجديّة وتحليلها بدقة، وتحديد ما سيصيبنا منها خيراً وشرّاً. هذه الظاهرة المنسوبة إلينا لا نتحكم نحن بها، ولا ندرى من يتحكم بها فعلاً.

أخذت في السنوات الأخيرة الوسائل الإعلامية الغربية في تقديم الصورة المشوهة للعرب والمسلمين، والمضلة؛ بوصفهم إرهابيين ورعاع ولصوص وفوضويين، وتكرس تلك الوسائط لجعل الصورة نمطية مترسخة في العقل الغربي، وخصوصاً في عقل الأطفال الذين باتوا يربطون لفظ عربي/ مسلم؛ بتبميزات ومعايير معينة مثل: بنزين، طماعين، وإرهابيين، وأوغاد، وبدو.. وفي الوقت ذاته يجهلون ما للعرب والمسلمين من إسهامات عديدة في الحضارة الإنسانية. لقد تأججت مشاعر خوف الغرب من الإسلام والمسلمين، ولا سيما مع نشوب جملة من الأحداث الإقليمية والدولية، التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط. وبذا لاحت في الأفق ظاهرة غريبة جداً خطيرة؛ وهي «الإسلاموفوبيا»، بوصفها حالة من الخوف المرضي وغير المبرر من الإسلام، كما

الإسلام فوريا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

فرنسا). وتعمدت أن تتهم المسلمين بضيق الأفق وعدم التسامح، لأنهم يعتبرون رسومها إهانة للإسلام، مع أن شكل هذه الرسوم ظريف ولطيف.

وقد لا يكفي أن نذكر أن صحيفة «فرانس سوار» كان يمتلكها سابقاً أحد أساطين المال والسلاح اليهود في أوروبا، وأنها عندما تطوعت بالدخول في غمار هذه الأزمة، لم يكن لها من هدف سوى إذكاء نيران الفتنة ضد المسلمين في أوروبا. وكانت قبل أكثر من عام قد تبنت دعوات لطرده المسلمين من أوروبا، بحجة أنهم يثيرون القلاقل ويهددون أمن واستقرار الشعوب الغربية/ الأوروبية. اللافت للنظر أن كرة الثلج التي تمخضت عنها أزمة الرسوم المشؤومة، ظلت تتدحرج في كل الاتجاهات وازدادت ضخامة بمظاهرات يرعاها اليمين الأوروبي؛ دفاعاً عن حرية الرأي التي يريد مسلمو العالم خنقها. وقد رجح رئيس الوزراء الدانماركي في عناد كفة الفتنة عندما اعترف بأنه لا يستطيع أن يمنع الصحافة في بلاده من أن تكتب أو ترسم أو تنشر ما تراه، مؤكداً أن يقف إلى جانب الحرية. (١١)

ويعيداً عن المكابرة، وذلك الإصرار على إهانة المسلمين في قدس أقداسه؛ فإن الحجج التي ساقها رئيس الوزراء الدانماركي

مزيداً من الزيت على النار وجعلت الغربيين؛ يشعرون بأنهم غير آمنين على أنفسهم في بلدانهم. وأصبح حالهم حال من يتربص لحظة وقوعه (في الأسر الإسلامي)، وهكذا انتشرت أفكار ومخاوف أشد فتكاً بأمن الغربيين. ولئن كانت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، هي التي خلطت الأوراق وجعلت كل ما هو إسلامي تحوم حوله الشبهات. فلا شك أن الرسوم الكاريكاتورية هي التي كشفت جذور ومخاطر ظاهرة الإسلاموفوبيا التي فجرتها الصحف الدانماركية؛ عندما نشرت ١٢ رسماً كاريكاتورياً للنبي (ص) في سبتمبر ٢٠٠٥، وأعدت نشرها صحيفة نرويجية في ١٠ يناير ٢٠٠٦، وفعلت الشيء نفسه صحيفة (فرانس سوار) الفرنسية وبعض الصحف الأوروبية الأخرى. (١٠)

وأشعلت حريقاً احتجاجياً امتدت أسنته إلى أماكن كثيرة في العالم الإسلامي وخارجه. ومما زاد الطين بلة أن الصحف الفرنسية التي أعادت نشر الرسوم، قد ساقَت تبريرات غير منطقية لا تتطلي على عاقل؛ فذكرت أنها لن تعتذر عن إعادة نشر هذه الرسوم بدعوى حرية الرأي والتفكير والاعتقاد. وقالت إن لها الحق في أن ترسم من تشاء من الأنبياء؛ انطلاقاً من حرية الرأي التي يتمتع بها بلد علماني (مثل

الإسلاموفوبيا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

آخر منصبه؛ كأستاذ كرسي للتاريخ المعاصر ثمناً لعناده، عندما صرح قائلاً: إن أحداً ليس فوق البحث العلمي والأكاديمي. وكانت صحيفة «لومند الفرنسية» مثلت أمام المحكمة بسبب بيان نشره الفيلسوف الفرنسي/ المسلم روجيه غارودي، يدين فيه المجازر الإسرائيلية ويجرم الفاعلين.

ثم تثور علامات استفهام أخرى، لامناص منها مثل: لماذا الإسلام دون غيره يحرض الغربيين على النيل منه، والإساءة إليه؟ وإذا افترضنا أن الكاتبة البنغالية (تسليما نسرين) لم تكن مسلمة ووضعت كتابها «اللغة»، هل كانت الصحافة العربية ستتهم بها وتعتبرها طريدة حرية الفكر والتعبير؟ والشيء نفسه يمكن أن ينصرف على «سلمان رشدي وروايته» آيات شيطانية. فالثابت انطلاقاً من كل هذه الوقائع أن الحديث عن حرية الفكر هو (حديث إفك)، وكلمات حق أريد بها باطل؛ لأن الازدواجية والمعايير، التي يرتع فيها الغرب السياسي تمارس فقط ويقوة ضد الإسلام والمسلمين. والمؤسف أنه وسط غبار هذه المعركة، استيقظت نغرات كثيرة تحرّض العالم الغربي على شن حرب ضروس ضد الشرق العربي والإسلامي. وحاولت دول أخرى أن ترد على الإساءة بإساءة أخرى ضد مقدسات الغرب وشعائره

بشأن انتصاره لحرية التعبير، هي حجج واهية، فضلاً عن أنها غير صحيحة؛ لأن هناك جملة من القضايا ذات الصلة بتاريخ اليهود في أوروبا محظور حظراً تاماً على جميع وسائل الإعلام، أن تتعاطى معها لاتلميحاً ولا تصريحاً. وهذا معناه في بساطة ووضوح أن أي مسؤول دانماركي أو ألماني أو نرويجي أو فرنسي، يمكنه بإدارة التحرير في أية صحيفة أن يملي ما يشاء، بل ويتطوع بالمشاركة في وضع قواعد النشر. والذي يبعث على الحق والفيظ؛ خصوصاً في قضية الرسوم المسيئة للإسلام ولرسوله الكريم(ص)، أن الغرب يزعم أنه ينتصر لحرية الرأي مع أنه في أحداث مشابهة ذبح حرية الرأي دون أن يبالي.

وعندما أصدر وزير التعليم الفرنسي قانون جايسو الشهير الذي يجرم أي باحث أو كاتب يعالج من قريب أو من بعيد قضية المحرقة/ أو الهولوكوست لم يبك الباكون في الغرب على حرية البحث العلمي التي أهدروا دمها. ولم ينبس أحد ببنت شفة عندما سحبوا من الباحثين روبرت فوريسون وزميله هنري لوك لقب دكتور وطردوهما من مواقعهما العلمية؛ في جامعتي ليون ونانت في فرنسا عقاباً لهما على أبحاثهما في تاريخ اليهود. وقد دفع أستاذ فرنسي

الإسلامو فريبيا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

الدول الغربية، ومن بينها دول من أقوى حلفاء أمريكا. وتذكر التقارير أن زيادة عدد المهاجرين المسلمين؛ هي السبب وراء تصاعد المشاعر المعادية للإسلام. ومنذ يونيو/ جوان عام ٢٠٠٢، سجل المسلمون البريطانيون محاولات تخريب لممتلكاتهم، وهجوماً على المساجد. وقد تم تحريض البعض من خلال التغطية السلبية وغير المسؤولة لوسائل الإعلام. وفي يونيو ٢٠٠٢ كتبت تعليقات معادية للمسلمين بأسلوب فض على جدران المسجد الرئيسي في برمنجهام؛ بعد إذاعة برنامج تلفزيوني روائي لهيئة الإذاعة البريطانية (بي، بي، سي)، يوضح كيف يتم تجنيد منفذي العمليات الانتحارية في مسجد برمنجهام. (١١)

وفي إيطاليا التي يعيش فيها نحو مليون مسلم، شارك العديد من الزعماء السياسيين والدينيين، ومن بينهم سيلفيو بيرلسكوني رئيس الوزراء في الحملة المعادية؛ من خلال وصف المسلمين المهاجرين بأنهم يمثلون تهديداً لإيطاليا، والزمع بأن المسلمين غير قادرين على الاندماج مع بقية المجتمع. وفي سبتمبر ٢٠٠١ زاد بيرلسكوني من إشعال الحركة المعادية للإسلام؛ بسبب وصف الحضارة الإسلامية بأنها أقل شأناً من الحضارة الغربية. وأثارت تعليقاته

وهو أمر غير محمود؛ لأن دوائر التعصب إذا اتسعت فسوف تتحول إلى أتون يحرق القاصي والداني. (١٢)

أنت عربي/ مسلم؛ إذن أنت مكروه، أو على الأقل أنت شخص غير مرغوب فيه. فالعرب هم أس البلاء العظيم في المجتمعات الغربية، ويقفون دائماً وبالضرورة وراء القضبان بسبب قائمة طويلة من الاتهامات التي توجه إلى صدورهم؛ فهم المسؤولون عن نبش قبور اليهود، وهم مصدر كل الجرائم، وهم الذين قتلوا المخرج السينمائي الهولندي (ثيوفان جوخ)، وفجروا مترو مدريد في إسبانيا، وأحرقوا المركز اليهودي في باريس، وخططوا لتفجيرات لندن التي حصدت العشرات. لذلك لا بد من التضيق عليهم واعتبارهم معادين للسامية، وكارهين للمدنية والحضارة. ويتوجب الحذر منهم وعزلهم عن باقي المجتمع ولم لا؛ وهم على حد قول جان ماري لوبين/ الزعيم اليميني المتطرف في فرنسا، يمثلون «الشر كل الشر». (١٣)

الغرب.. ومسلسل الإساءة للإسلام وهكذا أصبح مسلسل إساءة معاملة المسلمين في أوروبا أمراً عادياً ومألوفاً. فالتقارير الخاصة بالحريات الدينية في العالم، تسجل تصاعداً للمخاوف من المشاعر المعادية للإسلام في العديد من

الإسلاموفوبيا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

النازية حملة دائمة لجمع التبرعات لتمويل ما تسميه «كفاح العرق الآري»؛ من خلال عشرات فرق موسيقى البوب التي يديرها «حليقو الرؤوس»، والتي تجمع الأموال بالملايين من خلال الحفلات التي تقيمها في مختلف أرجاء العالم.^(١٥)

وهذا يعني أن الحملة ضد الإرهاب في ألمانيا، تركزت على ملاحقة المنظمات الأصولية الإسلامية السرية المتهمه بدعم الإرهاب، في حين يتم إغفال النشاط النازي تماماً. ففي إطار الحملة المناهضة للإرهاب وتكتيك الضربات الإجهاضية، الذي اتبعته وزارة الداخلية الألمانية، تم حظر أكثر من سبع منظمات أصولية في ألمانيا بتهمة العنف والتخطيط لتنفيذ عمليات إرهابية. كما كشفت دائرة حماية الدستور (الأمن العام) عن إخضاع سائر الإسلاميين المشتبه فيهم وسائر المساجد والجمعيات الإسلامية للمراقبة، إلا أنها لم تعلن حظر أي من المنظمات اليمينية المتطرفة واعتقال أعضائها، بل إن السائد كان عودة المنظمات النازية المحظورة بحل «ديمقراطية» مموهة تتناسب مع ألوان الدستور الألماني. والخطير في الأمر أن بعض الاتجاهات تتخفى وراء أنشطة ثقافية وترفيهية وأغان شبابية،

غضب المسلمين في كل أنحاء العالم، وقد أدانها العديد من الزعماء الغربيين. وطبقاً لما ذكرته التقارير؛ فإن تقييد الدولة للحرية الدينية، يعتبر السبب الثاني الذي أدى إلى التعصب ضد المسلمين في أوروبا. وانتقد جون هانفورد، وهو سفير الولايات المتحدة لشؤون الحريات الدينية الدولية؛ فرنسا بسبب موقفها بشأن ارتداء المرأة المسلمة للحجاب، وصرح قائلاً: ينبغي أن يكون كل الأشخاص قادرين على ممارسة دينهم ومعتقداتهم بحرية، وبدون تدخل من الحكومة ماداموا يفعلون ذلك من دون إثارة وترويع للآخرين في المجتمع.

والجدير بالذكر أن الجدل بشأن ارتداء الرموز الدينية خاصة الحجاب الإسلامي، قد زادت حدته في فرنسا منذ اقترح الرئيس جاك شراك إصدار قانون يحظر ارتداء الرموز الدينية في المدارس الحكومية، وتنظيم ارتدائها في أماكن العمل. وكان جدل آخر بشأن الحجاب قد أثير في ألمانيا في يونيو ٢٠٠٢، بعد أن أيدت محكمة إدارية الحظر الذي صدر عام ١٩٩٨ في ولاية بادن فورتيبورج الجنوبية؛ بمنع المدرسات المسلمات من ارتداء الحجاب في الفصول الدراسية. وفي إطار اتساع دوائر الكراهية ضد العرب والمسلمين، تشن المنظمات

الإسلام فويبا.. والغرب صرورة الإسلام في وسائل الإعلام

هي خطوة جديدة في طريق طويل كان قد بدأ قبل فترة باتجاه ما سُمِّي في ذلك الوقت بضرورة خلق إسلام على الطريقة الفرنسية، لا يتعارض مع عادات وتقاليد الشعب الفرنسي، ويختلف بطبيعة الحال عن إسلام الدول الأخرى.

والمعروف أن قضية الأختين المغربيتين (نادية وفاطمة)؛ كانت قد حسمت لصالحهما وبعودتهما إلى المدارس، بعد إجبارهما على خلع الحجاب أو غطاء الرأس، وتأكيد حقهما في ممارسة حرية العقيدة حسبما تقتضي بذلك مبادئ العلمانية في فرنسا. وكان مسلمو فرنسا طالبوا السلطات الفرنسية بإعادة النظر في الحظر المفروض على ارتداء الحجاب في المدارس، وأكدوا أن هذه القضية بما أثارته من ردود أفعال غاضبة في أوساط المسلمين/ المهاجرين، تفجر مشكلة الحريات الدينية المنقوصة في فرنسا؛ لأن مديري المدارس يطردون الفتيات الصغيرات لارتكاب «خطأ رفض إظهار آذانهن». ومعلوم أن فرنسا، والتي يشكل المسلمون فيها نسبة معتبرة من تعداد سكانها، حظرت الرموز الدينية في المدارس الحكومية في إجراء يهدف إلى القضاء؛

وهي تدعو إلى كراهية الآخر وإبعاده. وليس من شك في أن مخاوف المهاجرين من ذوي الأجناس الجنوبية قد زادت في الآونة الأخيرة، خصوصاً بعد أن ارتكب النازيون الجدد جملة من الجرائم في حقهم، منها الجريمة التي راح ضحيتها في فرنسا في مايو ١٩٩٥ شاب يدعى «إبراهيم بور».^(١٦)

لم تنطفئ نيران قضية الحجاب منذ اشتعالها لأول مرة في المدارس الفرنسية في عام ١٩٨٩، فهي تتفجر ثم تهدأ بين الحين والآخر، وقد عادت إلى الواجهة مطلع ١٩٩٩، بعد عطلة الميلاد ورأس السنة، في مدرسة جان مونييه في مدينة فليرس الصغرى، ثم في عام ٢٠٠٤ عندما صدر قانون يحظر استخدام ما أسماه بالرموز الدينية المبالغ فيها. وكانت القضية برزت في عام ١٩٩٩ مع تلميذة اسمها «أسمانور» وعمرها اثنا عشر عاماً، وصلت إلى المدرسة مرتدية الحجاب الإسلامي بعد أن أُجبرت إدارة التربية والتعليم مدير مدرسة جان مونييه على تسجيل الفتاة في الصف الأول الثانوي. ولا شك أن تعليمات وزير التعليم الفرنسي الخاصة بمنع الفتيات المسلمات في المدارس الفرنسية من ارتداء الحجاب؛

إلى المساجد والزوايا في أوروبا، فأصبحت أشبه بمعامل تفريخ المتشددين. لذلك بدأت السلطات الغربية تضعها تحت الميكروسكوب الرقابي؛ خصوصاً خطب الجمعة والدروس والمواعظ الدينية، التي يلقيها الأئمة باللغة العربية سواء طوال الأسبوع أو أيام الجمع. ولذلك اشترطت السلطات البريطانية مثلاً أن يتعلم الأئمة اللغة الإنجليزية، أما السلطات البلجيكية فاشتترطت أن تتم ترجمة خطب الجمعة إلى اللغة الفرنسية قبل إلقائها. والشيء نفسه فعلته الدانمارك، أما إسبانيا فلقد شددت ليس فقط على تعليم الأئمة اللغة الإسبانية، ولكن أيضاً على تدريب الأئمة على شرح الإسلام بطريقة صحيحة.. وكان برلمانيون هولنديون قد طالبوا باستبعاد الأئمة الأجانب، لأن خطبهم الدينية لا تخلو من مضامين سياسية وعنصرية. والمعروف أن فرنسا قد تداركت هذا الأمر، وامتنعت عن استضافة أئمة من الدول العربية والإسلامية، وبادرت بالتفكير في مشروع إنشاء معهد لتخريج الأئمة الذين تحتاجهم فرنسا، تكون مهمته فرنسة الإسلام، أي صيغته بالثقافة والأعراف الفرنسية. (١٨)

وكانت أحداث ١١ مارس ٢٠٠٤ أجبرت مدريد على البحث عن وسائل أفضل لكيفية مراقبة الجالية الإسلامية، وأماكن عبادتها.

على ما وصفته بالنفوذ المتزايد للإسلاميين المتشددين بين الشباب.

وفي نظرنا أن الجدل حول الحجاب سيبقى ما بقي العرب والمسلمون في أوروبا والغرب، خصوصاً وأن النقاشات لم تتوقف بعد حول سؤالين محوريين: الأول؛ إذا كان الحجاب ضاراً إلى هذا الحد الذي يبرر طرد كل من ترتديه في المدرسة، فلماذا لا نسير مع المنطق ونمنع جميع أنواع الحجاب؛ سواء في المدرسة أو الشارع أو المواصلات العامة؟ والثاني؛ لماذا نستثني الحجاب كعلامة دينية للمسلمات، بينما نترك علامات أخرى يلبسها أتباع الديانات الأخرى في فرنسا وباقي الدول الغربية. كما أن الخطورة تكمن في أن الحرب الضارية، التي تشن بين وقت وآخر ضد الحجاب، لن تؤدي إلى تراجع الظاهرة الإسلامية، كما يعتقد البعض بل العكس هو الصحيح؛ بمعنى أن ذلك قد يشجع المتطرفين على تبني القضية، واعتبار أن أي انتصار لها هو في الواقع انتصار لهم. (١٧)

الغرب.. ومصادرة الإسلام وتفريخ

الإرهاب

منذ وقوع الأحداث الإرهابية سواء في مدريد أو لندن أو باريس، تغيرت النظرة

الإسلامو فوييا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

العناصر الإسلامية المتطرفة من أراضيها، فقبل نحو عام طردت السلطات الفرنسية أحد أئمة التطرف في جنوب فرنسا، وفعلت الشيء نفسه الدانمارك، وسبقت بروكسل غيرها من العواصم الأوروبية؛ عندما اشترطت ترجمة نصوص خطب الجمعة قبل إذاعتها في المساجد؛ لمعرفة ماذا يقال للمسلمين من فوق المنابر.

والثابت على كل حال أن أوروبا والغرب؛ بصدد وضع جملة من القوانين الرادعة للإرهاب، الذي أصبح عابراً للقارات، بعدما تبين أنه لا وطن له، وليس حكراً على منطقة أو جنس أو عرق بعينه. واتخذت بروكسل الخطوة الأولى في هذا الاتجاه؛ برصد نحو ٢٥٠ مليون يورو كدفعة أولى لبدء إجراء الأبحاث والدراسات اللازمة؛ لسبر أغوار ظاهرة الإرهاب وأفضل الطرق في مكافحتها. بينما مالت إسبانيا إلى إقامة «فضاء حوارى» يجمع الأوروبيين والعرب والمسلمين وصولاً إلى معادلة تحالفية وليس تنافرية بين الحضارتين الغربية والإسلامية.

ارتكبت أوروبا وأمريكا أخطاء كثيرة أدت إلى تضخم ظاهرة الإرهاب في العالم، منها أنها سمحت باحتضان آلاف المتطرفين والمتشددين؛ الذين حولوا العواصم الأوروبية

وحتى هذا التاريخ لم تكن الإدارة تتدخل في الممارسات الدينية لأي طائفة موجودة في البلاد منذ أكثر من عشر سنوات، لكن اكتشاف هذه الجماعات الأصولية غير من الأمر، وأكدت الحكومة الإسبانية رغبتها في التخلص من التسامح؛ الذي ساهم في ظهور هذه الجماعات المتطرفة. فالأئمة الوهابيون يسيطرون من وجهة نظر البعض على التعليم الإسلامي في إسبانيا؛ في حين أن أغلبية المؤمنين من المغاربة يتبعون المذهب السني المالكي. وهؤلاء الأئمة في نظر مدريد يتبعون نهجاً دينياً متشدداً، وإلى إسلام غير متسامح وهو ما يفرض الحاجة لإنشاء منظمة تكافح الإسلام الخفي، ورجال الدين الذين يلقون خطبهم في أماكن تحولت إلى مساجد.

وفي إطار «أبلسة» أئمة المساجد واعتبارهم مصدراً لتفريخ ثقافة العنف، تحمس توني بلير رئيس وزراء بريطانيا، ووضع «خطة عاجلة» لتلقيح الأجواء الدينية والسياسية وفي بلاده؛ ممن ساهم المحرضين على العنف والإرهاب. ومبرره في ذلك أن فاتورة تفجيرات السابع من يوليو ٢٠٠٥ كانت ثقيلة على المواطنين، ومحرجة له سياسياً. وللإنصاف يجب أن نذكر أن لندن، ليست هي التي فتحت باب طرد

أو مجموعة من الرفاق في فرنسا، أو عدد من الأفراد في لندن، ومدريد وبروكسل؛ للاشتباه في تورطهم في أعمال عنف وقتل وإرهاب. وكما حامت شبهات حول عرب ومسلمين لمشاركتهم في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في أمريكا، وفي أحداث ١١ مارس ٢٠٠٤ في مدريد.

وهكذا ذهبت العديد من الجهات الغربية والأوروبية لتؤكد أن الإرهاب الدولي الناجم عن التطرف الإسلامي؛ هو وحده المسؤول عن الانفجارات والهجمات على المؤسسات والبلاد والعباد. وأصبحت أذرع تنظيم القاعدة تمتد كالأخطبوط لتدرب إسلاميين متطرفين في ماليزيا وبانكوك، وجنوب أفريقيا. وتواصلت حملات الدهم والمباغته للأسر العربية والإسلامية المهاجرة؛ في ألمانيا وإيطاليا واتسعت دوائر الشك لتشمل كل المسلمين في أستراليا. أما هولندا فتؤكد أن خلايا إسلامية متطرفة/ نائمة في أراضيها، وهي تتعاون أوروبياً لرصد الحركات، وتبادل المعلومات في إطار استراتيجية مكافحة الإرهاب، والثابت عملاً، أنه رغم هجمات ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة كانت نقطة مفصلية/ أساسية في استراتيجية مكافحة الإرهاب، وبداية لتدشين تحالف دولي ضد هذا الخطر العالمي، إلا أن أوروبا كانت تعيش

الكبرى/ لاحقاً؛ مثل باريس ولندن ومدريد إلى «جنات» فيحاء، تستقبل الوافدين الجدد بالترحاب، وتقدم لهم التسهيلات كافة. ونسيت أنه سوف ينقلب يوماً السحر على الساحر، لتكتوي هذه العواصم لاحقاً بنيران الإرهاب. والشيء نفسه فعلته أمريكا التي خلقت ظاهرة أسامة بن لادن وقاعدته من عدم، فدريته وسلحته، وأنفقت على جيوشه. وعندما انتهت مهمة هذا التنظيم من وجهة نظرها في أفغانستان لفظته، ففرض هذا الشاب المتمرد وجند نفسه وزملاءه لمناطحة أمريكا وتهديدها في الداخل والخارج.^(١١)

المؤسف أن هذه الأخطاء/ الاستراتيجية في التفكير الغربي، يدفع المهاجرون العرب والمسلمون جانباً من فاتورتهما الثقيلة. فأصبحوا يقفون بالجملة وراء القضبان بتهمة الإرهاب والتطرف؛ لا لشيء إلا أنهم يشتركون مع أمثال (ابن لادن، والظواهري، والزرقاوي) في الدين وليس التوجه. ومهد ذلك لظهور جماعات كارهة للعرب والمسلمين مثل «النازيون الجدد، وحالقو الرؤوس»، كما قويت شوكة أحزاب اليمين المتطرف، التي ترى في الوجود الإسلامي والعربي في أوروبا احتلالاً. وهكذا بين عشية وضحاها أصبح مسلمو أوروبا وأمريكا في قفص الاتهام. ولا يكاد يوم يمر إلا ويتم اعتقال شاب في ألمانيا

الإسلامو فوريا.. والغرب صررة الإسلام في وسائل الإعلام

هذه الأفكار الصادمة، أن ترتعد فرائض أوروبية (شعوباً وحكومات) خوفاً من العرب والمسلمين؛ الذين يعيشون بين ظهرانيتهم وداخل مجتمعاتهم. وأصبحوا أغلبية في عدد من الأحياء والمدن، والضواحي خاصة في فرنسا وانجلترا وبلجيكا وهولندا. ويسجل البعض تخوفه من أن الإسلام بهذا المعنى يرسم حدوداً جديدة لأوروبا، ويستخدم كل إمكاناته للوصول إلى السلطة السياسية، كما وصل الأفارقة والزنج مؤخرًا في أمريكا. (٢١)

لابد من الاعتراف بداية بأن هناك صورة نمطية مشوهة للعرب والمسلمين؛ في الموروث الغربي أضيفت إليها بعض الترويض إلا أنها لا تزال قابضة في العقل الغربي؛ من بينها صور الصحاري المقفرة والقصور التي يعيش فيها الفساد، والأسواق القذرة التي يزدحم فيها العرب والمسلمون الملتحون الكسالى غير المتمدنين. وتمتلئ القصص بشخصيات التجار الشعبيين المخادعين. والخطير في الأمر أن بعض الكتابات الإعلامية تعرض صوراً مشوهة للعربي والمسلم: (بائع، مساوم، غشاش، نصاب، قاطع طريق، إرهابي، مسلم متطرف. هذه الصور المشوهة والمبتذلة تعرض وتقدم في الثقافة الشعبية الغربية؛ في نصوص

هذا الهاجس قبلاً، فاكثرت فرنسا بنيران الإرهاب في عام ١٩٩٥؛ عندما حصدت القنابل نحو ٢٠٠ قتيل في مترو الأنفاق الباريسي، وظهرت جماعات تحمل أسماء منها: خالد قلقال، ورشيد رامدا، وهما فرنسيان من أصول عربية. (٢٢)

فوبيا الإسلام والغرب.. في وسائل الإعلام

وقد أذكت نيران حالة الإسلاموفوبيا/ الخوف من الإسلام؛ أمواج وفتنات وأوراق وكتابات الإعلام، حيث أن الغرب بات يرى في الحركات الإسلامية نوعاً من التبشير على غرار التبشير المسيحي من منطلق روح الحرب الصليبية، كما تحدثت أوساط أكاديمية عن أن التاريخ الإسلامي على مدى ١٤ قرناً؛ يؤكد أن الصراعات بينه وبين الغرب لم تتوقف في أي لحظة. بدءاً من حروب الفتوحات الإسلامية الأولى مروراً بالحروب الصليبية، وانتهاءً باحتلال الغرب لدول الإسلام، ثم الصراعات الإقليمية والدولية التي ينازع الغرب عليه في كل مكان في العصر الراهن. وتتحدث ذات الأوساط عن حرب باردة/ مجتمعية بين الغرب والإسلام؛ تكون أوروبية مسرحاً لها، على أن يغذي العقل السياسي الأمريكي هذه الحروب. وكان طبيعياً أمام ترويج

الإسلام فوريا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

والمسلمين؛ يرتدون في معظمهم الملابس التقليدية والغربية. وهم مسالمون لا ينزعون إلى العنف، ثم هم فقراء وليسوا بأغنياء، وغالبيتهم لا تسكن قصورا. فإن الصورة النمطية للعربي والمتوحش، والمسلم الهمجي المتعطش للدماء؛ هي التي لا تزال تقدم في كافة وسائل الميديا، مع سبق الإصرار والترصد. (٢٢)

وتصر الميديا الغربية على الربط بين الدين الإسلامي وبين سيادة الرجل وتفوقه على المرأة، كما يربط بين الإسلام وبين الحروب الدينية، وأعمال الإرهاب التي تصور المسلمين العرب على أنهم أعداء، وشيوخ بترول عاقدون العزم على استخدام الأسلحة النووية. وحين يتم تصوير المساجد ودور العبادة، تنتقل الكاميرا من مشهد يصور العرب/ المسلمين وهم يصلون، إلى مشهد آخر يصورهم وهم يقتلون المدنيين بالمدافع الرشاشة. صور أخرى دأبت وسائل الإعلام الغربية على بثها عبر مختلف الشاشات العالمية؛ لتصور المسلمين برابرة، ووحوشاً آدمية لا تتورع أن تفعل الفواحش. والخطر في الأمر أن الإعلام الغربي دأب على الخلط بين الإسلام وبعض التصرفات الخاطئة.. فهذا الشخص الذي دخل إلى البنك وقال: «بسم الله معي قبيلة ولا أبخل

الأغاني والموسيقى والنكت الشعبية. وقد تلقت «الميديا»/ وسائل الإعلام والاتصال، هذه العناصر المغروسة في أذهان الغربيين عن العرب والمسلمين، ثم نفخت فيها من روحها ونشرتها في الأرجاء كافة، بحيث أصبحت عبارة «أنا عربي مسلم» مرادفة تماما لعبارة «أنا إرهابي».. أنا وغد شرير متعطش للدماء». (٢٢)

ويصل تشويه صورة العرب والمسلمين إلى أقصى درجاته في حصص وبرامج الأطفال، التي توحى بأنهم قوم أشرار ومغفلون. ولم يحدث أن ظهر العربي/ المسلم في هذه البرامج «بطلاً نموذجياً إنسانياً» يعجب به الأطفال. وإنما هو بالضرورة وضع وحقير وهمجي شرس؛ في أفلام الكارتون/ الرسوم المتحركة، ويهدد بقتلهم. وتذكر بعض الدراسات أنه بسبب هذا الإلحاح الإعلامي على تشويه صورة العرب، فإن الأطفال الأمريكيين عندما يفكرون في «عربي/ مسلم»؛ فإنه يربطونه بتعبيرات ومعان معينة بلحية وقميص. أو بترول، بنزين، إرهابي، وغد، بدوي، سيارات كاديلاك، مجرم ومتطرف يحمل حزام من المتفجرات الناسفة. وعلى الرغم من أن رحالة وسواح رجال إعلام كثيرين زاروا العالم العربي والإسلامي، وعرفوا العرب

الإسلام فوريا... والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

الأصوليين والمعتدلين؛ لأن رسالة الإعلام العالمية؛ هي نشر تعاليم الدين بكل الطرق؛ بما في ذلك القوة.. إنها النظرية السياسية للإسلام».

وهكذا تتكاتف وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة عل تشويه الإسلام، فتعرض على الرأي العام يومياً صوراً لمسلمين متعصبين؛ ينادون بشعارات الموت ضد أعدائهم ويحملون بنادق وسكاكين، وكأنهم متعطشون لدماء، كما تعرض لمشاهد مسلمين غاضبين يتظاهرون في الشوارع، يطالبون بقتل مؤلف أو صحفي أو سياسي. وفي هذه الصور اليومية يتم الإلحاح على ربط الإسلام بالعنف والإرهاب، وتجعله يعتقد أن جميع المسلمين أصوليون، وأن كلمة أصولي تعني «عدواني ومتعصب».

وليس من شك في أن هناك بعض الأحداث التي ساهمت في تكوين هذه الصورة السلبية عن العرب والمسلمين؛ منها الضجة التي صاحبت صدور كتاب «آيات شيطانية» لسلمان رشدي، فضلا عن المظاهرات والاحتجاجات، وإصدار زعيم الثورة الإيرانية آية الله الخميني فتوى تبيح إهدار دم سلمان رشدي، ثم وقوف كثير من الهيئات الحقوقية بجانب سلمان رشدي، ووفرت بريطانيا له الحماية بوصفه أحد المضطهدين من

على نفسي بالموت في سبيل قضية الإسلام، ضعوا كل الأموال في حقيقتي»، لا يمت للإسلام بصلة فعمله هذا عمل إجرامي بكل المقاييس، إلا أنه لا يعني أن الإسلام هو الذي قام بسرقة البنك. وإمعاناً في التشويه تسعى الميديا الغربية إلى الصاق الرذائل بالإسلام والمسلمين، وتصور المسلم على أنه سفاح في كل الأوقات.

ليس من شك في أن وسائل الإعلام الغربية تتعمد الإساءة للإسلام وأهله، والدليل على ذلك هو تركيزها على فكرة الخوف من الإسلام، وإلقاء الرعب في قلوب الغربيين من كل ما هو إسلامي. ولعل نظرة سريعة على العناوين العريضة التي تتصدر منشورات الغرب، تؤكد هذه الحقيقة: المسلمون قادمون، الجهاد يتجه نحونا ووسطنا، الوجه القبيح للإسلام، الإسلام يهدد الغرب، انتبهوا الإرهاب الإسلامي هو فرقة انتحارية عالمية، الحرب المقدسة تتجه نحونا، المتعصبون المسلمون سعداء مبهجون عندما يقومون بالقتل، لأنهم ذاهبون إلى مكان بعيد أفضل «الجنة». والخطر أن كثيرا من المعلقين والمحللين السياسيين في وسائل الإعلام الغربية، يضعون كل المسلمين في سلة واحدة من التصورات الخاطئة «فالكل متطرفون والكل أصوليون.. لا فرق بين

الإسلامو فوبيا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

في نيويورك، أصبحت كلمة «إسلام» مرادفة للقتل والإرهاب في الوعي الغربي. وقدم التلفزيون الأمريكي برنامجاً تحت عنوان: الجهاد في أمريكا، بحث في التطرف الإسلامي بالولايات المتحدة، أساء للإسلام بشكل فج وقح، وترك أثراً بالغاً في الوعي الجماهيري، ورسخ مفهوم الإرهاب. وكان معدو البرنامج قاموا بتعريف الجهاد الإسلامي؛ بأنه زرع قنابل موقوتة لقتل المدنيين الأبرياء في كل مكان بالعالم. وكتب آخرون يحذرون من العدو الأخضر الإسلامي، الذي أصبح خطراً داهماً/ بعد الشيوعية/ الخطر الأحمر، وأعلنوا أن الإسلام يشن حرباً ضد المسيحيين والصهيونية والرأسمالية الغربية. وليس أخطر من جعل أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة رمزاً للإسلام والمسلمين، مع أن النظرية العقلانية للأمور، ترى أن أحداً ليس حجة على الإسلام، ولا بد من الفصل بين الإسلام كدين وعقيدة، وبين ممارسات المسلمين التي تصيب وتخطئ. (٢٥)

وهكذا يصير رسامو الكاريكاتور على إلباس عباءة أسامة بن لادن؛ لكل من يتحدث باسم الإسلام ليبداً للناس أجمعين أن (بن لادن)، ليس إلا الصورة النموذجية للمسلم الحق كما يصرون على إظهار العربي في صورة مضحكة، فهو دائماً ضخم الجثة، ذو

جانب الأصولية الإسلامية، وأحد ضحايا حرية الرأي والتعبير. ومن خلال الأحداث الدرامية المصاحبة للكتاب أصبح المسلمون في جميع أنحاء العالم موصومين بأنهم أبناء ثقافة الجريمة والقتل، وأصبح الإسلام في نظر الكثيرين في الغرب مصدراً للفوضى والاضطرابات في العالم. (٢٤)

وثمة حجة أخرى مشابهة صاحبت صدور كتاب «العار» للكاتبة البنغالية تسليما نسرين، التي تتعرض فيه لحياة الرسول (ص) ولقدسية القرآن الكريم. وقد احتضنها الغرب، وأفسح لها المجال لكي تكتب، وأدان العرب والمسلمين واتهمهم بأنهم ضيقو الأفق ومستبدون، ولا مجال عندهم للفكر أو الإبداع. ناهيك عما روجت له وسائل الإعلام الغربية فيما يتعلق بالصور الكاريكاتورية في تشويه نبي الإسلام وخاتم المرسلين «محمد عليه الصلاة والسلام»، وما صرح به بعض قساوسة الغرب وآباء المسيحية عن الإسلام ونبه مؤخراً. والنتيجة التي حرصت الميديا الغربية على تأكيدها؛ هي أن الإسلام دين مغلق، وهو عدو الإبداع بكافة أشكاله، ولا هم له سوى تخريج المتعصبين في كل مجال. وبالتالي فهو على طرف نقيض مع الأفكار الليبرالية في الغرب.

ويعد تفجير مبنى مركز التجارة العالمي

الإسلامو فريبيا.. والغرب صورة الإسلام في وسائل الإعلام

العربية والإسلامية، خاصة في ظل الاتجاه السائد حالياً لطرد المهاجرين والأجانب. أما السينما فقد استأثرت بنصيب الأسد في عملية تشويه العرب والمسلمين، حيث تظهر شخصيات عربية وإسلامية سلبية منفردة، والرجال يحطون من قيمة وثقافة المرأة ويعتبرونها مخلوقاً أدنى من الرجال.. والمرأة العربية إما إرهابية تقوم بتفجير القنابل، أو هي مجرد حريم وأداة إمتاع للرجل.

لحية كثة، وشارب مع أنف مقوس وعباءة واسعة وكوفية رأس، يحمل خنجراً. ثم تطور لاحقاً فحمل البندقية وكلاشينكوف، ويرسمونه واقفاً في بيئة صحراوية وتبدو من خلفه آبار البترول. ومن خلال عملية تحليل مضمون المواد التلفزيونية في الغرب، نجد أن التلفزيون الفرنسي ثم الألماني هما أكثر تلفزيونات الغرب تشويها لصورة المسلمين والإسلام. وذلك لأنهما من أكثر الدول الغربية استقبالاً للمهاجرين من الدول

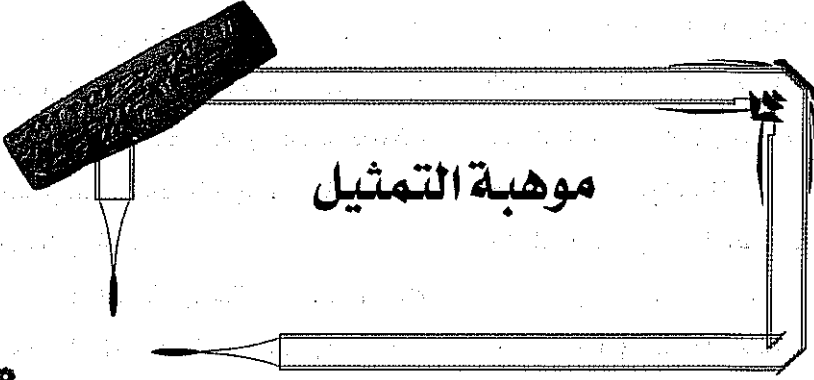
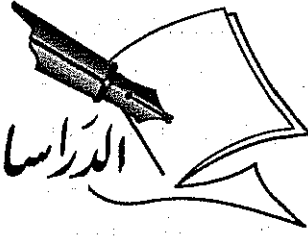
المصادر

- 1- فانسان جيسير: رهاب الإسلام الجديد، ترجمة وعرض لطيف زيتوني، مكتبة العربي، العدد ٥٦٣، أكتوبر - ٢٠٠٥، ص: ١٨٨.
- 2- عماد الدين خليل: نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام، دار النفائس، ص: ٢١.
- 3- فانسان جيسير: رهاب الإسلام الجديد، ترجمة وعرض لطيف زيتوني، ص: ١٩٩.
- 4- الصحوة الإسلامية في عيون مختلفة، دار المنارة، الرياض، السعودية - ١٩٩٣، ص: ٤٣.
- 5- فانسان جيسير: رهاب الإسلام الجديد، ترجمة وعرض لطيف زيتوني، ص: ١٩٠.
- 6- فانسان جيسير: رهاب الإسلام الجديد، ترجمة وعرض لطيف زيتوني، ص: ١٩١.
- 7- فانسان جيسير: رهاب الإسلام الجديد، ترجمة وعرض لطيف زيتوني، ص: ٩٣.
- 8- محمد علي التسخيري: الحوار مع الآخر، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، طهران، إيران - ٢٠٠٧، ص: ٢٨.
- 9- سعيد اللاوندي: الإسلامو فريبيا، لماذا يخاف الغرب من الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة - ٢٠٠٦، ص: ٩.
- 10- علي حرب: تواطؤ الأضداد، الآلهة الجدد وخراب العالم، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - ٢٠٠٨، ص: ٧٧.

- ١١- سعيد اللاوندي: الإسلامو فوبيا، لماذا يخاف الغرب من الإسلام، ص: ١١.
- ١٢- منى فياض: الإسلام والمسلمون في الغرب، مجلة منبر الحوار، بيروت - ١٩٨٦، ص: ٤٥.
- ١٣- سعيد اللاوندي: الإسلامو فوبيا، لماذا يخاف الغرب من الإسلام، ص: ١٠٧.
- ١٤- صورة الإسلام في الصحافة البريطانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - ٢٠٠٤، ص: ٩٩.
- ١٥- صورة العرب في صحافة ألمانيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - ٢٠٠٣، ص: ١٢٠.
- ١٦- سعيد اللاوندي: الإسلامو فوبيا، لماذا يخاف الغرب من الإسلام، ص: ١١١.
- ١٧- أمير عبد العزيز: افتراءات على الإسلام والمسلمين، دار السلام للتوزيع الترجمة - ٢٠٠٢، ص: ١٢٣.
- ١٨- سعيد اللاوندي: الإسلامو فوبيا، لماذا يخاف الغرب من الإسلام، ص: ١٢٥.
- ١٩- جان فرانسوا بايار وآخرون: الإسلام والفكر السياسي.. الغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء - ٢٠٠٠، ص: ١١.
- ٢٠- سعيد اللاوندي: الإسلامو فوبيا، لماذا يخاف الغرب من الإسلام، ص: ١٣٩.
- ٢١- حللي خضر ساري: صورة العرب في الصحافة البريطانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - ١٩٨٨، ص: ١٤٥.
- ٢٢- محمد مصالحة: الإعلام / العرب والصوت الآخر، التجربة البريطانية، دار البيروق للطباعة والنشر، عمان، الأردن - ١٩٩٨، ص: ١٦٩.
- ٢٣- ميخائيل سليمان: صورة العرب في عقول الأمريكيين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - ٢٠٠٢، ص: ١٢٦.
- ٢٤- سعيد أيوب: شيطان الغرب، سليمان رشدي الرجل المارق، دار الصديقية للنشر - ١٩٩٨، ص: ١٣٢.
- ٢٥- علي بن إبراهيم النملة: الشرق والغرب، منطلقات العلاقات ومحدداتها، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت - ٢٠٠٥، ص: ٨٦.



الدراسات والبحوث



موهبة التمثيل

عبد الباقي يوسف

مقدمة

التمثيل هو إمكانية الموهبة في براعة فن التقمص، يكون الشخص ممثلاً جيداً قدر تمتع موهبته بمدى إمكانات فن تقمص شخصيات وحالات مختلفة، ويكون دون ذلك قدر محدودة هذه الملكات في موهبته. على هذا النحو تتفرز درجات التمييز في شخصية الإنسان الممثل، فنرى ممثلاً من الدرجة الأولى يكون سيّد العمل التمثيلي الذي يؤديه، ونرى ممثلاً من الدرجة الثانية، ثم نرى ممثلاً من الدرجة الثالثة، إلى ممثل من الدرجة الدنيا.

ناقد وقاص سوري.

العمل الفني، الفنان مطبع علي.

ويحدث أن شخصيات مسلسل في فترة ما تحتل أسماء المواليد الجدد في دولة تعرض ذلك المسلسل الذي ترتبط به شرائح الناس عامة.

كما أذكر أن بعض الرؤساء والملوك في العالم كانوا يتجنبون أي ارتباط لدى العرض الأول لمسلسل /دلاس/ التلفزيوني، حتى يستمتعوا برفقة عائلاتهم، في وقت واحد مع كل تلك الشرائح الهائلة من الناس بأحداث هذا المسلسل اليومي الاجتماعي.

إذن، يمكن أن نرى صمتا دفيناً يلف دولة بأكملها في ساعة معينة إنها الساعة التي تُعرض فيها أحداث حلقة جديدة من مسلسل يومي غدا حديث الساعة في أوساط مختلف شرائح سكان تلك الدولة نساء ورجالا، شيوخا وأطفالا .

توظيف موهبة التمثيل سلبا

يستطيع الإنسان الموهوب أن يوظف موهبته سلبا، مثلما يستطيع أن يوظفها إيجابا .

ليس بوسعنا أن نقول عن أصحاب الاختراعات والمكتشفات السلبية في تاريخ الإنسانية أنهم أناس أغبياء، فالذي يستطيع أن يبتكر الفيروسات الأنترنيتية، والذي ينجح في عمليات القرصنة المصرفية، والذي يبتكر أسلحة الدمار الشامل، ومزور العملات، هم

يمكن للممثل أن تقتزن موهبته بشخصية قام بتمثيلها سواء في الأدوار التاريخية، أو الفنية، مثل اقتران اسم الممثل /أنطوني كوين/ باسم /عمر المختار/، واقتران /عمر الشريف/ بـ /لورانس العرب/ .

كما يمكن لممثل أن يمثل حقبة زمنية، ويقتزن اسمه بتلك الحقبة، مثل اقتران جون ترافولتا، بريجيت باردو، كاترين دونوف، جيمس ستيورات، أنجيريد برجمان، بحقبة لهب الرومانسية.

ويمكن للممثل أن يمثل بموهبته وبراعته اتجاهها في فن التمثيل، ويكون قطب هذا الاتجاه دون منازع، مثل شارلي شابلن - مارلون براندو - توني كوريتس .

سحر التمثيل

الممثل الجيد هو الذي يملك قوة وسحر التأثير على الآخرين إلى درجة الهيمنة عليهم، نسيانهم بأنهم إزاء مشاهد تمثيلية، والتفاعل المباشر مع وقع الأحداث التي تتمثل أمامهم سواء على شاشة، أو على خشبة مسرح.

مثل هذه الهيمنة لا تقتصر على شريحة من الناس، بل تشمل جميع الشرائح.

قيل لي إن امرأة عجوزاً أمية في قرية نائية نذرت نذراً، إذا تحقق ما تأمله من حدث خلال متابعتها لمسلسل تلفزيوني،

موهبة التمثيل

مع الذات أيضا، والممثل الاجتماعي يعيش حالة ازدواجية متواصلة مع نفسه قبل أن يُظهرها للآخرين. ويتوصل ذو الوجهين بنفسه مرحلة من الفصام تستولي على كل حركة ظاهرية وباطنية تبدر منه عن شعور وعن غير شعور.

لا أريد أن يفهم التفاق على أنه حالة مرضية أو وراثية وأن ذا الوجهين هو ضحية مغلوب على أمره، بل الشخص يميل إلى كل مفصل من مفصلات الازدواجية مع سبق الإصرار، وهو ذاته ينمي هذا الميل في ذاته وسلوكه، إنه شخص يستعين بذكائه في ممارسة السلوك الازدواجي حتى يستطيع أن ينجح في تمثيل هذا الدور ببراعة وتفوق. أما الشخص المغلوب على أمره أو قليل الذكاء فإن النجاح لا يحالفه في مثل هذه المهمة.

الناس يتقنون شر هذا الشخص ويتجنبونه بما أمكن لأنه في واقع الأمر يكاد يجمع بين مختلف النزعات السلبية التي ظهرت في الإنسان غير السوي، فهو أخذ شيئا من الرياء، وشيئا من السادية، وشيئا من السيكوباتية، وشيئا من المازوخية، وشيئا من الشيزوفرينيا. والازدواجي يعيش كل هذه النزعات داخله فيبلغ مرحلة متطورة من التمثيل إلى درجة أنه يمارس التمثيل

أناس أذكيا، بيد أنهم يوظفون هذه المواهب لإلحاق الأذى بالناس، بدل تقديم النفع لهم.

مالك موهبة التمثيل لا يقل ذكاء عن أولئك الذين يتركون أثرا في الناس سواء بالسلب، أو بالإيجاب.

إذن كيف يوظف الممثل موهبته سلباً؟ الممثل السلبي يتخذ عدة وجوه في المجتمع، وكل وجه يحمل اسماً، فهو في السياسة / جاسوس / ينخرط في أوساط الناس، ويعطي لهم انطباعاً بأنه منهم، بيد أن ذلك يكون في الظاهر التمثيلي فقط، وهو في جوهره جاسوس جاء ليلحق الأذى بهم.

وفي الأوساط الاجتماعية يُعرف هذا الشخص بذى الوجهين، بحيث ينتقل كالسرطان بين الأشخاص لتقل الفتن فيما بينهم، وهو كلما يلتقي شخصاً، يُظهر محبته، كما يُظهر بغضه لخصمه، وإن جاء إلى الخصم، أظهر محبته، وأظهر بغضه للآخر. إنه شخص يقول شيئاً، ويفعل نقيضه، لذلك يتحاشى الناس ما أمكنهم الشخص المعروف بذى الوجهين.

التمثيل أن تُظهر أمراً مخالفاً لما أنت عليه، فتدعو إلى أمر وأنت مؤمن بنقيضه و هو لا يكون مع الآخرين فحسب، بل يكون



في كل حركة تدر منه. والناس يدينونه ويتصرفون معه بغاية الحذر لأنهم يدركون بأنه شخص لا يصدر منه الحق طرفة عين، ويرتفعون بأنفسهم على أن يصاحبوا شخصا يفقد التوازن في سلوكه.

التمثيل والذكاء

الممثل الناجح هو ذلك الشخص الذي يتسم بذكاء حاد هذا الذكاء الذي يستمد من عقله، والحقيقة فإن أي نجاح في أي عمل يعتمد بالدرجة الأولى على العقل سواء استخدم الشخص عقله سلبا، أو استخدمه إيجابا.

الإنسان إنسان لأنه كائن يتحدث، وهذا الحديث ينتج عن عقل يتحمل به الإنسان نتيجة ما يقول.

تستمد اللغة مقدرتها وبلاغتها ودورها من العقل، وتعتمد عليه بالدرجة الأولى في أداء وظيفتها.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبِلْ، فأقبل.

ثم قال له: أدبِرْ، فأدبر. فقال عز من

قائل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أعز علي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أحاسب، وبك أعاقب.

ذات مرة قيل لعلي رضي الله عنه: صف لنا العاقل .

قال: الذي يضع الشيء مواضعه.

قيل: فصف لنا الجاهل. قال: فقد فعلت.

يقصد الذي لا يضع الشيء مواضعه.

مدارة الناس دليل على العقل. قال

النبي: من حرم مداراة الناس، فقد حرم

التوفيق.

قال الأصمعي: رأيت بالبصرة شيخا له منظر حسن، وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية وهرج، وعنده دُخْلٌ وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت له: ماكنية سيدنا؟

فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين .

قال الأصمعي: فضحكت منه وعلمت قلة عقله، وكثرة جهله .

التمثيل كسبيل لتجاوز موقف وقد نرى شخصا يلجأ إلى التمثيل تقاديا من صدام بينه وبين شخص آخر اضطر لصحبيته في صدفة ما مثل السفر كما في الحادثة التالية:

عندما وصلت إلى مكتب قطع التذاكر وقلت له بأنني أريد تذكرة في رحلة الساعة الثانية عشرة ليلا التي ستطلق بعد نصف ساعة، قال قاطع التذاكر وهو يطلب هويتي الشخصية: يبدو بأنك محظوظ، بقي مقعد واحد .

ناولته بطاقتي الشخصية مع قيمة التذكرة وقلت: إذن أحجزه لي، إنها الرحلة الوحيدة التي تناسبني، لأنها تصل دمشق في الثامنة صباحا وضعت التذكرة في جيبتي وجلست على كرسي في الكراج إلى أن دخل الباص اندفع

وقال: الجنة مئة درجة، تسع وتسعون منها لأهل العقل، وواحدة لسائر الناس . قيل لبعض الحكماء: بم يُعرف عقل الرجل؟

قال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقليل له: فإن كان غائبا؟

فقال: بإحدى ثلاث: إما برسوله، وإما بكتابه، وإما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتبه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همته .

يروى عن علي بن أبي طالب أنه كان يترنم بهذه الأبيات:

إن المكارم أخلاق مطهرة
فالعقل أولها والدين ثانيها

والعلم ثالثها والحلم رابعها
والجود خامسها والعرف سادتها

والبر سابعها والصبر ثامنها
والشكر تاسعها واللين عاشيتها

والعين تعلم من عيني محدثها
إن كان من حزبيها أو من أعاديها

والنفس تعلم أني لا أصدقها
ولست أرشد إلا حين أعصيتها

والعاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن شنت عليه الرياح، والجاهل تبطره أدنى منزلة، كالحشيش يحركه أدنى

ريح/

سريعة أعدت استدارة وجهي وأنا أكاد أختق من قوة الرائحة التي اندفعت إلي. لكن لبثت أنظاره معلقة بي إلى أن انطلق الباص وتقدم المضيف يناولنا كاسات ماء فارغة، عندها بادرنى الرجل بالسؤال عن اسمي، فأجبته، ويبدو بأن جوابي شجعه ليسألني عن عملي ثم عن العائلة التي أنتمي إليها، ثم عن مكان سكني، وعن سنني، ووضعني العائلي، وكلمنا يسألني سؤالاً أجيبه دون أن أنظر إليه متحاشياً قسوة الرائحة التي تفوح منه، ثم قال وهو يبدي رغبته الشديدة في تدخين سيجارة ويدين القرار السذي يمنع تدخين السجائر في الحافلات العامة: أما أنا إذا سألتني عن اسمي، أقول لك أنهم يقولون لي: درياسس، ولكن اسمي في الهوية عباس، وليت اسمي كان في الهوية أيضاً درياس لأنني أحب هذا الاسم أكثر من عباس، بل إن من يريد أن يستفزني في القرية يقول: يا عباس، فأنهض وأتأجر معه لأنني أشعر بأنه أراد أن ينقص من شأني. وإذا سألتني عن عملي، أقول لك بأنني مذ فتحت عيني على الحياة وجدت نفسي بين الأبقار، كان أبي يربي الأبقار، وعندما كبرت ورثت عنه هذه المهنة التي تعلق بها ولتعلم بأن أكثر ما يحزنني عندما أسافر هو أنني أبتعد عن رائحة أبقاري وأظنها هي أيضاً تكون حزينتة

حشد من الركاب نحو الباص فور وقوفه جوار المكتب، ونهضت في لحظات لأنضم إلى هذا الحشد الصغير وكأننا عائلة واحدة سوف تمضي ليلة واحدة معا في هذه الرحلة.

مددت الخطوات نحو مقعدي فرأيت شخصاً قروياً يرتدي فروة سوداء ضخمة يسبقني بلحظات ويبرك في ذات المقعد المجوز ناحية النافذة فعرفت حينها بأنه جليسي في هذا المقعد. بركت حده وأنا ألقى عليه السلام، وألقي نظرة إليه لعل بي معرفة سابقة به، فأجاب الرجل على سلامي بشكل موجز قائلاً: وعليكم السلام يا بن أخي. إنه رجل في نحو الستين من عمره، يرتدي على رأسه شماغاً أحمر اللون. بعد هنيهات من جلوسي اندفعت إلي رائحة كريهة من الفروة الضخمة التي يرتديها، فمددت يدي إلى أنفي وأدريت وجهي اتقاء الرائحة، عندها صدر صوت من الرجل وهو يجيب من تلقاء نفسه على سلامي للمرة الثانية: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلاً، أهلاً بك، إنها فرصة جيدة لتتعارف. قلت: أهلاً وسهلاً يا عم. فصوب الرجل نظرة عميقة إلي حتى بدا لي بأننا على معرفة سابقة دون أن أنتبه، فأدريت وجهي بأبدله النظر دون أن أذكر بأنني أعرف هذا الرجل وفي لحظات

عندما تفتقد رائحتي. ثم ابتسم قليلا ومد يده إلى بعض ثيابه تحت الفرو الضخمة التي تفوح منها كل تلك الرائحة الكريهة وأخرج كيسا بلاستيكا أسود اللون، وبدأ يفك الكيس ليظهر فيه كم من روث الأبقار، فقلت له أن يحكم الكيس ويعيده إلى مكانه، قال وهو يعيد ربط فم الكيس: قبل أن أستلقي على الفراش لأنام في الفندق أفتح هذا الكيس وأضعه بجانب رأسي حتى أستطيع النوم. وإن اشتقت لأبقاري- ومد يده إلى إحدى جيوبه الداخلية أخرج صورة ملونة لعدة أبقار قائلًا:- أنظر إلى هذه الصورة وأضعها جوار الكيس ولا أدري بنفسني إلا وقد غرقت في نوم عميق. فنظرت إليه مرة أخرى وأنا أقاوم الرائحة التي بدت تسبب لي ألما شديدا في الرأس بعد نحو ساعة ونصف من انطلاق الباص الذي سيمضي الليل كله إلى أن يصل دمشق، فقال وفمه يمتلئ ببسمة طفيفة: مرة واحدة سافرت وقد نسيت أن أصطحب معي هذا الكيس، أمضيت ثلاثة أيام دون أن أغفو دقيقة واحدة، كنت أبحث في الشام عن بقرة واحدة لأنظر فيها، وأبحث عن قليل من روث الأبقار لأضعه في كيس وأحمله في جيبتي دون جدوى، وكان الأبقار كلها ماتت لا سمح الله، وفجأة وضع كفه على رأسي قائلًا: ليس هذا إخلاصا

مني لأبقاري، أبقاري التي تقيني الحاجة، أستحلفك بالله وقد وضعت يدي على رأسك هل أنا على خطأ أم على صواب، لا تصمت، قل لي، أليست هذه الأبقار هي رزقي ورزق عيالي، نسيت أن أقول لك بأن لي تسعة أولاد من زوجتين. صممت قليلا وهو يدين مرة أخرى القرار الذي يمنع التدخين في الحافلات، لكنه مد يده إلى إحدى جيوبه الداخلية الكثيرة مرة أخرى وأخرج علبة تبغ وضع سيجارة في فمه دون أن يشعلها ثم قال: أجل سأقول لك قبل أن أنسى فعندما عدت إلى البيت أول شيء فعلته قبل أن أدخل على عيالي اتجهت إلى الخان، وبركت بين الأبقار فلحقتني أم العيسال ولحقتني الأولاد إلى هناك، وبعد ساعتين خرجت وقد استردت عافيتي قليلا ثم أمضيت ستة أيام أناام فيها في الخان بين أبقاري حتى أعوض ما فاتني من رائحة. وعاد مرة أخرى يضع كفه على رأسي قائلًا: أستحلفك بالله وقد وضعت يدي على رأسك هل أنا على خطأ بسبب حبي لأبقاري، أليست هي التي تقيني وتقي عيالي الحاجة والسؤال، قل، لا تصمت، هل أنا على خطأ. فلم أجد بدا من أن أقول: لا ياسيدي لست على خطأ، بارك الله بقوتك. أغمضت عيني في محاولة للنوم عني أنسى قليلا هذا الجحيم الذي رأيتني

تصمت، هل كنت على خطأ، هل من حقه أن يخاصمني ولا يدخل بيتي منذ خمس سنوات وحتى الآن، ثم إنه يقول للناس بأن درياس ليس أخي ولا أعرفه وأنا بريء منه إلى يوم القيامة، قل، هل معه حق في كل هذا. فقلت وأنا أحاول أن أهدئ من روعه: لا ليس معه حق وأنت على صواب. فهدأته هذه العبارة ثم أخذ ينقث في السجارة الغير مشتعلة ويهدأ شيئاً فشيئاً.

عندما وصلنا أول استراحة خطر لي أن أستبدل الباص بياص آخر، عندها وأنا أنهض للنزول أمسك درياس بيدي ونهض معي قائلاً بأن أبقى ممسكاً بيده لأنه لا يرى ليلاً بسبب مرض العمش الذي في عينيه، طلب مني أن أوصله إلى المرحاض، وقبل ذلك أشعل سجارة لدى الخطوة الأولى للنزول من الباص وبدأ يدخل بشرارة إلى أن أدخلته إلى المرحاض، دخل وهو يوصيني ألا أتحرك لأنه سوف يبقى ولا يعرف كيف يعود إلى الباص. عند ذلك وجدتها فرصة لأسأل سائق باص كان يقف في ذات الاستراحة ويتجه إلى دمشق عن وجود مقعد شاغر، ولكن الرجل اعتذر وهو ينظر إلي نظرات مريبة بسبب رغبتني لتغيير الباص، ورأيتنه يتجه على الفور إلى سائق الباص الذي فيه مقعدي ويهمس إليه. بعد قليل

مرغماً للبقاء فيه. راودتني أفكار عديدة مثل أن أوقف الباص وأنزل، ولكن الوقت المتأخر من الليل منعني وكذلك شدة البرد القبارس ونحن في بدايات شهر شباط.

وجاءني صوته بعد لحظات صمت: هل نمت، يا رجل أنا أكبرك بثلاثين سنة ولم أنم، دعنا نتكلم إنها فرصتنا الوحيدة للتعارف. فتحت عيني وقلت: لا لا لست نائماً، قل ما تشاء، أسمعك جيداً. جاء صوته: مرة أراد أخي أن يتزوج ولم يكن لديه المهر فطلب مني أن أبيع أبقاري وأعطيه ثمنها ليتزوج، فقلت له بأنني حتى لو كنت على وشك الموت وعلمت أن أبيع أبقاري سينقذني من الموت حتى أتعالج بثمنها، فلن أقدم على ذلك لأنني لا أتصور أن أكون في البيت بدون أبقار، وعندها سأمضي ثلاثة أيام في الخان الفارغ من الأبقار وأقضي نحبي كريباً على ذهاب أبقاري. فخاصمني أخي من يومها ولم يعد يدخل بيتي، وعاد مرة أخرى يضع يده على رأسي قائلاً: أستحلفك بالله وقد وضعت يدي على رأسك هل كنت على خطأ لأنني لم أبع أبقاري حتى يتزوج بثمنها، وإن جعت وجاع أولادي هل كان أخي سيعطينا طعاماً وإن أعطانا شهراً أو شهرين هل كان سيعطينا مدى الحياة، قل، استحلفتك بالله أن تقول، وبدأت نبرات صوته تتصاعد: لا

طلبت الدورية من السائق أن ينطلق بالركاب ويكمل الرحلة بعد أن صعدنا إلى سيارة الدورية مع أمتعتنا إلى حيث المخفر، هناك أبقونا حتى الصباح إلى أن أجروا كشفا مخبريا على الكيسين وقدموا لنا اعتذارا عن سوء الفهم هذا الذي دافعه الحرص على حياة الناس، وأعادوا لنا أمتعتنا وأعادوا لدرباس الكيسين بعد أن أصر على إعادتهما إليه لأنه لا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة بدونهما، ثم قال رئيس الدورية بأنه أقسم على ألا نخسر شيئا لنكمل الرحلة فقد اتصل لحجز مقعدين وسوف يصل باص بعد قليل إلى ذات الاستراحة التي تم أخذنا منها. قال بأننا كما ركبنا معا في ذلك الباص سوف نكمل الرحلة معا في الباص الجديد. عنئذ تذكرت بأنني سوف أكون في مقعد واحد مع درباس فقلت: أرجو أن تتكوني وشأني، أما درباس فلا علاقة لي به، فقال درباس: إما أن نكمل معا الرحلة أو نعود معا إلى الحسكة. ومرة أخرى رأيتي مرغما للجلوس في مقعد واحد مع درباس وتحمل كل تلك الرائحة الكريهة. أخذتنا سيارة المخفر إلى الاستراحة، في الطريق وقعت عيني على محل لبيع العطور، أوقفت السائق بجانب المحل، ابتعت علبة عطر وانطلقنا إلى الاستراحة لنجد الباص واقفا بانتظارنا،

اتجه السائق إلى الهاتف وأجرى اتصالا، تذكرت أمر رفيقي في المرحاض وذهبت لأراه يقف بجانب باب المرحاض المفتوح يدخل بشراة وهو يناديني، فأمسكت بيده وقدمته إلى صالة الاستراحة ليشرّب كأسا من الشاي. شعرنا جميعا بتأخر انطلاق الباص عندما مضت ساعة دون أن ننتقل، فبدأنا نسأل عن السبب، قال السائق بأن عطلا ما قد حدث، وقد اتصل بالشركة التي سترسل له بعد قليل معلم ميكانيك ليصلح العطل. بعد قليل حضرت دورية مسلحة من الشرطة فأشار السائق إلي، أمرني أحدهم أن أرفع يدي بعد أن طلب من جميع الركاب الابتعاد، وعندها لم يتردد درباس أيضا أن يرفع يديه معي، تقدموا إلي وصاروا يفتشونني بدقة شديدة، وبعد ذلك فتشوا درباس ووقعوا على ذلك الكيس. قال أحدهم: هذا ما نبحث عنه يا سيدي. عندها لم يتردد درباس من أن يقول: خذوا كل شيء إلا هذا الكيس. ثم قادونا إلى الباص وهم يشيرون للركاب بالابتعاد ما أمكن، طلبوا أن أرشدهم على حقبيتي، وفتشوها قطعة قطعة، ثم فتشوا حقبية درباس فوجدوا كيسا مماثلا للذي وجدوه بجوزته فقال درباس بأنه كيس الاحتياط. قال أحدهم: نعرف جيدا بأنه كيس الاحتياط.

موهبة التمثيل

بعد مسير طويل اقتريا من جمع من الناس كانوا يجلسون بفيء شجرة، مرا من أمامهم وألقيا عليهم السلام.

أجابوا على سلامهما، ثم قال أحدهم: أما نظرتم إلى هذا الشيخ القاسي، يركب الحمار دون أن يأبه بابنه الصغير الذي يمشي على قدميه.

التفت الابن ليحيب عليه، فمنعه لقمان وأكمل المسير.

بعد غيابهما عن ذلك الجمع أوقف لقمان الحمار، وطلب من ابنه أن يركب بدلا عنه.

تردد الابن، إلا أنه أمره أن يفعل ذلك، فاضطر الابن إلى ركوب الحمار وهو يمشي بجانبه.

مضيا في الطريق إلى أن اقتريا من شخصين يأتيان في ذات الطريق، وعندما مرا من أمامهما وتبادلوا السلام فيما بينهم، سمعا صوت أحدهم يقول لصاحبه: انظر.. انظر، يا للعجب، هذا الابن ركب الحمار تاركا أباه الشيخ يمشي على قدميه دون أن يكرمه .

أراد الابن أن يجيب عليه فمنعه الأب وطلب أن يمضي بالحمار في الطريق .

بعد مسير آخر طلب إليه أن يقف، وعند ذلك ركب هو الآخر الحمار مع ابنه، ومضيا في الطريق.

وضعنا أمتعتنا وقبل أن نصعد أخرجتُ علبة العطر وبدأت أبخها على فروة درياس حتى فرغت. قال درياس وهو يتقزز من رائحة العطر ويلمس الكيس تحت فروته: لكن لا يهم مادامت أحمل هذا الكيس تحت فروتي.

في هذه القصة يلجأ الشخص إلى شيء من التمثيل وهو يتمثل حكمة من لقمان الحكيم عندما سأله ابنه: يا أبي أريد أن أعرف منك أمرا

قال: نعم يا بني

قال: هل أستطيع أن أرضي الناس جميعا لم يجبه، وفي صبيحة اليوم التالي طلب أن يصطحبه في طريق قبل ذهابهما إلى العمل.

فقال الابن: أجل يا أبي

طلب إليه لقمان أن يحضر الحمار. أسرع الابن في إخراج الحمار إلى الطريق ومضيا بعيدا عن الديار.

بعد شيء من المسير والابن ينتظر ما يقول حتى يعرف إلى أين يتجه مع أبيه.

أوقف لقمان الحمار، وبعد قليل ركبه داعيا الابن أن يمشي بجانبه في الطريق .

يمشي الابن وهو ينتظر ما يقوله، ولقمان يمضي راكبا الحمار دون أن يتحدث بشيء.

بشيء.

مع هذه المرأة البديعة نتعرف على بعض خصوصيات المرأة بما لم نعرفه في غيرها، ولذلك أعتقد أن قراءة شارلوت برونتي هي هامة لضرورتين، الأولى أننا نتعرف على نمط يمتلك خصوصية مميزة في شخصية المرأة، وهذا يجعلنا نغير الكثير من المفاهيم السائدة عن المرأة، وأعتقد يجعلنا نكن لها احتراماً أكثر بعد قراءة برونتي، والثانية أننا نقف أمام إبداع نسوي بامتياز، أي إننا نتذوق نكهة حديث المرأة، نشم رائحتها، أعني نتعرف على وجهة نظر المرأة من المفاهيم والوقائع ومقومات الحياة.

عتبة النشوء

ولدت الابنة الثالثة / شارلوت / في ٢١ نيسان ١٨١٦ لأب مهاجر من إيرلندا ، ومستقر في فرنسا يعمل راعياً في الكنيسة الإنجليزية في هيوارث .
تزوج هذا الأب من أمها التي ماتت بعد عشر سنوات من الزواج لتترك بناتها: ماريا - أليزابيت - شارلوت - إميلي ، وكذلك ابنها باتريك في رعاية أب شديد القسوة .
أدخل هذا الأب بناته مدرسة رخيصة في كوان بريدج، وهي مدرسة خاصة بتعليم أبناء رجال الدين

مرا بجانب جمع من الناس يجلسون أمام بيت ، ألقيا عليهم السلام .
أجابوا على السلام، ثم ما لبث أن قال أحدهم: يا لقسوة قلبيهما، ركبا معا على هذا الحمار المسكين دون أن يرفأا به .
بعد بعض المسير طلب من ابنه أن يوقف الحمار لينزلا ويمشيا إلى جانبه .

مشيا إلى جانب الحمار إلى أن مرا بثلاثة رجال يمضون في الطريق، ألقيا عليهم السلام، وبعد أن أجابوا قال أحدهم لصاحبيه: أما رأيتم هذا العجب، معهما حمار ولا يركباه .

عند ذلك وقف الابن وقال لأبيه: الآن أجبتي خير إجابة على سؤال البارحة يا أبت .

التمثيل في عالم الأدب

في عالم الأدب ترى الأدبيات على الأغلب يلجأن إلى شيء من التمثيل، أو الاستعارة حتى يتمكن من الكتابة بشيء من التحايل على سلطة المجتمع .

أذكر هنا تجربة الروائية شارلوت برونتي .

عندما أقرأ شارلوت برونتي أشعر بأنني أمام فتاة بالفة الخجل، متوسطة القامة، صغيرة الحجم، شعرها منسدل إلى الخلف، تتطلق إلى الحياة للتو .

بيت العزلة

أحيانا تكون العزلة منحة تمنح للإنسان من أجل أن يقدم شيئا مجديا، فتكون بمثابة انطلاق حقيقيّة نحو العالم بصورة أقوى مما لو كان يعيش في أعماق إيقاعات مدينة صاخبة.

هنا تمنح العزلة فرصة ثمينة للتعرف على الذات وعلى العالم بصورة تأملية.

ربما ليست هناك من عانت في حياتها كما عانت شارلوت برونتي، التي تعد من رائدات الرواية في فرنسا مع أخواتها اللواتي انطلقن من ذات البيت وذات الواقع التربوي الشديد، فقد شاءت الأقدار أن تعيش هذه العائلة البالغة العبقرية والإبداع في ظروف بالغة القسوة.

هذه العائلة الموهوبة والمعروفة بـ / الأخوات برونتي / وليس بوسع التاريخ أن يذكر اسم / إيميلي برونتي / دون أن يذكر اسم أكثر الروايات شهرة في العالم وهي روايتها / مرتضعات وذرغ /.

فبعد أن فقدت الأخوات الأربع أمهن، تولى الأب الصارم تربية بناته بكثير من الشدة، وهو رجل من أتباع / كالفن /.

أول ما قام به هذا الأب هو أن حذر على

بناته أكل اللحوم حتى لا يتعلقن بملذات الحياة، ومن ثم عمل من أجل قطع كل صلة لهن في ممارسة الحياة الاجتماعية، فقد رغب هذا الأب أن يعشن ويمتن دون أن يعرفن شيئا على الإطلاق، فلم يسمح لهن حتى لمجرد النظر من نافذة المنزل، وعلى هذا النمط المفروض عليهن ضمن أسرة بابوية يعشن في شبه سجن مغلق دون القيام بأي نشاط اجتماعي، أما فرصتهن الوحيدة للحديث مع الأب وهذا نادرا ما يحدث، فكان يستغلها حتى يروي لبناته أحاديث العالم الآخر والموت، ويعزز في نفوسهن وحشة الحياة، والشر الذي دوما يأتي من شخص يمكن أن يدخل هذا البيت، أو حتى من شخص ينظرن إليه من النافذة، فيمكن لهذا الشخص أن يجلب لهن الشر.

بطبيعة الحال فإن البنات لن يرين أحدا لأن البيت تم اختياره بشكل جيد، فهو يشرف فقط على مقبرة ولا يتردد هناك سوى أولئك الذين يعيشون حالة الحداد، أما عندما ينتصف الليل فلا يتردد هذا الأب أن يتحدث لهن عن الشيطان وجهنم والشر الذي يملأ العالم، وأن خير وسيلة لتجنب الآثام هو الابتعاد النهائي عن الآخرين.

اكتشاف موهبة الإبداع واللجوء إلى

أصداء الشهرة

بعد أن أبدعت شارلوت روايتها الشهيرة /جين أير/ وهي من الروايات التي تصور واقع الحياة الاجتماعية في الحقبة الفكتورية، وتتسم برومانسياتها البالغة، كشفت للناشر عن هويتها لتتمكن من مواصلة الكتابة متحدية أي عقاب، ثم استمرت في الكتابة فقدمت رواية /شيرلي/ عام ١٨٤٩م / ثم / فيليب، ثم البروفيسور، لكن لم تكتمل فرحتها إذ إن الموت اختطف أخواتها واحدة تلو الأخرى، فلم تملك غير أن توافق على الزواج من القس آرثر نيكولز رغم عدم حبها وعدم قناعتها به كزوج، وربما لأنها كانت ترغب في أن تغدو أما. ومن جهة أخرى ربما يتحقق حلمها القديم في فتح مدرسة حتى تستطيع أن تسهم في تقديم جيل مختلف عن التربية الصارمة التي تلقنتها، لكن هذا المشروع أيضا لقي الفشل.

الفقراء لا يحتاجون إلى الكثير

بعد تجربة زواج مريرة مع الزوج، وهي تحتل حتى يتحقق حلم الأمومة من هذا الرجل، تقول في إحدى رسائلها إليه: سيدي إن الفقراء لا يحتاجون إلى الكثير حتى يكون بقاءهم في الحياة، بل إنهم لا يرجون إلا

التمثيل أمام هذا الحصار فارقت الأخت ماريا حياتها بداء السبل، ويمكن القول إن هذا القصد جعل الأخوات يدركن المصير ذاته، فقد ولدت ماريا وماتت دون أن تعرف شيئا من العالم.

مع هذا الواقع استيقظت الأخوات على فكرة تأريخ هذه الوقائع في حياتهن، ووجدن أن خير وسيلة لبلوغ ذلك هي الكتابة، فمن خلالها يمكن أن ينقذن أنفسهن من النسيان الذي يجلبه الموت كما حدث لأختهن، ومن ناحية أخرى فالكاتبة تفسح لهن مساحات للعيش والخيال والتسلية والاستئناس. لم يكن أمامهن إلا اللجوء إلى شيء من التمثيل الإيجابي تجنباً للاصطدام مع سلطة الأب، وبالفعل استطعن أن يكتبن ديوانا شعريا مشتركا، وحتى لا يكشفهن الأب اتفنن على إصداره تحت أسماء ذكورية، فقد اختارت شارلوت لها اسم /كوريريل/، واختارت إميلي اسم /إيليس/ واختارت آن اسم /أكتون بيل/ تجنباً للاصطدام مع هذا الأب الذي يمكن له أن يحرق هذا الديوان إذا وقع عليه، ثم يوجه أي عقاب بحق بناته.

بعد ذلك قررت الأخوات أن يركزن جهودهن الأدبية ويرسمن لمستقبل أدبي لكل واحدة منهن، فكان التحول إلى عالم الرواية.

رواية يمكن اعتبارها / سيرية / تتحدث عن وقائع حياة الكاتبة نفسها.

هذه بعض المقاطع من الرواية، وهي تعطي لمحة عن أسلوب شارلوت بروتنتي:

/ كان من المستحيل التنزه في ذلك النهار، فمع أننا تجولنا في الحديقة الجرداء لمدة ساعة في الصباح، والطقس كان دافئاً نوعاً ما، إلا أنه منذ الغداء، بدأت ريح الشتاء الباردة تهب، حملت معها غيوماً داكنة وأمطاراً غزيرة بحيث استحال الخروج من المنزل.

وبما أنني كرهت كثيراً النزاهات الطويلة، خاصة بعد ظهر الأيام الباردة، سررت لهذا التغير المفاجئ في الطقس، فالمجيء إلى المنزل عند الفسق كان رهيباً بالنسبة إلي بأصابع أيدٍ وأرجل مجلدة، وقلب أحزنه توييخ الممرضة بيسي والإدراك كم كان جسدي الصغير الهزيل ضعيفاً، بالمقارنة مع أجساد إليزا، جون، وجورجيانا ريد.

جلس أبناء خالي أليزا، جون، وجورجيانا الآن مع والدتهن في غرفة الجلوس في منزلهم، غايتهن. كانت مستلقية بالقرب من الموقد، وأطفالها الأعماء حولها. شعرت بغاية السعادة لأنهم لم يكونوا يتشاجرون ولا يصيحون. إلا أنني طردت من المجموعة. فقد قالت إنها نادمة لاضطرارها إلى إبعادي،

الفتات الذي يتساقط عن مائدة الغني، وأنا الأخرى لا أطمع بغير قسط ضئيل من عطف من أحبهم لأنني لا أدري ما الذي أفعله بالولاء الكامل الشامل منهم، فأنا لم آلف التكفير في ذلك.

هنا تجدر الإشارة إلى أن الأب أصيب بالعمى، كما تحول الأخ الوحيد إلى كائن كحولي مدمن لا يُحتمل.

لقد حملت شارلوت، ولكن قبل أن تتجب مولودها الأول كان الموت أسرع إليها من ذلك فماتت بعد سنة واحدة من الزواج وهي في التاسعة والثلاثين من العمر، بعد أن تركت أعمالاً روائية وأصبحت مع أخواتها إحدى أعمدة الرواية في العالم، في كتابها / غرفة خاصة بالمرء وحده / تصف / فرجينيا وولف / شارلوت بروتنتي بأنها : / حُرمت من حقها في التجربة، حيث فرضت عليها حياة راكدة في بيت كاهن، ترتق الجوارب في وقت كانت تتوق فيه إلى أن تجوب العالم حرة/

جين أير

تعد هذه الرواية من الأعمال المبكرة التي دعت إلى تحرر المرأة، وأن تمارس حريتها في النمط الذي تشاء، وهي كذلك من الروايات التي تبرز قوة الرومانسية.

تماماً كالقصص التي روتها لنا بيبي أحياناً في أمسيات الشتاء عندما يصدق أن تتمتع بمزاج جيد، مستحوذة على أنفسنا وانتباهنا المتلهف بذكريات الحب والمغامرة المأخوذة من الأغنيات والروايات القديمة / .

تكمن أهمية هذه الروائية في أنها تمكنت بصورة غاية في التأثير من تصوير أبلغ لحظات الأم والعزلة التي تحولت إلى نشيد في أغلب أعمالها الروائية .

كلمة أخيرة

التمثيل موهبة إنسانية، يمكن أن يستخدمها الإنسان في مواقف عديدة، كما يمكن له أن يغتتمها للإبداع الفني، فيستطيع من خلالها تجسيد الكثير من الأدوار التي تمثل شخصيات هامة صادفت التاريخ البشري.

موهبة التمثيل تحتاج إلى الكثير من الصقل والمتابعة حتى تنمو وتترعرع وتمنح قيمة إشراقاً إبداع الفن التمثيلي.

حتى أحاول بإخلاص التصرف بمزيد من اللياقة وأنمي طبيعة أكثر ودية ورقة، لن تستطيع السماح لي بالملذات المخصصة فقط للأطفال الطيبين والمطيعين.

سألتها: لكن مالذي فعلته؟

قالت: كوني مهذبة والزمي الصمت، يا جين، فأنا لا أحب الأسئلة أو الاعتراضات. لا ينبغي للأطفال التحدث مع الأكبر سناً بهذه الطريقة. ابتعدي عن الغرفة، والزمي الصمت إلى أن تتمكنين التكلم بلطف.

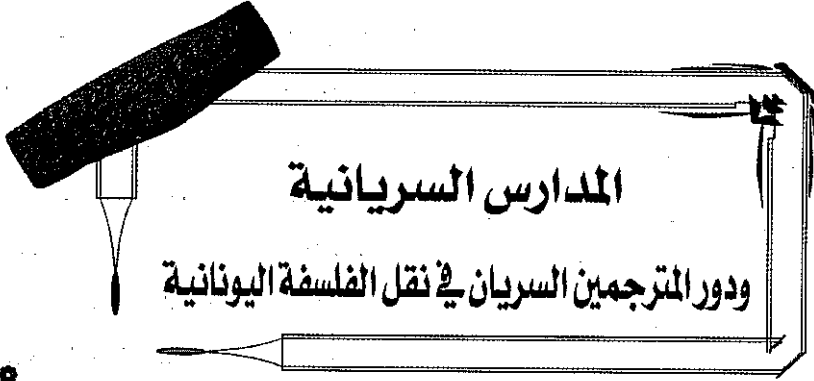
سرت ببطء في اتجاه غرفة طعام صغيرة مجاورة لغرفة جلوسهم. شملت الغرفة الكثير من رفوف الكتب، فتناولت كتاباً بعدما تأكدت أنه غني بالصور.

تسلقت إلى حافة النافذة، وعندما رفعت قدمي، جلست متربعة، وبعدما سحبت الستائر الحمراء، شعرت بأنني محمية وبعيدة عن أنظار الآخرين.

كان كتاباً ذا صور ملونة جميلة. كل صورة روت قصة غامضة ومثيرة للغاية، مثيرة



الدراسات والبحوث



• الأب جوزيف شابو

كثيرة هي المصادر التي تناولت دور الفكر السرياني في بناء الحضارة المشرقية، وقد أسهب العلماء في الغرب بصورة خاصة، بلغاتهم المختلفة في الحديث عن نشأة دور المراكز الفكرية لدى السريان، وقاموا بدراسات معمقة تناولت جوانب مهمة من هذا العطاء الفكري الذي أسهم في بناء حضارة منطقتنا، ولا سيما الحضارة العربية في عصرها الذهبي في القرون الثامن والتاسع والعاشر للميلاد. وأكد أولئك العلماء بأن الفكر السرياني ليس

* باحث سوري

العمل الفني، الفنان شادي العيسى

العطاء الفكري فسألى جانب التعليم الديني واللاهوتي وشروحات الكتاب المقدس والقوانين والطقوس والموسيقى الكنسية، نرى فيه صفحات هامة في الخط، والصرف، والتحو، واللغة، والمعاجم، والفصاحة، والشعر، والتاريخ، والقصص، والفلسفة، والطب، والعلوم الطبيعية، والفلك، والهيئة، والجغرافيا، والرياضيات، والكيمياء. هذا إضافة إلى الترجمة من لغات أخرى إلى السريانية ومنها إلى العربية. كل هذه العطاءات أخذت شكلها في مراكز فكرية أنشئت في مراحل مختلفة من الزمن، وقد شكلت هذه المراكز مدارس ضمت عدداً كبيراً من طلاب المنطقة، وأصبحت ظاهرة هامة في تاريخ منطقتنا بشكل عام وتاريخ الفكر السرياني بشكل خاص، وكل مدرسة أصبحت مركزاً من مراكز إشعاع فكري وثقافي وديني. وبعد عهد الانشقاقات في المسيحية، لعبت دوراً مهماً في إظهار حقيقة الإيمان المسيحي من خلال العقيدة التي تبنتها كل مدرسة. وهنا برزت المراكز الفكرية التي خاضتها المدارس السريانية ضد خصومها، وفتحت صفحة جديدة من صفحات الجدل الذي مثل التيارات المسيحية المختلفة، ودخلت هذه الصفحة في تراث الأدب السرياني الزاخر. ولعل أهم

دخلاً على آداب منطقتنا المشرقية، بل هو أدب أصيل نابع من تراب هذه المنطقة وليس دينياً مسيحياً فحسب، وإنما مجالاته غطت مساحات واسعة من صفحات الفكر والأدب والفن، وخاض أيضاً أبواب الفلسفة والعلوم على إثر نقل الفكري اليوناني القديم إلى اللغتين السريانية والعربية. وكل الباحثين الكبار من أمثال: نولدكه، وموسكاني، وروزنثال، ورينان، وويلفنسون، وبروكلمان، وشابو وغيرهم أجمعوا على أن اللغة السريانية هي سامية، مثلها مثل العربية. وأن التلاحم بين اللغتين الشقيقتين العربية والسريانية أدى إلى تمتين أوامر الأخوة بين الناطقين بهما، يقول البطريك يعقوب الثالث عن العلاقة بينهما:

إنهما اللغتان العريقتان اللتان تفرعتا عن الدوحة السامية الكبرى لكي تظل الواحدة في معزل عن الأخرى دهرأ طويلاً، ثم تصبُّ الواحدة إلى الأخرى فتلتقيان لتعيشا متعانقتين متآزرتين متقارضتين^(١). وبنفس المعنى يقول المسعودي في مروج الذهب عند حديثه عن أهل نينوى: وكان أهل نينوى ممن سُمينا نبيطاً وسريانين، والجنس واحد، واللغة واحدة، وإنما بانَّ النبط عنهم بأحرف يسيرة في لغتهم، والمقالة واحدة^(٢). وغنيُّ هو الأدب السرياني بصفحات

المفيد أيضاً أن نعود إلى عوامل نشأة هذه المدارس الفكرية وعلاقتها بالتيارات الفكرية التي سبقت المسيحية وهذا ربما يظهر بشكل خاص في الحديث عند المدرستين الإسكندرية والأنطاكية.

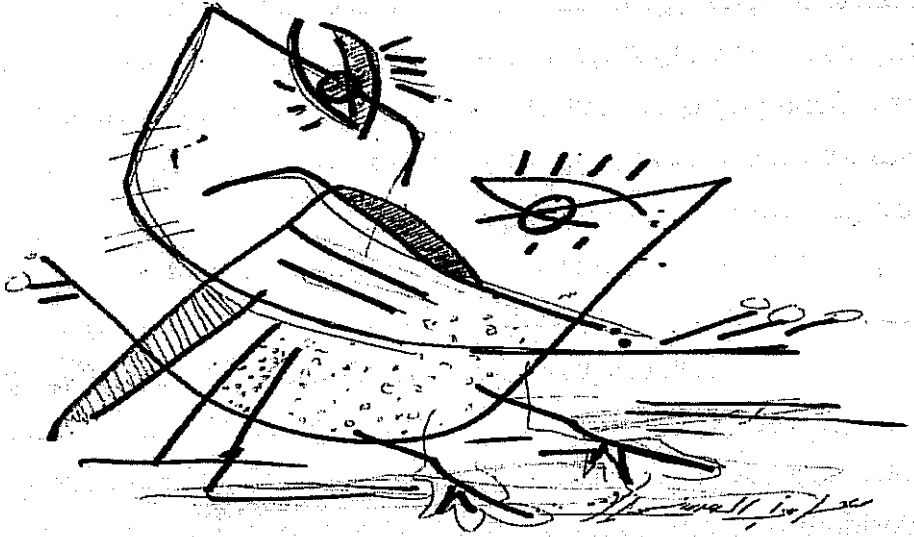
لا نستطيع في وقت قصير، أن تأتي على ذكر جميع مواطن التعليم التي هي بالتالي المدارس الفكرية أساس كل هذه العطاءات، لأن عددها يفوق المئة ولكل مدرسة نظامها وخصوصيتها وسماتها الخاصة من حيث المنهج الفكري الذي سارت عليه.

وشكّل نهر الفرات، عند السريان، خطأً جغرافياً بارزاً. فالسريان المغاربة وكل ما لهم وعندهم من ثقافة وتراث ومدارس فكرية هم السريان الذين عاشوا غربي نهر الفرات، والسريان المشاركة هم السريان الذين عاشوا شرقي الفرات، ومواطن التعليم والمدارس الفكرية عند السريان عُرفت بنفس الصفة. هنالك مدارس سريانية شرقية، كما توجد مدارس سريانية غربية.

أما أشهر المدارس ما بين القرن الرابع والعاشر للميلاد فهي مدارس أنطاكية، والرها، ونصيبين، ومدرسة دير زوقتين، ومدرسة قرتمين، ومدرسة دير قنسرين، إزاء مدينة جرابلس اليوم، ومدرسة دير العامود بالقرب من رأس العين في الجزيرة

معالم هذه المدارس الفكرية هو الدور الذي قامت به من خلال حركة الترجمة والنقل التي بدأت على يد خالد بن معاوية، وميّرت في كل العصر الأموي، إلا أنها نشطت نشاطاً واسعاً في أيام الرشيد والمأمون، وبهيمتهما أنشئت المدارس والمكتبات ومراكز الثقافة وقُلد الناس رؤساءهم فشاخ حب العلم وأخذ الناس يفتنون الكتب ويقرؤونها. ويقول أحد علماء السريان وهو العلامة يوحنا بن العبري عن هذه المرحلة إن المأمون كان يحب العلماء والفلاسفة ويرعاهم ويأنس مجالستهم ومذاكرتهم^(٣). وفي زمن أولئك الخلفاء، تمت ترجمة كتب أرسطو وأفلاطون والفلاسفة الآخرين، وكتب أبقراط وجالينوس الطبية، وكتب غيرهم من العلماء الرياضيين والفلكيين وحكماء اليونان والحكمة الفارسية والهندية.

هذه المراكز والمدارس الفكرية، لم تستأثر حتى الآن بدراسات الباحثين، وما كُتب عن بعض منها مازال يحتاج إلى عمق في البحث، ليس فقط من حيث تاريخ إنشائها وعدد طلابها وزمن تأسيسها وإغلاقها، وإنما العودة إلى ما تركته من مآثر قلمية في مجالات فكرية متعددة تستحق الدراسة والكتابة عنها، لأنها حلقة من حلقات التواصل الفكري في منطقتنا. ربما من



في موضوع التلاحم الحضاري بين الشعوب والأقوام التي عاشت في منطقتنا. سأتناول الأثر الذي تركه السريان في مسيرة الحضارة العربية لبلاد الشام، فإذا كنا نتحدث عن قراءة في تاريخ هذه المسيرة لا بد وأن نعطي كل ذي حق حقه، إذا ساهم في بناء هذه الحضارة. ولا أريد أن أدخل في تفاصيل تحريك الشعوب والقبائل في المنطقة، أو أن أسترسل في كل ما قامت به هذه الشعوب التي عاشت جنباً إلى جنب وهي تتفاعل حضارياً، ولكل منها مساهمة فعالة في بناء هذا الصرح الذي ندعوه الحضارة العربية. ولكي يكون كلامي واضحاً أكثر أشير إلى أن تسمية هذه الحضارة بـ العربية تصح أكثر من أن يطلق عليها اسم آخر، لأننا

السورية، ومدرسة دير قرقفتا، بين رأس العين والحسكة اليوم، ودير مار حنانيا، وهو دير الزعفران، ومدرسة دير مار برصوم القريب من ملاطية، وقد اكتشف بعض الأثاريين مكان هذا الدير التاريخي المهم في مطلع هذا العام ٢٠٠٤، ومدرسة أخرى في ولاية ملاطية عُرفت بمدرسة دير «إيليا بن جاجي»، ومدرسة دير «البارد»، ومدرسة دير «سرجيسيا» أيضاً في أطراف ملاطية. ودير «أوسيوننا» القريب من قرية «تل عادة»، ودير «تلعدا» ويبعد بحدود ٢/ كم عن دير «أوسيوننا»، ومدرسة «دير الجب الخارجي» ويقع بين حلب وسميساط، ومدرسة دير «مار زكا» بجوار مدينة الرقة، وكلها من المدارس الفكرية المهمة التي تركت أثراً كبيراً

هكذا لا نجزي حضارتنا التي كانت قبل نشوء الأديان في المنطقة، وتواصلت حتى بعد انتشارها. وهذه الشعوب والقبائل في كل الأحوال هي أجزاء حضارية صغيرة من مجتمع حضاري كبير.

إن مساهمة السريان في مسيرة الحضارة العربية منها دور المترجمين السريان في نقل الفلسفة اليونانية إلى السريانية فالعربية مرت في مرحلتين، المرحلة الأولى: قبل ظهور الإسلام وحتى فجر الإسلام. والمرحلة الثانية: بعد نشوء الدولة الأموية. فالدور الذي لعبه السريان في الحياة الفكرية والعلمية في بلاد الشام في المرحلة الأولى، لا ينكره الباحثون والمؤرخون النقاء، ورغم أن المسيحية كانت في حالة تنظيم ذاتها من الداخل، على أثر ظهور البدع والهرطقات التي بسببها انعقدت المجامع لمناقشة الآثار السلبية التي تركها أصحاب هذه البدع، ثم لوضع حد لها بسن قوانين وأنظمة ودستور للإيمان، وهذا ما حدث في المجامع الأربعة الأولى المنعقدة في نيقية / ٣٢٥ م، والقسطنطينية / ٣٨١ م، وأفسس / ٤٣١ م، وخلقيدونية / ٤٥١ م، ورغم كل ذلك استطاع السريان أن يزرعوا في المنطقة مدارس فكرية متعددة تخرّج فيها عدد كبير من العلماء والأدباء. ويسبب ظهور

البدع التفت المفكرون السريان إلى الفلسفة، وتعمّقوا، فيها فكان لهم شأن كبير في المدرسة الرواقية التي أسسها زينون / Zeno / ٣٣٥ - ٢٦٤ ق.م. والفلسفة بالنسبة للرواقين هي: محبة الحكمة ومزاولتها، هي العلم بالأمور الإلهية والإنسانية والسعي وراء الفضيلة، والعلم ليس الغاية إنما الفضيلة التي تتوصل إليها بالعلم.

صحيح أن الرواقية ظهرت قبل الميلاد وازدهرت في العصر الروماني على يد سرياني هو بوزيدونيوس الأفامي Posidonios / ١٥٣-٥١ ق.م، ولكن وصلت الرواقية إلى العرب والمسلمين عن طريق شراح أرسطو مثل: اسكندر الأفروديسي، ويحيى النحوي، ويرجّح عدد من الدارسين أن الديصانية التي كانت منتشرة في حران، ومؤسسها برديصان الرهاوي كانت السبيل في وصولها إلى العرب. وبرديصان الفيلسوف الذي ظهر في النصف الأخير من الجيل الثاني للميلاد في الرها، ترك بعلمه الواسع بصمة في تاريخ الفكر النهري، وتحديداً في الرها عاصمة الآداب السريانية في بلاد ما بين النهرين، رغم أن الكنيسة نبذته، فلقد أصبح أساساً للمدرسة الفكرية التي نشأت في مدينة الرها وأصبحت من أهم المراكز والمعقل الأدبية مستقبلاً.

الاسكولاستيكية، فقد أثار مشكلة الأجناس والأنواع وهل هي حقائق تقوم بنفسها خارج العقل؟ هذه المحاولات الفلسفية ذات الخط غير المسيحي، أدت إلى ظهور مدارس ذات اتجاهات فكرية ضمن الخط المسيحي، وباختصار شديد أقول بأن المدارس الفكرية التي ظهرت في كل من: قيصرية، وغزة، وبصرى اسكي شام، وبيروت، وأنطاكية، وحران، وقتسرين، والرها، قد لعبت دوراً مهماً في انتشار الفكر الفلسفي، ليس فقط في بلاد الشام بل في كل أنحاء العالم وقتئذٍ. على سبيل المثال لا الحصر سأتناول واحدة من هذه المدارس وهي: مدرسة أنطاكية التي تأسست سنة / ٢٩٠ م، وأقل نجمها بحدود سنة / ٤٢٠ م. فبعد أن أصبحت أنطاكية عاصمة الشرق القديمة نظراً لأهمية موقعها الطبيعي، ومركزها الجغرافي من جهة، وانتقال الرسل من أورشليم إليها وتأسيس الكرسي الأنطاكي فيها من جهة أخرى، أصبحت أنطاكية من أهم المراكز المسيحية يومئذٍ. وكان من الطبيعي أن تحتضن هذه المدينة مدرسة تجمع فيها عدداً كبيراً من طلاب العلم تنافس المدارس الأخرى، التي كانت معروفة في: أثينا، والإسكندرية، وطرسوس. فتأسست هذه المدرسة بفضل العالمين القيسيين لوقيانوس ودورثاويوس،

ومذهب الرواقين ترك أثراً خطيراً ليس فقط في بلاد الشام، وإنما في كل العالم الإسلامي، ويكفي أن أشير هنا إلى كتاب الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، فالملاحظة التي تظهر في هذا الكتاب، تبين بأن كثيراً من الخصال التي يتصف بها الحكيم والصفات التي ينسبها الفارابي لرئيس المدينة الفاضلة هي قريبة جداً من صفات الحكيم الرواقي الحائز على جميع الفضائل.

والمدرسة الأخرى التي كان للسريان شأن كبير في تطورها هي الأفلاطونية المحدثة. وهنا أيضاً نذكر بأن هذا الفكر الجديد أسسه Plotinus أفلوطين، وكان مصرياً ولكن من زرع بذورها هو نومينيوس الأمامي الذي Numenius of Apamea، الذي اشتهر في منتصف القرن الثاني للميلاد، وفورفوروريوس Porphry وكان أيضاً من بلاد الشام. ونومينيوس هو صاحب كتاب: مذاهب أفلاطون السرية، وإذا كان نومينيوس قد وضع أسس الأفلاطونية المحدثة فإن شارحها الأفضل أيضاً كان من السريان، ونعني به فورفوروريوس الصوري توفي سنة / ٢٠٤ م، وهو صاحب كتاب: المدخل إلى المقولات، بل هو أول من وضع حجر الزاوية في الفلسفة العربية الإسلامية، والفلسفة

بن ثابت، وجابر بن حيان، الأثر الكبير الذي يُقال أن بعض المعتزلة من إخوان الصفا، والفيلسوف الشهير الكندي، قد أخذت من الفكر الحراني. وإلى جانب الفكر هنالك الأسلوب الإداري والتنظيم في هذه المدارس. فمدرسة نصيبين مثلاً عرفت نظاماً فريداً من نوعه، ودخلت قوانينها إلى بقية المدارس الفكرية. فكان في المدرسة رئيس يدعى ربان ربن Raban أي معلم، ومفسر مفسقونو مفسقنا، ومقرئ ومهجئ مقرينونو ومهجينونو مقرئنا وموجئنا، ووظيفة المقرئ كانت أن يعلم الطلاب صناعة النحو والألحان الكنائسية، أما المهجئ فكان يعلم التهجئة والقراءة الفصيحة، والوكيل راب بيتو أي رب بيتو أي رئيس البيت. وفي قوانين المدرسة يأتي اسم سوفرو الكاتب سُفرا، والأخ المعروف آحا يديعا والمفتش بودوقو بدوقا، وكانت هناك أسس للانتساب إلى هذه المدرسة منها أن يوافق على قوانينها، وأن يلتزم بالسكنى في الأمكنة المخصصة للطلاب. وللطلاب زي خصوصي، وطريقة خاصة أيضاً لشعر رؤوسهم، هذا النظام كان له دور كبير في التربية المدرسية التي انتشرت في أكثر مدارس المنطقة.

وسيطول الشرح إذا تناولت كل مدرسة من المدارس الفكرية المعروفة، ولهذا

وانضم إليها عدد كبير من علماء المسيحيين منهم: أوسابيوس أبو التاريخ الكنسي، والقس آريوس وأوسطااوس أسقف أنطاكية.

وفي الحقبة الثانية وتبدأ من سنة / ٣٧٠ م/ ظهر ديودوروس ويوحنا الذهبي الفم وثاودوريطوس ونسطور وكثيرون غيرهم. وأهم ما امتازت به المدرسة التي كانت بمثابة جامعة أو مجمع علمي مقاومة الطريقة الرمزية التي انتشرت في مدرسة الإسكندرية. وفي كل الأحوال كان من أهم اهتمامات الفكر في هذه المدرسة هو التوفيق بين العقل والإيمان، أو العلم والدين.

وقد ساهمت هذه المدرسة بنشر الفكر في كل بلاد الشام، وهكذا الحال في بقية المدارس التي جمعت بين الفكر اليوناني قبل المسيحية، والآخر الذي اصطبغ بالمسيحية، وبعض هذه المدارس الفكرية أصبحت مراكز علمية مهمة مثلاً: مدينة حران القريبة من الرها وكان أهلها من عبدة النجوم، عاش فيها عدد كبير من الصابئة حتى في أيام المأمون الخليفة العباسي، وعرفت المدينة إلى جانب السريان من السكان الأصليين عدداً من المقدونيين واليونان والعرب، وتفاعلت ثقافات هذه الأمم مع بعضها البعض، وازدهر فيها الفكر حتى العصر العباسي، وكان لكتابات ثابت بن قرة، وسان

كثيراً ونسج على منواله في العلوم الفلسفية، ومار يعقوب الرهاوي أحد علماء السريان السوريين وهو صاحب كتاب انشريدون المختصر في العبارات الفلسفية، الجوهر والذات والطبيعة والأقنوم والشخص وهذا العلامة ولد في نحو سنة /٦٣٣م/، في قرية عين دابا معناها عين الذئب، القرية من بلدة عفرين، وما زالت هذه القرية قائمة، وكانت قديماً تابعة لولاية أنطاكية، وفي ريعان شبابه توجه إلى دير قنسرين أي عش النسور، حيث تابع دراساته العالية على يد أستاذة الدير، وخاصة الفيلسوف والعالم مار ساويرا سابوخت. ومار يعقوب الرهاوي فضل كبير على الأدب السرياني الذي هو جزء من هذا الفكر الذي نتحدث عنه، ولكي لا أتوسع في نتاجه الفكري كثيراً، أشير إلى أن مار يعقوب الرهاوي يُعتبر أول مؤلف للنحو عند السريان، الذي من خلاله وضعت القواعد، والضوابط للغة السريانية، وإليه تنسب الحركات الخمس المعبر عنها بأحرف يونانية صغيرة وهي (ϵ ρ σ τ ν)، ويُقال إنه حاول إدخال أحرف جديدة على اللغة السريانية ولكن محاولته باءت بالفشل بعد موته. وربما إليه يُشير بعض المؤرخين العرب بقولهم: والغالب في ظننا أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة /٦٨٨/

سأتناول مدرسة واحدة منها وهي: مدرسة قنسرين، وقد تأسست بحدود سنة /٥٢٠ م/، وأصبحت بعد القرن السابع للميلاد من أهم المراكز الفكرية عند السريان، واستطاع طلابها أن يخوضوا مواضيع مهمة أثرت كثيراً في المسيرة الفكرية التي هي جزء من الحضارة العربية لمنطقتنا.

ومن طلاب هذه المدرسة ساويرا سابوخت، الفيلسوف والعالم الرياضي الذي خاض في كتاباته العلوم الفلكية والطبيعية، فهو من طلاب هذه المدرسة، ثم من أساتذتها، وقد دلت كتاباته على باعه الطويل في العلوم، والفلسفة، والفلك والرياضيات، وهو الذي كتب في الأناطوليقا أي تحليل القياس، وشرح بعض نقاط من كتاب: الفصاحة لأرسطو، وله أيضاً شرح للعبارة، والحساب، والمساحة، والفلك، والموسيقى، ومقالة مهمة في الاضطراب، وفي صور البروج، وفي مسائل فلكية ورياضية، وكرونولوجية، وإلى جانب مؤلفاته تخرج على يديه عدد كبير من التلامذة وبعضهم خدموا الحضارة بعلمهم الواسع، وقد شهد المستشرق الألماني أنطون بومشترك على تفوقه في علم الفلك على اليونانيين أنفسهم ومن أشهر الذين ارتووا من منهله البطريك مار أثناسيوس الثاني البلدي المتوفى سنة ٦٨٦ الذي أخذ عنه

الذي خلقه الله على صورته ووضعه كعالم كبير وعجيب وسط هذا العالم الصغير. وفي الفصل السابع وقبل الحديث عن الديونة فاجأ المسوت مار يعقوب. وقد نشرنا هذا الكتاب في سلسلة التراث السرياني تحت رقم /٤/ باللغة العربية التي تصدر عن دار الرها بحلب /١٩٩٠/.

بعد أن تعرفنا على بعض مدارس السريان ودور الفلسفة اليونانية فيها نشير إلى أن المصنفات اليونانية التي نقلها علماء السريان إلى السريانية يصعب تحديدها، يقول في هذا المجال أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام: «كان في الأديار السريانية شيء كثير لا من الكتب المترجمة في الآداب النصرانية وحدها بل من الكتب المترجمة من مؤلفات أرسطو وجالينوس وأبقراط، لأن هؤلاء كانوا محور الدائرة العلمية في ذلك العصر، وكان السريان نقلت الثقافة اليونانية إلى الإمبراطورية الفارسية». وهذا يعني أن العلماء السريان اهتموا بالفلسفة اليونانية وأدخلوها كمادة مهمة في مدارسهم وصفوة القول: إنهم نقلوا إلى السريانية أمهات الكتب اليونانية في المنطق والفلسفة والطب والرياضيات والفلك وما إليها، مما فاضت به قرائح أفلاطون وأرسطو وبرفيريوس وأبقراط وجالينوس وإقليدس

ميلادية لم يضع النحو والتنقيط من ذات نفسه وإنشائه، وإنما يظن أنه أم بالسريانية أو اتصل بقساوستها وأخبارها فساعده ذلك على وضع ما وضع. ويؤسفنا أن نقول بأنه وضع كتاباً في التاريخ من السنة العشرين لقسطنطين الملك وحتى سنة /٦٩٢ م/، ولكن لم يفضل منه سوى ست وأربعين صفحة. ولو كان في متناول اليد لبقى وثيقة هامة تتحدث عن الفتح الإسلامي لهذه البلاد، سيما وأنه كان شاهد عيان. ومؤلفاته كثيرة وهي تفسيرية للكتاب المقدس ولاهوتية وتاريخية ونحوية وقانونية وفلسفية. وكتاب الأيام الستة يعتبر أعظم كتاباته، ويعد أول محاولة عند السريان لوصف العالم وظواهره الطبيعية في إطار قصة الخليقة بحسب ما ورد في التوراة، يقع في سبعة أبواب وهي: في الخلقة الأولى العقلية وغير الجسدية للقوات السماوية الملائكية، في تكوين السماء والأرض وما فيهما وما معهما، في الأرض الظاهرة بفضل انحسار الماء عنها وظهورها يابسة بأمر الله لسكنى البشر، في الأنوار التي خلقها الله في فلك السماء، في الحيوانات والزحافات التي أمر الله أن تحركها المياه وفي الطيور التي أمر فخلقت هي الأخرى من طبيعة المياه، في البهائم والوحوش وكل زحافات الأرض، في الإنسان

الذي أقامه المهدي بن منصور رئيساً على منجميه، ويختيشوع بن جورجيس الذي جعله الرشيد رئيس الأطباء في بدء خلافته أثر ابنه جبرائيل الذي ذاع أمره، وأبو زكريا يوحنا بن ماسويه الذي ولاه الرشيد نفسه ترجمة الكتب الطبية القديمة، فخدمه ومن بعده إلى أيام المتوكل، وكان معظماً ببغداد، جليل القدر، وله تصانيف جليلة^(٦). ويؤثر عنه أنه فتح أعظم مدرسة في بغداد حيث ازدحم الطلاب على أبوابها.^(٧)

وكان حنين بن اسحق الشهير ممن قرأ عليه. وكان يعقد مجلساً للنظر ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة^(٨). أما سلمويه طبيب المعتصم فقد عادته المعتصم في مرضه ويكى عنده ولما مات امتنع عن الأكل في ذلك اليوم وحضر جنازته^(٩). ويختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل كانت له منزلة لطيفة عنده حتى أضافه^(١٠). وأما البطريرك الحكيم المورخ مار ديونيسيوس التلمحري فقد انتدبه المأمون إلى مهمة سياسية كبرى نظراً إلى مقدرته وسمو منزلته.^(١١)

ومن التراجم السريانيين إلى العربية في هذه الفترة، يوحنا بن البطريق واسطيفان ابن باسيل وقسطا بن لوقا وحنين وابنه اسحق واسطاط وعبد المسيح بن عبد الله

وبطليموس وارشميدس. كما نقلوا العبارات الأدبية والمبادئ الصوفية والحكم السياسية والاجتماعية المأثورة عن رجال الفيثاغورية والأفلاطونية الحديثة، ومؤلفات فيثاغورس وسقراط وبلوترخس، ونصائح الفيلسوفة تيانو، وحكم مناندرس وسكسطس، وأمثال أوزيب (لقمان) وأبولونيوس التياني^(١٢) وكتاب التاريخ لهرفيوريوس^(١٣).

والم يكتف السريان بنقل هذه العلوم الفلسفية إلى اللغة السريانية بل نقلوها إلى العربية فالفيلسوف حبيب أبو رائطة التكريتي / ٨٢٨ م / كان له باع طويل في العلوم الفلسفية والمنطق وتشهد له بذلك مقالاته العربية التي تعتبر من أقدم النصوص العربية لأحد علمائنا السريان ولا غرو فإن العصر العباسي الأول يعد العصر الذهبي للإسلام وقد دام مئة عام من سنة / ١٣٢-٢٣٢ هـ /، وكما يقول محمد لطفي جمعة (وكانت بغداد في ذلك العهد أشبه بباريس في عهد لويس الرابع عشر فكانت قصور الخليفة أهلة بالعلماء والأطباء والسفراء، ومن أشهر الأطباء السريان في أيام العباسيين جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع وتلميذه عيسى بن شهلاثا اللذان خدما المنصور في صدر خلافته عندما اختط بغداد، وتوافيل بن توما ناقل الإلياذة

عنه في بغداد أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني المنطقي^(١٩)، كما قرأ عليه الحكمة الشيخ أبو الخير الحسن بن سوار السرياني المعروف بابن الخمار، وكان من أفاضل المنطقيين، ووصل بالطب إلى أن قبّل له محمود الملك الأرض، وكان الملك محمود عظيماً جداً^(٢٠). وعن ابن الخمار أخذ الفيلسوف الإمام العالم أبو الفرج عبد الله بن الطيب^(٢١)، وأبو الفرج علي بن الحسين بن هندو الذي ضرب في الآداب والعلوم بالسهم الفائزة^(٢٢).

ومن أشهر نقلة الكتب الفلسفية والطبية من السريانية إلى العربية في القرن العاشر، الفلاسفة السريان البغداديون والتكريتيون، أبو زكريا دنحا الجدل النظّار / ٩٢٥ م / ويحيى بن عدي الأنف الذكر، وأبو علي عيسى بن زرعة البغدادى، أحد المتقدمين في علوم المنطق والفلسفة، وأبو الخير الحسن بن الخمار، واسحق بن زرعة^(٢٣).

ابن ناعمة الحمصي وإبراهيم بن بكوس وابنه علي^(١٢).

وأختم كلامي بذكر بعض علماء السريان الذين أصبحوا أساتذة للعلماء العرب فعلى سبيل المثال لا الحصر الراهبان السريان روبييل وبنيامين اللذين تصدرا للتعليم في بغداد حيث قرأ عليهما المنطق بشر بن متى بن يونس^(١٣)، الذي قرأ أيضاً على الطبيب أبي يحيى المروزى السرياني^(١٤)، واليه انتهت رئاسة علماء المنطق في عصره، فجاء أبو نصر الفارابي يدرس عليه الفلسفة، ويتمرس على يد يوحنا بن حيلان بالمنطق، وكلاهما من علماء العصر البارزين^(١٥). فالّم الفارابي بالسريانية^(١٦)، وبرز على أقرانه، وأظهر الغوامض المنطقية في كتب صحيحة العبارة، منبهة على ما أغفله الكندي من صناعة التحليل^(١٧) فقرأ عليه وعلى بشر بن متى يحيى بن عدي التكريتي السرياني نزيل بغداد، الذي انتهت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه، وكان أوحد دهره^(١٨)، أخذ

المراجع المشار إليها في البحث

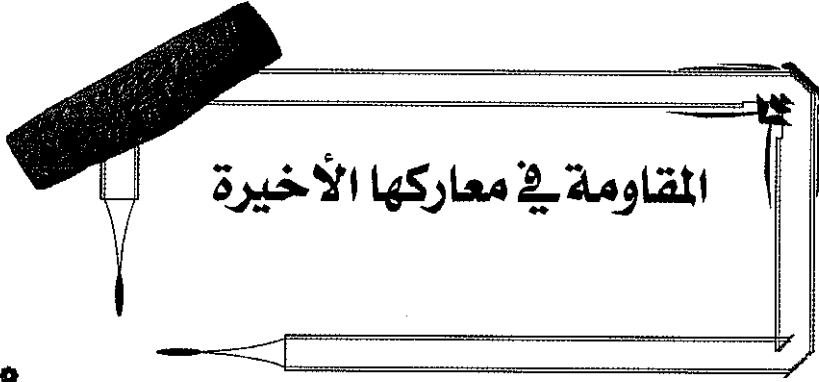
الهوامش والمراجع

- ١- اغناطيوس يعقوب الثالث: البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية، دمشق ١٩٦٩، ص ٩.
- ٢- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، دار الأندلس، ط ٦، / ١٩٨٤، ص ٢٣٨.
- ٣- المفريان ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، طبعة بيروت، / ١٨٩٠، ص ٢٢٦.

- ٤- اللؤلؤ المنثور، ص ١٦٠ و ١٦١ والآداب السامية للإبراشي، ص ٧٠ و ٧٣.
- ٥- الفهرست لابن نديم، ص ٣٤٢.
- ٦- تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٧.
- ٧- فيه ص ٢٢٧ والآداب السريانية تأليف روينس دوفال، ص ٢٧٢ و ٢٨٦.
- ٨- مختصر الدول، ص ٢٢٧ و ٢٥٠.
- ٩- فيه، ص ٢٤٣.
- ١٠- فيه، ص ٢٤٩.
- ١١- التاريخ الكنسي لابن العبري، مج ١، ص ٣٧٣.
- ١٢- الفهرست لابن النديم، ص ٣٤٨-٣٥٢، طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢٤٤، ومختصر الدول، ص ٢٣٩.
- ١٣- اللؤلؤ المنثور، ص ٣٥٦.
- ١٤- الفهرست لابن النديم، ص ٣٦٩.
- ١٥- فيه، وفي مختصر الدول، ص ٢٩٥، ومعالم الفكر العربي للدكتور كمال اليازجي، ص ١٧٨.
- ١٦- معالم الفكر العربي، ص ١٧٨.
- ١٧- طبقات الأمم الصاعد، ص ٨٤، ومختصر الدول، ص ٢٩٦.
- ١٨- الفهرست، ص ٣٦٩، ومختصر الدول، ص ٢٩٧.
- ١٩- طبقات الأطباء، ٢: ٣٢١.
- ٢٠- فيه، ٢: ٣٢١. والفهرست، ص ٣٧٠.
- ٢١- طبقات الأطباء، ٢: ٢٤٠.
- ٢٢- فيه ٢: ٣٢٣.
- ٢٣- طبقات الأطباء، ٢: ٢٢٢. والفهرست، ص ٣٤٩ و ٣٥٠ و ٣٦٩ _ ٣٧٠. ومختصر الدول، ص ٩٣ و ٢٩٧. واللؤلؤ المنثور، ص ٣٥٦ و ٣٥٨ و ٣٥٩ و ٣٦٢ و ٣٦٥.



الدراسات والبحوث



حسن موسى التميمري

أدب المقاومة هو ذلك الأدب الذي يخبو ضرامه، وتخمّد ناره، ويتضاءلُ
صداه أيام الأمن والسلام، والهدوء والاطمئنان، وتشتدُّ ضراوته، وتتأجج ناره
في أوقات الأزمات، وليالي الصراع.. إنه أدب يقوى ويشتدُّ إذا اشتتم رائحة
الدّم، وأصغى إلى صرخات المقاتلين في بؤر المعارك، واستمع إلى أهات القتلى
واستغاثات الجرحى، وأثبات الثكالي.

* باحث في التراث العربي.

العمل الفني، الفنان مطبع علي.

لَكِنَّ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ،
أَوْقَعَ الْقُوَى الْغَازِيَةَ فِي وَرْطَةٍ كَبِيرَةٍ لَمْ تَكُنْ
تَتَوَقَّعُ حُدُوثَهَا، سَقَطَتْ فِي أَوْحَالِهَا، وَلَمْ تَقْدِرْ
عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا حَتَّى الْآنَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ
مُرُورِ أَكْثَرِ مِنْ سَبْعِ سَنَوَاتٍ، جَعَلَتْ زَعَامَةَ
الْغَزْوِ تَتَدَمُّ عَلَى السَّاعَةِ الَّتِي فَكَّرَتْ فِيهَا
بِوُلُوجِ أَرْضِ الْعِرَاقِ الْمُجَاهِدِ... خَاصَّةً بَعْدَ
أَنْ هَبَّ شَعْبُ الْعِرَاقِ بِكَافَّةِ أَطْيَافِهِ، وَمُعْظَمِ
فِئَاتِهِ، فَحَمَلَ السَّلَاحَ ضِدَّ الْغَزَاةِ، وَلَقَّنَهُمُ
الدَّرْسَ تَلَوَ الدَّرْسِ.. وَإِلَى جَانِبِ الْمُقَاوِمِينَ
بِالسَّلَاحِ، قَامَ كَثِيرُونَ مِنْ شُعْرَائِنَا الْعَرَبِ
يَقْضِحُونَ الْغَزَاةَ وَالْمُتَأَمِرِينَ مَعَهُمْ؛ الَّذِينَ
عَبَدُوا الطَّرِيقَ لِلْغَزَاةِ، وَقَتَحُوا أَرْضِي
بِلَادِهِمْ لِقَوَاتِ الْمُغِيرِينَ .

وقد ربطنا شعراؤنا - وحق لهم أن يفعلوا -

رَبَطُوا مَعْرَكَةَ اقْتِحَامِ الْعِرَاقِ بِمَعَارِكِ الْعَرَبِ
وَالْمُسْلِمِينَ التَّارِيخِيَّةِ، وَعَلَى رَأْسِهَا مَعْرَكَةُ
الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ الْأُولَى مَعْرَكَةُ فِلَسْطِينَ..
هَذَا سَمِيرَ عَطِيَّةَ^(١) يَتَلَهَّفُ عَلَى مَا حَلَّ بِبِعْدَادِ
(مَدِينَةِ السَّلَامِ) وَقَدْ اقْتَحَمَتْهَا سَنَابِكُ خَيْلِ
الْمُغِيرِينَ، فَيَتَمَمُّوا نَخِيلَهَا، وَدَنَسُوا دِجَلَّتَهَا،
كَمَا فَعَلُوا مِنْ قَبْلِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ:

وِبِاخْتِصَارٍ شَدِيدٍ لَا يَحْيَا أَدَبَ الْمُقَاوِمَةِ
إِلَّا مَعَ الْحُرُوبِ وَالْمَعَارِكِ وَالصَّرَاعَاتِ..
سِوَا مَا كَانَتْ هَذِهِ الصَّرَاعَاتُ مَعَ عَدُوِّ خَارِجِيٍّ،
اخْتَرَقَ تَغُورَ الْبِلَادِ بِنِيَّةٍ شَرِيْرَةٍ يَبْتَغِي تَدْنِيْسَ
حِمَى الْوَطَنِ، وَنَهَبَ ثَرَوَاتِ الْمُواطِنِينَ.. أَوْ
نَتَجَ هَذَا الصَّرَاعُ عَنْ صِدَامِ نَاتِجٍ، عَنْ فِتْنَةِ
دَاخِلِيَّةٍ بَيْنَ فِئَاتِ دَاخِلِ الْمُجْتَمَعِ الْوَاحِدِ .
وَلَقَدْ ابْتَلَى اللَّهُ الْعَرَبَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي
عَصْرِنَا الْحَاضِرِ؛ فَجَعَلَ بُلْدَانَهُمْ مِيَادِينَ
لِلصَّرَاعِ، وَأَرْضِيهِمْ سَاحَاتٍ لِلْقِتَالِ، وَازْدَادَ
الطَّيْنَ بَلَّةً بِابْتِلَاءِ الْأُمَّةِ بِارْتِبَاطِ كَثِيرٍ مِنَ
الْمُتَّفِذِينَ فِيهَا بِقُوَى خَارِجِيَّةٍ، غَالِبًا مَا
تَكُونُ أَهْدَافُهَا لَيْسَتْ فِي صَالِحِ بِلَادِنَا وَلَا
مُواطِنِينَا.. وَقَدْ تَجَلَّى ذَلِكَ وَاضِحًا جَلِيًّا
فِي مَعْرَكَةِ مِنْ أَوَاخِرِ مَعَارِكِ أُمَّتِنَا الْمُبْتَلَاةِ،
أَعْنِي :

مَعْرَكَةُ احْتِلَالِ الْعِرَاقِ؛ وَقَدْ خَاضَ أَدَبُ
الْمُقَاوِمَةِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةَ بِنَجَاحٍ كَبِيرٍ، وَذَلِكَ مُنْذُ
أَنْ اجْتَاخَتْ قُوَى الشَّرِّ وَالْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ
الْأَمْرِيكِيَّةِ، وَمَنْ يُؤَاذِرُهَا مِنَ الْأُورُوبِيِّينَ
الْغَرِيبِينَ، وَمَنْ سَاهَمَ فِي تَسْهِيلِ دُخُولِهِمْ،
وَفَتْحِ حُدُودِ بِلَادِهِ وَأَرْضِي شَعْبِهِ لِقَوَاتِهِمْ،
مِمَّنْ تَوَاطَأَ وَتَعَاوَنَ مَعَهُمْ مِنْ دَوْلِ الْجَوَارِ.

تَهْضِي عَلَى بَغْدَادَ، صَارَتْ بِالرَّدَى أُخْتِ الْخَلِيلِ
وَالنُّخْلُ بَيْنَ مَيْتَمٍ، وَمَيْتَمٍ بِنْدَى الصَّهِيلِ
كَمْ قُلْتَ: يَا بَغْدَادُ قَوْمِي أَنْ لَيْلَ الْجُرْحِ طَالُ
وَالْيَوْمَ تَكْتَحِلِينَ بِالْبَارُودِ يَا أُمَّ الرِّجَالِ
عُودِي لِثَاقِبَةِ الشُّمُوحِ، وَعَلَمِي الدُّنْيَا الْمُحَالِ
وَلْتَرَسْمِي فَجَرَ الْمَدَائِنِ بِالْإِبَاءِ، وَبِاللَّهَيْبِ
مُدِّي يَدِيكَ لِقَدْسِنَا، تَنْسَابُ فِي يَدِكَ الْقُلُوبِ^(١)
وَجَعَلَ عَبْدُ الْغَنِيِّ التَّمِيمِيُّ^(٢) بَغْدَادَ
دَارَ الْخِلَافَةِ مِيدَانًا يُشَدُّ بِهِ أَهْلُ الْكُفْرِ
(طُقُوسَهُمْ) وَشَبَّهَ هَجَمَتَهُمْ بِهَجْمَةِ الْمَغُولِ،
وَعَدَّدَ مَا حَلَّ (بِبَغْدَادِ الْحِضَارَةِ) مِنْ هَدْمٍ
وَنَسْفٍ وَتَدْمِيرٍ، وَمَا حَلَّ بِشَعْبِهَا الْمُجَاهِدِ مِنْ
قَهْرٍ وَبَطْشٍ وَتَكْيِيلٍ، فَارْجَعَ الْمُحْتَلُّ الْغَاصِبُ
الْحَاقِقُ هَذَا الْبَلَدَ الْمُتَحَضَّرَ الْجَمِيلَ إِلَى
عُصُورٍ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ.. وَانْتَقَدَ مَوَاقِفَ
الإِخْوَانِ الْعَرَبِ الَّذِينَ يُجَيِّشُونَ الْجِيُوشَ
مِنذُ عَشْرَاتِ السَّنِينَ حَفَاطًا عَلَى الْإِنْظِمَةِ،
وَاللِّدْفَاعِ عَنِ (الْكَرَاسِيِّ) وَأَعْدَقُوا عَلَى
هَذِهِ الْجِيُوشِ كَثِيرًا مِنَ الْمَنَحِ وَالْهَبَاتِ لِشِرَاءِ
وَلَائِهَا، وَكَسَبِ وَدَّهَا.. لَكِنَّ هَذِهِ الْجِيُوشَ
يَخْبُو صَوْتُهَا، وَيَخْتْفِي وُجُودُهَا حِينَ يَحْتَاجُ
الْوَطْنَ إِلَيْهَا، وَتَعُودُ لِلظُّهُورِ حِينَ يَكُونُ الْعَدُوُّ
مِنْ قَوْمِنَا، وَمِنْ أبنَاءِ جِلْدَتِنَا، يَظْهَرُونَ
عِنْدئذٍ أَسودًا لِيُوثَّ غَابَ:

دَارُ الْخِلَافَةِ تُسْتَبَاحُ
بِهَا طُقُوسُ الْكُفْرِ تُنْشَدُ
لَا جَيْشُ مُعْتَصِمٍ، هُنَاكَ
وَلَا الرَّشِيدُ، هُنَا تَوَعَّدُ
عَادَ الْمُغُولُ، وَعَادَتِ الْإِلَ
أَضْنَامُ وَالْأَوْثَانُ تُعَبَّدُ
وَيُطَاطِئُ الرَّأْسُ النُّخِيلُ
وَيَرْفَعُ الْهَامَاتُ غَرْقَدًا^(٤)
وَجِيُوشُ أُمَّتِنَا الْأَبِيَّةُ
فِي أَوَانِ الشَّدِّ تَفْقَدُ
أَنْ هَاجَمَ الْأَعْدَاءُ قُطْرًا
فَهَيَّ لِلْجِيرَانِ تُخْشَدُ^(٥)
وَقَالَ خَمِيسُ لُطْفِي^(٦) يُعَيَّبُ عَلَى الْعَرَبِ
مَا فِي وَطَنِهِمْ مِنْ نَفَرَاتٍ، مِنْ أَبْرَزِهَا إِدَارَةَ
ظُهُورِهِمْ لِلْمَعْرَكَةِ فِي الْعِرَاقِ، بَلْ يُعَيَّبُ عَلَى
بَعْضِ الْعَرَبِ مُشَارَكَتَهُمْ فِي ذَبْحِ الْعِرَاقِ
وَتَشْرِيدِ شَعْبِهِ، وَيَدْعُو لِلثَّوْرَةِ عَلَى قَادَةِ
مَهْدُوا لِلغَازِي طَرِيقَهُ، وَشَارَكُوا فِي تَدْمِيرِ
الْعِرَاقِ وَعُرُوبِيَّتِهِ، وَحَضَارَتِهِ:
يَا أَيُّهَا الْوَطَنُ الَّذِي فِي حِضْنِهِ مَلِيُونَ فُغْرَةَ
عِشْنَا طَوِيلًا فَوْقَ أَرْضِكَ عَيْشَةً سَوْدَاءَ مَرَّةً
مَا كُنْتَ فِي يَوْمٍ لَنَا كَأَبٍ، وَلَا زِينًا لِأَسْرَةٍ
مَا كُنْتَ تُطْفَعُ فِي قُلُوبِ أَحْرَقَتْهَا النَّارُ جَمْرَةً
هَذَا عِرَاقُكَ، مِنْ تَرَابِكَ، يَخْلَعُ الْمُحْتَلُّ جَدْرَهُ



والمسجد الأقصى يئن، وفيك لا تهتز شعرة
عشرون منا أوقعوك بغدرهم، في قلب حفرة
عشرون منا بيّعوك ثرايك الغالي، بتمرّة
عشرون منا قشروك، وفي الطريق، رموك قشرة
يا ربّ هذا موطني العربي، أحيّا فيه (مكّرة)
لوفيه ((أيوب)) لأهقده مع الأيام صبرة^(٧)
فاقطع سائلتك يا إله الكون، عن أهليه، شرّة
فجزه، ضدّ أولئك العشرين، بركانا، وثورة
ومن احتلالهم البغيض، اجعل بلاد العرب حرّة^(٨)



معركة الجنوب اللبناني الكبرى:

لعلّ هذه المعركة أبرزُ المعارك التي
اقتحمتها أدبُ المقاومة، وأشعلَ أوارها،
وأذكى لهيبها، لأنها معركةُ المجدِ والخلودِ
التي أحيّت في نفوس العربِ والمسلمين،
الذين طال انتظارهم ليوم يشتمون
منه رائحة الفوزِ والفلاح والنصرِ الذي
أوشكوا أن ينسوا رائحته.. أقامَ المقاومون
بليسان عرسَ بَدَلٍ وفداءٍ، وبنوا للبطلاتِ
مهرجاناتنا ذكرنا بأيام الترموكِ والقادسيّةِ
وعين جالوت.. لقد قاد أبطالُ المقاومةِ في
لبنانِ المعركةَ بنجاح تامّ، وبراعة منقطعة
النظير، جعلت المخلصين من أبناء الأمتين

العربيّة والإسلاميّة يجرؤون - بعد طولِ
هوانٍ - على أن يرقعوا رؤوسهم التي طالما
نكسوها، ويمدّوا بالفخرِ والاعتزازِ أعناقهم
التي طالما أخفضوها.. فسلاماً وألف تحيةٍ
يا أبطال معاركِ الجنوب، وحبّاً وتقديراً
وعرفاناً بالجميل، يا جهابذةَ المقاومةِ على
أرضِ الجنوبِ الحَيرِ المعطاء.
معركةُ الجنوبِ هذه الهبتت مشاعرَ أدباءِ
المقاومةِ في كثيرٍ من بلدانِ العربِ، وأيقظت
أحاسيسَ العزّةِ والفخارِ، بعد أن قارت على
الإنحساء..

المقاومة في معاركها الأخيرة

الذي يَسِيرُ وَحِيدًا فَوْقَ الشَّوْكِ، وَيَعْتَسِفُ
الويلَ وَاللَّيْلَ وَالظُّلَامَ، وَالْآخَرُونَ يَغُطُّونَ فِي
نَوْمٍ عَمِيقٍ.. فَيَمَيِّزُهُ عَنِ اللّاهِيْنَ الْعَابِثِيْنَ،
وَيَرْفَعُهُ فَوْقَ جَبِيْنِ الْبَدْرِ، وَعَلَى مَنَاقِبِ
كَوَاكِبِ الْمَجَرَّةِ :

لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْتَ، تَسِيرُ فَوْقَ الشَّوْكِ، وَالزُّجَاجِ
وَالْإِخْوَةَ الْكِرَامِ نَائِمُونَ فَوْقَ الْبَيْضِ، كَالدُّجَاجِ
وَفِي زَمَانِ الْحَرْبِ، يَهْرَبُونَ، كَالدُّجَاجِ
يَا سَيِّدَ الْجَنُوبِ .

فِي مُدُنِ الْمَلْحِ الَّتِي يَسْكُنُهَا الطَّاعُونَ وَالغُبَارُ
فِي مُدُنِ الْمَوْتِ الَّتِي تَخَافُ أَنْ تَزُورَهَا الْأَمْطَارُ
لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْتَ

تَزْرَعُ فِي حَيَاتِنَا النُّخَيْلَ وَالْأَعْنَابَ وَالْأَقْمَارَ
لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ
فَافْتَحْ لَنَا بَوَابَ النَّهَارِ^(١)

وَمُظْطَفِرُ النُّوَابِ^(٢) أَشَادَ بِقَائِدِ الْمُقَاوِمِينَ
الَّذِي يَنْقَلِبُ خَوْفًا مَن يَسْتَرِبُّ مِنْهُ إِلَى
طُمَأْنِينَةٍ وَأَمَانٍ، وَالْمُوَهَّلُ لِإِتْيَانِ النَّصْرِ عَلَى
يَدَيْهِ، لِأَنَّهُ عَابِدٌ لِلَّهِ، زَاهِدٌ مُخْلِصٌ، نَاصِرٌ
لِلَّهِ.. وَبَشَّرَنَا (النُّوَابِ) بِأَنَّا أَصْبَحْنَا مِنْ
الْقُدْسِ وَحَيْفًا عَلَى مَرْمَى حَجَرٍ:

يَا سَيِّدِي حَسَنٌ
يَا سَيِّدِي... فِي جُبَّتِكَ الْخَوْفُ أَمَانٌ
يَتَلَفَعُ نَصْرُ اللَّهِ إِذَا جَاءَ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ
هَذَا الْفَتْحُ الـ (مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) وَمِنْ (مَارُونَ الرَّاسِ)

مِنْ أَجْمَلِ مَا قَرَأْنَا فِي تَمَجِيدِ مَلْحَمَةِ
الاسْتِشْهَادِ بِجَنُوبِي لِبْنَانِ قَوْلَ الشَّاعِرِ
الْقَدِيرِ عُمَرَ الْفَرَا الَّذِي أُوتِيَ قُدْرَةً رَائِعَةً
عَلَى نَظْمِ الشُّعْرِ الْمَوْزُونِ، وَالزُّجَلِ الشَّعْبِيِّ
الْعَالِي التَّعْبِيرِ :

لَأَنَّ الشَّعْبَ كَانَ هُنَاكَ يَرْفُضُ فِكْرَةَ الْإِذْعَانِ
لَأَنَّ جِرَاحَهُمْ نَزَفَتْ
وَنُخْوَةٌ عَزَمَهُمْ عَزَفَتْ
تَسْيِدَ الْمَجِيدِ لِلْأَوْطَانِ

إِذَا هَبُوا كَأِعْصَارٍ فَلَا يَبْقِي وَلَا يَبْزُرُ
تَهُمُ فِي الْمَوْتِ فَلَسَفَةٌ

فَلَا يَخْشَوْنَهُ أَبَدًا، بِذَا أُمِرُوا
لَأَجْلِ بِلَادِهِمْ رَفَعُوا لَوَاءَ النَّصْرِ.. فَاثْتَصَرُوا
جَنُوبِيُونَ يَعْرِفُهُمْ تَرَابُ الْأَرْضِ
مَلْحُ الْأَرْضِ

عَطْرُ مَنَابِعِ الرِّيْحَانِ
جَنُوبِيُونَ يَعْرِفُهُمْ سَنَاءُ الْبَرْقِ
غَيْثُ الْمَزْنِ

سِخْرُ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ
جَنُوبِيُونَ كَانَ اللَّهُ يَعْرِفُهُمْ
وَكَانَ اللَّهُ قَائِدَهُمْ وَأَمْرَهُمْ
لِنَا كَانُوا بِكُلِّ تَوَاضِعٍ

كَانُوا رِجَالُ اللَّهِ يَوْمَ الْفَتْحِ فِي لِبْنَانِ^(٣)

وَشَارَكَ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ نِزَارَ قَبَّانِي فِي
الْإِبْتِهَاجِ بِانْتِصَارِ الْمُقَاوِمَةِ وَالْإِشَادَةِ بِقَائِدِهَا

المقاومة في معاركها الأخيرة

دَمَهُمْ مِنْ دَمِ قَوْمِهِ، فَالْأَرْحَامُ مُتَدَاخِلَةٌ،
وَالرَّوَابِطُ وَشِجَعَةٌ:

الْمَنَائِيَا حُمُرٌ، فَأَبْطَالٌ مَرْجِعِيُونَ
وَالجَمْرُ وَالظُّبَا أَتْرَابٌ^(١٧)

صُورٌ مِنْ شَهَادَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
حَارَتْ بِفَهْمِهَا الْأَلْبَابُ
هَرُّ مِنْهَا نُمُورٌ مَارِيَنُرِهِمْ أَمْسٍ

فَلَا عَرَوْا أَنْ تَهْرَأَ الْكِلَابُ^(١٨)
وَلَنَا فِي تَلَالٍ جِبْشِيَّتٍ جَرَحَى

دَمَهُمْ مِنْ عُرُوقِنَا يَنْسَابُ^(١٩)
مِحْنٌ، أَنْتُمْ وَنَحْنُ حَمَلْنَاهَا

فَنَاءَتْ بِثَقْلِهَا الرُّقَابُ^(٢٠)
وقال الشاعر جاسم الصَّحِيحِ^(٢١) يَذْكَرُ
بِالْخَيْرِ قَائِدَ الْمَقَاوِمَةِ:

سَلَامًا (أَبَا الْهَادِي) عَلَى قَلْبِكَ الَّذِي
تَنَازَرَ فِي الْوَادِي طُيُورًا وَأَنْهَرًا

تُحَرِّضُ فِي الْمَاءِ الْأَجْنَةَ، زَارِعًا
(فلسطين) فِي الْأَصْلَابِ عَهْدًا مُطَهَّرًا

فَتَنَمُّوْ بَطُونُ الْأَمْهَاتِ بَبِيْعَةٍ
عَلَى الْعَهْدِ تَجْنِيهَا سِلَاحًا وَعَسْكَرًا

وَحَفَّتَكَ مِنْ كُلِّ النَّوَاحِي مَهَابَةٌ
تَنَازَرَ مِنْهَا الْعِزُّ وَرِذَا وَعَنْبَرًا

إِذَا سَقَطَتْ فِي هُوَةِ الْجُوعِ قَرِيْبَةٌ
مَدَدَتْ لَهَا كَفَيْكَ خُبْرًا وَزَعْرًا^(٢٢)

لَا مِنْ عِنْدِ الْأَمْرِيكَانِ

فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ

لَنْ تَبْقَى (حَيْفًا) هَادِئَةٌ بَعْدَ الْآنِ^(٢٣)

وَالشَّاعِرُ أَحْمَدُ مَطْرٌ^(٢٤) جَعَلَ قَائِدَ

الْمَقَاوِمَةِ مُخْتَلِفًا عَمَّنْ وَوَضَعُوا فِي أَعْلَى هَرَمِ
الْقِيَادَةِ فِي وَطَنِنَا، لِذَلِكَ تَجَدُّ لِلْحَيَاةِ بِالْقُرْبِ
مِنْهُ طَعْمًا مُخْتَلِفًا، وَلَوْنًا أَبْيَى، وَشِكْلًا أَبْهَجًا..

قال مطر:

كُلُّ وَقْتٍ، مَا عَدَا لِحَظَّةَ مِيلَادِكَ فِينَا

هُوَ ظِلٌّ لِنِيفَايَاتِ الزَّمَانِ

كُلُّ أَرْضٍ، مَا عَدَا الْأَرْضَ الَّتِي تَمْسِي عَلَيْهَا

هِيَ سَقَطُ مِنْ عُيَارِ الْإِلَامَكَانِ

كُلُّ كَوْنٍ، قَبْلَ أَنْ تَلْبَسَهُ... كَانَ رَمَادًا

كُلُّ لَوْنٍ، قَبْلَ أَنْ تَلْمَسَهُ... كَانَ سَوَادًا

كُلُّ مَعْنَى، قَبْلَ أَنْ تَنْفُخَ فِي مَعْنَاهُ... نَارَ الْعُنْفُوانِ

كَانَ خَيْطًا مِنْ دُخَانٍ

لَمْ يَكُنْ قَبْلَكَ لِلْعِزَّةِ قَلْبٌ

لَمْ يَكُنْ قَبْلَكَ لِلْسُودِّ وَجْهٌ

لَمْ يَكُنْ قَبْلَكَ لِلْمَجْدِ... لِسَانٌ

كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٍ مَا كَانَ شَيْئًا

يَا جَنُوبِي! وَنَا كُنْتَ.. كَانَ^(٢٥)

وَالشَّاعِرُ الْعِرَاقِيُّ مِصْطَفَى جَمَالِ

الدين^(٢٥) يُشِيدُ بِأَبْطَالِ الْمَقَاوِمَةِ الْجَنُوبِيِّينَ،

وَيُنَوِّهُ بِدَمِ الشُّهَدَاءِ مِنَ الْمَقَاوِمِينَ، وَيَجْعَلُ

وقال الشاعر عبد المجيد الموسوي يُشيدُ
بالمقاومة، ويمدحُ قائدها الذي بيّضَ وجوهاً
طلالماً سَوّدها الذُّلُّ والهوانُ، ولقّنَ العدوَّ
دُروساً في الشَّجاعةِ والإقدامِ:

رَفَعْتَ رُووساً لَنَا نَكُسَتْ

وَلَوْلَا إِبْـأُوكَ لَمْ تَرْفَعِ

وَشَرَّفْتَ هَامَا لَنَا هُتَمَتْ

بِفَضْلِ جِهَادِكَ لَمْ تَخْضَعِ

وَبِيَّضْتَ وَجْهًا لَنَا مُظْلِمًا

وَقَدْ ظَلَّ دَهْرًا وَلَمْ يَلْمَعْ

وَحَطَمْتَ جَيْشًا لَهُ صَفَقَتْ

أَكْفُ الْخِيَانَةِ فِي الْمَجْمَعِ

وَسَدَّدْتَ سَهْمًا بِصَدْرِ الْغُرَاةِ

لِيَوْمِكَ هَذَا، وَلَمْ يُنْزِعِ

فَدَتِكَ نُفُوسَ لَنَا أَقْسَمَتْ

بِأَلَّا تَحِيدَ عَنِ الْمَنْبَعِ^(٣١)

وقال الشاعرُ الجزائري عبد الله جدي

الذي شَدَّ على الرِّبْطِ القَوِيِّ بينِ حَالِ

لبنانِ وحالِ فلسطينِ، واستبشَّرَ بالنَّصْرِ يَأْتِي

سَرِيْعًا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، على أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ

المُخْلِصِينَ:

هَذَا فِلَسْطِينِ يَا لِبْنَانَ عَاشِقَةَ

لِلْوَصْلِ، فَاحْتَضِنِ الْأَبْطَالَ بِالْقَبْلِ^(٣٢)

أَبْكِي وَأَطْلُبِ رَبَّ الْكَوْنِ يَنْصُرُنَا

وَالنَّصْرُ يَأْتِي بِلَا خَوْفٍ، وَلَا وَجَلٍ

نَصْرُ قَرِيبٌ وَفَتْحٌ لَا مَثِيلَ لَهُ

(حيفا) على (يَدِ نَصْرِ اللَّهِ) كَالطَّلَلِ

وقال شاعرٌ مِصْرِيٌّ اسْمُهُ (خالد سليم)

يُمَجِّدُ المَقاوِمَةَ التي قَهَرَتِ الخَوْفَ فِي

جنوبي لبنان، وَجَرَعَتِ العَدُوَّ سُمًّا زُعَافًا،

وَكَسَرَتْ شوكتَهُ، وَأَذَلَّتْ عُنُقُوَانَهُ:

لَمْ نَكْزَلْ نَحْنُ اللَّالِي

لَمْ نَكْزَلْ أَهْلَ النَّجَابَةِ

هَاهُمْ أَبْطَالُ حِزِّ

بِاللَّهِ أَشْبَالُ الصَّحَابَةِ

قَهَرُوا الخَوْفَ لِيُوثًا

أَفْقَدُوا البَغْيَ صَوَابَهُ

جَرَعُوا الأَوْغَادَ سُمًّا

أَذْبُوا تِلْكَ العِصَابَةَ

فَاطْلُبُوا الثَّأْرَ شِدَادًا

لَقِّنُوا البَغْيَ حِسَابَهُ

أَرْقَعُوا المَوْتَ شِعَارًا

وَافْتَحُوا لِلنَّصْرِ بَابَهُ^(٣٣)

أمَّا الشاعرُ اللبنانيُّ عَسَّانُ مَطَرٌ فقد

وصفَ المَقاومِينَ فِي جنوبي لبنان بِأنَّهُم

رجالُ اللَّهِ الَّذِينَ يَنْفُذُونَ إِرَادَتَهُ، وَيُحَقِّقُونَ

وَعْدَهُ الصَّادِقَ، وَالَّذِينَ سَيُحَرِّرُونَ الأَرْضَ،

وَيَصُونُونَ العِرْضَ.. فِي قَصيدَةٍ عَنَّتْهَا

المُطْرِبَةُ اللبنانيَّةُ (جوليا بَطْرُسُ):

أجباي: استمعت إلى رسالتكم وفيها العز والإيمان فأنتم مثلما قلتم: رجال الله في الميدان ووعد صادق أنتم، وأنتم نصرنا الآتي وأنتم من جبال الشمس، عاتية على العاتي بكم يتحرر الأسرى، بكم تتحرر الأرض بقبضتكم بغضبتكم، يuvan البيت والعرض⁽³⁾

● ● ●

معركة غزة:

في الأسبوع الأخير من سنة ٢٠٠٨ والأسبوعين الأولين من سنة ٢٠٠٩ وعلى مدى هذه الأسابيع الثلاثة، شنت قوات دولة الغزو والغضب الصهيوني هجمات متتالية ومستمرّة، بالطائرات الحربية، وبالسطح والبر والبحر العسكرية الحربية في الأسبوعين الأولين، ولم تشارك قوات برية خلال هذين الأسبوعين لئلا تتعرض أرواح أبناء إسرائيل للخطر لأن أرواحهم ثمينة، لكنها شاركت في الأسبوع الثالث بعد أن ظنوا أن قواتهم الجوية والبحرية قد خلصت على المقاومين وقضت عليهم وعلى أسلحتهم.. دمر المجرمون الصهاينة كل مبنى له صبغة حكومية، كما دمروا أكثر من خمسة آلاف منزل بحجة أنها منازل للمقاومين من

حماس وغيرها، ولم تنته الأسابيع الثلاثة هذه إلا وقد قُتل أكثر من (١٥٠٠) مواطن معظمهم من الأطفال والنساء، وأصيب أكثر من خمسة آلاف معظمهم من المدنيين. وبعد اثنين وعشرين يوماً انسحبت القوات الصهيونية الغازية مخلّفة دماراً هائلاً وخراباً لم يشهد له التاريخ مثيلاً. وقد استخدمت قوات الغزو والغضب أسلحة محرّمة دولياً (كالفسفور الأبيض) ثم تبادت دولة العدو فأغلقت كل المعابر المحيطة بقطاع غزة، وانقادت مصر (أم الدنيا وأم العرب) لمآرب دولة الغزو فأغلقت معبر رفح (وهو الطريق الوحيد الذي يربط غزة بالأرض العربية) فأعانت الغزاة على خنق المواطنين العرب في غزة، أمام سمع العالم وبصره.. ومن استنكر الحصار من العرب وغيرهم لم يستطع أن يفعل شيئاً إلا الجمجمة والترّة اللتين لم تُفيدا أحداً.. وأمام هذا القهر والجور والظلم الفريد من نوعه نحمد الله أن تجرأ بعض الشعراء، فأشار إلى ما أصاب الأمة في غزة.. هذا أحمد مفلح⁽³⁾ يستنكر حصار غزة ويعيب على بعض العرب مشاركتهم في فرض الحصار على مواطني غزة، ويعجب

وَنَشَرْتَ مَجَلَّةَ الْمَعْرِفَةِ السُّورِيَّةَ فِي عَدَدِهَا
(٥٤٨ في شهر مايو أيار ٢٠٠٩) قَصِيْدَةً
بِعُنْوَانِ (رَأَيْتُ اللَّهَ فِي غَزَّةَ) لِلشَّاعِرِ الْكَبِيرِ
يُوسُفَ الْخَطِيْبِ (٢٨) ذَكَرَ الشَّاعِرُ أَنَّهُ نَظَمَهَا
مُنْذُ زَمَنٍ، لَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَى أَنَّهَا تُنَاسِبُ الْوَاقِعَ
فِي غَزَّةَ الْآنَ... اخْتَرْنَا مِنْهَا قَوْلَهُ:

رَأَيْتُ اللَّهَ يَرْفَعُ مِنْ خِرَائِبِهَا مَنَارَةً كُلَّ بَحَارٍ
وَهَا أَنَا.. فَوْقَ صَدْرِ الْيَمِّ أَمْخَضُ مَوْجَ أَقْدَارِي
وَأَسْأَلُ عَنْكَ يَا غَزَاهُ فِي مَقَلِّ النُّجُومِ، وَتُورِسُ الصَّارِي
وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا بَيْنِي.. وَبَيْنَكَ... أَفْقُ أَسْوَارٍ
وَلَكِنِّي اعْتَلَيْتُ إِلَيْكَ صَهْوَةً هَمَّتِي وَجُنُونٍ إِصْرَارِي
وَأَنْتِ الْبَحْرُ وَالْبَحَارُ وَالْمَرْسَى وَحُمَى الْأَهْلِ وَالذَّارِ
وَمِنْكَ إِلَيْكَ أَسْفَارِي



وَنَحْنُ عَلَى أَرَائِكِنَا نُمَدُّ الْآهَ.. تَلَوْنَا الْآهَ
وَنُحْيِي لِلصَّبَاحِ، وَلَائِمَّ الْعَرَقِ
وَأَنْتِ هُنَاكَ.. يَشْمَخُ فِيكَ وَجْهُ اللَّهِ
وَجُرْحُكَ رِيْشَةُ الشَّقِي
وَأَنْتِ عِنَاقُ أُخِيْلَيْتِي.. وَأَنْتِ قَلَادَةُ الْعُنُقِ
وَتُعْرِكُ حَبَّتَنَا كَرَزٍ.. وَعِطْرُكَ غَابِتًا حَبِيقٍ
وَنَامَ عَلَى يَدَيْكَ الدَّهْرُ.. نَامَ الْبَحْرُ..
وَأَسْتَيْقِظُ فَوْقَ وَسَادَةِ الْأَرْقِ
لَأَنَّكَ أَنْتِ صَقْرُ قَرْنِشِنَا.. وَبِضِيَّةِ الرُّمُقِ

كَيْفَ لَمْ يَمْنَعْ الطُّغَاةُ الْهَوَاءَ الَّذِي يَتَنَفَّسُهُ
أَهْلُ غَزَّةَ ؟ لَا لِشَيْءٍ، إِلَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا: وَيَلُّ
لِلْإِحْتِلَالِ وَمُؤَيَّدِيهِ:

أَمَّا لِجِرَاحِ غَزَّةَ مِنْ طَبِيبٍ
أَمَّا لِجِصَارِهَا ذَا مِنْ مُجِيبٍ ؟
إِذَا أَبْصَرْتَهَا أَبْصَرْتَ وَجْهَهَا
تَشْتَظِي بَيْنَ أَلْسِنَةِ اللَّهَبِ
قَدَائِفُ لَا تَنْظِيرَ لَهَا، تَهَاوَتْ

مِنَ الْفُوسْفُورِ فِي لَوْنِ الْحَلِيبِ
مُعَاهَدَةٌ الْمَعَابِرِ تِلْكَ كُفِّرُ
وَجُلُّ مَرَامِهَا خَنْقُ الشُّعُوبِ
وَلَوْ مَلَكُوا الْهَوَاءَ تَصَادَرُوهُ

وَلَاخْتَجَزُوا الْهَوَاءَ عَنِ الْهُبُوبِ
وَقَالَ (الْمُفْلِحُ) أَيْضًا يَحْكِي أُسْطُورَةَ
الصُّمُودِ فِي غَزَّةَ هَاشِمِ، وَيَعْجَبُ مِنْ ثَبَاتِ
أَهْلِهَا عَلَى الْحَقِّ بِوَجْهِ الطُّغْيَانِ، عَلَى الرَّغْمِ
مِمَّا يَتَّعَرِّضُونَ لَهُ مِنْ حَرْقٍ وَتَدْمِيرٍ :

أَنْتِ يَا أُسْطُورَةَ الْمَجْدِ الَّتِي
شَرَّفَتْنَا بِصُّمُودِ مُنْذِهِلِ (٣)
سَوَفَا تَبْقَيْنَ عَلَى هَامِ الذُّرَا
قَلْعَةَ رَاسِخَةَ كَالْأَزَلِ
أَيُّهَا الطَّاعُونَ لَنْ تُرْهِبَنَا
نَحْنُ أَحْفَادُ صَالِحٍ وَعَلِي
فِي رِيَابِ دَائِمٍ مُتَّصِلِ
مِنْ جِبَالِ الطُّورِ حَتَّى الْكِرْمَلِ

المقاومة في معاركها الأخيرة

يَا تَرْبَ عَزَّةَ حَوْتُ الْقَصْفِ يَبْلَعُنَا
فَيَنْبِتُ الْعِزْمُ صَبَارًا وَيَقْطِينَا (٣١)
أَجْسَادُنَا اللَّهْبُ الْجَبَّارُ، نَقْدِفُهُ
عَلَى الْعَدُوِّ وَتَنْسَى أَوْلَانَا الطَّيْنَا
شَرَاكَ يَا عَزَّةَ الْعَلِيَاءِ سُنْدُسُنَا
فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ بِالنُّعْمَى يُغْطِينَا
لِيَفْعَلُوا كُلَّ مَا أَمَلْتُ ضَعَائِلَهُمْ
فَقَدْ تَمَوْتُ وَلَنْ نَنْسَى فِلَسْطِينَا



إنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ مَعَارِكِ الْمَقَاوِمَةِ
الْأَخِيرَةِ، يُعَدُّ غَيْضًا مِنْ قَيْضٍ، وَقَلِيلًا
مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَهُ أَدَبُ الْمَقَاوِمَةِ
حَوْلَ مَعَارِكِ الْأُمَّةِ.. وَهِيَ كَانَتْ النَّفْسُ تَتَوَقَّعُ
لِلْإِفَاضَةِ وَالِاسْتِرْسَالِ، لِأَنَّ الْمَوْضُوعَ شَاتِقٌ،
وَشَوَاهِدُهُ تَفْتَحُ (النَّفْسِ) عَلَى التَّوَسُّعِ.. لَكِنَّ
وَاقِعَ الْحَالِ يَحْوُلُ دُونَ ذَلِكَ، وَيَدْفَعُ إِلَى
الْإِيجَازِ وَالِاخْتِصَارِ، وَأَرَى أَنَّنَا حَقَّقْنَا لِلنَّفْسِ
شَيْئًا مِنْ رِضَاهَا فِي هَذِهِ الْعُجَالَةِ، رَاجِعِينَ أَنْ
يَكُونَ فِيهَا الْغِنَاءُ وَالْكِفَايَةُ.. وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ
الْقَصْدِ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.

وَمِنْ قَصِيدَةِ الشَّاعِرِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدٍ
عَثْمَانَ نُشِرَتْهَا جَرِيدَةُ الثَّوْرَةِ السُّورِيَّةِ فِي
مُلْحَقِهَا الثَّقَايِفِ (٣٢) بِعِنَاوَانِ (نَشِيدِ النَّصْرِ)
يُشِيدُ بِشُمُوحِ عَزَّةَ وَصُمُودِهَا الَّذِي سَمَّتْ بِهِ
فَوْقَ هَامَةِ الْمَجْدِ:

مُرِّي عَلَى جَبْهَةِ الْعَلِيَاءِ، وَأَنْتَقِلِي
يَا عَزَّةَ الْمَجْدِ، يَا بَوَابَةَ الْأَمَلِ
مُرِّي عَلَى الزَّمَنِ الْمَقْهُورِ، وَاشْتَعِلِي
كَكَوْكَبِ بَضِيَاءِ اللَّهِ مُتَّصِلِ
مُرِّي عَلَى أُمَّةِ أَسْيَافِهَا صَدِئَتْ
وَحَاصِرَتْهَا دِيَاغِي الْجَوْرِ وَالْوَجَلِ
حَتَّى رَأَيْنَا رِجَالَ اللَّهِ قَدْ بَعِثُوا
فِي أَرْضِ عَزَّةَ كَالْبُرْكَانِ فِي الْجَبَلِ
يَا أَهْلَ عَزَّةَ.. وَالطَّاعُوتُ مُنْكَسِرِ
وَمَوْكِبِ النَّصْرِ لِلْأَحْرَارِ يَا جَلِي
كُنْتُمْ أَسْوَدًا وَهِيَ صُنْتُكُمْ عَرَائِكُمْ

يَا قُدُورَةَ الْعَرَبِ.. بَلْ يَا مَضْرِبَ الْمَثَلِ
وَمِنْ قَصِيدَةِ الدُّكْتُورِ جِهَادِ طَاهِرِ
بِكَلْفُونِي نُشِرَتْ فِي مُلْحَقِ جَرِيدَةِ الثَّوْرَةِ (٣٣)
تَحْتَ عِنَاوَانِ (لَنْ نَنْسَى فِلَسْطِينَ) جَاءَ فِيهَا
قَوْلُهُ:

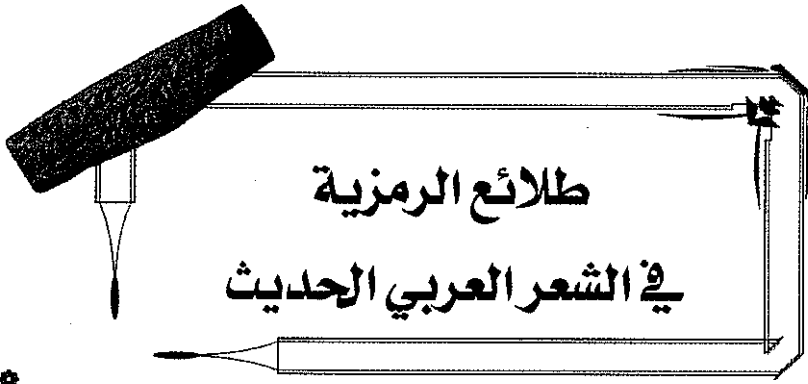
الهوامش

- ١- شاعرٌ فلسطيني أظنُّهُ من الأرض المحتلة، كثيرٌ من شعره ذو صبغةٍ وطنيةٍ قوميةٍ
- ٢- ديوان نزيه الذكريات ص ٨٨
- ٣- شاعر من الخليل بفلسطين من شعراء المقاومة، يعتمدُ أحياناً الأسلوبَ الساخر ليصلَ بالقارئ إلى فكرته .
- ٤- النخيل : يرمز للعرب والمسلمين، والغرقد: يرمز لليهود؛ لأنه من شجرهم (وفي الحديث: لا تقوم الساعة حتى يُقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، فيختبئ اليهودي وراء الشجر والحجر، فينطق الشجر والحجر يقول: يا مُسلم، يا عبد الله! هذا يهودي خلفي تعال إليه، إلا شجر الغرقد فإنه من شجر اليهود).
- ٥- ديوان براءة ص ٤٤.
- ٦- ولد في النصيرات من أسرة مهاجرة من فلسطين، درس الهندسة الإلكترونية في جامعة أوروبية، يعمل في الاتصالات السعودية.
- ٧- إشارة إلى النبي (أيوب) المعروف بصبره، وقوة اجتماعه.
- ٨- ديوان: عُدَّ غداً أيها الملاك ٥١/٤٨.
- ٩- روائع شعر المقاومة / إعداد علي أحمد ١٢/٩.
- ١٠- روائع شعر المقاومة ٣١/٣٠.
- ١١- شاعر عراقي كثير المعارضة، شديد النقد للحكام ولكل ما هو أوجع.
- ١٢- روائع شعر المقاومة ٥٧/٥٦.
- ١٣- ولد في قرية (التنومة) في منطقة البصرة بالعراق، عمل في الكويت بجريدة القبس، ثم نفي إلى لندن.. شاعرٌ مبعُضٌ للحكام، يُداوِم على سبِّهم.
- ١٤- أجمل أشعاره ص ٤٩.
- ١٥- شاعر من مناصري المقاومة.
- ١٦- مرجعيون: قرية من قرى الجنوب اللبناني.
- ١٧- المارينز: قوات أمريكية بحرية، من أقوى قواتهم. لا غرور: لا عجب.
- ١٨- جبشيت: قرية من قرى جنوب لبنان.
- ١٩- روائع شعر المقاومة ص ٨٤.
- ٢٠- شاعر سعودي يناصر المقاومة.

- ٢١- روائع شعر المقاومة ص ٨٦.
- ٢٢- السابق ص ٨٩.
- ٢٣- السابق ٩٢/٩٣ .
- ٢٤- روائع شعر المقاومة ١٧٤/١٧٥ .
- ٢٥- جريدة تشرين السورية (العدد ١٠٤١٢ في ١٠/٢/٢٠٠٩).
- ٢٦- أحمد حسين مفلح، خريج كلية الآداب/قسم اللغة العربية /بجامعة دمشق ١٩٦٤ عمل في التربية فترةً، ويُمارس عملاً حرّاً الآن.
- ٢٧- ديوان (يا عيون الجليل) ٩٠/٩١ .
- ٢٨- من شعراء فلسطين الكبار، مُقيمٌ في القطر العربي السوري، وهو غنيٌّ عن التعريف.
- ٢٩- الملحق رقم ٦٣٢ في ١٠/٢/٢٠٠٩ .
- ٣٠- الملحق رقم ٦٣٧ في ٢٤/٣/٢٠٠٩ .
- ٣١- الصَّبَارُ: تسميَّةٌ شاميَّةٌ، وهي تلك الشجرة الشوكية التي تُعرفُ (بالتين الشوكي) واليقطين: نبتة القَرع التي يُقالُ لها (الدُّبَاء).



الدراسات والبحوث



✽
إسماعيل عامود

إن الشعر «الرمزي» ليس حديثاً في العصر الحديث، وإنما هو من القدم في التاريخ الأدبي، موغلاً في أكثر الآداب عند أكثر الشعوب، وخاصة، في علوم (الميثولوجيا). فالطريقة «الرمزية» في الشعر -حصراً- هي «حركة» بين الإشارة بالشيء والمشابهة به.. والرمزية لم تعرف كـ «مذهب شعري» أو كطريقة تعبيرية أدبية حديثة إلا في أواخر القرن التاسع عشر.. مع أنّ الرمزية قديمة التواشج وجذورها في الأصل موغلة في الزمن عرفتها الإنسانية -كما أسلفنا منذ قليل- إذ هي، مثلاً كانت كلونٍ أو كفنٍ في أغاني

✽ باحث سوري

✽ العمل الفني، الفنان شادي العيسى

التاريخي.. كذلك، المذهب (الواقعي) الذي تأثر بالحركة (العلمية) التي ظهرت في القرن التاسع عشر.. كذلك (البرناسية) التي كانت تعتمد على الوصف والاستعارة والمجاز في مذهبها.. كذلك، (الفن للفن) الذي فقد أبرز صفاته، ولم يُحسن قائله غير التلاعب في الألفاظ.. حتى (المثالي) بات عاجزاً عن أداء رسالته، حيث أمسى الشاعر المثالي فيلسوفاً وشعره أقرب إلى «الموزونات».. فمال الشعراء -أكثر الشعراء- بعدئذٍ، إلى البحث في الشعر، والإبداع فيه، إن لم أقل الجديد الحديث المبتكر.. والتحليق الجديد به، تاركين الشعر الذي كان (أفقياً، زخرفياً، افتراضياً، ذهنياً.. البعيد عن الحياة الراهنة..) إلى فن شعري يتجاوب والقائم في مسيرة الوجود ويُعمده في الصيرورة الكونية إن قريباً أو بعيداً في مداليل (مرمزة) تخفي وراءها معاناة ودلالات عبر ممارسات يوظفها الشاعر لتوحي بمعانيها وأبعادها في الشعور بواقعية وراءها إحساسات إنسانية تدهش.. في مجالها الحيوي، على الأقل.. وتترك في وضعها «التأمل» بسر السحر الشعري -الإشراقي.. ذلك لأن (الشعر، لا يكمن في الغنائية، أو في الطرافة، بل في «الإشراق» لحمته استقزاز الفكر والحساسية الساعيين وراء المطلق..!!

«الإغريق» الوثنية، والكتب المقدسة.. وهنا لا لزوم للشرح المطول والتدليل على هذا المذهب الذي أشبعته الدراسات النقدية، الأدبية تعريفاً وتحليلاً، إذ هد في هنا هو طلائع الرمزية في شعرنا العربي الحديث من الوجهة «التأريخية» و«الدلالية» كمعرفة الشيء بالشيء -إذا صح لي هذا- وهنا، أيضاً لسبب أبغى الكشف عما هو (رمزي) في شعرنا العربي القديم -الموغل في القدم- حيث كشف أحد الكتاب الحديثين /هو: عدنان الذهبي -ابن ذريل- رحمه الله- في مقال له نشرته مجلة (الأديب) لمنشئها الشاعر الأستاذ الرمزي (ألبير أديب -رحمه الله-) في أوائل الأربعينيات في القرن الـ (٢٠) الماضي /.. أن الرمزية عُرِفَت عند (الأوس والخزرج).. ١٩. خاصة..

أما في عصرنا الحديث والمعاصر، فقد ظهرت طلائع الرمزية -كمذهب- منفرد وبارز، بسبب لم يعد في قدرة باقي الطرق التعبيرية الشعرية /حصراً/ أن تؤدي مهمتها على أكمل وأتم صورة.. فالمذهب (الرومانتيكي) وقت ذلك -كان في طريق التلاشي.. في الآداب الغربية، ذلك لأن عودته، بنفسه، إلى الروح الغيبي والرواقي والجبري.. جعلته في (حال) لا تساعده -أي الشعر- على مجارة التطور، تطور الفن

في التبلور أكثر لإيضاح مذهبها العربي الجديد، ثم توضيحه للقارئ العربي، المتلقي، هذا القارئ الذي اعتاد أنماطاً من الشعر تنسحب إلى قرون عديدة متتالية خلت لأعمال «السلف الصالح» من الشعراء (الكلاسيكيين التقليديين - الاتباعيين) والمحددة الأغراض، المقيدة في أفق لم تسمح للشعر فيها لمجالات التجديد بسبب طبيعة البيئة التي نشأ فيها والأرض التي درج فوقها.. والغايات التي كان يهدف إليها.. على حد تصريح (شاعر القطرين خليل مطران) -رحمه الله- انظر مجلة «الرسالة» القاهرية، العدد رقم ٦١٦ -شهر إبريل عام ١٩٤٠م، ذلك لأن شعراء العرب المبرزين كانوا ينسجون على منوال من تقدمهم، ويرسمون خطاهم، ويسيروا على هديهم، فلا يتجاوز عملهم البيئة، ولا يمتد إلى ما وراء الآفاق الواسعة الوليدة في الطبيعة، والوجود الإنساني الصرف -الملم، سوى ما كانت تسبق إليه ميول الشاعر الفنية بين وقت وآخر.١٩ وعبر المصادفة، وإلهام الفطرة -.. وكان أن حدد علماء الأدب الشروط للقصيدة بحيث لا يتعداها الشاعر.. - انظر كتب النقد القديمة المعروفة وخاصة -المقررة رسمياً في الدراسات..-

• إن «الرمزية» العربية، راحت تتسامق

• والرمزية، لا تتعد عن هذا المطلق، وإنما هي منه في حيز الوجود وفي عمق النفس وعالمها في إغناء الروح الباطنية وحركتها في سحر أحلام اليقظة.. فكان للشعر -وخاصة الفرنسي- منه شعراء «رمزيون» كشارل بودلير (٩ إبريل ١٨٢١م - آخر يوم من آب ١٨٦٧م) و(جان ارتور رامبو - ٢٠ تشرين الأول ١٨٥٤م - أول تشرين الثاني ١٨٩١م) و(مالارمييه ١٨٤١ - ١٨٩٨م).

ثم، من بعد هؤلاء.. الذين أسسوا للرمزية، يأتي: فاليري، كلوديل، بروسست، جيروودو، /الرمزيون الحقيقيون.. ومن أكبر كتساب القرن العشرين - ص ١٥٢- الاتجاهات الأدبية الحديثة- سلسلة (زدني علماء- منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط ٢- ر.م البيريس -ترجمة جورج طرييشي عام ١٩٨٢م - ولا ننسى /أندريه جيد/ و/ لافوغ.. وغيرهما.. ٩.

• إلى هنا، وبتكثيف شديد، قرأنا حول «الرمزية» في الشعر الحديث.. ولما كان الشعر يخوض في أنهار هذا «المذهب» في المعرفة السحرية المدهشة في الآداب الغربية، فإنه -عندنا في العربية، اتخذ له طريق الرمزية، هذه المدرسة التي تحركت على الساحة أوائل الأربعينيات من القرن العشرين الفائت، وذلك عبر إثبات الوجود..



عاشق الفن ٢٥٥٥

بدءاً من أربعينيات القرن الفائت.. بل وتنتشر.. حيث هيأ لها بعض الشعراء الجو الملائم لتطلعاتهم الرمزية -خلال (المرحلة) إياها.. لقد كانت غايتها- أي الرمزية- عندنا، التعبير عن الدقائق النفسية للإنسان العربي الجديد، ومعاناته الداخلية لمشاكله الخاصة والعامة.. على حدّ سواء؛ وإن كانت بعض أعمال الرمزيين العرب في بدايات العهد، جاءت غامضة رسيصة كما عند (الشاعر بشر فارس -مصر) مثلاً، إلا أنها كانت ترمي على (إيضاح) مكنوناتها كرسالتها التجديد والابتكار عند (عدنان

هذا المقال (١٩٢٨م -٩) في «التسكع والمطر» ١٩٦٢م. وغير هؤلاء...

• لقد «رمّز» شعراؤنا الجدد، شعرهم، بعدما طالعوه، قبيل عهد النهضة الأدبية العربية من أعمال «الرومانتيكية» في الغرب الأوروبي، الفرنسي، تحديداً (موسيه، لامارتين، ده فيني، هيغو؛ وبايرون وشلي، ووردثورث.. عند الانكليز.. أيضاً، وبوشكين أمير شعراء روسيا وغيره إذ كانت تلك، مهوى الأمل وغاية دنيا (الفن) التي لا غاية خلفها سوى (التقليد) كما هي العادة في كل (بعث) أدبي؟

الذهبي/ ابن ذريل -دمشق) عدنان، الذي هدف من الرمزية إجلاء غوامض النفس في كل شيء احتوته هذه الحياة، التي هي تعانق وضوح وغموض، كما هي عند الشاعر (بديع حقي -٢٦/٦/١٩٢٢، ٢٠٠٠م- دكتوراه، في الحقوق الدولية من فرنسا عام ١٩٥٠/ رحمه الله) سورية، دمشق. و(ألبير أديب) الشاعر الرمزي مؤلف مجموعته الشعرية. الرمزية عنوانها «لمن» ومنتشئ مجلة (الأديب) ١٩٤٢، ١٩٨٢ في بيروت، و(سليمان عواد ١٩٢٢، ١٩٨٣ سلمية) رحمهما الله، وكاتب

طلائع الرمزية في الشعر العربي الحديث

«فرلين» الانطباعي الأبرع، وصاحب «الفن الشعري» قصيدته الرائعة (١٨٨٥)م..

• من، هنا، عرف شعرنا رمزته الحديثة والمعاصرة، فظهرت في سورية قصائد لشعراء مثل: بديع حقي، كمال فوزي الشرابي، عدنان الذهبي -ابن ذُرَيْل، سليمان عواد، وفي لبنان: البير أديب، أمين نخلة، صلاح لبكي، صلاح الأسير، علي محمد شلق؛ يوسف غصوب، ثريا ملحس.. وغيرهم.. وبشر فارس، ومحمود حسن إسماعيل في مصر العربية.. -كما أسلفت-

• لقد كانت الرمزية العربية (محاولة) جريئة، وجادة، وثمررة، ومؤثرة في الإنتاج الشعري المحلي وفي أكثر البلاد العربية / كالجزائر، تونس، مراكش.. وحتى في بلدان الخليج العربي -يضيق المجال لذكر من اعتنق أو كاد، بل أصبحت خطوط الرمزية في أعمال شعراء (المنطقة العربية) وربما في غير الشعراء، من كتاب الأدب /رواية، قصة.. إلخ/ تبرز في أعمالهم المعاصرة -لاشك-

• وبعد: لأبْد لي من تقديم بعض نماذج لرمزيتنا الحديثة كبرهان ساطع وتاريخي لهذه الحركة الجميلة: وهذا (بديع حقي) في مجلة (الصباح -الأدبي في دمشق ١٩٤١- ١٩٤٥؛ التي كانت تصدر أسبوعية على

• لقد انبثق فجر الشعر العربي الحديث -وكانت أوضاع الناطقين بالضاد.. أقرب ما تكون أوضاع بعض بلاد الغرب ك «فرنسا» مثلاً، -إبانَ سيطر عليها أدب «أم العصر»، لذلك استقبل العرب الأدب (الرومانتيكي) بصدرٍ رحب، ولقي منهم محملاً وقبولاً -إذ كانت اللغة الفرنسية مقررة مع اللغة العربية في التربية والتعليم أيام «الانتداب.. كما هو معروف عندنا في سورية ولبنان.. ولأن -من طرف آخر- تجاوزت الرومانتيكية مع طبيعتها المكبوتة -إن صح لي هذا التحديد- لكنَّ الجيل الذي قرأ، موسيه ولامارتسين وهوغو، كما ذكر قبل قليل من هذا المقال، اشرباً بعنقه إلى غير هؤلاء، مثل.. (تولستوي ودينكز وغوته وشلر..) لرومنتيكية جديدة.

• إن هذا الجيل الناشئ.. عندنا.. إذا سمح لي بهذا التحديد -لم يعد (تمرده) بالدموع والأسى والمآسي في الأدب، وخاصة الشعر، بل في الثورة على الأم.. والتمرد.. فطالع «بودلير» وتأثير شعره الذي حُدد / بأبي الرمزية/ الحديثة؛ وغاص برمزية الشاعر -صاحب الأحذية الطائرة- رامبو؛ والذي كسر قلمه منذ ١٨٧٤ أو ١٨٧٦م؛ و«مالارمييه» الذي -كان من بين الذين تلاحقوا وراء الحلم الماورائي.. كما عُرف

وعيني تُسَاهِرُ نَجْمَ السَّمَاءِ
على أفق الجفن جمرٌ يُوجُّ
ودمعٌ غبيٌّ يعجُّ
بأحلام خمرة

وزهره

(الأرق) وهي للشاعر المجدد (بديع حقي) نشرتها له مجلة (الصباح) الدمشقية في عددها رقم (٨٠) الصادر يوم الاثنين في ١٦ آب سنة ١٩٤٢م - ١٥ شعبان ١٣٦٢هـ (٢) والصباح رأس تحريرها وكان صاحبها الأستاذ عبد الغني العطري.
- كما أسلفنا منذ قليل -

• أقول، وأكرر، في هذه الرمزية، التي نقلت شعرنا من (الرتابة) و(الرنين) و(الزخرفية) و(الأفقية) و(الافتراضية) إلى (العمق الشاقولي) بالإذن من المهندسين المعماريين، إلى البُعد الوجداني الباحث، بل الذاهب بمداليه إلى المطلق - المدهش.. واليك هذا النموذج الآخر من شعره هذا الشاعر الرائع الذي يتغلغل مدلول شعره في الطبيعة الساحرة، الأم: فاقراً معي قصيدته (تلوح):

هَرَبَ الظِّلُّ، فَالْتَوَتْ رَعْدَةٌ وانْهَدَتْ
صمْتٌ، وَغَلْغَلَتْ أصدَاءُ

من بياض الثلوج تنثرُ احلا
مُ عروسٍ، وتنثرُ الأفياءُ

شكل «جريدة» ب(٨) صفحات رأس تحريرها وأنفق على إصدارها الكاتب، القاص، الأديب، الأستاذ / عبد الغني العطري، - رحمه الله- وكان في إدارتها، المسؤول عن امتيازها، الأستاذ «علي الغبرا» - رحمه الله- إذ حمل أحد أعداد الصباح هذه القصيدة «المرمزة» تحت عنوان (الأرق):

جفوني

كجنح قصيف

كسكري، كرف الغصون

كطيف يهيم عبر الكهوف

على الهدب ظلٌ يغيّم ويغفو

وأذيال حلمٍ ذبيح

يرف ويهفو

كروحي

وقلبي

يجيشُ بخفِّق

يعدُّ تعلات حبي

فيومي بحبه جفني وعشقي

ألم يتعب الوهم مما رواه؟

ألم تهتك السر: أه؟

ألم يخب حلمي

كنجم

فضائي

سواد، سواد

وهذا الفراش قتاد

طلائع الرمزية في الشعر العربي الحديث

وهذه القصيدة كانت نشرتها مجلة «أصداء» الأسبوعية المحتجة عام ١٩٤٥ -وقد حملتها مجموعة الشاعر (سحر) منشورات مجلة الأديب بيروت -مطبعة دار الأحد عام ١٩٥٣ مع مقدمة للشاعر حقي / في فنّ / الشعر.. وإليك هذا النموذج للشاعر الرقيق /أنور الجندي، سلمية (١٩١٧- ٤ آذار ٢٠٠١م):

«يا فوز، يا أغرودة الطائر

يا همسة الآمال للحائر

ويا منى رجراجة ذقتها

في خلوة من حزني الثائر

رفقت على جضي معسولة

كأنها من عهدك الغامر

كأنها يا فوز اغشاءة

سحرية من طرفك الساحر..

يا فوز يا حلماً شهّي الخطي

لم ينتقض للموجع العائر

دنياك من نور تهاويله

وحي ندي اللمح في خاطري،

(مجلة «أصداء» دمشق عام ١٩٤٥)

وثمة أكثر من قصيدة لهذا الشاعر الرقيق أنور الجندي نشرت في مجلات راقية ومرموقة -كانت واحتجت- منها «الأديب» و«المكشوف» و«المعرفان» في لبنان.. فيها -أي القصائد- مخايل الرمزية الحديثة،

الفرشات، أنسيت عهدا الأ
بيض، فانهأت دمة خرساء
حطمت منها أجنحاً فتهاوت
وتلاشى نثيرها المعطاء..



نصّلت من اكليها البكر ألوا
ن، وغامت في بُردها الأضواء
شاقها قطفُ ياسمين تلوّى
ودعتها تَعْلَةُ بيضاء
نَشَرَتْ فرعها المهضفَ فارتدّت
بريقٌ وهومتُ أنداء..

في بياض العيون غابت ثلوج
وتهادى، في زرقتيها الضياء
والجبين النقي.. أصفى من الحلم
وأحلى إن جاذبته السماء



وترامت ضفيرة ضحك الشيب
وجنّت في فرقها، خيلاء
خصلة، خصلة تهاوت بعيداً
والتفتها أنامل سمرأ

نَسَجَتْ من شعورها البيض أكفا
نأ، فاهوت خيوطها الظلماء
من بياض الثلوج تنثر أحلا
م عروسٍ وتنثر الأفياء،

حدَا السامرُ العبقري

بلحنِ رغيدِ طربي

ثلاثِ عذارى

ملاحِ سكارى

فثمة زنجية تتكي

على رفرِفٍ من سنى الليلكى

وتسهو بحضنِ الشرودِ الخفى

ألا هي حورُ

ونجوى عصورُ

تضوحُ من الأملِ المترِفِ

وكان انقلاتِ بظلِّ

القمر

وكانت صلاحه

وكان سَمَرُ

هذا التشكيل المهندس الجميل المنشور
يُوم ١٤/١٢/١٩٤٢ لفت نظر القارئ في
شيء من «الدهشة» ولكنه لم يستغرب، أو
لم يكن كذلك، وإنما بحكم ثقافته الناهضة
وشوقه إلى الجديد من التعبير/ القولي/
للشعر مثلاً، راح يضطلع على ما هو قادم،
حيث كان قد قرأ للشاعر الرمزي «البيير
أديب» في شعره النثري- قصيدة النثر
الطلقة/ أو المطلقة وفق تسميتها الجديدة
من قبل الدكتور القاص، الناقد الأستاذ
«دريد يحيى الخواجه -حمص- مؤلف كتاب
(الصفة والمسافة) دراسات في الشعر العربي

أليس في هذا «البيت الشعري» وهو من
قصيدة كانت قد نشرتها مجلة (النواعير)
الشهرية التي كانت تصدر في مدينة (حمّاه)
في عددها -الجزء السادس/ آذار- ١٩٤٥-
ربيع الأنوار ١٣٦٤هـ... ص ١٣- لأنور الجندي
هو - أي البيت:

«وللمتعِ الشقراء وهجٌ مفوّفٌ

تثائبٌ محموداً على متعِ شقْرِ..

ومطلعِ القصيدة - هو:

بعينيكِ من دنيا شبابي بقية

منورة الأحلام، ناعمة العطر..

أهددها والليل حيران تائه

وهينمة اللذات تجهش في ثغري

إنها - الأبيات هذه - أليس فيها ملامح

رمزية شفافة في رومانسية جديدة؟ أما

رمزية الشاعر كمال فوزي الشرايبي، وهو

بدأ مع جيل أنور الجندي في مجلة «الصباح»

الدمشقية (١٩٤١- ١٩٤٢) سنوات المجلة

هذه، فإن لكمال فوزي أكثر من قصيدة

جديدة في مجال هذا المذهب الطالع الجديد

أثبت منها هذه القطعة الجميلة الشفافة

الموحية لأن الرمز إحياء كما يدلون عليه؛

يكتب كمال فوزي وتشر له «الصباح»

العذارى

على نبتة الأنجم

وفي زرقة المنحنى الملهم

كمن وُجد فجأة حيث لا يريد أن يكون
 ..ثم أُجبر أن يريد ما كان
 فإذا تلاقت روحان
 وفهمت كلتاهما معنى التلاشي والاضمحلال
 الواحدة في الأخرى..
 كان الخلق والإبداع
 كان الأزل والأبد..
 لا تسأل بنفسجة كيف نبتت؟
 كم عاشت؟
 إنما تقول البنفسجة:
 أنا نديّة، بللني الفجر
 ولندي الفجر على أوراق البنفسج
 ألف لون، في ألف نغم
 في ألف معنى
 لا تدرکه غير فراشات الفجر
 الضامئة إلى اكسير النشوة الكبرى..
 التي فيها مسحة من تلك العريدة العبقرية
 التي هي الله..
 لتمرّ يدك على جبيني المتعب في حنان
 ولتطبع شفتاك عليه إشراقة الإيمان بالأم
 الإيمان بي
 الإيمان بك
 الإيمان بواحد:
 هو أنت وأنا
 * * *

السوري، منشورات اتحاد الكتاب العرب في
 دمشق عام ١٩٨١م.
 وإليك أنموذج البير أديب (١٩٠٨-١٩٨٣)
 رحمه الله):

توحد

إلى التي قالت:
 من منا الذي اقتحم الصومعة على الآخر:
 لم يقتحم أحدنا الصومعة على الآخر
 كنت في صومعتك تنتظرين
 وكنت في صومعتي أنتظر
 .. كثيرون هم الذين مرّوا بنا ولم يطرقوا الباب
 وكثيرون هم الذين طرّقوا الباب ولم يدخلوا
 وكثيرون هم الذين دخلوا، ولم يجدوا أحداً فخرجوا
 ذلك أنني كنتُ حقاً بحاجة إلى يوم..
 تخرجين فيه من صومعتك
 وتأتين فيه إلى صومعتي..
 ..وعندها فقط أصبحت الصومعة واحدة
 ..إن الذي يأخذ يهب
 ولا يهب من لا يأخذ
 والذي أصبح في الواحة بعد طول التيه
 لا يقوى على العطش..
 لا يقوى على الحرمان..
 أريد أن تعي روح معنى الكلمة..
 التي لم ألهب بها بعد شفتي
 أعيش في غربة..

حيث قفز الشعر إلى آفاق من الحيوية، واستفزاز الأفكار عَبَّرَ شفافية محببة عند بعض الشعراء.. وعند البعض الآخر منهم غاب في جنباتها بضباب رافل في البكور المنداة.. ١٩.

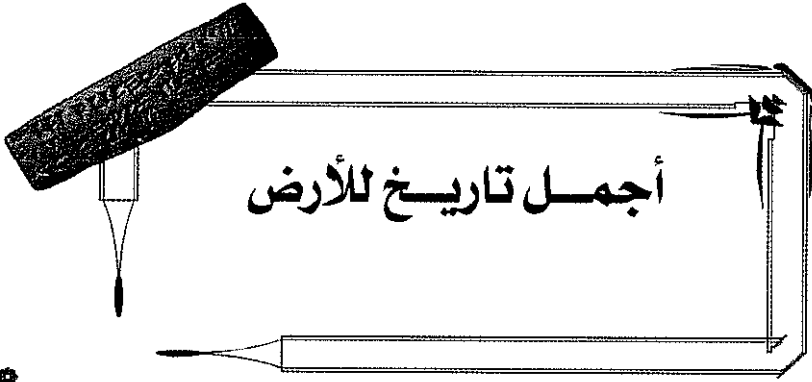
كما قرأ للشاعر «علي الناصر» حلب عَبَّرَ الثلاثينيات، و«ثابت مدلجي»- المحامي، حلب في الأربعينيات، و«عدنان ابن ذريل- دمشق» أيضاً.. ثم دخلت الرمزية في أعمال أكثر الشعراء في سورية ولبنان،

المراجع

- ١- مجلة «أصداء» أدبية أسبوعية صدرت في دمشق عام ١٩٤٥ وتوقفت، رأس تحريرها وأنفق عليها الدكتور في العلوم من ألمانيا الأستاذ «شكيب الجابري»، حلب، مؤلف روايات «نَهْم» و«قدر يلهو» و«قوس قزح» و«وداعاً يا أفاميا».. صاحب الامتياز لاصداء الأستاذ «علي الغبرا».
- ٢- مجلة «الصباح» الدمشقية ١٩٤١-١٩٤٤ رأس تحريرها وأنفق عليها الأستاذ عبد الغني العطري، المدير المسؤول علي الغبرا.
- ٣- مجلة «الفكر» الشهرية الدمشقية عدد شهر إبريل عام ١٩٤٦ مقال الأستاذ نسيم الاختيار حول /عالم بودلير/ والمجلة كانت تصدر عن نادي الشبيبة الكاثوليكية، رأس تحريرها الأستاذ خليل جمعة الطوال، والمدير المسؤول الدكتور حنين سياج؛
- ٤- مجلة «الثقافة الأسبوعية» دمشق العدد ١٧/٥/١٩٨٠- إسماعيل عامود.



الدراسات والبحوث



❁ موسى ديب الخوري

على هبأة كونية صغيرة، اجتذبها نجم لا يتميز عن غيره من النجوم الواقعة على الأطراف الشاسعة لمجرة عادية، ظهرت الحياة النادرة والهشة على حد سواء. وقد حوّلت الحياة الأرض إلى عالم خارق ومعجز. هل كوكبنا وحيد من نوعه؟ بالنسبة لنا، نعم هو وحيد. وسيظل كذلك لفترة طويلة. ذلك لأننا وحيدون في المجموعة الشمسية. هذا ما بات العلماء على يقين منه. أما خارج المجموعة الشمسية فتوجد كواكب أخرى، حول نجوم أخرى، إنما بعيدة جداً إلى درجة أنه لا يمكن تصوّر أي اتصال معها.

❁ باحث وتائب رئيس الجمعية السورية للعلوم - سورية.

❁ العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

أجمل تاريخ للأرض

جداً، وتصرف الكثير من الطاقة. وهي تصنع بالتتالي الفحم والأزوت والأكسجين والألمنيوم والسيليسيوم والكبريت والكلور.. وصولاً إلى الحديد. لكن ذلك لا يدوم طويلاً، فهي لا تحيا إلا بضعة عشرات من ملايين السنين، قبل أن تتفجر مقدمة لنا مشهداً رائعاً من الألعاب النارية، وهذا ما نسميه سوبرنوففا supernova أو مستعر فائق. وتُذف العناصر المصنَّعة بسرعات أعلى من سرعة الصوت في الكون. ولن يبقى كبقية من هذه الحياة المفعمة سوى الجزء المركزي الكثيف جداً على شكل ثقب أسود أو نجم نوتروني.

وهكذا فقد ولدنا في الوقت نفسه مع الشمس، لكننا لم نأت من الشمس. فالأرض ليست قطعة انفصلت عن الشمس وابتعدت، كما اعتقد بعضهم لمدة قرنين من الزمن. لقد جاء الاثنان من الشرنقة نفسها. لكن الكواكب نتجت عن محيط السديم، وهو الجزء الأقل حرارة.

هناك بشكل أولي طريقتان لتصنيع كوكب: إما من خلال انكماش جسم أضخم، بما يشبه بعض الشيء انهيار نجم؛ أو من خلال تجمّع قطع متناثرة. ويبدو أن الطريقة الثانية هي المفضلة فعلاً في حالة الأرض. وفي الواقع، لكي ينهار جزء من

إن تاريخ كوكبنا يضعنا أمام مسؤولية مستقبل الحياة على هذا الكوكب. ربما لسنا وحيدين في هذا الكون، لكن أحداً لن يتحمل عنا مسؤولية خيارنا على هذا الكوكب.

المشهد الأول

بعد نحو ١٠ مليارات سنة من ولادة الكون انهارت سحابة على نفسها، وولد نجم يحيط به قرص من الجسيمات التي التصقت ببعضها بعضاً، من فرط تصادمها، لتشكل تسعة كواكب. وبين هذه الكواكب كان واحد.. مميز هو الأرض.

بدأت القصة بحمل طويل جداً. فقد لزم في البداية تصنيع الذرات التي تشكل الأرض حتى يمكن أن تولد. وقد تطلّب ذلك نحو عشرة مليارات سنة. لكن الذرات الثقيلة لم تكن قد ولدت بعد، وكانت النجوم هي التي تابعت تصنيع الذرات. وهناك في الواقع نوعان من النجوم: النجوم الأبنية والنجوم الكريمة. والنوع الأول، مثل الشمس، يوقف عملية التصنيع بعد الفحم. فكتلة النجم تكون أقل بمرّة ونصف من كتلة الشمس؛ وهذه النجوم تصرف القليل وتعيش بخيلة وتحيا طويلاً. مليارات السنين. ويبقى ناتج تصنيعها في قلبها عندما تنهي حياتها على شكل بقية نجم في طريقه للابتراد. أما نجوم النوع الثاني فتحيا ببذخ، وهي لامعة

أجمل تاريخ للأرض

الصدمة عنيفة. لنسم هذا اللقاء طلاقاً. ولكنها كانت تتلاصق عندما تكون الصدمة لطيفة. ونسمي ذلك بالزواج. ومن هذا التوالي من الزيجات وحالات الطلاق تم المرور من أجسام صغيرة بقطر مئات الأمتار إلى أجنة كواكب يمكن أن يصل حجمها إلى ١٠٠٠ كيلومتر. وشكلت التصادمات فيما بعد بين هذه الأجنة كواكب مثل الأرض.

وهكذا، خلال أقل من ١٠٠٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠٠ سنة تم الانتقال من قرص غازي إلى الكواكب التي نعرفها، وهي فترة قصير جداً بالنسبة لأربعة مليارات سنة ونصف من عمر المجموعة الشمسية. ويمكننا بالتالي أن نعتبر أن الأرض معاصرة للشمس.

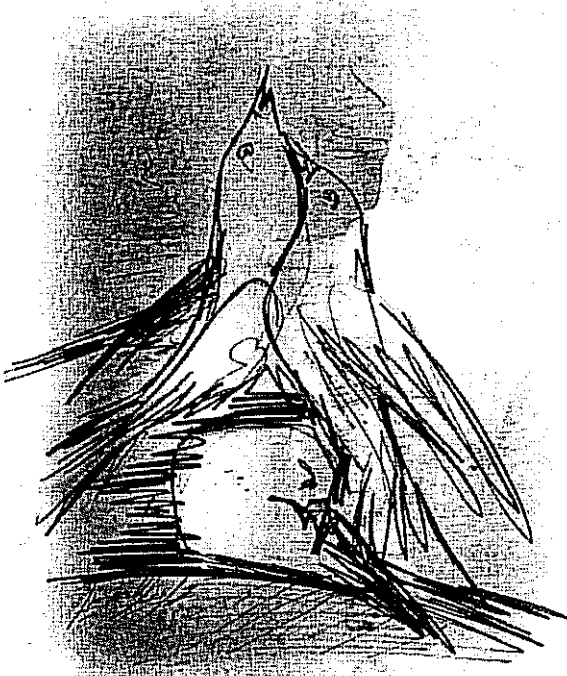
إن مليارات الاصطدامات المتبادلة قادت إلى منظومة كواكب تدور كلها في المستوى نفسه، وعلى مسارات شبه دائرية. وفي الواقع، إنما بفضلها بلغت المنظومة الشمسية التي كانت شواشية في البداية حالة فائقة التنظيم.

كانت الأرض تبدو مثل جحيم! فسطح الأرض الذي كانت درجة حرارته تصل إلى آلاف الدرجات كان مغطى بالحلم. لكن صيرورة هامة جداً بدأت تتحقق: التمايز الذي كان بالتأكيد أحد أهم الأحداث في تاريخ كوكبنا. فالتمايز هو أصل تشكل النواة

القرص البدئي على نفسه وينكمش مباشرة إلى كوكب يجب أن يكون غير مستقر، ولم يكن الحال كذلك بسبب وجود الشمس.

عندما انتهت الشمس من الانكماش أصبحت أقل ضياء بشكل واضح... وذلك ببساطة لأن الانهيار الثقالي لنجم يحرق من الطاقة أكثر بكثير مما تطلقه التفاعلات الحرارية النووية. لكنه يدوم فترة أقل بكثير. وهذا يعني أن القرص المؤلف من الغاز والغبار، والذي كان حاراً جداً في البداية، بدأ يبرد هو أيضاً. وعندها ظهرت حبيبات صغيرة يمكن أن يصل حجمها إلى بضعة مليمترات. وكان تركيبها يتعلق بالتأكد بدرجة الحرارة، أي ببعدها عن الشمس.

لكن تراكم هذه الحبيبات لم يؤدي إلى تشكيل الكواكب مباشرة. فولادة الكواكب بهذه الطريقة كان سيتطلب زمناً أطول من عمر الكون. لقد تدخلت صيرورات عديدة للوصول إلى ولادة الأرض. فقد ظهرت لا استقراريات محلية أو دوامات بقطر بضعة مئات من الأمتار. وكانت تتجمع الحبيبات عند كل لا استقرارية لتشكل أجساماً صغيرة بقطر ٥٠٠ متر إلى ١ كيلومتر. ونسمي هذه الأجسام، وهي أسلافنا، الكويكبات الصغيرة. كانت الأجسام الصغيرة تتصادم خلال دوراتها. وكانت تتجزأ عندما تكون



والمعطف والقشرة الأرضية، مما سمح للبراكين والمحيطات والقارات والمشاهد التي نعرفها اليوم والغلاف الجوي بالظهور. ففي هذه الأرض المنصهرة كانت العناصر الأثقل، مثل الحديد والنيكل، تسقط باتجاه المركز لتشكل نواة كثيفة جداً. وعلى العكس، كانت العناصر الأخف، مثل الأكسجين والسيليسيوم والألمنيوم والكالسيوم والبوتاسيوم أو الكبريت، تصعد باتجاه السطح وتشكل قشرة رقيقة تعوم على المعطف. كان كل شيء يجري كما في حالة

صلصلة الخل: فلو انتظرنا وقتاً طويلاً كافيّاً فإن الخل الأكثر كثافة سيسقط شيئاً فشيئاً إلى القاع، في حين سيعوم الزيت على السطح.

كانت المركبات الأساسية التي تشكلت منها الأرض: أولاً الحديد، ويشكّل ٣٥٪ من الكوكب. ثم الأكسجين، ٣٠٪. ثم السيليسيوم ١٥٪، والمغنيزيوم ١٢٪، والنيكل ٤٪. يأتي بعد ذلك الكبريت والكالسيوم والألمنيوم، وكل منها أقل من ٢٪. في حين يمثل الباقي كله أقل من ١٪.

أما الغلاف الجوي فكان على الأرض أن تصنّعه هي بنفسها. فقد حمل تحرر الغازات عبر صخور القشرة كما والنشاط البركاني المركبات الغازية الأساسية إلى الغلاف الجوي.

إن الكواكب العملاقة كبيرة الكتلة لأنها أسرت الهيدروجين والهليوم البدئيين. فبسبب بعدها عن الشمس، وفي البرودة، بقيت غازات السديم البدئي موجودة بعد اللحظات الأولى. أما قرب الشمس فكانت درجة الحرارة عالية، وقد تبخّرت العناصر الأخف حتى قبل تشكّل الكواكب. كانت

أجمل تاريخ للأرض

ويلعب القمر والمد والجزر دوراً أساسياً في ذلك. فبدون القمر ما كانت الأرض لتكون على ما هي عليه، وربما ما كنا نحن أنفسنا لنوجد: فالقمر لعب على الأرجح دوراً أساسياً في تاريخ الحياة. وتشكله معاصر لتشكل الأرض: إننا نعرف ذلك منذ رحلات أبولو Apollo.

إن دوران الأرض يتباطأ باستمرار. فالقمر يبتعد بشكل حتمي عنا. وأثار المد والجزر الناتجة عن الشمس والقمر عملت دائماً على كبح دوران الأرض. إن أثر المد والجزر لا يُحدّ بشاطئ البحر فبسبب تنوع أشكال السواحل يكون مشهد المد والجزر مختلفاً. لكن نقاط الكوكب الأرضي كافة، أكان في الداخل أو على المحيط، يتم جذبها من قبل القمر. وبشكل أعم، فإن الأجرام كافة تشوّه بعضها بعضاً عندما تكون قريبة أحدها من الآخر. ويغير فقدان الطاقة الذي يرجع إلى هذا التشوّه من سرعتي الجرمين الدورانية والمسارية. وبما أن الجذب يتعلق بالمسافة وأن نقاط الكوكب كافة تقع على مسافات مختلفة من القمر، فإنها تولّد جذباً مختلفاً. وهكذا فقد تشوّهت الأرض.

والحقيقة أن الأرض تتشوّه في كل مكان. إن تشويه جسم مثل الأرض يستهلك الكثير من الطاقة. وفي نهاية المطاف تكون سرعة الدوران قد استنفذت.

الأرض والزهرة والمريخ وعطارد قد تشكلت من وسط محروم من الهيدروجين والهليوم، أي إنها ولدت من البقايا بعد أن كان ٩٩٪ من المواد قد تبخّر. ولهذا السبب نجد أن الكواكب الداخلية صغيرة إلى هذا الحد. وهي ليس لها حلقات، ولا نظام متكامل من الأقمار، ولا هيدروجين ولا هليوم. إنها بقايا ومخلفات، لكننا نحب كثيراً كتلة البقايا هذه التي نحيا عليها اليوم.

كم استغرقت ولادة الأرض هذه؟ بين اللحظة التي بدأ فيها السديم البدئي بالانكماش واللحظة التي تكثّلت فيها الأرض مرّاً أقل من مئة مليون سنة. وكانت مغامرة الأرض على وشك أن تتطلق.

المشهد الثاني

في بداية حياتها كانت الأرض تدور بسرعة أعلى بكثير مما هي عليه الآن. ولم يكن اليوم يدوم سوى نحو عشر ساعات. كانت هذه السرعة الابتدائية ناجمة عن الاصطدامات كافة بين الكويكبات الأولية. ومنذ ٢٠٠ مليون سنة فقط، كانت السنة لا تزال تشتمل على ٤٠٠ يوم حيث كان طول اليوم أقل بقليل من ٢٢ ساعة. وحالياً يزداد طول اليوم بمقدار ٠،٠٠٢ ثانية في القرن. وهذا يعني أننا نستيقظ في كل يوم متأخرين بعض الشيء عن اليوم السابق.

أجمل تاريخ للأرض

تأريخها، لأنها تحتوي على اليورانيوم المشع الذي يتحلل ببطء شديد. وبعضها عظيم القدم: فقد جمعنا منها من أستراليا ما عمره ٤,٢ مليار سنة. وعند تحليل محتواها الجيوكيميائي اكتشف العلماء أنها بعد تشكلها انتقلت عبر وسط مائي، ثم عادت فغمرت في أعماق الأرض، قبل أن تعود من جديد إلى السطح. وهذا يعني أنه كان يوجد بالتالي محيط مائي قبل أقل من ٣٠٠ مليون سنة من ولادة الكوكب، والذي حفظ الزيركون علامته بعد عملية تغير إضافية في المعطف الأرضي: وهذه العلامة هي عبارة عن النسبة بين شكلين خاصين من الأكسجين.

لا شك أن هذا المحيط الأول كان يغطي معظم سطح الأرض: فالقارات الكبيرة تشكلت خلال فترة متأخرة من هذه القصة. أما الماء، فقسم كبير منه كان مصدره من الداخل بشكل واضح. فانطلاق الغازات من الكوكب كان يطلق كمية هائلة من بخار الماء إلى الغلاف الجوي. ولكن كان هناك العديد أيضاً من المذنبات، وهي عبارة عن كرات من الجليد، وكانت هذه المذنبات تمطر في ذلك الوقت على طبقة الستراتوسفير. لكنها كانت تذوب بسرعة حتى قبل أن تصل إلى المحيط الذي كان في الأصل حاراً جداً. ثم

لكن هل يعني ذلك أن الأرض ستكف يوماً عن الدوران؟ يقول العلماء إن الجواب هو لا. فتشوه الكرة الأرضية ليس أمراً أنياً. فما أن أخذت الأرض شكلاً بيضياً حتى كانت تدور، وكان محور كرة الركبي هذه منحرفاً بشكل طفيف بالنسبة للقمر. وقد تم قياس هذا الانحراف وهو نحو ٣ درجات. وهذا الانحراف هو الذي يبسط الأرض. وعندما يتقلص دور دوران الأرض حول نفسها إلى حد أن يصبح مساوياً لدور دوران القمر حول الأرض، أي عندما يصبح اليوم مساوياً للشهر، فإن تناغماً معيناً يتحقق: وعندها لا يعود هناك تباطؤ. وعندها ستعطي الأرض الوجه نفسه دائماً للقمر. فنصف الأرض سوف يرى باستمرار القمر، في حين أن النصف الآخر من الأرض لن يراه أبداً.

المشهد الثالث

لقد ولدت الأرض إذن منذ ٤,٥ مليار سنة. فمتى ظهر البحر؟ لا شك أن المحيط ظهر بسرعة كبيرة. نعرف ذلك بفضل الزيركون، وهو عبارة عن بلورات تكاد لا تكون قابلة للتدمير ويستخدمها الصائغون كمادة بديلة عن الألماس. ويتميز الزيركون بخاصية النمو عبر طبقات متتالية، مثل البصل، ولكننا نجد في قلب هذه المعادن ذاكرة بدايات تبلورها. ويعرف العلماء كيفية

أجمل تاريخ للأرض

أي خفيف، يصعد؛ وما هو بارد، أي أكثر، ينزل. ففي الغلاف الجوي، عندما ترون في سماء يوم صيف ذي عاصفة صعود ركاب مكفهر، فإن ما ترونه هو هواء حار ورطب، أخف من الهواء البارد المحيط به، وهو سوف يفتح وينمو على الارتفاعات العالية بما يشبه قليلاً الفطر. إنها ظاهرة معروفة في السوائل كافة، وهذا ما نسميه بالحمل الحراري.

لكن هذا لا يعني أن الزيرجد الجميل سائل. فعندما نفوس لا نجد سائلاً حقيقياً سوى في الجزء الخارجي من النواة المولفة من الحديد والنيكل في حالة انصهار. أما في مركز الأرض تماماً فإن النواة صلبة: فقد تبلور الحديد على الرغم من الحرارة الكبيرة بسبب الضغط الهائل. أما المعطف فليس بصلب ولا بسائل؛ بل هو رخو. فيمكنه أن يسيل ببطء، بما يشبه قليلاً الحديد المحمى الأحمر. وهذه المادة لا تنفك تُمزج وتخلط بوساطة حركات الحمل الحراري.

وهكذا فإن المادة الحارة تصعد، وتبرد، وتعود فتهدأ وتتسكن فتصعد. إنها آلة حرارية. وكانت هذه الآلة نشطة جداً خلال الفترة التي نتحدث عنها، أي بعد نحو ٢٠٠ مليون سنة من ولادة الكوكب: فيما أن درجات الحرارة كانت جهنمية فقد كانت حركات وآليات الحمل نشطة جداً.

تبرد المحيط شيئاً فشيئاً على مدى مئات ملايين السنين التالية.

أما تحت المحيط فكانت تتشكل القشرة الأرضية. كانت أشبه بالبشرة التي وضعنا عليها حليباً ساخناً! وفي أعماق الأرض كانت قد سقطت العناصر الأثقل مثل الحديد والنيكل، والتي تكاثفت لتشكل النواة. وتشكل حول النواة المعطف الأرضي، المكون من سيليكات الحديد أو المغنيزيوم، والذي سمي القسم الرئيسي منه بـ «الأوليفين»^(١). وهو عبارة عن نوع من الحجر الكريم الشفاف، أخضر اللون، من عائلة الزيرجد. وهو حجر شبه كريم. فلو ذهبتم للنزهة على الإيتنا Etna، أو فيزوف Vésuve أو هاواي Hawaii أو على براكين أخرى كثيرة نشطة، فسيمكنكم العثور على دُرينات صغيرة من البلورات الخضراء الساحرة. إنها كسر من المعطف.

إن المعطف حار جداً: ٦٠٠٠ درجة على عمق ٢٩٠٠ كلم. وكان أكثر حرارة من ذلك في الماضي. أما سطحه فبارد: بضعة عشرات من الدرجات فقط. فهناك بالتالي عدة آلاف من درجات الحرارة تفصل بين الأسفل والأعلى. وفي وضع من هذا النوع فإن المواد في باطن الأرض تبادل حرارتها بالانتقال. بعبارة أخرى: إن ما هو حار،

المئة كيلومتر الأولى من المعطف الواقعة تحت القشرة، تشكل صفيحة صلبة هي الصفيحة المحيطية كما ذكرنا. وكانت هذه الصفيحة تصبح أكثر ثقلاً كلما ابتعدت. وكان يمكن أن تغوص وتعود إلى المعطف السائل الذي كان سيغمرها. ولكن القشرة كانت قد تغيرت خلال هذا الوقت. فقد كانت على تماس مع الماء خلال عدة مئات من ملايين السنين، وكان الماء فائق الأكسدة في تلك الحقب، وكان قد غير تركيبه الكيميائي بين عدة أشياء وعناصر أخرى غيرت تركيبها. وهكذا كان جسم مادي، مختلف عن الجسم الذي كان قد قُذِف به، يغوص في الأعماق حيث كان يخضع من جديد لدرجات حرارة وضغط جهنمية. كان نوع من المصنع الكيميائي الذي سيعمل على تمايز المعطف قد تشكّل وانطلق.

وكان هذا المصنع ينتج المغما والحمم البيضاء، مثل الغرانوديوريت *granodiorites* كما والغرانيت *granites* والريوليت *rhyolites*، والتي نجد فيها الزركون الشهير. كان بازلت القشرة المحيطية، المشبع بالماء، الذي عاد فذاب في المعطف ثم لفظته البراكين بعد ذلك، قد تحول إلى حمم أكثر لزوجة، معطياً صخوراً أخف بشكل واضح، وهذه الصخور

ومما لا شك فيه أن النشاط البركاني كان أكثر كثافة منه اليوم. ولا بد أن الأمر كان يجري على نحو مماثل لما نرصده تحت المحيطات الحالية: سلاسل بركانية كبيرة تحت البحار تقذف بكميات هائلة من المادة... فلا بد أنه كانت توجد تحت الماء صدوع وفوالق مفتوحة تقذف بحمماها على بعد آلاف الكيلومترات. وكان ذلك كله يصنع القشرة، المشابهة تقريباً للقشرة المحيطية الحالية. ولكن ذلك كان يجري بسرعة أكبر بكثير مما هو عليه اليوم، لأن قوة الحمل الحراري كانت تؤدي إلى نشاط بركاني فائق الديناميكية.

إن الخطوط الفقرية^(٢)، هذه السلاسل الكبيرة من البراكين تحت البحرية، تقذف المادة بلا توقف. إن المعطف يذوب وهو يصعد معطياً حمماً سوداء اللون هي البازلت. وتسيل هذه الحمم على أعماق المحيطات والبحار، ومع تبردها تشكل الصفيحة المحيطية. فهذه الصفيحة ليست. بالتالي سوى القسم الأعلى من قشرة قاسية إنما رقيقة: من ٦ إلى ١٠ كلم فقط.

نجمت القارات عن إعادة تشكيل القشرة المحيطية البدئية. ولم تتشكل القارات بالتالي إلا خلال مرحلة ثانية. فمع الابتعاد عن الخط الفقري كانت القشرة، بل ومعها أيضاً

أجمال تاريخ للأرض

تيارات من الصعب تصورها. وكان هناك أيضاً غلاف جوي حار وكثيف ومدوم جداً. وكان يتألف في الجزء الأكبر منه من الآزوت، وكان يحوي على غاز الفحم أكثر مما يحتوي منه الآن بسبب هذه البراكين كافة. إن ناتج إطلاق الغازات البركاني هو بشكل رئيسي غاز الفحم والماء. ولكن كان يوجد أيضاً الميثان والأمونياك. وفي هذا الوسط لم يكن هناك ما هو مستقر. فالجغرافية كانت تتغير بسرعات لا تصدق. وقد أطلق على هذه الأزمنة الرهيبة، التي ترجع إلى نحو ٤ مليارات سنة، «العصر الجهنمي»، نسبة إلى الإله اليوناني للجحيم الحديس Hadès.

فالفردوس الأرضي لم يأت إلا بعد فترة متأخرة. فمن هذا العالم العدوانى إنما ولد كوكبنا الأزرق الرائع.

وكان ذلك بفضل الماء السائل. فقد حفظته الأرض على خلاف كافة الكواكب التي نعرفها. فكوكب الزهرة فقد ماءه، بينما يحتوي كوكب المريخ على الماء إنما في شكل صلب. كذلك فإن حجم الكوكب مهم: فكوكب المريخ الصغير جداً لم يستطع الحفاظ على غلافه الجوي، ولا الحفاظ بدرجة كافية على حرارة داخلية. أما أرضنا، التي ولدت في خضم هذه الأحداث العنيفة، فقد انتهت إلى العثور أخيراً على استقرارها

كانت قد بدأت بتشكيل قشرة قارية. وكانت هذه القشرة تعوم على الرغم من أنها كانت أكثر ثخانة، طالما أنها كانت تصل إلى ٣٥ كيلو متر وسطياً.

وهكذا يتميز كوكب الأرض بوجود مجموعتين كبيرتين من المناطق، وصفيحتين، لكل منهما ارتفاعات متوسطة مختلفة جداً. إن سطوح القارات توجد إجمالاً على مستوى سطح البحر، في حين أن السهول العميقة تقع على عمق ٥٠٠٠ متر تقريباً. توافق السهول الأولى القشرة القارية، وتوافق السهول الثانية القشرة المحيطية.

هكذا بدأت القارات بالظهور في هذا العالم المائي. في البداية، ظهرت رؤوس جزر من الماء، ولا زلنا نرى بعضها اليوم: الكاريبي، الجزر الأليوتية، الماريانية إلخ. كانت براكين كبيرة تتجاوز بارتفاعها مستوى سطح المحيط. وبما أنه كانت هناك أمطار ورياح عاصفة، فقد تعرضت هذه النتوءات إلى حت كثيف. وأدى ذلك إلى نشوء بقايا سرعان ما انتشرت على سطح الجزر.

كان المشهد أشبه بالجحيم البركاني البحري. هذا مع ما رافق ذلك من طاقات هائلة. وكان مصدر هذه الطاقات من أصل داخلي، بسبب هذه الكرة الحارة جداً، كما ومن أصل خارجي: محيط يغلي تجتازه

أجمل تاريخ للأرض

الذي نفهمه اليوم. ويوجد أيضاً، على عمق ٤٠٠٠ متر، تحت المحيط الهادئ، وعلى طول محور البراكين تحت المحيط، حيوانات مدهشة وغريبة جداً. إن عالم الأعماق المائية هذا يشكل أحد أكثر الاكتشافات روعة في السنوات الثلاثين الأخيرة. ففي المياه الكبريتية، التي تغذيها ينابيع حارة، والتي لا يصلها ضوء الشمس، تحيا بكتريا تتغذى بالكبريت. وهناك رخويات تقتات بهذه البكتريا. وهي عبارة عن أنواع من الديدان يصل طولها إلى عدة عشرات من السنتيمترات وذات ألوان نارية. ونجد هناك أيضاً القواقع وأنواعاً من السرطانات، وحتى أسماكاً صغيرة لاحمة، عمياء، تأكل كل ما سبق ذكره.

يمكن أن يكون ذلك عبارة عن أشكال حياة أحدث وجدت لنفسها بؤرة بيئية ونجحت في التأقلم مع هذا الوسط. وهذا لا شك صحيح بالنسبة للأسماك والمتعضيات المتطورة. أما فيما يخص هذه البكتريا في الوسط ذي الشروط الحدية القصوى، الحارة جداً والمهلكة وبدون أكسجين، فإن كل شيء ممكن بالتأكيد، لكن الاحتمالات بأن تكون موجودة هناك منذ البدايات هي احتمالات كبيرة جداً. لأنه في هذه الأماكن تحديداً، في أعماق المحيطات الحالية، وعلى امتداد

الدهش: فهي ذات معطف يعمل وفق نظام دائم، مثل محرك، ومحيط ساكن... وذلك لأنها توجد على مسافة مناسبة من الشمس، ولأنها ذات كتلة مناسبة في الوقت نفسه. إن سلسلة كاملة من التوافقات الظاهرية أدت إلى أن يكون كوكبنا على ما هو عليه. فلو كان هناك أكثر قليلاً من الأشعة الشمسية لكان أثر الدفئ قد تحرّض، مما كان سيحول الكوكب إلى أتون. ولو كانت الأشعة الشمسية أقل قليلاً، أو لو كانت مسافة الأرض عن الشمس أكبر قليلاً، لكانت الأرض تحولت إلى كرة من الجليد. وقد أصبحنا نعرف مؤخراً أن ذلك حصل في الماضي.

لنعد إلى قصتنا. لقد تشكلت المحيطات، وظهرت بدايات القارات على شكل أقواس من الجزر، فكيف تطورت هذه الأخيرة؟ لا بد لنا من التحدث هنا عن الحياة أيضاً. قد يقول قائل إن الحياة لم تكن قد وجدت بعد! لكن ليس في العلم أي يقين نهائي. ففي هذا الكوكب الفائق النشاط، وهذا الغليان من الغازات المختلفة وهذه الحرارة وهذه الطاقة التي لم تكن تستنفذ، من الممكن أنه وجد منذ الدقائق الأولى كامل الحساء الكيميائي الضروري لتصنيع الحياة. وكما تعلمون فقد وجدنا كائنات قديمة لم تكن بحاجة لا للتركيب الضوئي ولا للتنفس بالمعنى

أجمل تاريخ للأرض

بدايات تاريخه. ونقول عموماً إن الأرض تأقلمت مع الحياة، لكن الأصح أن الحياة هي التي أقلمت الأرض مع نفسها. إن علماء جديداً ومثيراً يولد الآن: هو الجيولوجيا، وهو يحاول أن يربط بين المقاربة الجيولوجية والمقاربة البيولوجية. وسيكون هذا العلم بين علومنا موضوع البحث الأكبر في القرن الحادي والعشرين. لقد قدمت الأرض الشروط المواتية لتطور حياة ما. وقد أثرت هذه الحياة فيما بعد بالأرض بشكل خارق. لقد أصبحنا مذاك ضمن منظومة متوازنة: فشروط فلكية مثل الكتلة والبعد عن الشمس، كما وشروط جيولوجية خاصة، مثل النشاط البركاني المعتدل ووجود الماء السائل، هي التي سمحت بتفتح الحياة التي تحافظ بدورها على بيئتنا ملائمة للحياة. إن هيكل الحياة هما: مغنيزيوم اليخضور بالنسبة للنبات، والحديد للموغلوبين بالنسبة للحيوانات!

لقد كان يوجد إذن في المحيط، في تلك الحقبة، كميات كبيرة من الحديد المنحلّ هو أيضاً. وفجأة، تفاعل الأكسجين الذي كان قد نتج حديثاً بوساطة العوالق الزرقاء مع الحديد، فأكسده، ليشكل صدأً تساقط باتجاه الأعماق. وهكذا، تشكلت ترسبات نسميها bifs، من العبارة banded iron

السلاسل البركانية، إنما يمكننا أن نشكل تصوراً بسيطاً عما كان يمكن أن يجري في المحيط البدئي. فليس من المستحيل بالتالي أن يكون مصنع الحياة قد انطلق من هنا، قبل أن يتطور باتجاه بؤر أبرد قليلاً وأكثر سكوناً بقليل حيث أمكن للحياة أن تزدهر وتتفتح. وحيث اخترعت العوالق الزرقاء الشهيرة التركيب الضوئي اليخضوري.

هناك أمر مؤكد واحد: منذ ٣,٥ مليار سنة كانت العوالق الزرقاء موجودة. لكننا لا نعرف منذ متى كانت موجودة قبل ذلك. وهذا يعني أنه كان قد حصل ابتعاد كبير خلال بضعة ملايين من السنوات فقط. فالحرارة الداخلية كانت قد تناقصت، أما بالنسبة للحرارة الخارجية، أي درجة الحرارة التي نقيسها في الخارج، فهي تتعلق بأثر الدفيئة، وبالتالي فهي بشكل أساسي مرتبطة بنسبة الميثان وبشكل خاص غاز الفحم في الغلاف الجوي. فهذه الغازات تمرر الأشعة القادمة من الشمس عبر الغلاف الجوي، لكنها تمنع الأشعة تحت الحمراء الصادرة عن الأرض من الابتعاد باتجاه الفضاء. والحق أن الصيرورة الأكثر فاعلية التي تسمح بتقليص نسبة غاز ثاني أكسيد الفحم في الغلاف الجوي هي الحياة.

لقد شكلت الحياة بالتالي الكوكب منذ

أجمل تاريخ للأرض

تحقيق النتائج: فقد أصبح قادراً على استخدام منظومة كاملة من المراجع مثل الشمس والقمر والنجوم..

لقد شكل ظهور الهيكل بالتالي لحظة هامة جداً في تاريخ الأرض وفي تاريخ الجيولوجيا لأنه، انطلاقاً من هذه اللحظة، نستطيع تتبع تطور الكوكب عبر تتبع تطور الحياة، وذلك ضمن شروط مقبولة. أما قبل ذلك فإنه الضباب.

أما بالنسبة للقارات، فغالباً ما نجد الـ bifs على قواعد قارية. ويعني ذلك أنه كان يوجد منذ ٣ مليارات سنة أجزاء من قارات ذات حجم لا يستهان به. ونلاحظ أيضاً، بين ٣،٢ و ٢،٥ مليار سنة، تغيرات كبيرة بما فيه الكفاية في التشغيل الداخلي للكوكب. ونعتقد في الواقع أن معظم القارات كانت قد وجدت في ذلك الحقب.

ولكن كيف تم المرور من سلسلة الجزر البركانية إلى القارات؟ طالما أن الأمر لم يكن يتعلق إلا بجزر صغيرة، فقد كانت تختفي ويعاد بناؤها، مما يعطي صخوراً جديدة أخف. ولكن عندما كانت هذه التشييدات تصبح أكبر حجماً، كانت تفوص بسهولة في المعطف، وكانت تتطور حلقات نمو بركانية عند محيطها، مما كان يزيد شيئاً فشيئاً من مساحتها. كانت نوى القارات تنمو بشكل

formations. ونجد بين ٣ مليارات و ٢،٥ مليار سنة مناجم عجيبة تتالي فيها طبقات أكسيد الحديد وطبقات الكوارتز. أو إن كنتم تقضون، طبقات من الصدا وطبقات من السيليسيوم. ويوجد منها الكثير في أستراليا وجنوب أفريقيا وموريتانيا..

بعبارة أخرى كان الأكسجين الذي تنتجه العوالق الزرقاء يستخلص الحديد من المحيط، كما والمنغنيز أيضاً، وفق الطريقة نفسها. إن المناجم الكبرى للحديد والمنغنيز في العالم موجودة اليوم في هذه التشكيلات التي ترجع إلى أحد عصور الحقب ما قبل الكامبري، حيث كان التركيب الضوئي اليخضوري يعمل مذاك بشكل كثيف.

ما قبل الكامبري

إنه أول الأحقاب الجيولوجية. وهو أطولها لأنه أكثرها غموضاً. إن أعظم معالم الجيولوجيا كانت الحياة هي التي تركتها عندما اخترعت هياكل اجتازت العصور. فالهياكل هي خلايا تبلور معادناً في الجسم. مثل فوسفات الكالسيوم ومعادن أخرى مثل المغنيتيت. ولدى سمك السلمون أو السلاحف أو الطيور المهاجرة الكثير منها. وهي تستخدمه من أجل التوجه. ويحتوي دماغنا أيضاً على القليل منها، لكنه فقد استخدامها بأن أصبح أكثر إمكانية على

أجمال تاريخ للأرض

معاملاً ملائماً ومساعداً؟ لدينا الانطباع أن فترات الضغط والتوتر تجبر الغلاف الحي (البيوسفير biosphère) على تجاوز ذاته.

إن الكامبري هو العصر الأول. وقد تلاه العصر الأوردوفيسي Ordovicien والسلوري Silurien كما والديفوني Dévonien والكربونيفيري Carbonifère. وتوافق هذه العصور تغيرات كبيرة في الحيوانات والنباتات. لقد بقينا مدة طويلة دون أن نستطيع أبداً فهمها. وكنا نستنتج فقط وجود انقطاعات جذرية: الحيوانات لم تعد هي نفسها، المناظر كانت مختلفة. وفجأة، اختفت أنواع وظهرت أنواع غيرها. وكان الزمن الذي يفصل بين السابق واللاحق قصيراً جداً. وحتى اليوم، فإننا لا نفهم دائماً ما الذي حصل بشكل جيد.

دام الحقب الأول ٣٠٠ مليون سنة. وهو رقم للمقارنة مع الرقم الأكبر بكثير منه، ٤٠٠٠ مليون سنة، للحقب ما قبل الكامبري.. ومنذ ذلك الحين أصبح تاريخ الأرض كله حتى أيامنا هذه فصاعداً خاضعاً لتكتونية الصفائح.

إن تكتونية الصفائح هي إحدى الخصائص التي تجعل الأرض فريدة ووحيدة في المنظومة الشمسية. إنها الآلية

مركزي، مما يشبه إلى حد ما نمو حلقات الأشجار. وكانت هذه القوى تتوسع باطراد. ولكن كان بالإمكان أيضاً أن تتكسر أو تشرح، أو تتصادم، وتلتحم ببعضها بعضاً.

الحقب الأول

بعد أربعة مليارات سنة مضطربة، ها هي الأرض تنتقل إلى عصر جديد، الحقب الأول (الذي بدأ منذ نحو ٦٠٠ مليون سنة). فماذا كان يشبه الكوكب صبيحة هذا العصر الجديد؟ كان التركيب الضوئي يعمل بكامل طاقته. كان الجو قد أصبح صحواً: السماء صارت زرقاء؛ والشمس والقمر والنجوم كانت قد أصبحت مرئية. وكان البحر قد فقد صبغته المحمرة ليتلون بلوني الأزرق للأكسجين والأخضر لليخضور..

لقد ظهرت الحياة وانتشرت.. ومنذ ٦٠٠ مليون سنة حدث انفجار مذهل للحياة. فقد أخذت بالتكاثر والنمو في كثرة لا تصدق من الدويبات والحيوانات الصغيرة، كما تثبت ذلك الهياكل التي وجدت في مناجم مختلفة. إن هذه الفترة من الخلق المطلق العنان تلت بقليل نهاية آخر عصر معروف من كرات الثلج. هل أجبر هذا الإرغام والضغط المناخيان الحياة على إيجاد متعضيات أكثر فعالية؟ وهل شكلت الشروط الكيميائية في النهاية، التي تعدلت بشكل عميق،

أجمل تاريخ للأرض

تصل ثخانتها إلى ٢٩٠٠ كيلومتر، هي مادة مضطربة كما رأينا بسبب حركات الحمل الحراري. وهي عند صعودها تبدأ بالذوبان. وعند السطح تشكل قشرة رقيقة جداً، هي الليثوسفير، لا تتجاوز ثخانتها أبداً ١٠٠ كيلومتر. وهي أثنى قليلاً تحت القارات، وأرق تحت المحيطات. وهذه القشرة قاسية ومقاومة لأنها باردة. ومنها إنما تنطلق الهزات الأرضية الكبرى. وترتكز هذه القشرة القاسية والباردة على شيء ما رخو وحرار ومتحرك. وهو ينقسم إلى ما يشبه لوحة فيسفساء مكونة من عدة قطع. تلكم هي الصفائح. وهذه الأخيرة لا تتفك تتحرك بلا توقف.

وتغطي الصفائح كامل الكوكب. فلا يمكن لإحداها أن تتحرك دون أن تنتقل وتتحرك الصفائح الأخرى. وبإمكان هذه الصفائح أن تتباعد، ولكن في هذه الحالة فإنها تتقارب في أماكن أخرى. وحيث تكون هناك حركة نازلة في المعطف، تكون هناك صفيحة تفوص وتمر تحت الأخرى. ويتعلق الأمر دائماً تقريباً بصفيحة محيطية تكون كثافتها قريبة من كثافة المعطف وذات حرارة مساوية له. ولكن بما أن الصفيحة باردة، فإنها تكون أثقل بعض الشيء، فتفوص بالتالي مثل سفينة تغرق. وهذا ما نسميه

التي تشكل سطحها كما نعرفه حالياً، والتي تعطى في آن واحد سحرها ومناظرها الطبيعية وبيئاتها الحيوية، إنها هذه الحركة التي لا تتوقف ومن خلالها تتجلى الحياة على كوكبنا. وقد حصل الانقسام في البداية داخل صفيحة قارية وحيدة. وكانت الحدود عندها تتوافق تماماً مع حدود القارات. بعدها تباعدت القطعتان لأن محيطاً كان ينفث بينهما. وكانت سلسلة من البراكين تحت البحرية تفيض البازلت وتصنع الصفيحة المحيطية من على طرفي خط الانقسام. وكانت هذه الحمم تلتصق بالنواتين القاريتين اللتين كانتا تتسعان كل منهما بنصف محيط يزداد اتساعاً.

كانت المحيطات إذن التي في طور التشكل هي التي سمحت للقارات بالانفصال والابتعاد؟ وهي لا تزال تقوم بذلك. فالمحيطات تفتح وتغلق، وتولد وتختفي. فهي بالتالي أكثر شباباً بكثير من القارات. لقد اختفى المحيط الأول الكلي منذ فترة طويلة: وكافة المحيطات التي نعرفها حالياً عمرها أقل من ٢٥٠ مليون سنة. في حين أن القارات تحمل ذاكرة ماضٍ جهنمي وقديم جداً للأرض.

تقوم الصفائح على المعطف. فمادته الحارقة، الصلبة إنما للزجة، والتي

أجمل تاريخ للأرض

الانطلاقات الواسعة المدى من البازلت، التي غطت مئات آلاف الكيلومترات المربعة، والتي لا تزال باقية، وترجع إلى نهاية الحقب الأول، في الصين وسيبيريا. وكذلك أيضاً المداخن البركانية، التي كانت تؤدي إلى ولادة الصخور الحاملة للماس: الكيمبرليت، والذي نجده بشكل خاص في جنوب أفريقيا وكندا وسيبيريا.

لقد اجتاحت الجو غازات ورماد مهلكين. وتشكل ما يشبه الزجاج العاتم. إن الثورات التي نصفها اليوم بالكبيرة جداً يمكن أن يكون لها تأثير كبير على المناخ. إن هذه الثورات قادرة على إنقاص درجة الحرارة المتوسطة بمقدار نصف درجة طيلة سنة. لكنها ليست إلا بعض الظواهر البسيطة جداً مقارنة بالقبة البركانية التي سبق وذكرناها. وقد قارن بعضهم الوضع بشتاء نووي يلي حرباً ذرية. تعتم السماء. فينباطاً التركيب الضوئي بشكل كبير، بل وحتى يتوقف. يقل البلاكتون أو العوالق الزرقاء، كما وجزء من النباتات، وكذلك الحيوانات التي تقات عليها والحيوانات التي تقات على الحيوانات... كل شيء يتوقف. وحدها تستطيع الاستمرار في الحياة أنواع مقتصدة وقليلة التخصص.

انتهى الحقب الأول إذن بكارثة بركانية

بانزلاق الصفائح subduction، أي العودة إلى الأعماق.

إن المحيطات كافة تنتهي إلى الغوص من جديد في المعطف. فلا يوجد محيط قديم. إن أرضية المحيط الهادئ، عند سواحل اليابان، لا يزيد عمرها على ٢٠٠ مليون سنة. ومع ذلك فهي من أقدم أرضيات المحيطات الحالية. في حين أن عمر القارات، التي تنمو ببطء، مثل حلقات الأشجار، يمكن أن يصل إلى مليارات السنين.

أما القارات فهي أخف بكثير من المعطف، وبالتالي فهي عملياً غير قابلة للغرق فيه. لكن القارات تتفتت وتتقل وتتصادم وتلتحم وتصنع جبلاً وتهزها الزلازل... إن الأرض هي الكوكب الوحيد الذي يغير مناظره باستمرار.

الحقب الثاني

على مدى الحقب الأول وجدت الآلة الأرضية إيقاعاً تطورت الحياة عبره... بعد ذلك، ومع نهاية الحقب الأول، أي منذ ٢٣٠ مليون سنة، تغير الحقب: وبدأ الحقب الثاني بكارثة جنونية: ٩٠٪ من الأنواع البحرية اختفت. ففي تلك الفترة حصلت ثورات بركانية هائلة. لكنها لم تكن تشبه شيئاً مما نعرفه اليوم. هناك نوعان من النشاط البركاني لم نرهما أبداً يعملان.

أجمال تاريخ للأرض

البحري الشاسع السذي كان يفصل بين لوراسيا وغوندوانا، قد بدأ بالانفلاق.

في زمن المحيط تيثيس كان البحر يمتد على مسد البصر بدءاً من ساحل أوراسيا. البحر ولا شيء آخر غير. ومع ذلك، كان هذا السكون مطلقاً: إذ كان يحصل شيء هام: فتثيس كان يتقلص. فقعره المحيطي كان يغوص في المعطف. وفي الوقت نفسه كان المحيط الأطلسي قد بدأ يفتح.

خاتمة: الأرض والبشر

لا شك أن ظهور البشر أدى إلى تغير كبير في معاملات تطور الكرة الأرضية. فالاستهلاك البشري لموارد الأرض يتم بشكل عشوائي ودون معايير بيئية أو إنسانية. ولعل أخطر المشاكل التي ستواجه كوكب الأرض قريباً هي مشكلة المياه. لكن هناك مشاكل لا تقل خطورة بدأت آثارها بالظهور منذ الآن، مثل ارتفاع درجات الحرارة وذوبان الجليديات والنمو السكاني والتلوث البيئي وانقراض الأنواع، إلخ.

لا شيء سيئ بالنسبة للأرض. ولا شيء أيضاً حسن بالنسبة لها. فعندما نتكلم عن البيئة فإننا نتكلم عن أنفسنا وعن حياتنا وعن مستقبل نوعنا. لا يزال الوقت يسمح بالتصرف المناسب. فيمكننا أن نحدد من النفايات أو أن نجد توازناً. ولدينا الوسائل،

وجليدية قاسية، ونعرف أنها أدت إلى ابتعاد وإلى تراجع كبير في البحار. دام الحقب الثاني ١٨٠ مليون سنة. أي أكثر بقليل فقط من نصف الحقب الأول. الحقب الجيولوجية تصبح أقصر فأقصر، لأنه يصبح لدينا معلومات أكثر فأكثر بفضل آثار الحياة، فنستطيع أن نحدد بالتالي الانقطاعات بدقة أكبر. إن الحقب الثاني ينقسم إلى ثلاثة عصور: الترياسي Trias والجوراسي Jurassique والكريتاسي Crétacé.

وخلاله اجتاحت الديناصورات الكوكب. ونشهد انطلاقة جديدة هائلة للحياة. وبعد ٢٠ مليون سنة، في نهاية العصر الترياسي، نجد آثار أولى الثدييات. وفي الجوراسي كانت أولى الطيور التي تطير، وفي الكريتاسي ولدت النباتات الزهرية. وقد استمرت رقصة باليه الصفائح التي لا تتوقف. كان هناك محيطات تفتح، ومحيطات تتغلق؛ وقارات كانت تتباعد وقارات تتقارب. ولكن خلال هذه الفترة كانت الأرض قد بدأت تتخذ تشكيلاً أقرب من الشكل الذي نعرفه لها اليوم.

في بداية الحقب الثاني كانت البانجي، القارة الفائقة التي تجمعت في الحقب الأول بسبب التصادمات، في طريقها إلى الانفجار. وكان تيثيس Téthys، الخليج

أجمل تاريخ للأرض

مكان آخر ممكن. إن فردوسنا رائع لكنه
هشّ. وعلينا نحن أن نعتني به عناية فائقة
إذا أردنا ألا يكون هذا العصر هو المشهد
الأخير.

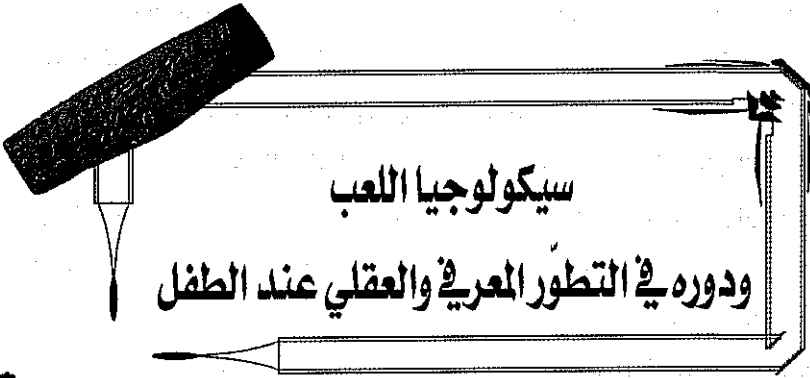
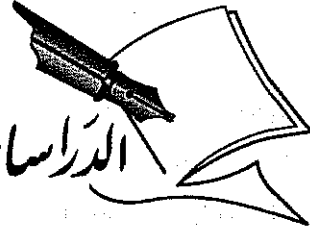
دون أن نعود في سبيل ذلك إلى نمط حياة
بدائي أو شبه طبيعي.
ليس لدينا سوى مركبة واحدة ضائعة
في رحاب الكون. وبدون زورق إنقاذ. وبلا

الهوامش

- ١- الأوليفين *olivine*، الزبرجد الزيتوني اللون المائل للاصفرار. المترجم.
- ٢- الخطوط الفقرية ترجمة للفظ *dorsales*، بمعنى النقاط البارزة تحت الماء مثل العمود الفقري، المترجم.



الدراسات والبحوث



حسين محي الدين سباهي

ينقضي جانب كبير من حياة الطفل في اللعب أي في تسلية نفسه والمتعة بتسلية الآخرين إيّاه، ومن ثم كانت مختلف لعبه وأصحابه والمنوال الذي يملأ به وقته أموراً بالغة الأهمية، ويلقى الطفل خلال اللعب أول دروسه في ضبط العضلات وتدريب الحواس وإنماء المدارك، هذا إلى أن التدريب والخبرة يسيران جنباً إلى جنب، لهذا كان من اللازم أن نلم بأنواع الخبرة التي ينبغي أن يمرّ بها الصغير، ويصنّف الأدوات التي تيسّر أمر التدريب.

* باحث سوري

✍ العمل الفتي، الفنان علي الكفري.

استلزم نظام طعامه أو نومه ذلك، أو تعرض هو للخطر.

أما القاعدة الثانية فتحتم وجوب خضوعنا لزعامة الصغار إذا أرادوا اللعب معنا، نتقبل الفكرة أو الخطة التي يرسمونها ولا نفرض عليهم ما نودُّ نحن في اللعب، هذا بالإضافة إلى ما يجنيه الطفل من معلومات جديدة من ملاحظته أشكال استجابتنا على مختلف الأفكار التي يبديها هو، وفيما بعد الثانية ينبغي أن يصرف الشطر الأكبر من أوقات لعبه مع غيره من الأطفال الذين يماثلونه في السن أو يزيدون عنه قليلاً، والشطر الأصغر مع الأطفال الذين يصغرونه أو الذين يكبرونه بكثير، على أنه بعد سن الثالثة يكون من الخير أن ندعه يقضي بالتدرج جانباً أكبر من وقته مع مَنْ يصغرونه من الأطفال، ففي هذا تدريب على ضبط النفس والسماحة وبذل العون والعطف والحنان وغير ذلك من الصفات اللازمة لخيرته وخير الناس.^(٥)

• اللعب .. أسطورة حب، يتمنى كل طفل أن يعيشها:

يؤكد الخبراء أن اللعب وسيط تربوي فعّال، لتشكيل شخصية الطفل. فعالم الطفولة عالم غريب عجيب ولكن كل شيء فيه جميل ومحبيب، واللعب مفتاح حياة أطفالنا، معه

والطفل قبل الثانية من عمره لا يحفل كثيراً بغيره من الأطفال، إذ هو يرنو ببصره إلى الإفادة والتعلم من الكبار البالغين، ومن الأصحاب الذين يكبرونه، ومن المحيط العجيب الذي يعيش فيه، بل إن الحظ لو واثه لأتيح له فرصة للتعلم من الرضيع الصغير الذي وكلت إليه العناية بجانب من شأنه على أنه بعد سن الثانية يبدأ في ملاحظة غيره من صغار الأطفال، وهو يقتصر على أن يرقبهم أثناء انصرافه إلى لعبه الخاص، لكنه يرتاح إلى وجودهم على كثر منه.

وقلماً يندفع الأطفال من تلقاء أنفسهم إلى اللعب جماعات وهم بعد في رياض الأطفال، لكن وجودهم معاً يكسبهم عادات أساسية مثل «متاعي ومتاعك»... «عش واترك الآخرين يعيشون»...

وبعد سن الثانية لا ينبغي أن يقتصر الطفل على صحبه الكبار فحسب مهما بلغ عطفهم عليه أو حكمتهم في رعايته أو ملاحظتهم إياه، فإذا لم يكن بُد من أن يكون في حياته جانب كبير من صحبة الكبار، وجب أن يلتزم هؤلاء قاعدتين لأبد من التزامهما في كل صلة تقوم بين الكبار والصغار: حيث تحتّم القاعدة الأولى عدم التدخل في شأن الطفل أثناء انصرافه إلى عبثه ولعبه إلا إذا

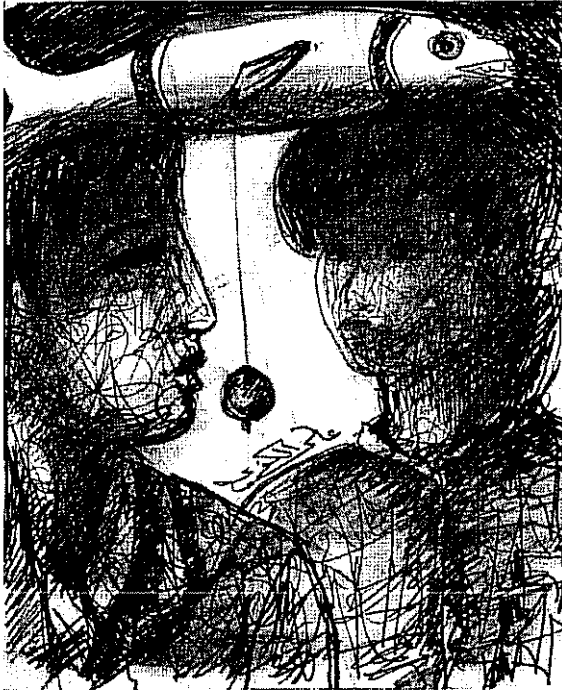
قدرة الطفل على عمل نماذج منها، وتتضح بعض الطرق التي يتبعها في بنائه للمكعبات. وفي المرحلة الأخيرة يقوم ببناء تكوينات حقيقية، تُعبّر عن معانٍ متكاملة، ويستطيع إعادة البناء مرّةً أخرى.

عندما يكبر الطفل يجد نفسه مطالباً بالإقلال من الوقت الكثير، الذي يقضيه في اللعب، فهناك وقت للمدرسة والمسؤوليات المترتبة عليها، لذلك يجب عليه التنسيق بين دراسته ولعبه، وهذا جانب مهم يجب على الأسرة أن تهتم به وتُتمّيه لدى الطفل، حتى يستطيع أن يستمتع بلعبه حين يلعب، ويرضى عن دراسته حين يدرس، وبعد أن يبدأ الأطفال بالنمو، عاماً بعد عام، يظهر تحوّل كفي في نشاط اللعب لديهم، حيث يتناقص النشاط الجسمي المبذول في اللعب كلما كبر الطفل، في حين يزداد الميل إلى أنشطة اللعب ذات الطابع العقلي والمعرفي، فالطفل في السنوات المدرسية الأربع الأولى يُفضّل الألعاب الرياضية النشطة، وسيطر عليه في سن المراهقة المبكرة، والطفولة المتأخرة، أشكال معينة من اللعب مثل مشاهدة التلفاز والقراءة، وإجادة ألعاب رياضية معينة. ويتناسب هذا التغير الكيفي، مع عملية النمو العقلي والمعرفي، والذي يبدأ بالمظاهر الحسية الحركية، في مرحلة المهد،

يكبرون وتتفتّح أذهانهم، وتبدأ نشاطات لانهاية لها، وهو عملية نمو تبدأ مع الطفل منذ حركاته الأولى، ومع تطور ذكاء الطفل يصير أكثر تعقيداً، فاللعب بالدُمى يجتذب الطفل، منذ مرحلة مبكرة، ويصل إلى ذروته في العام السابع أو الثامن من العمر.

وبعد التحاق الطفل بالمدرسة، تبدأ اهتماماته باللعب في التغير، فخلال العام الأول أو العامين الأولين، في الحياة المدرسية، يجري التداخل بين أنشطة اللعب المميّز لمرحلة الطفولة المبكرة من سن (٣-٦) سنوات، وتلك المميّزة لمرحلة الطفولة الوسطى من سن (٦-١٠) سنوات.

تظل أنشطة اللعب المحيية إلى الصغار في الطفولة المبكرة قائمة لسنوات قليلة وتتمو في الوقت نفسه اهتمامات جديدة للعب. ففي البداية يكون الطفل شغوفاً بالألعاب الجري، ثم تصبح الألعاب الرياضية القائمة على قواعد محددة هي تسيطر عليه بعد ذلك، ولكن الطفل قد يتطور لعبه في نوع معين من الألعاب، منذ الطفولة، وحتى سن أكبر قليلاً، فمثلاً لعبة المكعبات تقتصر في المرحلة الأولى على الحمل وتجميع مجموعات غير منتظمة، أما في المرحلة الثانية، فتتطور إلى تكوين صفوف وأعمدة من هذه المكعبات، وفي المرحلة الثالثة تنمو



حتى يصل في مرحلة المراهقة، مع المستويات التجديدية للذكاء الإنساني.

وكثيراً ما يصاب الآباء والأمهات بالحيرة عند رؤيتهم لأطفالهم، يمضون الساعات الطويلة، وهم منهمكون في لعب متواصل وحركة لا تهدأ ورغم طول الوقت فإنهم لا يملون ولا يتوقفون، وإزاء هذه الحالة فإن السؤال الذي يفرض نفسه هو: هل اللعب حاجة ضرورية وصحية للطفل، يجب العمل على إشباعها لتحقيق النمو والانطلاق والاستكشاف، أم أننا يجب أن نلفت نظره وانتباهه إلى أشياء أخرى

أكثر جدية؟ الأمر الذي يدعو لمعرفة ماهو اللعب؟ وما ضرورته؟^(٨)

• جوهر اللعب وطبيعته:

إنّ اللعب هو ذلك النشاط الحر، الذي يُمارس لذاته، وليس لتحقيق أي هدف عقلي، وجميع الأطفال يقومون باللعب إلاّ إذا منعهم من ذلك حالة جسدية أو نفسية غير صحية، مثل مرض جسدي، أو عاهة ما. وثمة أشكال مختلفة للالعاب: فهناك الألعاب الحركية، والتعليمية، والتمثيلية، والتركيبية، وتحمل الألعاب الإبداعية

والدورية (التي تتطلب القيام بدور معين) أهمية كبيرة في نمو الأطفال، من السنة الثانية حتى السابعة، ممّا حدّا بالعديد من العلماء أمثال «ليونتييف، والكونين، وزابار، وجيتس»، لأن يطلقوا على اللعب الدوري اسم النشاط الرائد للطفل، في مرحلة ما قبل الدراسة.

إن الأهمية الكبرى للعب في حياة الأطفال الصغار، وتنوعه وتشابهه عند أطفال من شتى البلدان، وفي مختلف المراحل التاريخية، وطول الوقت الذي يقضيه الأطفال في ممارسة هذا النشاط، كل ذلك دفع العديد من العلماء للبحث عن تفسير طبيعة هذا

عند الأطفال الصغار، أنها تنشأ على أساس التقليد والأفعال التلمسيّة للأشياء. فعندما يقوم الأطفال بلعبة رجال الفضاء والأطباء، الذين يعالجون الناس من أفدح العلال، التي لم يتوصل بعد لإيجاد العلاج لها، فإنهم يَحِلُّون مشكلات مهنية، وهي مشكلات عميقة جداً، أي إنّ الطفل يعكس في اللعب حياة الراشدين، وكلّما كانت إمكانات الفعل النشط كبيرة، كان اللعب أكثر متعة، ولذلك فمن الأفضل أن يكون طبيباً عوضاً عن أن يكون مريضاً، وممثلاً بدلاً من أن يكون مشاهداً، وسائقاً لأن هذا أمتع بكثير من أن يكون راكباً.

وهذا يعني أن معظم ألعاب الأطفال ليست مجرد لهو وتسلية، بل إنها تشكل حلم الطفل إزاء غَدِهِ، وبحثه الأول عن رسالته في الحياة، وسعيه لأن يقتدي بأكثر سلوك الكبار إجلالاً وبأجل أعمالهم.

ثانياً: إن اللعب يتحقق عن طريق الأفعال المركبة، ليس بالحركات المتقطعة (كما هو الحال في الأشغال والكتابة والرسم). وتتضمّن هذه الأفعال الكلام: فالأطفال الكبار يضعون خطة اللعبة ومحورها، ويطلقون على اللاعبين أسماء معينة، وي طرحون أسئلة خاصة بكل منهم، ويطلقون أحكاماً على سلوك الشخصيات

النشاط الطفولي المدهش وأصله، ولعلّ أكثر نظريات اللعب شيوعاً وانتشاراً في القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، هي نظرية «غروس»، حيث اعتبر أنّ اللعب هو إعداد العضوية الفنية إعداداً لا شعورياً للحياة. فالطفلة في عامها الثالث تستعد، بصورة لا شعورية، للقيام بدور الأم حين تضع دميتها، وتهدهدها كي تنام، وهكذا فإن مصدر اللعب هو الغرائز، أي الآليات البيولوجية. ولقد اعتمد وجهة النظر هذه كثير من العلماء، مع تعديلات طفيفة، حيث فسّر كل من (شيلروغ وسبنسر) اللعب على أنه تصرف بسيط للطاقة الزائدة التي يخترنها الطفل، ولما كانت هذه الطاقة لا تنفق في العمل فقد تجلّت في اللعب.

أما العلماء أمثال (سيكورسكي، وكابتيرف، وشينسكي) فقد فسّروا طبيعة اللعب بصورة مغايرة، ومن مواقع مختلفة تماماً، واعتبروا اللعب نشاطاً إنسانياً أصيلاً، ثم جاءت (كريسكايا ومكارنكو) وغيرهم ليضعوا تحليلاً عميقاً للعب، وليفسّروا نشاط الأطفال تفسيراً صحيحاً.⁽¹⁾

• خصائص ألعاب الأطفال:

أولاً: اللعب شكل من أشكال الانعكاس الفعّال لحياة المحيطين بالطفل، وقد بيّنت دراسة الأشكال الأوّلية، للعب ونموه

يحملها اللعب الإبداعي للأطفال. وتعكس هذه الألعاب الحياة الحقيقية للناس بما تحتويه من أحلام ومشاريع وابتكارات رائعة. فهناك الراديو والتلفاز والآلات ذاتية التشغيل، وهي لا حُدَّ لها بالنسبة لخيال الطفل الخصب على الأقل، ولذلك فإن الطفل يستطيع الوصول إلى كل شيء، وعمل كل شيء من خلال اللعب.

وفي لعب الأطفال الإبداعي يتعانق الواقع مع الخيال، والسعي لاسترجاع الواقع مع الخيال، والسعي لاسترجاع الواقع بدقة (هذا يحدث) و(هذا لا يحدث) مع التشويهات المقصودة للواقع على نحو مدهش.

وبقدر ما يتمتع الأطفال بإمكانات أكبر على الاختلاق وإعادة التكوين المبدع للواقع المنعكس، بقدر ما يكون اللعب أكثر متعة وإرضاء للأعبين أنفسهم. فإذا شاهدتم وأنتم تطلّون من النافذة، أن بعض الأطفال يقفزون من سطح مكان مرتفع إلى كومة الرمال، فتعلموا أنهم فتحوا باب السفينة الفضائية ببسالة، وقفزوا من هوة الكون السحيقة. وخلال هذا الخيال فإن اللحظة التي يجب فيها القفز عن السطح تستدعي توتراً وتحفيزاً للإرادة. ولعلّ من الخطأ أن نقطع عليهم رحلتهم الخيالية بصورة

الأخرى ويُقوّمونها، لما كان الطفل يستعيد، من خلال أفعاله وكلامه، حياة الراشدين الفنية والجدابة والممتعة، فإنه يُقبل عليها بحماس منقطع النظير، «فالممرضة» تقلق على صحة المريض، و«الطيّار» يهبط بطائرته على الجليد بشجاعة، وقلّما تصادف بين الأطفال الذين يلعبون لعبة الجواسيس الجبناء الذين يقعون في الأسر من «باحوا للأعداء» بالسر، بغض النظر عن أن للألعاب قوانينها الصارمة.

ثالثاً: إن للعب، مثل أي نشاط إنساني آخر، طابعاً اجتماعياً، وهذا ما يجعله يتغيّر مع الظروف التاريخية لحياة الناس، وبما أن ألعاب الأطفال تعكس الحياة، فإنها تتغيّر تبعاً لتغيّرها.

رابعاً: يعتبر اللعب شكلاً من أشكال الانعكاس المبدع لواقع الطفل، لذا لا يمكن أن تتصور طفلاً صغيراً لا يحب الألعاب. ولكن الأطفال حين يلعبون فإنهم لا يحاولون نسخ الواقع نسخاً ميكانيكياً وبيغابياً، بل يُضمّنون ألعابهم الكثير مما يختلفونه ويتخيلونه ويُركّبونه من بنات تصوراتهم. ولعلّ حرية الاختلاق والإمكانات غير المحدودة على التأليف، التي لا تخضع لاهتمامات الطفل ورغباته وإرادته، هي مصدر السعادة العميقة والدائمة التي

المنعقد، وتكشف لهم عن جوانب الحادثة، التي لم يروها أو لم يدركوها بشكل صحيح عن طريق إدخالها في لعبهم، فالأطفال يستوعبون ظواهر الحياة المعقدة حين يتلقون إجابات عن تساؤلاتهم وفي الوقت الذي يجري فيه الدخول في التفاصيل تصبح معارف الأطفال أكثر تعميقاً وترابطاً. كما أنهم يعرفون ما يحيط بهم على نحو أعمق لدى توقعهم عن اللعب تنظيمياً تريبوياً سليماً ووسيلة فعّالة لنمو الملاحظة، والذاكرة، والتفكير، والخيال المبدع، والإرادة، عند الأطفال، فالطفل حين يقوم بهذا الدور أو ذلك، فإنه يخضع عن طيب خاطر، للقواعد التي تنظم هذه الشخصية في الحياة. لذا فقد ظهر اتجاه يستهدف توظيف أساليب التربية القائمة على مبدأ اللعب الحر والنشاط الذاتي، لمساعدة الطفل على اكتشاف بعض المهارات، التي لا يستطيع أن يكتسبها من خلال اللعب الحر وحده. وهذا التدخل المقصود في عملية التعلم يتم بطريق غير مباشر، وذلك بإعداد وتهيئة البيئة التربوية المناسبة، والتخطيط المسبق للأنشطة والخبرات، وتوفير الإمكانيات والمواد والأدوات اللازمة لتحقيق الأهداف المنشودة للبرامج والأنشطة المختلفة.

سادساً: إن اللعب في شكله الواسع هو

حمقاء، لأنهم في هذه الأعمال يشبّون، وكم تهذبت لديهم من الخصال خلال الألعاب. خامساً: اللعب هو استخدام للمعارف ووسيلة لتدقيقها وإغنائها، وطريق للتدريب، ونمو لقدرات الطفل وقواه المعرفية والأخلاقية: فلكي يبدأ الطفل اللعب (في المخزن) أو (المكتبة) أو (سكة الحديد) لا بدّ من أن يعلم شيئاً عن كيفية عمل البائعين والمشتريين، كما لا بدّ من أن يعلم ما يعمله الناس في محطة القطار، ومن يعمل هناك. فإن مراقبة الأطفال لحياة الراشدين وعملهم تسبق لعبهم عادة. فعندما يقود المربي الأطفال في الرحلة ويعرفهم على عمل العاملين بورشة الخياطة، ونشاط عمّال السكك الحديدية وعمّال الطباعة، إنما يقدم لهم إمكانية تكوّن انطباعات محددة عن هذا الجانب أو ذلك من الحياة العملية للناس.

غير أن هذه الانطباعات غالباً ما تكون فجّة وغامضة، ممّا يجعل النظر فيها أمراً ضرورياً. ومن هنا يمكن اعتبار الألعاب بالنسبة للأطفال وسيلة لتحليل ما تكوّن لديهم من انطباعات. وبما أن الأطفال لا يستعيدون في أفعالهم الظاهرة الاجتماعية التي رأوها، فإن أسئلة المربي وملاحظاته وأفعاله تساعد الأطفال على تحليل الانطباعات

• وظائف اللعب:

اللعب هو الفرصة الوحيدة التي يستطيع الطفل من خلالها أن يتصرف بعيداً عن الممنوعات والأوامر والتبهيئات، التي وضعها الآباء والكبار بشكل عام واللعب يؤمن للطفل جواً من الحرية، ويهيئ له أن يعيش أحداثاً، رغب في أن تكون قد حدثت له، ولم تحدث، فتخليها عن طريق اللعب. وفي ذلك يقول عالم النفس «فرويد»: إنَّ الطفل يندفع إلى اللعب نتيجة معاناته الشعور بالنقص. فأنعدام قدرته على أن يكون طبيباً أو سائقاً أو مربيّاً، بشكل فعلي، يدفعه إلى القيام بهذا الدور في اللعب، وفي هذه الحياة الخيالية احتيال الطفل على أهوائه ورغباته. والأطفال يكتبون من اللعب خبرات ومهارات حركية تعطيهم الثقة بالنفس وتجعل نموهم سليماً. فللذين يرغبون أن يروا، دائماً، في ألعاب الأطفال العنصر العقلاني، نقول إن هذا العنصر موجود، فإذا كان الأطفال أثناء جلوسهم على شاطئ النهر، يحلمون في وقت ما أن يبحروا على جناح موجات المحيط الخضراء، فإنهم يتعلمون بدأب كبدية عبور هذا النهر ذاته، الذي يجلسون على شاطئه سباحة، وعندما تفرهم مياهه الباردة السريعة الجريان، وهذا الطموح يتطلب إرادة قوية، فإنهم

نشاط جماعي: فجميع المشتركين في اللعب يتعاونون فيما بينهم، كما أن لعب الأطفال الكبار الموسع يوحد جميع المشتركين فيه تحت فكرة واحدة. ويحمل كل لاعب قسطاً من الخيال والخبرة والفعالية، لتطوير الفكرة الجماعية، ويخضع في الوقت نفسه للقواعد التي يملئها عليه الدور الذي أخذه على عاتقه.

ولعل معاناة الأطفال الذين يستهويهم النشاط الإبداعي المشترك، واللعب الذي يعكس الحياة، بكل ما فيها من مغامرات ومخاطر وأفراح واكتشافات هي القاسم المشترك بينهم جميعاً. ومع أن الأطفال يعرفون دوماً أن الكثير ممّا يجري هو مجرد (تمثيل) أو (اختلاق)، فإن ذلك لا يمنعهم من معاناة مشاعر حقيقية أثناء إسهامهم في حياة الراشدين، التي يلاحظونها وهذا يعني أن ظروفها ملائمة للغاية تولد في اللعب ومن شأنها تنمية العلاقات الجماعية والمشاعر الإنسانية لدى الطفل. كما أن أسمى خصائص الإرادة، وأنبى المشاعر الإنسانية، تتكوّن في هذه الألعاب، وعلى هذا النحو يصبح اللعب وسيلة فعّالة من وسائل معرفة الواقع ونمو أفضل صفات الشخصية.⁽¹⁾

بأفعال مختلفة، وكل ذلك بشكل إيهامي، وفي هذا النوع من اللعب يتدرب الطفل على أدوار مختلفة إضافة إلى نموّه الاجتماعي.

ويخطئ الأهل حين يمنعون أطفالهم من ممارسة هذا النوع من اللعب الإيهامي، ظناً منهم أنه قد يعلم الطفل الكذب أو يفرقه في الخيال ويبعده عن الواقع. وهذا طبعاً غير صحيح، لأن اللعب الإيهامي مهم، ولأن الطفل حين يمسك شيئاً يشبه البندقية ويطلق منها النار، أو حين يمسك شيئاً يشبه الإبريق ويتعامل معه على أنه إبريق شاي، إنما يعبر عن ذلك بشكل رمزي.

والرمزية في التعبير، هي الأساس لكل تفكير ناضج فيما بعد، وبذلك فإن تشجيع الطفل على هذا النوع من اللعب إنما يقدم له فرصة تنمية قدراته المعرفية، التي تمكنه من الإمساك بأسلوب التعامل الصحيح مع العالم الواقعي مستقبلاً.

ولأهمية هذا النوع من اللعب للأطفال نقول أيضاً إنه يشبه التمثيل الدراسي إلى حد كبير، فالأطفال يقومون بتوزيع الأدوار، فيما بينهم، ومن ثم يمثلون وهم على بيئة ومعرفة بخصائص الشخصية التي يؤدونها، أي إن اللعب الإيهامي هو نوع من التدريب على التفكير الإبداعي، وقد وجد العلماء أن الأطفال الذين يلعبون هذا النوع من اللعب،

يتصورون أنفسهم بحارة يواصل. واللعب يكسب الطفل معارف جديدة، ويرشدهم على استعمالات متعددة لشيء واحد. فالأطفال لا يقومون بنسخ اللعبة حرفياً مهما كان عدد مرّات إعادتها كبيراً إنهم في كل مرة يلعبون من جديد وبصورة جديدة، فهنا يسقطون شيئاً ما، وهناك شيئاً جديداً يضيفونه بينما يفصلون في موقع آخر.

ومادامت معالجة الموضوع المختار قائمة، فإن اللعبة تعيش وتغتني بفكر الأطفال وأحلامهم وخيالهم. وعندما يكتمل الموضوع، أي عندما لا يتمكن الأطفال أنفسهم من إدخال أشكال جديدة. فإن اللعبة تتوقف وينتهي اللعب. واللعب يساعد الطفل على التخلص من الصراعات الداخلية ويخفف من حدة التوتر والإحباط. ومن العيب أن نجبر الطفل على القيام بعمل لا ينبع منه تلقائياً، لأنه يكون ضد طبيعته، ويعيداً عن فطرته. وخير مثال على ذلك هو المشاجرات الوهمية، التي يقوم بها الأطفال ويتخيلون، مثلاً أنهم يضربون مَنْ هم أكبر سناً منهم «لعبة المدرسة» التي يقوم الأطفال بدور المعلم والطلاب، ولعبة «بيت بيوت» التي يتقاسم الأطفال فيها أدوراً مختلفة، وكذلك الأماكن فلكل بيته وأشياؤه، وهناك الأم والأب والابن والجار والجار ومعلمة المدرسة، ويقومون

الدافع الوحيد الذي يوجه فعالية الطفل نحو ممارسة اللعب، يكمن في النزعة الحارّة والجارفة للمعرفة والإسهام الفعّال في حياة الراشدين وعملهم بما يحملانه من أفعال ورعاية وعلاقات عملية، ويمكن للمربي أن يستخدم اللعب على نطاق واسع كطريقة لتنظيم الخبرة الحياتية للأطفال، وأسلوب لتثبيت بعض قواعد السلوك، عن طريق الفعل وزيادة دقة بعض المفاهيم والقيم الأخلاقية، إذ إنّ اللعب المنظم يسمح لكل طفل باحتلال منزلة جديدة في جماعة الأتراب في موقف متخيل، ولكنه حقيقي تماماً، ويمكن أن يكون وسيلة لدفع الأطفال نحو تنفيذ الأفعال العملية وتثبيت بعض قواعد السلوك الضرورية. (٧)

• الأطفال.. ينفسون عن الطاقة

المخزونة باللعب:

اللعب هو شغل الطفولة الشاغل في السنوات الأولى، وهو وسيلة الطفل في التعرف على ما يحيط به والتكيف وفقه، كما يجب أن توكل إليه مسؤولية جمع لعبه ووضعها في مكانها بعد انتهائه من اللعب بها، ويجب أن ينشأ كل طفل على عدم الاعتداء على لعب غيره.

فإذا ما تحدثنا عن أنواع اللعب رأينا أنّ أولها وآخرها هي الكرة، فهي لعبة شائعة لطيفة قديمة، تنفع مختلف الأعمار، والطفل

يتسم سلوكهم بالجدية والتعقيد والتنوع والمرونة، وتحمل التناقض، وهي جميعاً صفات سلوكية لازمة للإبداع.

ولقد أكد المربي والخبير بنفسية الطفل (ماكارنكو) مايلي: «يصعب عليك أن تتصور موضوعاً لم يكن قد طرحه الأطفال».

ولم تعد القضية تكمن في أية مواضيع يتم عرضها على الأطفال، فليست هناك مواضيع محرّمة، بل كيف تطرح عليهم هذه المواضيع، فبصورة مفهومة وواضحة يمكن أن نتحدث مع الأطفال عن الحياة في كل أشكال ظهورها، حول الخير أو الشر، الكذب أو الحقيقة، الشر أو الخسة، الشهامة أو الجبن، فلا بدّ للأطفال من غذاء روحي غني، إنهم في حاجة إلى فن ذي مستوى فكري رفيع، يُربي فيهم الشعور الجمالي الرفيع ويؤدّد لديهم الحافز للعمل من أجل تحقيق المثل العليا.

مما تقدم نستنتج أن اللعب كشكل من أشكال النشاط مفيد لبنية الطفل النفسية وضروري أكثر من العمل الجاد، كونه يوجه الطفل نحو معرفة العالم المحيط به عن طريق المشاركة الفعّالة في عمل الناس وفي حياتهم اليومية، وفي هذا يكمن الهدف من اللعب، مع أن هذا لم يضعه عن عمد أي من الطفل والراشد نُصّب عينيه.

ويمتزج هذا الهدف مع دافع اللعب، لأن

والضجيج من قبل الأطفال، فلا ينفك الأهل من مطالبة أطفالهم بالهدوء والتزام الصمت التام، متغافلين طاقة الطفل الذين يبحث بدوره عن التسلية والمرح، فالطفل لديه طاقة لا بد من استغلالها في وقت اللعب لكن الهدوء والسكينة اللذين يشدهما الأهل يمنعان الطفل من ممارسة حقوقه، لذلك يجب على الأم أن تتذكر أن طفلها يلهو في وقت اللعب وأن هذه الفترة ضرورية لتنمية قدراته رغم انزعاج الأهالي، وإن إحداث الضوضاء أمر طبيعي للتنفيس عما بداخله، فالطفل مليء بالحيوية والنشاط والانطلاق الذي يبدو بوضوح خلال أوقات اللعب، ولعلّ عمر الخمس سنوات بداية انطلاق الطفل الحقيقية للعب والمرح ولا بد من معرفة طاقات الطفل وميوله كما أن الأولاد لا يختلفون بطبيعة الحال عن الفتيات فالأولاد أقرب إلى العنف والألعاب التي تعتمد على الحركة وصرف الطاقة المخزونة على عكس البنات اللاتي يقضين وقتاً ممتعاً في الرسم والخياطة أو حتى ألعاب التسلية البسيطة. ويعتبر الأهل والكثيرون من المربين أن انصراف الأطفال للعب عبارة عن شيطنة يتمنون لو استمتعوا تخليص أطفالهم منها فاللعب برأيهم تبديد للجهود والوقت في ما لا طائل من ورائه وهذا الموقف يتعارض مع

يستفيد كثيراً من لعبه بالكرات على اختلاف أحجامها وأوزانها، إذ يتيح له فرص المقارنة والحكم، وتعيّنه على تنمية الحذق وضبط النفس والحركة العضلية والعقلية، ولعلّ الكرة هي اللعبة الوحيدة التي تحتفظ بمكانتها لدى المرء حتى في كبره.

وعقب السنة الأولى يبدأ الأطفال في الميل إلى اللعب والمكعبات والصناديق وينزعون أغطيتها، فإذا تقدموا في العمر قليلاً أخذوا يحاولون إحكام تلك الأغطية - فمن الخير أن يتوفر للصفار من الصناديق والمكعبات، كبيرها وصغيرها، ما يعبثون به، أو يرصفونه هندسياً، أو ما يُدخّلون فيه ويُخرجون، ولو كان في ذلك بعض السقطات التي قد تؤذيهم.⁽⁹⁾

• اللعب لدى الأطفال ضرورة:

مع تطور الزمن تتطور المفاهيم التربوية ولأن الإنسان هو الأساس فإن المرحلة الأولى من عمره.

الطفولة تأخذ حيزاً مهماً من اهتمام علماء التربية والنفس والاجتماع الأمر الذي ينعكس بشكل نظريات وآراء مختلفة وسنتحدث في هذا الموضوع عن دور اللعب في تنمية قدرات الطفل حيث يلجأ الأهل بعد عناء يوم كامل من العمل المتواصل إلى الاستقرار في المنزل فيجدون الأصوات

لتبني هذا الموقف هو إدراكهم لأهمية ما يسديه اللعب من فوائد في النمو الجسمي والانفعالي والوجداني والمعرفي والاجتماعي والجمالي^(٧).

• التنظيم والتوجيه أثناء اللعب:

لا داعي لوضع لائحة من الممنوعات أمام الطفل ولكن المراقبة المنظمة والحرص الشديد في المتابعة أثناء اللعب أفضل الطرق لحماية الطفل من الحوادث كأن نهبي مكاناً خاصاً للعب واختيار الألعاب المسلية وفقاً لعمر الطفل وإفساح المجال أمامه للحركة والتنقل حتى لو أحدث صوتاً.

فعلما النفس يجمعون على أن الطفل الذي يلقي وقتاً كافياً من اللعب نجده أكثر ذكاءً وإدراكاً من الطفل الذي ينقصه وقت للعب والانطلاق. مع ضرورة مشاركة الطفل لمعرفة ميوله ومواهبه مع الانتباه إلى أمور يجب مراعاتها أثناء لعب الطفل، كأن لا نترك المجال للعب في المطبخ وأن نساعد في اختيار الألعاب غير الحادة والمؤذية، ومراقبته من بعيد للتعرف على عالمه الخاص، ومحاولة إبعاد القطع الزجاجية والتحف السهلة الكسر والكهربائيات والأسلاك عن طريقه أثناء اللعب وتجواله في المكان، وإذا ما أردنا إبلاغه بخفض صوته الذي كثيراً ما يعلو فيجب محادثته بأسلوب مريح والأ

طبيعة الأمور من جهة ومع النتائج التي انتهت إليها الدراسات والبحوث في الشرق والغرب على حدٍ سواء من جهة ثانية ذلك أن اللعب نشاطاً رئيسي من أنشطة الأطفال بل إن اللعب صنو للطفولة مرادف لها إذ لا يمكن أن نتخيل الأطفال إلا وهم منهمكون في ألعابهم المختلفة يمرحون ويتصايحون ويتضحكون ويغنون ويتناقسون.

ويرى (مكارنونكو) وهو أحد أعلام التربية البارزين أن اللعب في حياة الطفل يحمل نفس الأهمية التي ينطوي عليها العمل في حياة الكبار فكيفما يكون الطفل في اللعب فإنه سيكون كذلك إلى حدٍ بعيد في عمله عندما يكبر، لذلك تتشأ تربية الشخصية مثل كل شيء في اللعب بل إن تاريخ الفرد كشخصية ربما تنصوره في نمو اللعب في الانتقال التدريجي من هذا الشكل الطفولي للنشاط إلى العمل ومن ثم تربية الطفل من حيث تكوين شخصيته ينبغي أن لا تقوم على استبعاد اللعب من حياته وإنما على حُسن تنظيمه بحيث يؤدي إلى تكوين الخصائص البنائية للطفل في نموه ويرأي (مكارنونكو) أن جماعة الأطفال التي لا يجد الطفل فيها الفرصة للعب هي جماعة غير حقيقية.

ولعل الذي دفع أساطين التربية

والموازن يجب أن يتم وفق خطة مرسومة بعناية تأخذ بعين الاعتبار خصائص النمو واتجاهاته وتعمل على تلبية الحاجات الأساسية عند الطفل ولن يتحقق ذلك إلا إذا تم في إطار نشاط تربوي منظم وهادف يشغل اللعب مساحة واسعة وأساسية فيه لأن اللعب كما سبق وأكدنا، حاجة أصيلة لدى الطفل، ويفضل التنظيم والتوجيه يغدو وسيطاً تربوياً ومدخلاً وظيفياً للنمو والتعلم والتعليم. فهو بالتأكيد يحتاج إلى الاهتمام والرعاية وأوقات اللعب إحدى الخطوات المهمة في حياته، فهو دائماً يبحث عن الجديد ولديه فضول كبير لأن يعرف كل ما يجري حوله.^(٨)

• مظاهر التفوق:

وقد أثبتت الدراسات الميدانية أن الأطفال الذين كان اللعب يشكل جانباً مهماً من نشاطاتهم المدرسية قد تفوقوا على أطفال آخرين لم يوظف اللعب في تربيتهم ولم يُعط نفس الأهمية في برنامجهم المدرسي، ومن مظاهر هذا التفوق: نمو مهارة جمع وإعداد الأشياء والقدرة على التعبير بوساطتها عمّا يجيش في صدور وعقول الأطفال من اهتمامات وأفكار، كما أن هؤلاء الأطفال قد تفوقوا في القدرة على التعبير عن النفس بوساطة الرسم الحر وبوساطة

نلجأ إلى توبيخه، وإنما تركه على سجيته كي يحرق الطاقة المخزونة لديه، فليس هناك طفل لا يحب اللعب وإنما تتفاوت الأنشطة والمهارات والطاقة.

وحين نذكر اللعب فإننا نقصد اللعب المنظم والموجه بطبيعة الحال لإيماننا بأن اللعب العفوي والتلقائي على أهميته وفائدته لا يمكن أن يرقى لمستوى اللعب المنظم والموجه إذ إن الخبرات التي يكتسبها الأطفال خلال اللعب التلقائي تبقى رهينة الظروف مما يجعلها فقيرة إلى القيم النمائية والتربوية بل وهنا تكمن الخطورة. قد تحمل تلك الخبرات في طياتها انطباعات خاطئة وتصورات مشوهة ومعلومات مناقضة للحقيقة ربما أدى تراكمها إلى رسوخها ومن ثم إلى الانحراف بالمسار النمائي للطفل فيتجه وجهة سلبية مما يؤدي إلى حدوث خلل في التكوين النفسي أو الاجتماعي أو الأخلاقي لديه، فاللعب بحد ذاته لا ينطوي على أهمية تربوية ما لم يُنظم ويوجه وما لم يوظف لخدمة أهداف مرسومة ومهما بالغ البعض بأهمية الخبرات العرضية وهي مهمة بلا شك، تلك الخبرات التي يكتسبها الطفل من جراء اتصاله بالواقع وتفاعله مع البيئة المحيطة فإن تحقيق النمو السليم

التي تحملها، لذا، فإن أي محيط حقيقي، ومهما كانت بساطته الظاهرية يمكن أن يكون مجالاً مهماً وثرياً للعب، إلا أن المرئي هو الذي يعطي للعبة قيمتها الحقيقية، من خلال الطرق التي سيعتمدها في تحديد المجال اللعبي، ويبقى الوعي بقيمة النشاط المنجز هو المُحدِّد الأساسي له، فلا مجال للعجز أمام الافتقار الظاهري الذي تشكو منه بعض المجتمعات غير المصنعة لوسائل اللعب العصرية، ولا فائدة تُرجى من وراء التهافت الرهيب على اقتناء ما تروجه الأسواق الاحتكارية العالمية، أما التجاوز فإنه ممكن بفضل قوة الإرادة التي يجب أن يتحلى بها المرئي وكذلك بفضل قدرته على الاستبطان والابتكار.^(٧)

• تنمية القدرات الحسية:

ومما لا جدال فيه أن اللعب يتيح الفرصة المناسبة واللازمة لتدريب العضلات بشكل سليم وتدريب الجسم على أداء دوره بشكل فعّال كما أنه يشكل الوسيلة المريحة والأكيدة لتفريغ الطاقات الزائدة التي يمتلكها الطفل والتي إن تُركت كامنة لديه جعلته متوتراً قلقاً يعيش تحت وطأة حالة عصبية مُضنية ومرهقة كما أن اللعب يؤدي إلى تحسين النشاط الحركي ويُمكن الطفل من أداء المهمات وإنجاز

اللغة إذا أثبتوا مقدرة لغوية متغيرة من حيث تأليف الجُمَل المفيدة أو من حيث تنظيم الأجوبة أو من حيث غنى الثروة اللغوية التي يمتلكونها، كما أبدى هؤلاء الأطفال تفوقاً في إقامة العلاقات الاجتماعية مع الآخرين واكتساب السلوك الناضج، كما لوحظ نمو روح التعاون والتكامل والانسجام مع الآخرين لديهم وتوقعهم في أداء الكثير من المهارات الحسية الحركية بإتقان.^(٨)

• ممر إلى المستقبل:

تطرّفنا في البداية إلى أن الأهل والكثير من المرئيين يعتبرون اللعب نشاطاً هدفه اللهو وتبديد الجهد والوقت فيضعونه على الطرف المناقض للعمل ويلجّون على ترسيخ قيمة وجدانية في أعماق الأطفال وموّدأها أن العمل هو الأساس والأهم وهم يقصدون بالعمل هنا الواجبات المدرسية من جهة وما قد يُكلّف الأهل أبناءهم من مهام من جهة ثانية، إن هؤلاء في موقفهم سالف الذكر إمّا أنهم غير مطلّعين أو أنهم يضربون بنتائج البحوث والدراسات عرض الحائط.^(٩)

• قيمة اللعب:

إن قيمة اللعب لا تكمن في نوعية المادة التي صنعت منها ولا في مدى شهرة المؤسسة التي صممتها أو أنجزتها بل إن كل القيمة تكمن في الأبعاد التي ترمي إليها والقيم

حاجاته وميوله ورغباته. - تمكين الطفل من مواكبة خبراته ومراقبة نفسه ومتابعة أطوار نموها، حيث تُمكن اللّعب والألعاب الطفل من تطوير قدراته وطاقاته العقلية والإدراكية، وهي تتضمن المؤهلات التالية:

- تنمية القدرة على الفهم. - تنمية الحواس وتدريبها على الإدراك والتعقل.

- توفير فرص الابتكار والإبداع. - تنمية قدرات الطفل على التفكير المُستقل.

- توفير فرص الانتقال من العمليات العقلية إلى نواحي النمو المختلفة. - هذا وترتكز هذه الألعاب على ضمان الأبعاد الاجتماعية التالية:

- الانتقال من الفردية إلى الجماعية. - الانتقال من الفردية السالبة إلى الروح الجماعية الموجبة.

- المشاركة الوجدانية والتضامن والمنافسة والطاعة.

- القيام ببعض الأدوار الاجتماعية والإيجابية^(١).

• تفهم القيم والأخلاق:

تؤكد الدراسات ولاسيما علم النفس التحليلي أنّ الكثير من أنماط السلوك

الحركات المعقدة، ثم إنّ الطفل في سياق اللعب يفهم إمكاناته ويتعرّف على قدراته الجسدية ويتمكن بالتالي من السيطرة على جسده وإخضاعه لمعايير معينة. وتقوم رياض الأطفال والمدرسة الابتدائية بدورها في هذا المجال إذ تُساهم بإكساب الأطفال المهارات الجسدية الحسيّة والحركية الضرورية من خلال مناهجها المختلفة لاسيما من خلال دروس التربية البدنية ودروس الرسم والأشغال والكتابة والموسيقا وغيرها، وتتجه النيّة الآن لإدخال مادة العمل اليدوي في منهاج المدرسة الابتدائية^(٢).

• الأسس النفسيّة والاجتماعية لألعاب الأطفال:

والألعاب أساس النمو العقلي والنفسي لدى الأطفال، وكما قال بعضهم: «الطفل الذي لا يلعب فاقد للحياة»، حيث تقام الأسس النفسيّة لهذه الألعاب على ضمان الأهداف التالية:

- إرضاء دوافع الطفل وحاجاته النفسيّة، كالحرية والنظام والأمن والحل والتركيب والقيادة والاجتماع.

- تهيئة الطفل لاكتساب القدرة على التلقّي والتعلّم وتنمية أدوات الترميز كاللغة والحركة.

- إتاحة الفرص للطفل للتعبير عن

على ضبط انفعالاته إذا أراد أن يكون عضواً مقبولاً في جماعة اللعب.^(٧) مما تقدّم نجد أن اللعب كشكل من أشكال النشاط مفيد لبُنية الطفل النفسية وضروري أكثر من العمل الجاد، كونه يوجّه الطفل نحو معرفة العالم المحيط عن طريق المشاركة الفعّالة في عمل الناس وفي حياتهم اليومية وفي هذا يكمن الهدف من اللعب، مع أن الهدف الذي ينشده الطفل والراشد لم يضعاه عن عمد نصب أعينهما، وإنما هو دافع يمتزج مع الهدف من اللعب، ويكمن في النزعة الحارّة والجارفة للمعرفة والإسهام الفعّال في حياة الراشدين وعملهم، بما يحمله من أفعال ورعاية وعلاقات عملية، ويمكن للمرّتي أن يستخدم اللعب لتنظيم الخبرة الحياتية للأطفال.^(٨)

والمواقف الأخلاقية إنما تستمد أصولها من الأنشطة والممارسات السلوكية التي يعيشها الطفل في سنوات مبكّرة من حياته، وإذا كان الأهل والمرّبون والراشدون عموماً يحاصرون الطفل بقائمة لا تكاد تنتهي من التوجيهات والنصائح والأوامر والقيم والمعايير والالتزامات من باب افعال هذا.. ولا تفعل ذلك، هذا حراماً، وهذا عيب إلاّ أنّ الطفل ومن خلال اللعب وهو السلوك العملي الذي يناسبه يكون أكثر قدرة واستعداداً لتفهّم القيم واستيعاب المبادئ الأخلاقية خاصة من اللعب الجماعي حيث يدرك الطفل أهمية، أن يكون نزيهاً وعادلاً ومتعاوناً وموضع ثقة وأهمية، أن يبقى لاعباً في حالتي الريح والخسارة وأن يكون قادراً

المراجع

- ١- مشكلات الأطفال اليومية- الدكتور: اسحاق رمزي- القاهرة.
- ٢- كل شيء يتدبّر من الطفولة- سرغي ميخالكوف- دار التقدم ١٩٧٨م.
- ٣- علم النفس التربوي- ج ١- جيتس واخرون- ترجمة: عبد العزيز القوصي.
- ٤- سيكولوجية اللعب- سوزانا ميللر- ترجمة: الدكتور حسن عيسى- مراجعة: الدكتور محمد عماد الدين إسماعيل- سلسلة عالم المعرفة- الكتاب رقم (١٢٠) ديسمبر ١٩٨٧م- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت.
- ٥- الطفولة.. لعبها وألعابها- أ. الحبيب الإمام- مجلة العربي- العدد (٤١٩)- تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٣م.
- ٦- اللعب.. ضرورة من ضرورات الحياة عند الطفل- بشرى عنقة- جريدة الاعتدال- العدد (٤٩٠)- ٢٣ نيسان (أبريل) ١٩٩٩م.
- ٧- دراسة تربوية نفسية (اللعب أسطورة حب.. يتمنى كل طفل أن يعيشها)- حسين محي الدين سباهي- مجلة القافلة (أرامكو السعودية)- العدد الرابع- المجلد السادس والأربعون- ربيع الآخر ١٤١٨هـ- آب (أغسطس) ١٩٩٧م.
- ٨- الانتحار- دراسة نفسية اجتماعية في سلوك انتحاري- ناجي الجيوش.





شعر:

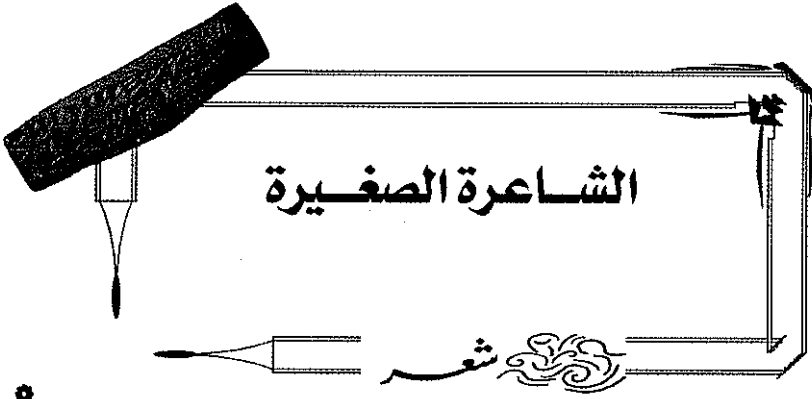
- | | |
|----------------------|-------------------|
| سليمان العيسى | الشاعرة الصغيرة ● |
| د. طلال سعيد الجنيبي | ابتسامة طفل ● |

قصة:

- | | |
|-----------------|------------------|
| نجيب كيالي | قصص قصيرة جداً ● |
| عبد النبي حجازي | خراب الذاكرة ● |



الإبداع



سليمان العيسى

إلى حارتي الصغيرة .. عندما قرأت لي أمسٍ أولى قصائدها

نَبَّتْ شَاعِرَةٌ بَيْنَ يَدَيَّ

أَمْسٍ ..

كَالْقَطْرَةِ مِنْ ضَرْعِ سَحَابَةٍ

فَاجَأَتْني بِالْكِتَابَةِ

أَمْسٍ نورا ..

شاعر العروبة والطفولة الكبير.

العمل الفني، الفنان علي الكفري.



كانت الأحرُفُ أوتارَ رِيَابَةٍ
تَمَلُّ الدفترَ زَهْرًا وعبيرا

طِفْلَةٌ.. في العاشِرَةِ
حُلُوةٌ مِثْلَ بقايا نَعَمٍ في الذّاكِرَةِ

أَمْسَكَتْ دَفْتَرَهَا الحُلُوءَ..
وراحت تَتَسَجُّ الحَلْمَ طَرِيًّا
نَبَتَتْ شاعِرَةٌ بينَ يَدَيَا



إنني أُبْحَثُ من جيلِ
إلى أنقاضِ جيلِ
عَنْ بُرُوعِ المُستحيلِ
من صَحارانا التي تَبْضُ في الأعماقِ

ماء

هذه نُورا.. بديياتِ غُيومِ ماطرَةٍ
طِفْلَةٌ.. في العاشِرَةِ
مِثْلَمَا يَضْحَكُ بَرَقٌ في مُحَيَّا
طَلَعَتْ شاعِرَةٌ بينَ يَدَيَا



أَكْتُبِي يا طِفْلَتِي ما شئتِ
لِلشُعْرِ.. أَكْتُبِي
أَمَلْتِي دَفْتَرَكَ الحُلُوءِ
بأمطارِ الكَلَامِ الأَعْدَبِ

سوفَ يَسْقِي..

-أنا لا أرتابُ في هذا-

الظُّمَاءِ..

الطُّفُولَةَ

هي أَسْرارُ رِهاني المُستحيَلَةِ
كُلُّ يومٍ.. جَدُولٌ ينفجرُ
ويَعوُدُ المَطَرُ

سَجَلِي كُلُّ أختِلاجِ الصِّغارِ
إنهم نَبْعُ النَّهارِ

وَعَدَا..

أَنْ يُسَافِرَ

إِنْ تَمَرَّقِي فِي بَلَدِي كَالشُّهُبِ

وَيُغَامِرَ

فَاذْكُرِي أَنِّي تَلَقَّيْتُ الشُّعَاعَا

لَيْسَ أَحَلَى مِنْ غِنَاءِ الْحَرْفِ..

عندما لاح..

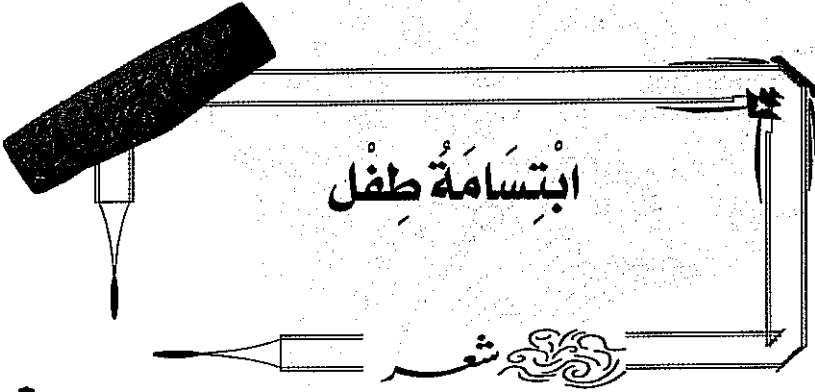
مِنْ سَلْسَالِهِ الْمَسْكَبِ

وَشَجَعَتْ الشُّرَاعَا

اكَتُبِي يَا طِفْلَتِي.. لَا تَتَّعِبِي!



الإبداع



د. طلال سعيد الجنيبي

ابتسامه طفل

ابتسامه طفل

ابتسامه طفل

ابتسامه طفل

ابتسامه طفل

ابتسامه طفل

طِفْلٌ تَبَسَّمَ لِحَظَّةٍ فَانْتَارَ فِي نَفْسِي الشُّجُونَ

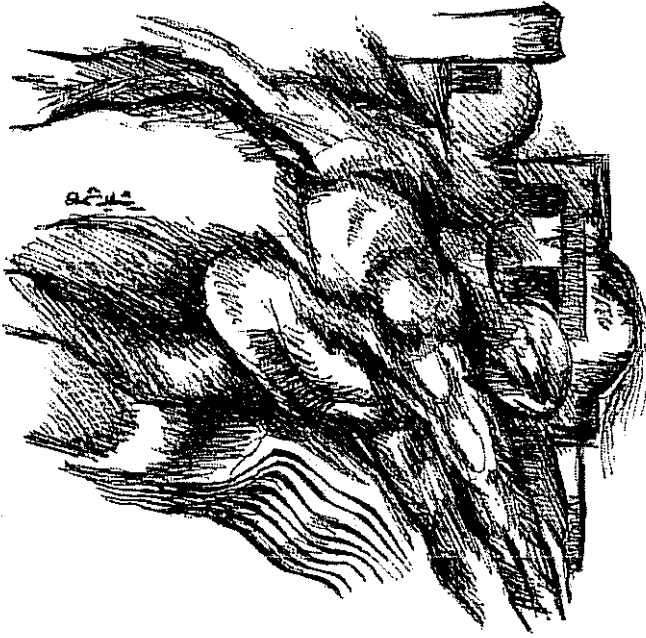
وَسَرَى بِطَلِيفِ خَيَالِي الْمَمْتَدِّ يَرْتَادُ الْحَنِينَ

كَالْحَلْمِ أَوْغَلَ فِي السَّرَابِ وَدَاعَبَ اللَّيْلَ الْحَزِينِ

كَالْيَمِّ مَخْبُوهٌ انْتَشَى مِنْ رَوْعَةِ الدُّرِّ الثَّمِينِ

شاعر من دولة الإمارات العربية المتحدة.

العمل الفني، الفنان رشيد شمه.



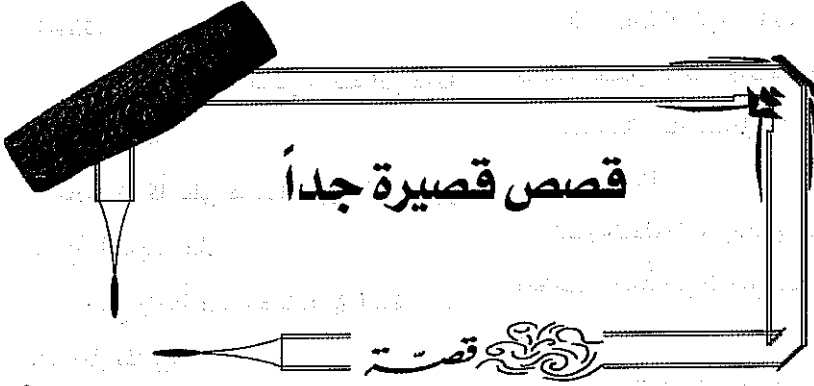
يَصْطَادُ أَنْفَامَ الطُّيُورِ وَيُطَلِّقُ اللَّحْنَ السَّجِينِ
 وَيُدَاعِبُ الْأَزْهَارَ تُفْضِي عِبْقَهَا السَّارِي الدَّهِينِ
 فَيَطِيرُ مِثْلَ فَرَّاشَةٍ حَسَنَاءَ تَجْتَازُ السُّكُونِ
 تَتَرَدَّدُ الْأَهَاتُ مِنْهَا تَبْتَغِي الْمَأْوَى الْحَنُونِ
 لِتَلَامِسَ الْوَجْدَ الْخَفِيِّ وَتَنْشُرَ السُّحْرَ الْمَكِينِ
 وَتَعُودَ لَهْفَى فِي انْتِلَاقِ يَسْلُبِ اللَّبِّ الْمَصُونِ
 فَيَكَادُ مِنْ حُسْنِ بِهَا الْوَجْدَانُ يَسْتَجِدِي الْجُنُونِ

كَالزَّهْرِ أَرْسَلَ طَلِيئَهُ الْفَوَاحِ عِطْرَ الْيَاسَمِينِ
 لِيُعْطِرَ الْفَجْرَ النَّدِيَّ وَيَنْتَقِي صَاحِبِ الْمُنُونِ
 كَالسَّرِّ أَوْدَعَهُ الْعَلِيُّ بِطَرْفِ الْحَاظِ الْعُيُونِ
 مِنْ فَرْطِ حُسْنِ كَامِنٍ نَنْقَادُ طَوْعاً لِلْكَامِينِ
 كَاللَّيْلِ خَالَفَ صُبْحَهُ الْوَضَاءَ مِنْ طُولِ السَّنِينِ
 يَلْقَاهُ سَاعَةَ فَجْرِهِ فَيُضِيءُ فِي لَهْفِ رَزِينِ
 كَالْفَجْرِ أَطْلَقَ نَسْمَةً تَنْسَابُ فِي صَمْتِ حُنُونِ
 تَمْضِي إِلَى الْإِحْسَاسِ تَأْتِي أَنْ تَبِيدَ وَأَنْ تَكُونَ
 كَالجِسْمِ أَبَدَعَ صُنْعَهُ الْخَلْقَ مِنْ صَلْصَالِ طِينِ
 يَمْضِي كَنْسَجٍ رَائِعٍ لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا ظُنُونِ
 كَالرُّوحِ أَخْفَى سِرَّهَا الْمُنَانُ رَبُّ الْعَالَمِينَ
 فَتَكُونُ وَالْإِنْسَانُ جَمْعاً يَفْتَرِقُ وَقَتِ الْمُنُونِ
 كَالنَّفْسِ إِنْ عَشِقَتْ وَأَلْقَتْ فِي حِمَى الْقَلْبِ الشُّجُونِ
 تَأْوِي إِلَى الْوُجْدَانِ تَدْعُوهُ فَيَسْتَجَلِي الرُّكُونِ
 كَالنَّحْلِ لَا مَسَ زَهْرَهُ فَأَفَاضَ مِنْ عَسَلِ هَجِينِ
 مُتَنَوِّعٍ فِيهِ الشِّفَاءُ بِحَوْلِ رَبِّ مُسْتَبِينِ

كَالْعَبْدِ لَاحٍ مُصَلِّياً فِي جُنْحِ لَيْلٍ مُسْتَكِينٍ
تَنَسَّابُ مَنْ خَلَجَاتِهِ الْعَبْرَاتُ فِي هَلَعِ دَفِينٍ
كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الْمُضِيِّ وَفَيْضِ إِبْدَاعِ الْفُنُونِ
كَالْخَلْقِ أَبْدَعَهُ الْعَلِيِّ وَمَا احْتَوَتْ مَقَلُ الْعَيُونِ
كَالْكَوْنِ أَخْفَى سِرَّهُ فِي بَسْمَةِ الطُّفْلِ الْحَنُونِ



الإبداع



نجيب كيالي

عكاكيز

مصيبة من العيار الثقيل نزلت على حارة الشرق!

حار فيها المداوون!

سكان الحارة انهدتْ ظهورهم، رقابهم، ركبهم.

الشباب شاخوا قبل الأوان!

الشيخ ازدادوا هرمًا!

ماذا يفعل أهل الحارة؟

* قاص وأديب سوري.

✍️ العمل الفني، الفنان جورج عشي.

مشكلة الباب

كان - حفظه الله - يزداد حجماً يوماً بعد يوم، ووليمة وراء وليمة! نتجت عن هذا مشكلة عويصة: كيف يُدخِلونه من الباب؟ في البداية كان- كبقية الأمراء- يدخل بنفسه بكامل عرض كرشه وكتفيه. بعد مدة صار يدخل مائلاً بعض الميلاً ثم جانبياً! ثم اضطروا أن يُقدِّموا له المساعدة.. بعضهم يشدُّ من الأمام، وبعضهم يدق من الخلف!! وحده الباب كان يضحك ويبكي في صمت.



خشوع

كان ليل وتلج ومصباح. توقف قلب الأديب وهو يكتب. قلمه ظلَّ لحظات بين أصابعه، ثم ترنَّح على الطاولة. بعد أيام من رحيله دخلت زوجته إلى غرفته، فسقطت غلالة من الخشوع على قلبها. كان يشغلها سؤال: أين تذهب الأفكار التي لم يكتبها زوجها؟

استعانوا بالمكاكيز.. عكاكيز من نوع خاص عماد يتوكأ على ضحكته الحلوة المرة. فوزية تتوكأ على نور تراه في فئجان القهوة الذي تقرؤه بعد أن تشربه عند النافذة. أبو أسامة يتوكأ على حنينه إلى عودة الأيام الجميلة. نادية تتوكأ على همسة قلبها التي تقول لها: إنَّ العريس قادم. راجي يتوكأ على رغبته في السفر ولو على ذيل طائرة.

من لم يستطع أن يصنع عكازاً صار يزحف، فأكلت لحمه الأرض!



فرار

عينها ربيع أزرق، ضحكها عرس عصافير. لبس أجمل ثيابه ليذهب إليها، وكانت تنتظره على نار الشوق، لكنه لمخ في المرأة اللون الأبيض في شعره، تذكَّر رقماً كئيباً في بطاقته الشخصية، ففرَّ إلى درب البكاء الطويل!!



حماقة ٢

جمعتُهما الطفولة، أطعمتهُ بيدها عروسِ
النعناع، فتعمد أن يعضَّ أصبعها!
أطعمها، فعضتْ أصبعه، ضحكا طويلاً.
كبرا، صار للنعناع طعم آخر في روحه.
تقدم ليخطبها، فوجد شاربي أبيها
معلقين على الباب، وتحتهما هذه العبارة:
ابنتنا لا يخطبها إلا من عنده ثلاثة مفاتيح:
واحد للبيت، واحد للسيارة، واحد لخزانة
الفلوس.

بحث في جيبه، فلم يجد أي مفتاح، ومع
ذلك تابع التقدم، وثب الشاريان إليه من فوق
الباب، صاحبا به: قف، فلم يقف! أسرع يركض
حول البيت، فلحقاه، نزلت عصاً ثقيلة على
كتفه، ظلَّ يتقدم وخطُّ من رائحة النعناع
يسحبه إلى جنة بعيدة.



حماقة ٣

شاب رأسه، وقف أمام دولاب العمر،
قال: بالذوق، بالقسوة يجب أن ترجع قليلاً
إلى الوراء، فأنا لم أتمتع أبداً بحياتي.
شدَّ عزمته، وصاح: هيلاً.. هيلاً، دفع
الدولاب نحو الخلف، فلم يتزحج من
مكانه.

نفخ قائلاً: يا دولاب النحس تحتاج

سمعت حفيفاً ناعماً في الهواء، خافت
منه في البداية، لكنَّ الحفيف قال: اهدئي،
نحن سرّب من أفكار زوجك. واحدة في
الحب.. واحدة في الفكاكة.. واحدة في
الطفولة. تريدان أن تعرفي مصيرنا؟
نحن أيتها العزيزة نمارس من بعده رقص
(المولوية).

كادت الزوجة تضحك: ترقصن المولوية!
معقول!

- نعني أننا نصنع لأنفسنا مدارات
كالكواكب. ندور فيها وندور، مع الدوران
ننشر سحراً خفياً قد ينخطف إليه قلب
حساس، فيمد يده إلى القلم، ويكتبنا.



حماقات

حماقة ١

كان في ذلك المكان الدافئ جنيناً يتمتع
بالأمن والراحة والمحبة.

سمع من خارج بطن أمه فريد الأطرش
يغني: الحياة حلوة.

أسرع بالنزول، لكنه بعد سنة وعشرين
وثلاثين لم يجد شيئاً من حلاوة الحياة!

بحث عن فريد الأطرش ليعاتبه، فقالوا:
ألا تعلم ما جرى له؟ أصابه الهم، فغنى: يا
ويلي، فمات باكراً!!





إلى زيت، وضع الزيت في منطقة
الحركة، صاح: هيلا..هيلا مرة
ثانية، ودفع بقوة، فلم يحصل على
نتيجة!

وضع يديه في خاصرتيه، قال:
يا دولاب النحاس يلزمك حبل،
جاء بحبل، لفه حول الدولاب، شدَّ
إلى السوراء ضاغطاً على أسنانه
مغمضاً عينيه!

انزلق الحبل من موضعه
في تلك اللحظة.. كثر إلى الوراء
في حركة دورانية، فأسكره فرحٌ
عظيم. لقد خُيل إليه أن الدولاب
طاوعه أخيراً!

طارت قدماه فوق الأرض
كقدمي راقص رشيق، خرج من حنجرتَه
هتاف عذب:

- رجعتُ شاباً.. أي والله رجعت!
وقف أمام المرأة، نظر، فإذا التجاعيد
اختفت من وجهه! صدره الناحل كالدفقة
امتلاً لحماً وعضلاً! لبس ثيابه، تعطر.

في المطعم على كتف النهر تجاهل وصايا
الطبيب كلها. أحضر إلى طعامه الفليفلة
الحارة، المشويات، المشاوي الدسمة!
قبيل منتصف الليل وجد نفسه هناك..
على السرير الأبيض والمرضة تبحث بعناء

عن عرق يده من أجل السيروم!
كان شاحباً واهناً، أدار وجهه إلى الطرف
الآخر، فلمح دولاب العمر قرب الحائط
يضحك.. يضحك وهو يدور إلى الأمام.



سفينة نوح

في القرن الحادي والعشرين نظر رجل
إلى الدنيا، فراها كذليل الكلب تزداد طولاً
واعوجاجاً سنة وراء سنة!
غضب الرجل، زفر زفرة تدفع شاحنة،
قال لنفسه: إلى متى نسكت!؟

قصص قصيرة جداً

النافذة

ظننته زوجته يتلصص على ابنة

الجيران!

قدماه كالمكوك كل عشر دقائق تحملانه

إلى النافذة، يفتحها وينظر إلى بيتها!

صرخت الزوجة بصوت مجروح:

- عيب يا رجل!

كانت عيناه مشتعلتين، عليهما ظلٌّ من

سحر بعيد، انتبه إلى تأنيبها، ابتسم.

بلطف أمسك ذراعها، أخذها إلى

النافذة، وأشار بإصبعه.. كان الخريف قد

مدَّ يده إلى شجرة اللبلاب المسترخية على

حائط الجيران.. فأهداها قبل الصُفرة ثوباً

أحمر، حمرة رائعة، مُسكِّرة، غريبة، كأنها

لسعة نار أو جنون عاشق!

تجمدت الزوجة أمام المنظر المذهل،

قربَّ خده من فمها قائلاً:

- اشكريني.



بائع البوظة

وجد عبد اللطيف نفسه وحيداً في يوم

العطلة، تسربَّ الملل إلى صدره، أخرج لعبة

ابنه ليتسلى بها!

كانت اللعبة رجلاً يبيع البوظة على

دراجة أمامها صندوق.

ركض في الحال يبحث عن سفينة نوح

حتى وجدها..

ركض بعد ذلك إلى الجبل، صعد إليه،

قال للغيم القريب:

- أيها الأبيض مثل القلة مالي سواك.

ألا ترى وتسمع ما يجري في دنيانا الخاسرة

البائرة؟ اسمع.. أنا سأحمل في السفينة أهل

الخير والصلاح، إذا وجدتُ أحداً منهم،

وأنت عليك أن تمطر وتمطر حتى تنظمر

الأرض كلها بالماء، الفاسدون والفسادات

أريدهم جميعاً أن يصبحوا في خير كان هم

ومواخيرهم، وأسواقهم، وأرصدتهم، و...

قاطع الغيم الرجل قائلاً:

- على مهلك يا عم. تريدني أن أغرق كل

هؤلاء؟! هل تظن الماء رخيصاً هذه الأيام؟

واضح أن حضرتك لا تعرف كم أتعب وأشقى

لأصبح غيماً! لا تدري أن البحيرات والأنهار

التي أتكوّن من بخارها نشف معظمها، وأن

التلوث يلاحقني، والريح تبعثرني!

قال الرجل مندهشاً:

- أخبرني بصراحة ماذا تريد؟

- بصراحة.. إذا أردت أن أغرق لك

الدنيا فيجب أن نتفق من الآن.. كيف

ستحاسبني على متر الماء.. بالسعر المنزلي

أم التجاري؟



قصص قصيرة جداً

هل تريد أن تقطع رزقي يا محترم؟
غَرَّعَ عبد اللطيف بضحكة طويلة،
قال:

- سامحك الله. أنا فعلاً أؤضيهم بذلك،
ولكنني متأكد أنهم لن يطبّقوه. أنا نفسي
مازلتُ أحب البوظة، أحبها كأيام الطفولة.
ألا تذكر كم كنتُ أشتريها منك في حديقة
(السبكي) و(سوق الحميدية)؟ ومعها أحبُّ
صوتك، ووجهك الأبيض، كأنه قطعة
منها. هاتِ يا عم أعطني قبلة المصالحة،
و(بورياً)^(١) يردُّ الروح.

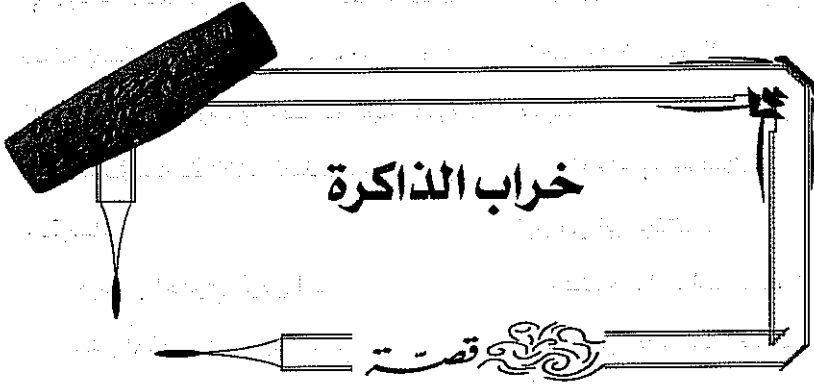
كَبَسَ زَرَّ اللعبة التي تشتغل بالبطارية،
فدارت عجلات الدراجة ومعها صوتُ
البائع:

- بوظة.. بوظة.
تفغسل الصوتُ في روح عبد اللطيف،
وانبثت الحياة في الأشياء:
- هيه يا عم.. بوظة من فضلك.
ردُّ البائع بجفاء:
- ابتعدْ عني. أنا غاضب منك.
- مني أنا؟
- نعم. أنت طيب أسنان، ودائماً تقول
للناس: لا تأكلوا البوظة.. لا تأكلوا البوظة!



١- البوري: هو القمع الذي يُعَمَلُ بالبوظة، والبوظة هي: الأيس كريم.

الإسراع



✽ عبد النبي حجازي

تعلقت به رنين، أولعت بجاذبيته، ومرحه، وطلاقة لسانه، ومشيت إلى جانبه رشيقاً كقبّرة، شفاقة كجناح فراشة، شقراء، فيروزية العينين كثيفة الرموش، فسحة صدرها بيضاء كاللبن. سألتها كما سألت النبي الكذاب مسيلمة سجاح بنت الحارث التي ادعت النبوة في قومها:

ألا تتزوجيني فأكل بقومي وقومك العربي؟

* قاص وروائي سوري.

✽ العمل الفني، الفنان علي الكفري.

. بلى .

أقاما في أحد فروع شارع أبي رمانة
في بناء أرضه من الرخام الإيطالي وسقفه
وجدرانها من الخشب السويدي، وخرجا
في فرجة الصباح إلى الشارع، فلزّت كتفها
بكتفه تعبّر عن ولائها فسرت فيه خيوط
ناعمة كخيوط البرق، وغردت في قلبه أغنية
مرحة نثرته في الأثير فلملم نفسه وقال
معتزلاً:

. حبيبي احذري عيون الناس .

. ويلي أهفو إليك وتجفو عني؟

مدّ جهاز التحكم نحو السيارة وضغط
عليه، فهمت السيارة تنبئ باشتغال محرك
صوته أرقّ من هسيس عصفورة وانتصبت
على قائمتيها الأماميتين وحمحت كأنها
حصان يعلك الشكيم، وقال «هذه مفاجأتي
سيارة كلها أوتوماتيك» فمالت رنين كفصن
صفصافة وهمست بصوت ناعم:

. حبيبي تقبرني برهوم دعني أفود

السيارة .

. لا يامنئ الروح أخاف عليك من هفوة .

. ولكنها (أوتوماتيك) .

وانعطفت بدلال قائلة «ويح قلبي! تفضل

السيارة عني؟» فردّ متلجلجاً «أنت أغلى من
الروح» وأردف قائلاً متمالكاً نفسه «أنا لا
أركب بجانب امرأة تقود هي السيارة» قالت
رنين معتزلة:

. بستُ لا أفهمك يا برهومي تارة أراك

متحرراً كوهج الشمس، وتارة محافظاً
كدجّة الليل .

. أنا متحرر محافظ معاً كزبديّة الصيني

أرّ من أين جئتني .

وفتح لها باب السيارة وقال منحنيّاً

«تفضلي» فاندست معتبنة خبيتها كاسفة

كأنها تتحاشى لقاء العيون . وما إن وضع

يديه على المقود حتى قرأت السيارة أفكاره،

وانسابت على صقال الطريق تلبّي حاجات

نفسه: تسرع ، تبطئ ، تنعطف يمينا ،

يساراً . ثم اعتلت فوق ذرا الأشجار الزمرديّة

والمروج الخضّر ورنين ما تزال معتكرة

كغدير تسبح فيه الأزاهير ثم رنقت السيارة

على بساط الأثير وصغرت الأرض تحتها،

فالتفت إلى رنين قائلاً «أتريدين الذهاب إلى

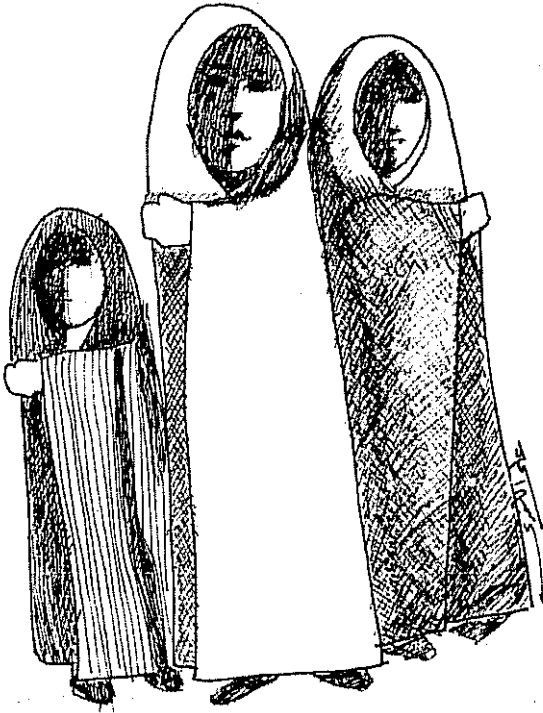
البحر؟» وإذا بالسيارة تحوّم فوق طرطوس،

وتتابع إلى اللاذقية، ثم إلى البسيط سألتها

«أتريدين الذهاب إلى المصائف الجبلية؟»

وما دخلك أنت؟
لأننا مشتركان في التقديم إلى المسابقة
ووبال حلمك شملتني كما شملتك يا برهوم.
لقد ألغيت المسابقة كلها، وألغى الشاغر
الوظيفي.
ولكنني سأحلم وأحلم وأحلم.
واندفع زهير مؤثباً محتقناً: إنك يا رجل
تحلم ببيت فخم وأنت تقيم على أطراف
الدويلعة في بيت يتكدس فيه الجيران حتى
إذا أردت أن تقضي حاجتك، أو تستحم،
أو تحلق لحيتك تنتظر على الدور، وتحلم
بامرأة فاتنة وقد ردّ الله كيدك إلى نبيهة
اللعماء الشمطاء ترفضك لأنك موظف
براتب شحيح، وتحلم بسيارة فخمة وأنت
تذهب إلى عملك سيراً على قدميك حتى
يهتري نعلك، وتحلم بالسياحة وأنت لا تعرف
من الدنيا إلا قربتك ومنطقة الدويلعة أيها
التعيس؟
قال برهوم منتكساً:
لولا العاسة فما شأني بالحلم؟
ولكنك دائماً تحلم بالسعادة فلا تجني
سوى الهموم.
ولكنني سأحلم وأحلم وأحلم.

فهامت السيارة فوق صانفة ثم قفزت إلى
القدموس ، فالزيداني، فيلودان، فسرخايا،
فرنكوس، فبادرت رنين قائلة منتشية «إبعد.
دعنا نعبّر الحدود بلا حواجز ولا تفتيش»
فحومت السيارة فوق عمّان. قالت رنين
«إبعد» وراحت ترنو إلى النيل ينساب في
القاهرة يملؤها أنساً وحميمية. «قالت إبعد»
وإذا بالدار البيضاء تتألق بأبنيتها الفخمة
وشوارعها الأنيقة.. وإذا بخبط على الباب
جعل الحلم فقاعة صابون، وإذا برنين
والسيارة والآفاق الرحبية غرفة قميمة ليس
فيها سوى سرير حديدي صدئ وطاولة
مخلعة فهبّ على أريعته إلى الباب فتحه وإذا
بزهير في مواجهته متجهم الوجه:
قال الجيران نائم فقلت لهم لا، إنه
يستيقظ من النوم بطنين ذبابة ولا توقظه
المدافع المدوية من الحلم. يا رجل هي
مسابقة أعلن عنها عسى أن نفوز بوظيفة
لائقة بشهادتنا الجامعية، أسرع ما ألجأتك
إلى الفراش تحلم؟
وما شأنك أن أحلم بزوجة فاتنة، وسيارة
فخمة، وبيت أنيق؟
أما أن لك أن تتوقف عن الأحلام؟



عندئذٍ اهتاج زهير قائلاً: يا
رجل هاجمت أمريكا وحلفاؤها
أفغانستان فحلمت بانتصار
طالبان، وإذا بالشعب الأفغاني
يتشرد ويتشتت وينهكه المرض
والجوع، وحلمت بانتصار صدام
حسين قدموا العراق واستباحوا
ثرواته المادية والتراثية وبناه
التحتية والفوقية وشتوا شعبه
وازداد عدد الأرمال والأيتام
والمرضى والمعوقين.. وحلمت
بانتصار حماس فصارت بيوت
غزة خرائب.

حملها بين يديه وخرج إلى الطريق ووضعها
على الأرض وركلها بقوة وإذا بقدمه تصدم
حجراً كبيراً أدمى أصابعه ورضّ عظامه،
معنى هذا أن أحلامه كلها يصوغها بفرح
ولا يجنسي منها سوى الخيبة والألم. أما أن
له أن يحرر نفسه من هذه المغالطة الأليمة
فقرر أن يلجأ إلى الأحلام المضادة ويجرب.
تراخي: زبيدة السمراء تختال أمامه
كحمامة، وخداها يتوهجان ككأس الخمر،
وعيناها السوداوان يصعقان العيون اقترب

أطرق برهوم وكأنما صحا من
(سكرة) وقال يصوت متهدج أسيان «سأفكر
في الأمر وأبحث عن أسلوب ناجع» وعندما
خلا إلى نفسه عادت به الذاكرة إلى أول حلم
راوده: كان في نحو الخامسة عندما خرج من
البيت فألقى أولاداً يلعبون (بالكرة) فاقترب
منهم وما إن مسّها بقدمه حتى انتهره
وطردوه. حمل شكواه إلى أمه يريد (كرة) له
فقال «احذر أن تطلب من أبيك فهو مفلس»
فركن إلى الفراش وحلم بكرة جلدية ناعمة،

العربية. «لن أترككم في هذا العالم». وويلك أتريد أن تدمر الأمة العربية؟
 .لن أحلم بالوحدة العربية، وإنما بتجزئة
 البلد الواحد إلى عدد من الدويلات، ولن
 أحلم بالرغد والرفاه والازدهار وإنما بالجوع
 والفقر والمرض والأوبئة، ولن أحلم بتحرير
 فلسطين وإنما بتحقيق أحلام إسرائيل من
 النيل إلى الفرات والتمدد ما طاب لها شمالاً
 وجنوباً وشرقاً وغرباً وأن تلقي بثلاثمئة
 وخمسين مليوناً من العرب في البحر.

فصاح به زهير مصعوقاً:

. ويحك هل جنتت؟

بل اكتشفت أن أحلم بما أكره ليتحقق ما
 أريد، وجربتها مع زبيدة فنجحت التجربة
 وانتصب معتداً بنفسه كأصحاب القضايا
 الكبرى الذين لا ينامون الليل.

تتهّد زهير بأسى وقال: «وهل نحن إلا
 حصائد أحلامنا؟ نحلم كثيراً كثيراً ولا نعمل
 شيئاً» ردّ عليه برهوم قائلاً بقناعة «يقول
 المثل الشعبي: إذا فاتك اللحم عليك بالمرقة»
 وصاح برهوم ثلاثاً «أيها الناس» فتوارد
 الموظفون لاهفين، فتبهنسن والتفت يميناً
 ويساراً وصاح «وحددي، وحددي وحددي» سأله

منها وقال هامساً «صباح الخير» فاستدارت
 نحوه متجهمة وقالت له «تتحرش بي أيها
 السافل؟» وخلعت فردة حذائها وفاجأته بها
 دون أن تترك له مجالاً أن يتحاشاها كما
 تحاشى دبليويوش حذاء منتظر الزيدي،
 فأدمى كعبها رأسه والتم عليه الناس
 يشبعونه لطمأ ورفساً فهرب يحاول النجاة
 حتى صحا من حلمه لاهثاً مروّعاً. وقال في
 نفسه ما أقسى الحلم المضاد!

في الصباح خرج من بيته على عادته وإذا
 بزبيدة قادمة من الزقاق المجاور كعادتها
 فغدا قلبه كأنه في مخالف طائر، أعرض
 عنها وإذا بيد تربت على كتفه، استدار وإذا
 بزبيدة تمنحه ابتسامة رخيمة كالشفق وقالت
 بصوت وأثق يتقطر عسلاً «لماذا تتحاشاني
 وأنت مستقر في قلبي كنجمة الصباح؟» قال
 متدفقاً «أريدك صديقة حبيبة زوجة» قالت
 متهافتة «وما منعك ألا تطلبني من أهلي؟»
 قال راجف الصوت مستباح اليقين:

. أيرضون بي؟

. وهل يريدون خيراً منك؟

فهرع إلى المكتب وداهم زهيراً قائلاً:

زهير تعال نكتب قائمة بأهم القضايا

جنات النعيم، وحدي سأجعل الفلسطينيين يتفقون على كلمة سواء» فقال المدير محتداً «خذوه إلى مستشفى المجانين ليتختم أحلاماً وكفاحاً».

أحدهم بضيق «ماذا وحدك؟» فقال بعصبية «ادعوا وسائل الإعلام سألقي خطبة» ورفع عقيرته قائلاً «وحدي سأحرر العرب والمسلمين، وحدي سأجعل البلاد القفراء

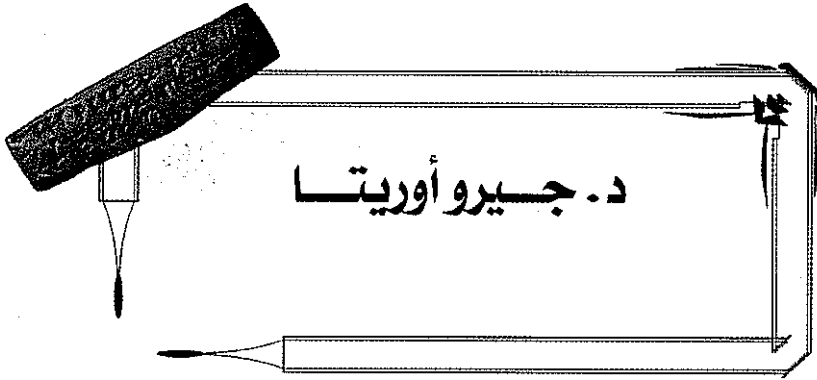




آفاق المعرفة

- د. جبرو أوريتا ●
- الناقد إحسان عباس ومعايير مقاربة النص الحديث د. أحمد غنام ●
- الحكومة الإلكترونية د. أحمد طه ●
- الإرهاصات العلمانية المعاصرة د. محمد فوزي الجبر ●
- الاستثمار في الأعمال الفنية د. نبيل اللو ●
- الحكاية الشعبية ودورها في تربية الطفل د. ثائر زين الدين ●
- الترجمة ودورها في ردم الفجوة الحضارية بين الشرق والغرب.. د. منير سويداني ●
- قراءة في نثر الشاعر القروي محمد علي درويش ●
- شخصية المعري في سقط الزند تامر سفر ●
- شعر المغازي والفتوح في العصر الإسلامي وهذان وهذان ●
- الفن دفتر الحضارة باكير محمود باكير ●
- بوادر تحول في منهج البحث العلمي وائل الأتاسي ●
- بديع الكسم محفوظ أيوب ●
- ظاهرة رضاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي أحمد مثقال قشعم ●

آفاق المعرفة



الدكتور علي القيم، معاون وزير الثقافة
الضيوف الأكارم
السيدات والسادة

لقد أتيتم اليوم إلى المتحف الوطني في دمشق وشاركتم في هذه المناسبة،
ذكرى رحيل الدكتور جيرو أوريتا. أود أن أشكركم جميعاً من أعماق قلبي.
وأشكر على وجه الخصوص الدكتور علي القيم، معاون وزير الثقافة ووزارته
على ترتيب هذه المناسبة بالتعاون مع السفارة.

- كلمة السفير الياباني في سورية ماساكي كونيتدا بمناسبة تكريم العالم الياباني جيرو أوريتا في القاعة
الدمشقية بالمتحف الوطني بدمشق بتاريخ ٥/٨/٢٠٠٩. وتمّ خلاله منح العالم الياباني درع وزارة
الثقافة تقديراً لإسهاماته في دعم العلاقات الثقافية- السورية اليابانية.



من حياته. لكني أرجوكم أن تمنحوني بعض الوقت للحديث عنه من موقعي هنا كسفير لليابان في سورية.

زرت د. أوريتا ست مرات في منزله، وكان قد وصل إلى حد العجز الكامل عن الحركة في فراشه. ومع ذلك، فإن القصص التي رواها كشفت المخبوء من تاريخ لم نعرفه، وكانت مفعمة بمعلومات توجب علينا أن نلم بها. كان د. أوريتا يقيم في شقة ويتلقى الرعاية الضرورية ليلاً نهاراً على يد شخصين تكم مركز إيكاردا بإرسالهما بموجب توجيهات من مديره العام.

علاوة على ذلك، فإن إيكاردا أقام حفلاً تابينياً للراحل د. جيري أوريتا للتذكير بمنجزاته في مجال الطب البيطري. وبالنيابة عن السفارة، أود أن أقدم بشكري القلبي وتقديري للسيد الدكتور محمود الصلح وكادره في إيكاردا.

في هذه المناسبة، أود أن أجدد تصميمي على متابعة الجهود لتحقيق المزيد من التبادل الأكاديمي ما بين اليابان وسورية، وأرجو أن يسير كل منا هنا على النهج الذي اتبعه د. أوريتا.

عندما نتحدث عن التعاون ما بين اليابان وسورية، على المستوى الثقافي، وبشكل خاص علم الآثار، لا يمكننا أن ننكر مساهمات د. أوريتا. أعتقد أن الباحثين المميزين الموجودين هنا سيصفون تفاصيل التبادل الأكاديمي، ولذا سأنصرف إلى الجانب الشخصي للدكتور أوريتا وسمعته إضافة إلى حكاياتي الخاصة معه بغية تسليط الضوء على إنجازاته من زاوية أخرى.

لأصدقكم القول، لست الشخص المناسب للحديث عن د. أوريتا أمامكم. فكل الموجودين في هذه الصالة يعرفون أكثر مما أعرف عنه وعمّا أنجزه خلال إقامته المثمرة في سورية والتي امتدت أربعة وأربعين عاماً. أتيت إلى سورية في تشرين الثاني من عام ٢٠٠٦ وبدأت بالتواصل معه منذ العام ٢٠٠٧ فقط. إن معرفتي بهذه الشخصية الفذة تمتد على مدى العامين الأخيرين

د. جيرو أوريتا

المفاوضات مع الجانب الياباني لكن دونما جدوى لأن اللهجة التي كان قد تعلمها تعود إلى منطقة كاغوشيما وليس طوكيو. تعكس هذه الحادثة مدى اختلاف اللهجات ما بين كاغوشيما وطوكيو. ولكن تكريماً له أود أن أقول بأن لغة د. أوريتا اليابانية كانت حديثة ونموذجية.

يقال إن رجال كاغوشيما يمتلكون ميزة خاصة وهي أنهم يعطون الأولوية لمهامهم الرسمية على العناية بأسرهم والسعي وراء متعهم الشخصية. وفي الوقت ذاته، فإنهم شديدي الفضول والاهتمام باكتساب معارف وتقنيات جديدة. ولذا، فإن عيونهم تتطلع إلى البعيد. لقد كان د. أوريتا مثلاً نموذجياً لرجال كاغوشيما.

تطوع د. أوريتا وشارك في الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب، عمل في مكتب الأعلاف في مقر عمدة المدينة. ومن ثم عاد للمساعدة في عيادة الحيوانات التي كان جده قد أنشأها. عمل لدى مجلس المدينة مدة أربع سنوات. وفي تشرين الأول من العام ١٩٦٤، ووسط ذهول الناس جميعاً بدورة طوكيو للألعاب الأولمبية التي كانت قد نظمت قبل شهرين، غادر مع سبعة أشخاص

في بعض زياراتي له، كانت ترافقني الأنسة أكيكو توميتا، الممثل المقيم لجايكا في سورية. فمن جهة، كان أحد متطوعي جايكا الثبان العاملين في إيكاردا يعتني بالذكور أوريتا من حين لآخر، ومن جهة أخرى تم تشكيل ناد لمعجبي د. أوريتا ضمن وكالة جايكا في طوكيو. وقد كان السيد ناغازاوا، ممثل جايكا السابق أحد الأعضاء الأساسيين في هذا النادي. كان الأعضاء مستعدين في أي وقت للقدوم والقيام بأي شيء لأجل د. أوريتا.

ولد د. أوريتا في العام ١٩٢٤ في كاغوشيما الواقعة على بعد ١٥٠٠ كم غرب طوكيو. تختلف الثقافة والناس هنالك عما نراه في طوكيو وتمتلك اللغة لكنة حادة. منذ مئتي عام خلت، جرف إعصار أحد الصيادين الشباب من كاغوشيما ورمى به على شاطئ قرب سيبيريا، حيث نقل إلى سان بطرسبورغ وعاش حتى مماته. أثناء حياته هناك وضع أول معجم ياباني روسي. بعد عدة سنوات، أرسلت روسيا بارجة حربية إلى اليابان للتفاوض حول إنشاء علاقات دبلوماسية. حاول أحد المترجمين الروس، والذي كان أحد تلامذة الصياد الياباني، حاول عبثاً ترجمة

د. جيرو أوريتا

اليابانيين من الصعاب والمشاكل. واني لأقول بكل تواضع، كم ندين للدكتور أوريتا وأشكره من قلبي.

وفي اليابان، لفت د.أوريتا اهتمام الكثيرين، ومن بينهم كتاب وإعلاميون. وهنالك بعض الأفلام التي تصور حياته. كتب الروائي فوجيشيما تايسوكي رواية قصيرة عن الأيام الأولى من حياة د.أوريتا في سورية. أما الكاتب تسوجي كونيو، فكتب رواية طويلة صور فيها د.أوريتا كشخص يمتلك القدرة على الشفاء ويضفي معنى إلى حياة إنسان يعيش المعاناة نتيجة خيائته لحبيبته التي تقتل نفسها لاحقاً. وقد أشار الكاتب ذاته إلى د.أوريتا وعائلته في كتاب آخر.

ليس بمقدورنا أن ننسى الفيلم الوثائقي الرائع الذي بثته قناة (NHK) اليابانية والذي كان عنوانه «طريق الحرير». لم يكن ليكتب لهذا الفيلم النجاح لولا توجيهات د.أوريتا ومساعدته الهامة. وقد قامت المحطة ذاتها بعد ذلك بإنتاج فيلم مدته ساعة كاملة عن د.أوريتا وحياته في سورية. وفي البروشور المسمى «المشرق»، العدد رقم ٣٨ شباط ٢٠٠٩، الصادر عن متحف

آخرين إلى سورية للعمل كأطباء بيطريين. سأتوقف هنا عن سرد قصته في سورية لأنها ستكون أجود من فم آخرين، ولكن دعوني أقص لكم ثلاثة أمور فقط.

كان د.أوريتا أوّل من قدّم المنهج الجديد للطب البيطري إلى سورية وأول من قام بتطبيقه. واليوم نتناول طبق «الكبة النية»، المعدة من لحم الأغنام النيء، دونما مخافة ودونما انتباه لمن ندين بالقدرة على تناوله. يعد هذا الطبق اليوم من الأطباق الرئيسية في المطبخ السوري. لكننا نعلم بأن هذا الطبق غالباً ما يشكل خطراً على صحتنا لاحتمال تلوثه بالعديد من الديدان والبكتيريا الضارة. لكن ويعد تدخل د.أوريتا الطبي، تمّ التخلص من أنواع الديدان والبكتيريا الخطرة كافة والآن بإمكاننا الاستمتاع باللحم النيء كما فعل اليوم.

كما أن د.أوريتا وجد متعة في استعادة التقليد السوري المتمثل باستيلاء الخيول العربية الأصيلة. وفي العام ١٩٩٠، حصلت فرصه على جائزة ولقب «ملكة الخيول العربية» من قبل منظمة استيلاء الخيول العربية الأصيلة في حلب.

خلال حياته في سورية، انتشل الكثير من

د. جـيرو أوريتا

هواء الصباح النقي، حيث امتدت صحراء
بيضاء بعيداً حتى الأفق. كانت غاية في
الجمال، خطفت أنفاسنا. إن هذا المشهد
مطبوع في مخيلتي. وآآن أعرف أن د. أوريتا
هو من تكرم ومنحنا فرصة رؤية هذا المشهد
الخلاب.

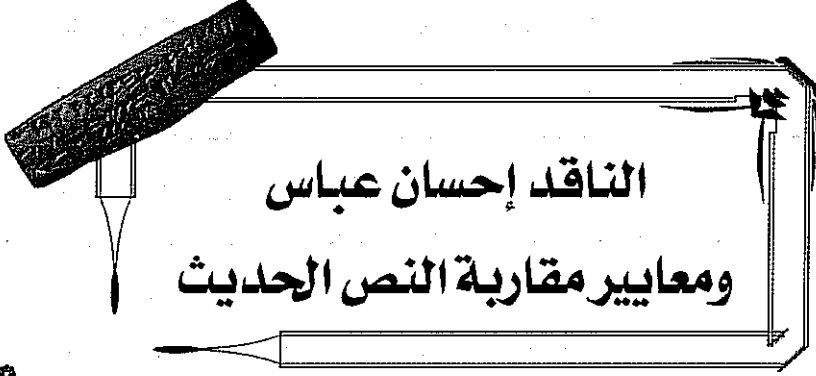
في أيلول من العام الماضي، أعطاني رسالة
دافئة جداً ولكن غامضة إلى حد ما. كان
ذلك لقائي الأخير به. في ذلك الوقت شعرت
بالارتباك، ولم أفهم المعنى الحقيقي لبعض
الكلمات التي قالها، حتى وفاته. قال لي
وداعاً بطريقته الخاصة. إذ كان يعلم بأنه
راحل قريباً. كان بحق رجلاً من كاغوشيما،
رجلاً مفعماً بالإيمان.

شكراً لك د. أوريتا. لسوف تبقى في
ذاكرتنا. ليكتنف روحك سلام أبدي بجوار
ربك.

الشرق القديم في طوكيو، يكرس ستة
مستشرقين وباحثين بارزين، بعضهم بيننا
الآن، يكرسون ذكرى د. أوريتا. أحد هؤلاء،
د. يامازاكي يايوي، كتبت عن الجمال الرياني
لثلوج الصحراء، حيث قالت بأن د. أوريتا
كان مغرمًا بهذا الجمال. لدى قراءتي تلك
المقالة، لم أستوعب كلياً أي جمال ذلك الذي
سحرد. أوريتا إلى هذا الحد، حتى مساء
الحادي والثلاثين من كانون الأول من
العام الماضي، حيث ذهبت وزوجتي إلى دير
مار موسى الواقع في الجبال الصحراوية
الصخرية. وفي الصباح الباكر من اليوم
التالي، وكان اليوم الأول من عام ٢٠٠٩،
وقفنا على قمة جبل صخري قريب بائظار
الخيظ الأول من الشمس. كان الجو بارداً
وعاصفاً ولم تكن ثمة غيمة في السماء. وفي
البعيد البعيد كان بإمكاننا أن نراها عبر



آفاق المعرفة



د. أحمد غنام

يسعى النقد الحديث منذ عقود عدة إلى جعل النص الأدبي محور الدرس، والمعروف أن أرسطو في كتابه «الخطابة» وجه النظر إلى الأسلوب، وهو مظهر من مظاهر الاهتمام بالصياغة لتقويم النص، عوضاً عن الاحتكام إلى وظيفته النفسية، أو الاجتماعية، أو الأخلاقية. ودعا لونجانيوس، وهو فيلسوف إغريقي عاش بعد أرسطو إلى الاهتمام بالمظهر اللفظي للعمل الأدبي. وفي الأدب العربي دعا الجاحظ (٢٥٥هـ) إلى النظر في الصياغة الجمالية للشعر، وتابعه كثيرون ممن رأوا مزية القول الشعري في صياغته،

* ناقد سوري

العمل الفني، الفنان رشيد شمله.

هو أول من أعطى الأدب محتواه الطبقي، وفوض الناقد الأدبي مهمة البحث عن قيام الأديب بالتعبير عن هذا المحتوى، أما غستاف لانسون (١٨٥٧-١٩٣٤) فكان أول من دعا إلى تطبيق مناهج علم التاريخ في دراسة الآثار الأدبية، وهي مناهج لا تقوم على دراسة الحادثة وإنما على دراسة الأسباب والدوافع، والنتائج المترتبة على الحدث وصاغت اللانسونية أسلوباً في البحث والدراسة يبتعد ابتعاداً كبيراً عن مواجهة النص، بسبب الأعمال الكثيرة التي يجب على الدارس أن يقوم بها لمعرفة ما يحيط بالنص قبل البدء بقراءته، والكشف عن أسرارها، وأغازه، ولا يقل انشغال النقد النفسي بما يكتنف الأثر من ظروف عن انشغال المؤرخ، أو عالم الاجتماع الأدبي.

والحق إن النقد النفسي يقوم على دراسة الأديب، لا على دراسة العمل الأدبي، ولهذا أدى الانشغال بدراسة دوافع الأديب إلى درس لا علاقة له بالنقد وهو كتابة السيرة، وقد رفض غير واحد هذا النوع من البحث، ورفضه مارسيل بروسست في مقالة له «ضد سانت بييف» ورفضه أندريه جيد، ورفضه بول فاليري، وكلهم من كبار الأدباء والشعراء، أما هنري جيمس فقد رسم علامة استفهام كبيرة حول النقد المفتون بكتابة السير،

لا في الأفكار التي يعبر عنها، ويعمق الباقلائي (٤٠٢هـ) والجرجاني (٤٧١هـ) القول بصدور الإعجاز الفني من قبل الأسلوب القائم على خصوصية الصياغة، وهو شيء يشمل المبنى والمعنى في مظهر واحد لا غير.

وفي النقد الغربي يلح عدد من النقاد من مثل بيغون الفرنسي وفي «مقالات عن الأسلوب» وبن جونسون، ودريدان والشاعر ألكسندر بوب على ضرورة التوجه إلى دراسة العبارة الشعرية عند إصدار الأحكام النقدية على النصوص. وهذه الملاحظات، على أهميتها، لم تحل دون تدخل العلوم الإنسانية فيما أصبح يعد دائرة خاصة بالنقد الأدبي، فمثلاً احتضنت الفلسفة الأرسطية بواكير النقد احتضن علماء الاجتماع موضوع الدرس الأدبي، ابتداء من مدام دي ستايل (١٨٠٠) وشاتو بريان (١٨٠٢) وجيراردان، حتى سانت بييف (١٨٦٤) الذي أراد للدرس الأدبي أن يكون ضيقاً على التاريخ، وبامتزاج التاريخ بالنقد ابتعد الدرس التحليلي للأدب عن الأدب نفسه، وراح مؤرخو الأدب من أمثال هيبوليت تين Tain يركزون على ما يحيط بالنص لا على النص.

وإذا كان تين هو أول من فتح الطريق أمام النقد الاجتماعي للأدب فإن ماركس (١٨٨٣) الذي لم يكن أديباً ولا مؤرخاً للأدب

في الظروف المحيطة بالكاتب، أو الشاعر، وإنما تكمن في مستوياته المتعددة الصوتية، والإيقاعية، والوزنية، والتركيبية والمعجمية، والرمزية، مع الأخذ بالاعتبار علاقات الترابط التي تحيل شتات هذه المستويات نصاً يتجلى فيه التماسك والوحدة. وقد انتشر تأثير الشكليين الروس، ووصل إلى المدرسة الشكلية الفرنسية لا سيما بعد أن انتقل مركزها إلى براغ، بل وصل تأثيرها إلى النقد الأمريكي، والإنكليزي، وأثر في جماعة «النقد الجديد»، وانتشر أثرها في النقد العربي الحديث، لكثرة ما ترجم من نصوص الشكليين، وما كتب عنهم في الدوريات الثقافية، وتجلى هذا الأثر في لفت النظر إلى النص من حيث هو محور الدرس النقدي.

ونستطيع القول: إنه كان من نتيجة الانفتاح على هذا النقد مزيد من التوجه نحو النصوص، بدلاً من الاستمرار في النظرة التاريخية، والاجتماعية، والأخلاقية، والسياسية للأدب. وأصبح الدرس الأدبي الذي عرفناه لدى نقاد الجيل الأول، أمثال طه حسين والعقاد وعبد الرحمن شكري، أو الجيل الذي تلاه أمثال محمد مندور وحسين مروة وسواهما، نقداً يبدو باهتاً في عيون الدارسين الآن.

وتراجم الأشخاص. وكان لا بد أن يمر زمن طويل حتى يتبته الأدباء أنفسهم إلى هذا الذي يمانيه الدرس الأدبي من عزوف عن تأمل النص، وإنهماك متواصل في استقصاء الملاحظات الخارجية المحيطة بالكاتب، وفيما بين الحريين العالميتين تبرز جماعة «النقد الجديد» New criticism لترفض تحكم العلوم الإنسانية بالأدب، وتدعو إلى نقد مغاير يقوم على الانطلاق من النص، فليس مهماً «ماذا يريد أن يقول الكاتب، أو الشاعر في عمله الأدبي وإنما المهم هو كيف يقول ذلك». وفي هذا الصدد نذكر قول سبنجارن في مقاله «النقد الجديد»: إن مناهج النقد -غير الجديد- تتحدث عن كل شيء إلا النص فالناقد النفسي يحدثنا عن المبدع، والاجتماعي يحدثنا عن المجتمع، والتاريخي يحدثنا عن تاريخ الأدب، وهم جميعاً لا يحدثوننا عن أي شيء يتصل بفنية النص، ومكوناته الداخلية «وفي الوقت نفسه تبرز جماعة نقدية جديدة عرفت باسم «الشكلية الروسية».

وهذه الجماعة أفادت من سوسير -عالم اللغة السويسري- وهي -في الأصل- مدرسة لسانية، غير أنها اتجهت إلى النقد الأدبي وعينت بدراسة ما يسمى «بأدبية النص» وأدبية أي نص، لا تكمن في تاريخه، ولا



وقد بدأ توجه النقد العربي نحو إعطاء النص مزيداً من الاهتمام مع حركة الشعر الحديث، ومن أوائل الذين تأثروا أو دعوا إلى اقتفاء أثر «النقد الجديد» خالدة سعيد في «البحث عن الجذور» (١٩٦٠) وأدونيس في كتابه «زمن الشعر» وكمال أبو ديب في «البنية الإيقاعية للشعر العربي» ١٩٧٤ وخلدون الشمعة (١٩٧٤) وتجلت النزعة الشكلية في كتابات عبد السلام المسدي (١٩٧٧) الذي يدعو إلى جعل الأسلوبية - من حيث هو علم لدراسة النص - بديلاً للنقد الأدبي بمفهومه التقليدي، ومحمد بنيس

(١٩٧٩) ومحمد الماكري وسيد بحراوي، وقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء الدارسين أن وقفوا على ما يوصف بالدراسة الأيقونية للنص، وهي ضرب من التحليل السميولوجي الذي عني به: محمد مفتاح وتلاميذه.

وجل هذا الذي أشرت إليه، وما لم أنبه عليه من توجه نقدي يفيد - في الحقيقة - من بعض التيارات النقدية الحديثة، من بنيوية، وتفكيكية، ودلالية.. وغيرها. وأبرز ما تشترك فيه هذه النماذج من الدراسة التحليلية للنصوص هو الصدور عن مبدأ واحد وهو:

إن هدف الناقد هو تحليل النص، والكشف عن بنيته الخاصة، وتنظيمها الذاتي، بعيداً عن البحث فيما وراء النص من ملاحظات تجعل من الأثر مرآة تعكس الواقع، وإحسان عباس مساهمات في النقد الأدبي، والنظر في هذه المساهمات في ضوء ما سبق ينبئ عن ريادة مبكرة لدى هذا الناقد فيما يتعلق بالاعتماد على القراءة الداخلية للنصوص فهو يقترب من النص في أقدم دراسة نقدية كتبها (١٩٥٢) حول التجديد في شعر نازك، لقد بدأ رحلة البحث عن الشكل من حيث

الناقد إحسان عباس ومعايير مقارنة النص الحديث

البياتي والشعر العراقي الحديث» يجعل من دراسته منطلقاً للنقد العربي الجديد القائم على مقارنة النص، فهاجسه في هذا الكتاب -كما يبدو لي- هو البحث عن بنية النص مثلما تتجلى في شعر البياتي، فهو يقف عند قصيدة «محنة أبي العلاء» مثلاً فيستعرض مقاطعها أو «دوراتها» واحدة بعد الأخرى متتبعاً نمو هذه الدورات نمواً عضوياً، تكمل فيه كل دورة الدورة الأخرى.

واللافت للنظر أن إحسان عباس لا يقتصر في وقفات النصية على المستويات الدلالية، ولكنه يتجاوز التناص، والصورة، والنمو العضوي إلى دراسة البنية الإيقاعية للقصيدة، وهذا المنحى من الأمور المشتركة التي لا تخلو منها دراسة من دراساته، فهو كثير الإلحاح على أثر الجرس الصوتي، والوزن، في إشاعة، الجو الخاص بالقصيدة، ويقارن في أحد فصول الكتاب بالإيقاع لدى كل من البياتي والسياب، فالأول يلج إلى تسريع الإيقاع بينما يلجأ الثاني إلى الإبطاء والتراخي، وفي لفظة ذكية إلى ترابط المستوى المعجمي للنص بالمستوى الدلالي يقوم الناقد بدراسة العلاقة بين الألفاظ -في شعر البياتي- ومجموعة الإيحاءات التي يتمخض عنها السياق، ثم يلجأ إلى التأويل في مسعاه الرامي إلى تفكيك شيفرة النص، فالموتى في

هو معيار لجودة النص، والتجديد الشكلي يتجاوز مسألة التخلص من القافية والبحر العروضي، ويسلط الضوء على تفكك البنية في نماذج من أشعار فدوى طوقان وفي عام (١٩٥٤) يدرس الناقد شعر البياتي متأثراً بالأسس التي قام عليها «النقد الجديد» ولا سيما ما كتب منه شعر المدرسة التصويرية Imagism وفي هذا الصدد يقارن إحسان عباس بين الصورة لدى البياتي والصورة لدى كل من إيمي لوول، وإليوت Eliot.

ويتجاوز الصورة إلى ما أصبح يعرف الآن بالتناص Intertextuality. فكل نص شعري لا بد أن يكون مشرباً بغيره من النصوص، وتأسيساً على ذلك يتوغل الناقد في دراسة تقاطع النصوص في قصيدة البياتي، وهذا التقاطع قد يكون مباشراً في قصيدة، وخفياً غير واضح في قصيدة أخرى، وثمة طائفة من الرموز المشهورة في قصائد الشعراء وأعمال الصوفيين أصبحت تحتل مركزاً مهماً في مفردات البياتي.. مثل برومثيوس وسيزيف والحلاج والمعري وغيرهما فالتناص قد يقوم على نموذج تاريخي، أو على اقتباس نصي، أو على انفتاح النص الشعري على غيره من نصوص تراثية، وهذه الظواهر النصية، التي تطرق إليها إحسان عباس في كتابه «عبد الوهاب

والدراسة الشكلية للنص لا تعني بحال من الأحوال عزلتها عن السياق، ولكن الفرق بين الدراسة النصية، وغيرها، أن الأولى تنتفع بكل إشارة من أجل زيادة فهمنا للنص، وبنائه، ومستوياته اللغوية، والتركيبية، والأسلوبية. ففي وقفته إزاء قصيدة «فجر السلام» نموذج صارخ للبحث عن علاقات النص الداخلية، وما يسودها من تقابل وتناقض، أو انسجام وتوافق، وعلى هذا النحو يتتبع الدورات الأربع التي لاحظها في بناء القصيدة، موضحاً ما بين هذه الدورات من تقابل أدى إلى التدرج في بناء النص.

وفي دراسته التحليلية لقصيدة «الأسلحة والأطفال» يؤكد أن بنية النص فيها تقوم على دورتين ثم يتناول ما بين مقاطع القصيدة من علاقات وترابط، مؤكداً في الوقت نفسه أن موضوع هذه القصيدة - أو أي قصيدة أخرى غيرها- لا أثر له في جعل التجربة الشعرية تجربة جيدة، وفي دراسته التحليلية لقصيدة «السوق القديم» -وهي من القصائد المشهورة- تجتذبه فكرة الاستقطاب، ويتخذ من هذا المصطلح أداة للتحليل البنائي، فالنص لدى السياب يقوم -دائماً- على قطبين يشد كل منهما القصيدة في اتجاه معاكس للآخر، وهذا الاستقطاب يلمح الناقد في قصيدتين

قصائد البياتي: رمز للفقراء والمستضعفين، والتافهون: رمز للطغاة والمستبدين، وعلى هذا النحو يعدد مجموعة الألفاظ الرامزة، مستنداً إلى الإحالة على سياق النص ويؤكد في واحدة من أبرز دراساته (١٩٦٠) على حقيقة يلتزمها في نقده، وهي أن القصيدة تدرس بتأمل نسيجها الداخلي، لا بتأمل الهيكل أو الموضوع، والنسيج بتعبيره، هو أن تنمو القصيدة نمواً عضوياً، يكفل لها تشابك الخيوط، أو بناء هرمياً يحفظ لها إيقاعها الصاعد، وأما ما دون ذلك فهو نمو تراكمي لا نحس إزاءه إلا ببناء فسيفسائي مسطح.

وبعكس الجيل الثاني من النقاد الذين يستعذبون الوقوف عند نص بعينه لشاعر بعينه، فيدرسونه دراسة معزولة عن السياق، نجد الناقد إحسان عباس في كتابه «بدر شاكر السياب حياته وشعره» (١٩٦٩) يحيل السيرة إلى دراسة نصية، فهو لم يكتف بالرجوع إلى المنكرات والرسائل، والأوراق المحفوظة لدى أقارب السياب، وأصدقائه الأذنين، ليكتب لنا سيرة أدبية جادة، ولكنه أضاف إل ذلك الخروج من خط السير في نقد السيرة إلى وقفات أمام قصائد بعينها للسياب، وقدم لها دراسة نستطيع القول بأنها شكلية وإن لم تكن معزولة عن السياق.

أخرين هما: «غريب على الخليج» و«أنشودة المطر».

وينم تتبعه لرموز السياب على حرصه المتواصل لدراسة لغة القصيدة، وأثر هذه اللغة في بنائها الداخلي، فهو يصف جملة السياب مستعرضاً نماذج من تراكيب الشاعر، ليخلص إلى نتيجة هي أن السياب يميل إلى الجملة الاستطرادية التي يقتحمها الكثير من الاعتراض وهذا يؤدي إلى ما يعرف بالمعاذلة بالتعبير النقدي الموروث.

ويتتبع إحسان عباس ظلال النص في غيره من نصوص الشاعر «فأنشودة المطر» مثلاً يجد جذورها في «غريب على الخليج»، وقصيدة «المومس العمياء» نجد أصولاً لها في قصيدة «فجر سلام» وهذا التتبع -بلا أدنى شك- يؤكد على القاعدة القائلة بفتح النص على غيره من النصوص، وإن النص الشعري، هو -في الأصل- نص توالدي، تتناسل منه نصوص أخرى. وإذا كان الناقد لم يقل ذلك صراحة فإن نزوعه للتطبيق يفوق في دلالاته أهمية التنظير لهذا الأمر. والصحيح أن إحسان عباس يسعى لوضع القارئ في جو النص قبل تقديمه، وهذا قد يؤخذ عليه من جهة أن النقد النصي يستبعد الاستعانة بالملاحظات الخارجية، ونحن إذا سلمنا بذلك فإن إحساناً قد تجاوز هذه الملاحظات، موعلاً في دراسة

الناقد إحسان عباس ومعايير مقارنة النص الحديث

البناء المقطعي، ودورات القصيدة، جاعلاً من الشكل معياره الحاسم في الحكم على النص، وهذا فيه ما فيه من التعبير عن منحاه الشكلي في دراسة النص ونقده.

وفي كتابه «اتجاهات الشعر العربي المعاصر» (١٩٧٨) يؤكد إحسان عباس أن دراسة الشعر لا يمكن أن تعتمد على المحتوى فالشعرية لا تتبع من المحتوى بل تتبع من الجو المكاني، والزماني، والنمو العضوي، واستخدام المنولوج الداخلي، وهي، كلها عناصر شكلية، ينبغي أن تكون موضع تأمل للناقد، ويركز تركيزاً شديداً في تناوله للمفردة الشعرية، مؤكداً دورها السجري في اشتعال التجربة الإبداعية لدى كل من السياب والبياتي وفي موقع آخر يؤكد حقيقة أخرى وهي أن النص الشعري ليس نصاً محكم الإغلاق، بل هو بناء مفتوح تتسرب من خلاله أهوية نصوص أخرى، ويتناول قصيدة لأدونيس فيتتبع من خلالها نماذج من التراث تتدفق عبر النص، ونماذج من بودلير، وأخرى من سان جون بيرس، مستنتجاً صحة قول بارط: «إن الانفراد المطلق يعز على كل إنسان». والحق أن هذا الكتاب يحتوي على أفكار كان الناقد قد سبق أن ألمح إليها، أو طبقها في دراساته التحليلية لشعر البياتي والسياب، ولكنه هنا- يقوم بتعميمها على نماذج أخرى

من شعر الشعراء، فدوى طوقان، وأدونيس، وخليل حاوي، ونازك الملائكة، وغيرهم من رواد الشعر العربي الحديث. وفي أثناء ذلك يرفض ما كان قد درج عليه النقاد المتأثرون بالنقد الأيديولوجي، فهو يحذر من تناول الشعر على أساس المذهب، لأن الشعر: أكبر من أن يقوِّب في منظومة فكرية معينة كالوجودية، أو القومية، أو الماركسية». يقول الناقد في هذا الشأن: «وأشد الأمور خطورة في هذا النوع من النقد هو أن تحول النصوص إلى وثائق اجتماعية أو عقدية يحلها الناقد. فهذا أمر محتاج - في رأيه - إلى حذر كبير». وتحصيل الحاصل أن إحسان عباس في نقده، أو لنقل في ممارسته النقدية يوجه اهتمامه إلى لغة النص، والعلاقات الفنية المتشابكة في نسيجه المعجمي والتركيبي، ويتوقف عند الأسطورة وأثرها في بنائه وينظر بعين الاهتمام إلى تفاعل النصوص بعضها ببعض، ويعمد إلى تحليل الصلة التماسية بين أعمال الشاعر الواحد، وأعمال بعض المختلفين، ويهتم - كذلك - بالنظرة المقارنة التي تحيل النص إلى جذوره الأولى في شعر هذا الشاعر الغربي أو ذلك. ويعني كذلك بتحليل شيفرة النص، ورموزه، وألغازه. ويحاول في غير موضع أن يتبين - في ضوء الملاحظة الداخلية - البنية الهندسية التجريدية للنص

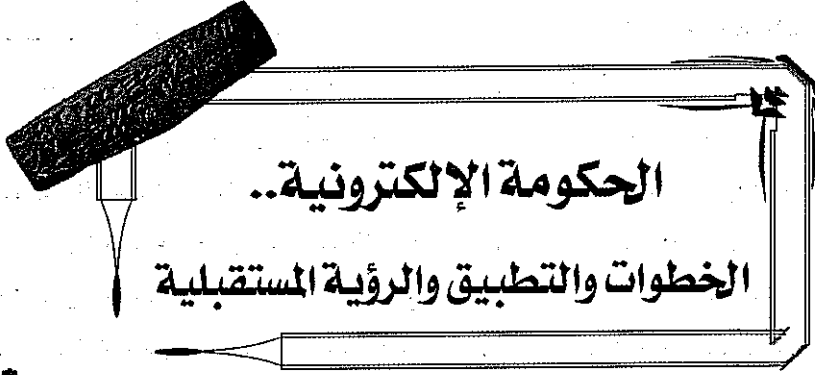
الناقد إحسان عباس ومعايير مقارنة النص الحديث

فيشير إلى الاستقطاب والبناء والمزدوج والتوازي ويُنبِّهه إلى الاتساق الداخلي، والترايط، ويتكلم في بعض ما عرض له من شعر على الخصائص الأسلوبية، مما يعد ملحظاً مهماً من الملاحظ التي يعني بها النظر النقدي الحديث.

وما من ريب في أن إحسان عباس قد أفاد في جل ما كتبه من «النقد الجديد» ولا سيما من إليوت ومما كتب عن شعراء المدرسة التصويرية. وهذا لا يعني أن ما كتبه كله من النقد الشكلي، ففي عطاءه دراسات وبحوث لا تمت إلى هذا النقد بوشائج قوية، من ذلك بحوثه عن الشعر العربي وحرث حزيان، و« الشعر في السودان»، و« الشعر في فلسطين حتى نهاية الانتداب البريطاني».

وبعض وقفاته عد أشعار معين بسيسو، وكمال ناصر، وإبراهيم طوقان، وأبي القاسم، ونسيب عريضة. ففي هذه الأعمال غلب على الناقد تأثره بالموضوع، والموقف السياسي للشاعر، أو المنعطف التاريخي، وهو في هذا يكون قد تجاوز الخط الأحمر الذي رسمه بنفسه لتحذير النقاد من الانزلاق في الوثائقية، والعقائدية، التي تحيل الدرس النقدي إلى درس كبير الخطورة.

آفاق المعرفة



الحكومة الإلكترونية..

الخطوات والتطبيق والرؤية المستقبلية

د. أحمد طه

ضمن دراسة أعدت لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي لجمع المعلومات والتقنيات المطلوبة لوضع مشروعات الحكومة الإلكترونية موضع التطبيق، وقد أعدت هذه الدراسة خصيصاً للبلدان النامية، والتي يعاني فيها المواطن من الروتين الحكومي ويسود فيها العمل الورقي بشكل كبير. فالبلدان التي تعاني من ارتفاع معدلات الأمية، وزيادة السكان، تقع تحت وطأة الروتين في الهيئات الحكومية وتهدف هذه الدراسة إلى وضع الطرق والأساليب الملائمة للتعلم على قضايا الروتين وتقديم خدمات أسرع وأسهل للمواطنين،

* ناقد سوري.

✉ العمل الفني، الفنان علي الكفري.

العمليات الداخلية كالتوظيف والتقنية والمعاملات وإدارة سير العمل، أما بالنسبة لموظفي الحكومة وإداراتها فهي تعني تسهيل التنسيق والتعاون بين الإدارات لضمان اتخاذ القرارات الملائمة في الوقت المناسب.

• ما هي نوعية معاملات الحكومة

الإلكترونية؟

تهدف الحكومة الإلكترونية إلى تيسير التعامل مع المواطنين، والأعمال التجارية، وموظفي الحكومة وإدارتها، وجعله أكثر ملاءمة ويسراً وشفافية، إضافة إلى تقليل كلفته وزيادة كفاءته، ففي نظام الحكومة الإلكترونية، يستطيع الأفراد أن يتقدموا بطلب للحصول على خدمة حكومية معينة، ثم يتلقون هذه الخدمة عبر الإنترنت أو عبر آلية حاسوبية معينة.

• ما نوعية الخدمات المحددة التي

يمكن تقديمها من خلال الحكومة

الإلكترونية؟

تتمثل الأنواع الأربعة لخدمات الحكومة

الإلكترونية فيما يلي:

- من الحكومة إلى المواطن.
- من الحكومة إلى عمل (شركة).
- من الحكومة إلى موظف.
- من الحكومة إلى حكومة.

من خلال تطبيقات الحكومة الإلكترونية وتقنيات الاتصال والمعلومات مثل الرسائل القصيرة وIVRS، ولعل من أهم المشكلات التي تواجه البلدان الآسيوية -الباسفكية حالياً هي إعداد مجتمعاتها وحكوماتها للعبوة وثورة الاتصالات والمعلومات.

وليس استطراداً أن تقنيات المعلومات والاتصالات تؤدي دوراً حيوياً متمائياً في حياتها اليومية، محدثة ثورة في أساليب العمل والترفيه، ومغيرة قواعد التجارة والأعمال، وتسعى هذه الدراسة إلى توضيح القضايا الأساسية المتعلقة بالحكومة الإلكترونية وتبسيط الضوء على أفضل أساليب ممارستها في البلدان النامية.

• ما هي الحكومة الإلكترونية:

تهدف الحكومة الإلكترونية إلى تحسين الولوج إلى الخدمات الحكومية وتطوير طرق تقديمها للمواطنين، والأهم من ذلك أنها تهدف إلى المساعدة على تفعيل الحكومة بشكل أكبر، وزيادة الشفافية سعياً إلى إدارة أفضل للمصادر الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع من أجل التنمية. وتكمن الفكرة الرئيسية للحكومة الإلكترونية في تأسيس استراتيجية مؤسسية شاملة طويلة المدى تساعد على تطوير العمليات بهدف تلبية احتياجات المواطن من خلال تحويل

في التفاعل المتبادل وتحسين واجهة التواصل بين الحكومة وجهات العمل الأخرى، ويعتمد هذا الهدف بدرجة كبيرة على البلد الذي يجري فيه التطبيق ونقاط القوة في صناعاته ومدى تمتعه بالتنافسية على المستوى العالمي.

ب- التفاعل مع العملاء عبر الإنترنت بدلاً من وقوفهم في صفوف، وبشير هذا إلى إيصال الخدمات للمواطنين بفعالية مصحوباً باستجابة سريعة من قبل الحكومة مع الحد، قدر الإمكان، من تدخل الموظفين.

ج- دعم الجوانب الجيدة في الحكومة وتوسيع قاعدة المشاركة الشعبية، إضافة إلى تنمية الشفافية والمصداقية في الحكومة من خلال نشر تقنيات المعلوماتية والاتصال في الإدارة والعمليات، الأمر الذي يمنح الفرصة للمواطنين بأن يكونوا أكثر مشاركة في السياسة الحكومية وعمليات صنع القرار. وكأداة رئيسية في بناء نهج الشفافية في الحكم يمكن للحكومة الإلكترونية أن تدعم مكافحة الفساد. على أن الحكومة الإلكترونية وحدها لا يمكنها وضع حداً لهذا الفساد، إذ يجب أن تكون مصحوبة بآليات أخرى، كي تتسم بالفعالية.

د- تحسين إنتاجية وكفاءة الدوائر الحكومية وبشكل أكثر تحدياً، ويمكن

• هل الإنترنت هو الوسيط الوحيد

لتحقيق الحكومة الإلكترونية ؟

وفقاً لما يقوله الدكتور ريتشارد هيكس، مدير معهد تطوير السياسة والإدارة في جامعة مانشستر، فإن البلدان النامية الهادفة إلى استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات من أجل حكومة أفضل، يجب أن تتواءم مع الوسائط الذكية في المراحل الأولى من الحكومة الإلكترونية، وقد تأتي هذه الوسائط على شكل مهنيين قائمين بالفعل (كالمحاسبين العاملين على أنظمة الضرائب عبر الإنترنت أو كتاب العدل القائمين على نظم التسجيل عبرها).

أهداف الحكومة الإلكترونية

قامت المجموعة العاملة على تطبيق الحكومة الإلكترونية في العالم النامي بتعريف خمس فئات من الأهداف العامة التي تسعى الحكومة الإلكترونية إلى تحقيقها، على أن يقرر كل بلد من تلك البلدان أولوياته في هذا الصدد ضمن الأطر التالية:

أ- خلق بيئة عمل أفضل تساعد على استخدام تقنيات المعلومات والاتصال في الحكومة وتأسيس بنية تحتية للحكومة الإلكترونية تعمل على خلق بيئة عمل أكثر يسراً وسهولة، من خلال تحقيق الانسيابية



للحكومة الإلكترونية أن تساعد على زيادة إنتاجية موظفي الحكومة، وأن تقلل من حجم المصاريف الثرية، من خلال تقليص عدد المكاتب والأعمال الورقية، وتقليص الكلفة على المديين المتوسط والطويل، وتفعيل الأنشطة الحكومية.

هـ- تحسين مستوى المعيشة في المجتمعات النامية وذلك من خلال مشاركتها في العملية السياسية بالإضافة إلى تقديم السلع والخدمات الأساسية لها.

• كيف تصبح الحكومة

أكثر استجابة ويصبح الوصول إليها أسرع عبر استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات؟

من خلال تركيزه على استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات في تقديم الخدمات، يقدم نظام الحكومة الإلكترونية هيئات حكومية لديها القدرة على إعادة هيكلة كيفية تقديمها للخدمات، انطلاقاً من أن تقنيات المعلومات والاتصالات من شأنها أن

تعيد الخطوات المطلوبة للوفاء بمتطلبات إجراء معين.

الحكومة الإلكترونية والتطوير البشري

• كيف يزيد استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات من كفاءة الحكومة؟

يعد استخدام المعلومات والاتصالات من الأمور التي تمكن الحكومات من تحسين أدائها وتطويره، بالتالي، فإن الأداء، الأفضل والأكثر كفاءة للحكومة يظهر من خلال

• ما الطرق التي يمكن للحكومة الإلكترونية اتباعها للمساهمة في الديمقراطية الرقمية؟

تتحمل الحكومة عبء ومسؤولية التأكد من أن المواطنين، والمجتمعات، والأعمال التجارية، والمجتمع المدني مجهز بالمعلومات الكاملة التي تمكنه من اتخاذ القرارات الحياتية المناسبة في الوقت الملائم، فقد مكن استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات المواطنين حول العالم من الانخراط بشكل أكبر في العملية السياسية، ومكّتهم من إيصال أصواتهم والمشاركة في تطوير العملية السياسية الشاملة للفعاليات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي التأثير في صنع القرار، ويمكن للحكومة الإلكترونية أن تقدم تسويقاً وترويجاً للأعمال النسوية، مثل الحرف اليدوية والملابس والفنون التقليدية، كذلك يمكن استخدام الحكومة الإلكترونية في دعم مشاركة المرأة في العملية السياسية، ومساعدة النساء على ممارسة حقوقهن الأساسية، وتحسين أداء النساء المنتخبات إضافة إلى دعم الدفاع عن قضايا المرأة ونشر المعلومات المتعلقة بها.

كفاءتها في إدارتها الناجحة لمجمل مفردات العملية السياسية الشاملة لجميع مرافق الحياة.

• ما آثار المساواة في الوصول إلى المعلومات والخدمات الحكومية؟

غني عن القول إن تطبيق الحكومة الإلكترونية يسهل مشاركة المواطن في الحكومة من خلال زيادة قنوات الاتصال معها. وكما أن لنظام الحكومة الإلكترونية ميزة إضفاء سمة الديمقراطية على تقديم الخدمات الأساسية، والتوزيع العادل للجهود التنموية، فإن تلك الإمكانيات يمكنها أن تكون عاملاً مؤثراً في إبعاد المواطن عن الحكومة وتعميق الفجوة القائمة بينهما.

• ما الديمقراطية الرقمية؟

يمكن القول بأن الديمقراطية الرقمية تصبح قيد التطبيق عندما يحسن استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات من خلال مساهمة المواطن في العملية الديمقراطية الشمولية كإسهامه في صنع السياسات، وعمليات اتخاذ القرارات الحكومية، والحملات الانتخابية والتصويت، والاستشارات، واستطلاعات الرأي العام، وتبادل الاتصال بين المسؤولين المنتخبين من جهة، والناخبين من جهة أخرى.

تحديات الحكومة الإلكترونية

• من يمول الحكومة الإلكترونية؟

يمكن إنجاز الحكومة الإلكترونية على مراحل، وتعتمد كلفة التنفيذ على مدى توافر البنية التحتية اللازمة، وطاقات الموردين والمستخدمين، وعلى الحكومات أن تركز على المشروعات الصغيرة التي تمول نفسها بنفسها، أو التي لديها مصادر تمويل خارجية، وتعد المشروعات الأصغر ذات الاستراتيجية الربحية الواضحة ومبلغ استثمار أولي بسيط من أفضل المشروعات المناسبة على المدى الطويل. وهناك العديد من نماذج الأعمال لتمويل مشروعات الحكومة الإلكترونية، ويؤدي القطاع الخاص دوراً مهماً في تلك المشروعات، حيث يقوم من خلال الشراكة ببناء، وتمويل وتشغيل مشروعات البنية التحتية العامة كالمطارات والطرق واستعادة التكاليف المنفقة من خلال رسوم الاستخدام، وتعد مشروعات البناء والتشغيل وتحويل الملكية BOT بمختلف صورها هي أفضل النماذج / الترتيبات لإنجاز المشروعات الحكومية التي تحتاج إلى تمويل ضخّم وفوري من القطاع الخاص، ووفق هذا النظام يقوم القطاع الخاص بتصميم وتمويل وبناء وتشغيل

المرفق طوال مدة العقد، ويمكن للحكومة أن تشجع استثمارات القطاع الخاص من خلال إكمال ومساندة جهود القطاع الخاص بدلاً من تكرارها.

• كيف يمكن حفز العامة لاستخدام

خدمات الحكومة الإلكترونية؟

لا يستخدم العديد من المواطنين الحكومة الإلكترونية لعدة أسباب لعل من بينها عدم الخبرة بأمر المعلومات والاتصالات، ونقص إمكانية الوصول للخدمات، أو نقص التدريب، أو الحرص على خصوصية المعلومات وأمنها، وقد تسرع الحكومة الإلكترونية في تقديم الخدمات العامة للعملاء تسهياً وإرضاء لهم، كما أن بإمكانها أن تقدم خدمات حكومية جديدة ومبتكرة، على أن أياً من هذه المزايا لن يحدث العامة على استخدام الحكومة الإلكترونية ما لم تعالج القضايا التي سبقت الإشارة إليها.

الإطار الوطني الاستراتيجي

للحكومة الإلكترونية

يحتاج تطبيق الحكومة الإلكترونية إلى وجود قيادة قوية ورؤية واضحة، كما يتطلب استراتيجية شاملة لا تستند فقط إلى أفضل الممارسات العالمية في هذا المجال، ولكن

الحكومة الإلكترونية ..

يعتمد على البلد المطبق لها، وعلى الكيفية التي يعمل بها النظام السياسي في ذلك البلد، ومستوى التقدم التكنولوجي في كل وحدة حكومية على حدة، ومن المهم كذلك تفهم الاتجاهات الدولية ودراسة أفضل الممارسات العالمية لمشروعات الحكومة الإلكترونية واستراتيجياتها. فدراسة تجارب النجاح والفشل للبلدان الأخرى هي وحدها التي تمكن البلد الدارس من صياغة استراتيجية الحكومة الإلكترونية الخاصة به بشكل ناجح وفعال، وتفادي الأخطاء التي تكلف الكثير من الوقت والجهد والمال.

• كيف يمكن إقامة بنية تحتية مناسبة للحكومة الإلكترونية؟

يحتاج الأمر إلى بنية تحتية معلوماتية على شكل شبكة ترتبط جميع الهيئات الحكومية وذلك لضمان تمتع المواطنين بجميع خدمات الحكومة الإلكترونية، ويذكر بالأهمية ضرورة إجراء دراسة الجدوى المالية بهذا الصدد، وتتضمن المسائل المتعلقة بالبنية التحتية القائمة للبلد المعني المستوى الحالي لتغلغل الإنترنت، وكثافة الشبكة الهاتفية، وسرعة حدوث التغيير التكنولوجي.. إلخ، فوجود العمود الفقري لهذه البنية يشكل الضمان اللازم لانتهاجية

تمتلك في الوقت نفسه الحساسية الكافية بالظروف والوقائع السياسية والاقتصادية. ولكي تصبح الحكومة الإلكترونية حقيقة واقعة فإنه يتوجب على الحكومات القيام بتشكيل إطار عمل وطني استراتيجي دون أن تتعطل مشروعات الحكومة الإلكترونية المهمة على مستوى السورارات والهيئات الحكومية أو المحليات بسبب نقص الإطار الوطني.

• ما هما منظورا تناول الحكومة

الإلكترونية؟

يمكن تناول الحكومة الإلكترونية من منظورين: الأول هو المنظور الإسقاطي (من أعلى إلى أسفل)، وهو منظور يتسم بدرجة عالية من الضبط والتحكم من قبل الحكومة المركزية، وعادة ما يتضمن تطوير استراتيجية ما، أما المنظور الآخر فهو المنظور الصعودي (من أسفل إلى أعلى)، وفيه تتحرك الوزارات الفردية والحكومات المحلية بشكل مستقل في إطار مشروعاتها الخاصة، حيث المعايير العامة تتسم بالمرونة، وحيث الاستراتيجية الوطنية العامة ليست ذات أهمية كبرى. على أنه يمكن القول إن أفضل منظور لتناول الحكومة الإلكترونية

الحكومة الإلكترونية..

المعلومات مع إبقاء القطاع العام مواكباً
لثورة الإنترنت العالمية.

تطبيق الحكومة الإلكترونية

الخطوات الخمس لذلك هي:

- ١- تكوين الرؤية.
- ٢- تقييم مدى الجاهزية الإلكترونية.
- ٣- تحديد الأهداف الواقعية.
- ٤- تحية البيروقراطية جانباً، وتطوير
استراتيجية إدارية تهدف إلى التغيير.
- ٥- بناء شراكة بين القطاعين العام
والخاص.

• ما أهمية تكوين الرؤية بالنسبة

للحكومة الإلكترونية؟

يجب أن تعكس الرؤية الخاصة بالحكومة
الإلكترونية الأهداف التنموية العامة للبلد،
والاهتمامات والأهداف الأوسع للمجتمع.
ومن المهم إشراك المواطنين في تكوين تلك
الرؤية وتعزيز قدرة القائمين على الأمر في
المشاركة في عملية صنع القرار الحكومي.

• ما تقييم مدى الجاهزية

الإلكترونية؟

من المهم القيام بعمل جرد شامل
للأصول على مستوى الحكومة، وبعد أن
تقرر الحكومة ما لديها، يجب تقرير مدى
جودته، وبالتالي تقرر ما ليس لديها، كي

التواصل الحكومي وأمنه وعمله على مدار
٢٤ ساعة، سبعة أيام في الأسبوع، ٣٦٥ يوماً
في السنة، على أن بناء مثل هذا العمود
الفقري قد يستغرق سنوات ويكلف بلايين
الدولارات لاستكمالها.. بل إنه إذا أرادت
الحكومة التطبيق الفوري لنظام الحكومة
الإلكترونية لما أسعفها الوقت ولا المصادر
للقيام بذلك. ومن البدائل المناسبة استخدام
عمود فقري آخر موجود حالياً، كشبكات
الاتصال الخاصة، كتلك التي تدار من قبل
إحدى شركات الاتصال الكبرى. على أن هذا
يعني أن الحكومة ستعهد بأمن الشبكة إلى
المشغل الذي سيطلب كذلك الكلفة الدورية
لصيانة الشبكة، والدعم الفني، بالإضافة
إلى الأخطار المحتملة لتعطل الشبكة.

• ما هي هندسة البرامج ولماذا

هي مهمة في تطوير الحكومة
الإلكترونية؟

يعتبر وجود برنامج جيد التخطيط
يتمتع بالأمن والمرونة أمراً على درجة كبيرة
من الأهمية بالنسبة للحكومة إذا ما أرادت
أن تفي بالمطالبات المتزايدة على تقديم
الخدمات عبر قنوات الخدمة المستقبلية،
ولعل هذا منظور نفعي يقلل النفقات
والمخاطر الخاصة بتشغيل أنظمة تقنية

الحكومة الإلكترونية..

لزم الأمر، يجب إلزام الآخرين من العاملين داخل النظام الحالي بالتكيف مع متطلبات البيئة المتغيرة.

• لماذا يعتبر تغيير الإدارة أمراً مهماً؟

يضمُّ المشاركون في مرحلة التخطيط التطويري الأولية الموظفين المدنيين لإكسابهم بعد «الملكية» في العمل والإنتاج.

قم بحملة توعية معلوماتية داخل المؤسسات البيروقراطية وبين العامة.

شكل معايير بناء القدرة لتطوير ثقافة التعليم المستمر داخل الأنظمة البيروقراطية.

• ما أهمية القيادة في نجاح مشروع الحكومة الإلكترونية؟

تعد القيادة السياسية القوية من العوامل المهمة لنجاح مشروع الحكومة الإلكترونية لأنها تضمن الالتزام طويل الأمد للمصادر المالية، وتوفير الخبرة الشخصية والفنية في تصميم وتطوير وتطبيق مشروعات الحكومة الإلكترونية.

• ما أهمية بناء الشراكة بين القطاعين العام والخاص؟

يتمتع القطاع الخاص بخبرة غير مسبوقه يمكن للحكومة استقاؤها في مجالات عدة

تتمكن من وضع قائمة بالمشترتات اللازمة لبدء تنفيذ مشروع الحكومة الإلكترونية.

• ما الأهداف الواقعية؟

من الشعارات الجيدة التي يمكن تبنها في الحكومة الإلكترونية «فكر على نطاق واسع، ابدأ صغيراً، وانمُ بسرعة»، الأمر الذي يعني أن التركيز في البداية يجب أن يكون على المشروعات المتصلة بالتطبيقات الحيوية والتي تتسم بالاعتمادية وإمكانية التنفيذ والإدارة لا المشروعات التي تتسم بالتوسع والكلفة العالمية.

- حدد الخدمات الحكومية التي سيتم توفيرها من خلال الحكومة الإلكترونية.

- حدد معايير لقياس مدى النجاح والفشل أو التقدم في إنجاز مشروع الحكومة الإلكترونية.

- حدد المؤسسات الرئيسية والشخصيات القيادية في الحكومة التي سوف تتولى القيادة وتكون بمنزلة رأس الحرية، في تطوير وتطبيق مشروعات الحكومة الإلكترونية.

- وأخيراً، إذا واجه مشروع الحكومة الإلكترونية معارضة ما، فإن باستطاعة أحد مسؤولي القيادة العليا فقط أن يقود حملة التحفيز والتشجيع على استخدامها، وإذا

الحكومة الإلكترونية ..

فيمكن لتقنية المعلومات والاتصال أن تخلق نوعاً من التقسيم الرقمي، الذي يتمخض ليس فقط عن قطاعات هامشية لأفراد لا يمكنهم الوصول إلى المعلومة أو اكتساب مهارة استخدام التكنولوجيا، بل يؤدي كذلك إلى تقليل قدرة المواطنين على إشراك الحكومة في الحوار العام.

• كيف يمكن للحكومة الإلكترونية المساعدة على تخطي التقسيم الرقمي؟

يمكن للحكومة الإلكترونية تسهيل تقديم الخدمات الإنسانية، تلك الخدمات الأكثر إلحاحاً والتي تشتد الحاجة إليها في البلدان النامية أكثر من إتاحة الفرصة للوصول إلى تقنية المعلومات والاتصالات أمام المجتمعات الهامشية، ومساعدتهم على تأطير العملية السياسية والمشاركة فيها. وعلى صانعي السياسات أن ينظروا بعين الاعتبار لكي يتم تخطي الفجوة الرقمية من خلال الحكومة الإلكترونية فإن عليهم أن يجعلوا الحكومة الإلكترونية ذات علاقة مباشرة مع احتياجات المواطنين، فرغبة المواطنين في استخدام الحكومة الإلكترونية إنما ستتبع وتتنامى من تلبية احتياجاتهم الفعلية.

قراءة في التقرير الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (e- Asean Task Force- Undp- Apdip)

مثل رضا العملاء، مكاسب إنتاجية العمل، والكفاءة الشخصية.

• ما المبادئ التي يجب أن تحكم العلاقة بين القطاع الخاص والحكومة؟
قامت مجموعة العمل بتعريف خمسة مبادئ رئيسية على درجة كبيرة من الأهمية في تحديد أطر العلاقة بين الحكومة والقطاع الخاص بطرق تعود بالنفع على كلا الجانبين:

- العائد على الاستثمار.
- الحد من استنزاف العقول يتطلب التخطيط.
- خلق نماذج عمل واقعية لمشروعات الحكومة الإلكترونية.
- تحديد نقاط القوة لدى كل طرف.
- وضع السياسات الرسمية المنظمة لاستخدام المصادر.

• كيف يؤثر التقسيم الرقمي في نجاح تطبيقات الحكومة الإلكترونية؟

يشير مصطلح التقسيم الرقمي إلى الفجوة بين الأفراد، أو العائلات، أو الشركات، أو المناطق الجغرافية على المستويات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة فيما يتعلق بكل من فرصهم في الوصول إلى المعلومات وتقنيات الاتصال، واستخدامهم للإنترنت في العديد من الأنشطة. وعليه

آفاق المعرفة



الإرهاصات العلمانية المعاصرة بين أمين الخولي وزكي نجيب محمود

د. محمد فوزي الجبر

عاش الفكر العربي في سياقه التاريخي فترة مزدهرة من الزمن والذي عُرف بعصر النهضة العربية، والذي يمتد من أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، حيث نجد التيارات الفكرية المختلفة في هذا السياق تتحاور فيما بينها وتختلف كذلك فيما بينها. وذلك في جو من الحرية والتسامح، ومن خلال هذا التحاور حدث نوع من التلاقح، والتأثير والتأثر بين ذينك الاتجاهات المتنوعة، ولم يكن هناك تجاه يدعي أنه يمتلك

* باحث في علم الاجتماع وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني، الفنان مطبع علي.

إلى حالة واضحة بين الفكر الأصولي الديني والعلماني العلمي والتوفيقى الفكرى فهذا زكى نجيب محمود يتساءل كيف نوائم بين الفكر الوافد الذى بغيره نقلت منا عصرنا أو نقلت منه، وبين تراثنا الذى بغيره نقلت منا عروبتنا أو نقلت منها^(٦). ولكن من خلال قراءة خطاب فكرى معاصر عن هذه المرحلة وعن أفكارها وتجربتها الفعلية، نجد خطاب نخبة من المفكرين العرب الذين طرحوا معضلة وأسئلة محاولين الإجابة عليها.

الصراع بين التيارات الفكرية:

نهض تساؤل لدى الجميع: إلى أين يسير المجتمع العربى؟ والسؤال نراه عفواً وطبيعياً ليس استفهامياً أو معرفياً خالصاً بل هو سؤال حول المصير والوجود والذات، وهو أقرب إلى أن يكون سؤالاً يشكل علامة وأزمة بحد ذاته، أما إذا أردنا أن نحول السؤال إلى سؤال معرفى فيجب أن يكون السؤال كالتالى: ما هو النموذج الحضارى الذى يتجه نحوه المجتمع العربى؟

هذا السؤال فى رأينا يمثل أساس إشكالية الصراع بين التيارات الفكرية والأنظمة السياسية فى العالم العربى منذ مطلع هذا القرن وهو فى أساس إشكالية /التقدم

الحقيقة المطلقة، ولذلك دارت الحوارات حول مسائل مهمة فى الفكر العربى مثل الحكم الدينى، الحكم المدنى، علاقة الزمنى بالروحى، علاقة العلم بالدين، علاقة الأنا بالآخر، علاقة الدين بالسياسة^(٧)، وفى ظل هذه المحاورات حدثت تأثيرات متبادلة بين الاتجاهات الفكرية كافة، إلا أن المشكلة فى الفكر العربى. آنذاك. لم يتح له الزمن الكافى، حتى يعمل من أجل الوصول إلى مركب جدلي من خلال هذه المجادلات الفكرية يصلح لأن يكون استراتيجية موحدة للفكر العربى يحدد مواقفه حيال علاقة الوافد بالموروث، والحدائق بالتراث، والحاضر بالماضى، والمدنى بالدينى، وهى ثنائيات اختلفت حولها الرؤى. ومع النصف الثانى من القرن العشرين بدأت مرحلة التحرر من الاستعمار، وسيطرة النظم الاستبدادية والعسكر على مقاليد الحكم فى العالم العربى، فبدأت الطبقة الوسطى تتآكل فى المجتمع العربى، ونتج عن ذلك تحول اهتمام المفكرين العرب المعاصرين من الهم الوطنى، والبحث عن التقدم والنهضة، إلى الخلافات الفكرية بين تيارات الفكر العربى كافة. حتى وصلنا مع نهاية القرن العشرين



والنهضة والحداثة/ في الخطاب
الفكري العربي المعاصر، فالاتجاه نحو
نموذج حضاري ما يفترض التقدم
والنهوض ومواكبة العصر أو التحديث
والعصرنة... أو هكذا خيل للبعض،
فيما رأى البعض الآخر أن هذه
المفاهيم لا تعني شيئاً لأنه لا يمكن
فصلها عن سياقها التاريخي وشروط
تكونها وظروف تشكلها وتطورها في
الواقع والتجربة، ومن هنا دعا الفريق
الأول إلى التعامل بالمطلق كمفاهيم
وأفكار تقدمية تغيرية نهائية، فيما
رأى الثاني أنها المسؤولة الأولى عن
التخلف وأنها بالتالي العقدة في نظام
التبعية والتغريب.

ترتفع إلى مستوى رفيع من المعرفة العلمية
نظرياً بمعطيات مختلفة لهذا الواقع، فجوهر
الإشكالية في الحقيقة يتمثل في جدلية
العلاقة بين الفكر والممارسة لذا نلاحظ بأن
الفكر العربي تتشابك وتتداخل معه عوامل
كثيرة مما يضاعف من إشكالية العلاقة
بين الفكر العربي والواقع المعاش ومن هنا
يمكن الاستفادة من طروحات المفكر القومي
السوري أنطون سعادة بهذا الخصوص سيما
حينما حاول إيجاد حلاً لمجمل التناقضات

لذا في تقديرنا إن وجهة النظر
في الفكر العربي المعاصر عامة سواء في
المنظومة السلطوية الرسمية أو الاجتهادات
الفردية وفي تجلياته، في برامج ومواقف،
إنما هو خطاب إيديولوجي قاصر عن
الإحاطة والعمق والاتساق المعرفي العلمي
بالواقع العربي في جلّ معطياته^(٣).
وكذلك بعيد عن الفاعلية، نعم بدون ريب
هناك ثمة اجتهادات فكرية وبحثية فردية،

القومية، يقول سعادة في هذا الإطار ما يلي: «إن علل الأمة ليس فقط اجتماعية بمعنى اقتصادي بحث أو سياسية محض، بل هناك قضيتان أساسيتان بدون حلّهما تبقى العسل آخذة بعضها بعض هما قضية المجتمع بكامله، قضية وجوده وشخصيته الحقوقية والسياسية. وقضية نفسية المجتمع ومناقبيته»^(٥).

هذه العوامل مجتمعة هي بحسب نظرنا . التي حاولت صياغة وتفاقم إشكالية العلاقة بين الفكر العربي والواقع المعاش، وهنا يظهر سؤال مفاده هل يمكن حسم هذه الإشكالية وتجاوزها في إطار الفكر وواقعه؟ وبالتالي كيف يمكن تحديد النموذج الحضاري لهذا الواقع المجتمعي؟

فالجواب المنطقي الموضوعي يكمن من وجهة النظر تلك لهذا الفكر، بأن حلقة الحسم والخلاص من تلك الإشكالية هي تنمية الفكر العقلاني النقدي العلمي والعمل على تعميم هذا الفكر بمختلف الوسائل الإعلامية والتعليمية والثقافية، لذا لا بد من نقد الفكر العربي السائد نقداً مفهوماً داخلياً، والارتقاء به من فكر أيديولوجي جامد، إلى فكر نظري علمي متجدد، ولكن

الحاصلة في الفكر والمجتمع حين قال: «إن نظاماً جديداً للمجتمع الإنساني يزيل كل التشنجات والاضطرابات الناتجة عن نظام الطبقات ويفسح المجال لتفاعل ينمي الحياة ويقويها ويجعلها صالحة للإنسان ومصالحه النفسية والمادية»^(٦).

فهناك مثلاً عامل يؤكد أن العالم العربي وإذا حقق الاستقلال السياسي، فإنه قد ازدادت تبعيته الاقتصادية للغرب، وهناك عامل تمثل في الاتجاهات الفكرية، حيث يغلب على تجلياتها الفكرية إما الطابع التوفيقي الذهني، أو الطابع السلطوي الذي يفقد الرؤية الموضوعية للواقع، أو الطابع البيروقراطي التقني والمنعزل عن المشاركة في قضايا الجماهير، هذا فضلاً عن الاتجاهات الدينية المستتيرة، والاتجاهات القومية على الرغم من أنها ذات طابع إيجابي تويري نقدي، إلا أنها يغلب عليها الطابع النخبوي.

كذلك نجد عاملاً تمثل في واقع الاختلاف الجغرافي والسياسي والاجتماعي بين البلدان العربية الذي يعتبر من الأسس الموضوعية التي تستند إليه الاتجاهات الانعزالية والقطرية في عرقلة الوحدة

الواقع، ولا بالتالي تجديد الفكر. بدون المشاركة الديمقراطية الفاعلة لهذه الكتلة الشعبية في أنحاء مختلفة من الشأن القومي يشير سعادة إلى أن الأمة «لا تهض إلا بقضية عظيمة كاملة، ولا تنتقل من حياة إلى حياة إلا بحركة خلق تأسيسية، شاملة جميع نواحي الحياة بحركة شعبية تنشأ من صميم الشعب والأمة وتصارع بأمانة كلية لحقيقة الشعب وقضيته» (٧)، وفي ضوء ذلك نعرض لوجهتي نظر عند مفكرين عريبيين معاصرين هما: أمين الخولي ١٨٩٥-١٩٦٦ صاحب الرؤية التجديدية وزكي نجيب محمود ١٩٠٥-١٩٩٠ صاحب الرؤية التوفيقية.

التجديد برؤية علمانية:

لقد كان لجهود أمين الخولي التجديدية دور مهم ليس فقط كما تحققت في إطار عصرها، بل من أجل الانتهاء إلى المتغيرات الأخيرة على مشارف القرن الحادي والعشرين، إذ جعلنا أشد احتياجاً لاستلهام روح التجديد التطوري في الفكر العربي، والتي ناضل من أجلها المفكر الخولي.

لذا فإن البحث في مفهوم التجديد بمثابة البحث عن طوق النجاة من الانسحاق

لن تحل تلك المعضلة في إطار الذهن، لأنها في الأصل ليست كامنة في الفكر وحده، وإنما كذلك قابعة في الواقع الموضوعي، على اعتبار أن الفكر دائماً مشروط بخبرة الواقع، فالواقع يؤثر في الفكر وكذلك الفكر يؤثر في الواقع وهنا تظهر الحركة الجدلية بينهما، فمن ذلك نرى بالإضافة إلى تعميم الفكر العقلاني بصيغته الاجتماعية تظهر تلك الإضافية بأمرين: الأول منهما يكمن في ضرورة تغيير الواقع ذاته لأن عملية هذا التغيير يتحقق بها كذلك تغيير الفكر، وما نعنيه بالتغيير هنا هو التغيير على صعيد التنمية الشاملة المتناسقة في جل جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية^(٨)، على مستوى كل قطر، وكذلك على المستوى القومي، وذلك بهدف الانتقال بالعالم العربي من حالة التخلف والتبعية والتمزق القومي إلى حالة الاستقلال القومي الذاتي الذي لا يعني الابتعاد عن حقائق العصر بقدر ما يعني المشاركة المتكافئة الديمقراطية في تنمية الحضارة الإنسانية، وأما الأمر الثاني فيتمثل في كتلة الجماهير العربية المبدعة والمنتجة، الحاملة لتراث الأمة، والتي بدونها لا يمكن تحقيق التغيير لذا لا يمكن تغيير

إنها مواجهة ثقافية صريحة، تستفزنا لبعث الحياة والنماء والتطور... التجديد في عصب ثقافتنا ومعامل خصوصيتنا الحضارية.

ويقول أمين الخولي ما يلي: «إن ذلك التجديد الجذري في رؤوس القرون هو العمل الثوري الكبير الذي تحتاجه الأمة، كأنما هو ثورة اجتماعية دورية»^(٨).

وتحتاجه الأمة الآن على ضوء التدايعات الراهنة، أكثر من احتياجها إياه في أية مرحلة أخرى. إن الحاجة تلح الآن إلى إعادة قراءة أصولنا قراءة تاريخانية علمية تجديدية تطويرية، لا أن ننفصل عنها ونتنكر لها إمعاناً في التبعية والاستسلام.

لقد بات من الضروري السير في الطريق الذي عبده الرائد... أمين الخولي للتجديد والتطور في الفكر والمجتمع، إنقاذاً للوعي القومي وللشخصية الحضارية، بل ولوجودنا الحضاري ذاته لاسيما بعد أن تصاعد مدّ العولمة باكتساح كل الخصوصيات الحضارية والتنوع الثقافي فلا يبقى إلا النمط الأمريكي.

ويربط الشيخ أمين الخولي بين ضرورة التجديد، وتغير دورة الزمن، وذلك لأن

الحضاري والضياع الثقافي في خضم ما نعانيه الآن من طوفان الانفلاقات الذي لا يتنازعنا فحسب، بل ويتنازع دعائم وجودنا على خريطة العالم. وبعد أن ماهت الفوارق بين التبعية والاستقلال الحضاري، وترسم بديلاً موقفاً هامشياً هو موقف التنازلات تلو التنازلات، التي أصبحت تلامس ثوابت الهوية، ووضعت القومية موضع الاستفهام والعروبة موضع التشكيك.

ولا غرو أن يعقب هذا انتهاب الأرض وعلو الصهيونية، واهتزاز قيم الحرية والعدل، وانحسار العقلانية وهبوط الوعي، وتراجع المشروع القومي، وشيوع التعصب وذبوع التطرف...

ثم العجز عن الخروج من التبعية للغرب، وهو لا يكتفي بميراثه الإمبريالي والصهيوني الطويل الوبيل مع حضارتنا، بل يعقب هذا أخيراً. بما سُمي «الحرب الثقافية» وقد ظهر هذا المفهوم في أعقاب حرب الخليج. وكان اعتماده صراحة في مقال و. س لنيد «الدفاع عن الحضارة الغربية» بمجلة السياسة الخارجية الأمريكية، ثم في مقال صمويل هنتجتون. الأستاذ بجامعة هارفارد. «الصدام بين الحضارات» بمجلة (الشؤون الخارجية) الواسعة الانتشار.

الغد، ولهذا كان من الضروري عدم الالتزام بتطبيق الماضي، وفهم الماضي للإسلام، لأن ذلك يعني الوقوف عند حدوث المستوى العقلي والاجتماعي لأهل الماضي^(١١) وفي ذلك تناقض لأن الحياة في تغير مستمر، وحركة الإنسان في الزمن في صيرورة متغيرة على الدوام، ويجب على صاحب الدين أن يقدر هذا التغيير، وعليه أن يغير من أفكاره بما يوافق التطور المحتوم الحادث في المجتمع. وإذا كانت الحياة متطورة، والإسلام يريد لنفسه البقاء كان من الضروري التجديد وفقاً لحركة الحياة، وتطوراتها.

ويعرف الخولي التجديد بأنه الرجوع إلى المعين الأول للاستفادة منه، ورد الناس إليه ليعرفوا أن هذه الرواسب، والعوائق ليست إلا طارئة عليه، فإذا مانحوها عنه عاد عذباً فراتاً، وذلك هو التجديد أو الإصلاح التطوري^(١٢) فدور المجدد المطور، هو تقدير سير الحياة، وتغييرها، والعمل على جعل الدين مسائراً وموائماً لحاجتها، سواء أكان ذلك الجديد من خلال الأخذ من قديم كان موجوداً، أم بطريق الاجتهاد في استخراج هذا الجديد بعد أن لم يكن، فالتطور لا يفهم بسهولة من إحياء ما اندثر كما يقال في معنى التجديد^(١٣).

الدين الذي يصلح لكل زمان ومكان، لن يصلح للمسايرة بصورة واحدة لزمان واحد، ومكان واحد، فكيف إذا كان هذا الزمان منذ مئات السنين، ولهذا علينا أن نجاهد جهاد أسلافنا في فهم الدين، وفي الاستعانة على ذلك الفهم بعلوم الأمم الأخرى حولنا لأن التجديد هو الذي يهب العقائد القدرة على مسايرة الحياة^(١٤) ولذلك فمن الضروري مراعاة الزمن لأن أقوى الأشياء هو الزمن، فأي تغير يستدعي تطوراً أكثر مما تستدعيه دعوة، وحياة تريد لنفسها أن تعمر ذلك العمر الأبدي في الأمكنة كلها، مع هذه الأزمنة على طولها^(١٥) ومن هنا لا بد أن يتغير فهمنا للكليات الإسلامية العامة وفقاً لتغير الأزمان، وتطور حركة الحياة.

ونتيجة لمراعاة الشيخ أمين الخولي لحركة الزمن في النظر إلى الإسلام، فقد دعا إلى ضرورة ربط التجديد بالتطور، ويرى أن الإسلام نفسه راعى هذا التطور، فلأن الإسلام دعوة عامة خالدة فهي بحكم السنن الكونية متطورة، وقد فهمه أصحابه قديماً، ثم تغير فهمهم هذا على مر الزمن، وهو اليوم بين أيدي أصحابه يفهمونه ليس بعقل الأمس البعيد، ولكن بعقل اليوم، واستشراف

رؤية عامة للكليات الإسلامية في ضوء ظروف كل مجتمع، وواقعه، وطبيعة تكوينه، وبالتالي فعلماء الدين عليهم تقديم قراءات للإسلام توافق طبيعة المجتمع والحياة التي يعيشون فيها.

النزعة التوقيفية عند زكي نجيب

محمود:

دون شك نجد أن كتاباته مليئة بالدعوة إلى التفسير والتجديد والحداثة وكان من المتوقع أن تركز دعوته هذه على أساس موقف علماني، يرفض من حيث المبدأ، تسييس الدين، ويدعو إلى أسبقية العقل على النص، لأن العلمانية تشكل ركناً من أركان المجتمع الذي يتصف بالحداثة، لكننا لا نجد لدى مفكرنا موقفاً فلسفياً متماسكاً من العلمانية، بل نجده يقف موقفاً متذبذباً يمكن أن يؤول بالقبول أو الرفض، فهو يدعونا حيناً أن نتابع العصر في عقلانيته وتقنياته و يؤكد بأن هذه المتابعة تتطلب «أن نصطنع في حياتنا نظرة علمانية تجعل محوراً هنا على هذه الأرض، قبل أن يكون هناك في عالم آخر»^(١٧) ثم يتراجع عن هذا الموقف ليذكر أن الحياة على الأرض جسر يعبر عليه المؤمن إلى العالم الآخر، ويشغل

ويسترشد الخولي بموقف القدماء من التجديد، فيرى أن التجديد عندهم ليس إلا حماية للدين وكيانه بالصورة التي أدى بها من خلال فهم جديد، وتطبيق جديد، يمكن أن يعد مسaireاً لتغيير الحياة الذي هو معنى تطورها^(١٤) ويرى أن التجديد الديني عند القدماء كان فيه العديد من الجوانب الهامة «فإن من أجدى ما قدمه المجددون للحياة الدينية فهم الدين على أنه إصلاح الحياة لا طقوس وأشكال، وذلك كالذي نسمعه مجلجلاً في فهم عمر بن عبد العزيز حين طلبوا إليه أن يأمر للبيت بكسوة كما كان يفعل من قبله، فكتب يقول: إنني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة فإنها أولى بذلك من البيت»^(١٥).

ويبدأ التجديد المعاصر عند الخولي من فهم القديم وتجاوزه ولهذا رفع الخولي شعاراً مضمونه أن «أول التجديد قتل القديم فهماً»^(١٦) وحين نستوعب القديم استيعاباً جيداً، يمكن تجاوزه وتقديم اجتهاد حقيقي للكليات الإسلامية العامة.

ومن هنا نلاحظ أن التجديد عند الخولي يرتكز على فهم القديم واستيعابه وتجاوزه، ثم الانتقال بعد ذلك إلى تقديم

باستقلال عن الدين الغايات التي يجدر به تحقيقها والوسائل المعنية بتحقيقها. إن العلمانية بهذا المعنى هي موقف إبستمولوجي إلى الحد الذي تكون ضمنه موقفاً من طبيعة المعرفة العملية «الغايات والوسائل» وعلاقتها بالمعرفة الدينية^(١٨).

لكن العلمانية لم تتبلور عند فيلسوفنا وفق هذا المعنى، ولذلك فقد كان له موقفاً متعارضاً يتعلقان بمسألة العلاقة بين الدين والدولة ففي الموقف الأول قرر أنه لا يمكن الفصل بين الدين والدولة في الإسلام «لأن الدين الإسلامي نظام حياة» وقال إن الذين يقولون «إن العلمانية خطر على الدين إنما يتكلمون عن ديانات أخرى غير الإسلام» وأكد أنه «لم يمر يوم واحد في التاريخ الإسلامي على شعب مسلم تم فيه الفصل بين الدين والدولة لأن للإسلام طبيعته الخاصة به فهو طريقة حياة فوق أنه دين بالمعنى المفهوم عند أصحاب الديانات الأخرى، أما الموقف الآخر لفيلسوفنا فقد نفى أن تكون هنالك أية علاقة للدين بصورة الحكم أو بمضمونه وذكر بآراء الشيخ علي عبد الرزاق والتي وردت في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» والتي أوضحت هذه الحقيقة^(١٩).

نفسه بمحاولة التوفيق بين الدين والدولة إلى الدرجة التي تتأى به عن الموقف العلماني، وتقريبه من التفكير المضاد له، والمتمثل في فكر الحركات الدينية وربما يكون سبب هذا الموقف المتأرجح بين فكر علماني وفكر لا علماني ناتجاً عن ضيق في مفهوم العلمانية لدى فيلسوفنا إن مفهوم العلمانية عند زكي نجيب يعني تركيز اهتمام الإنسان على العالم الذي يعيشه، وعدم تركيزه على العالم الآخر الذي كان محور اهتمام الناس في الغرب إبان القرون الوسطى، وبمعنى آخر «أن يكون العيش على هذه الدنيا غزيراً ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلاً» ويعتقد زكي نجيب أن العلمانية بهذا المعنى ليست قضية واردة لأي مسلم، لأن الإسلام يقول: إن الإنسان خلق ليعمل وأن حياته في هذه الدنيا هي محك واختبار ليوم الحساب.

والصحيح أن العلمانية لا تعني التركيز على العالم المادي فقط كما يعتقد فيلسوفنا أنها «معنية بدور الإنسان في العالم وبالتأكيد استقلالية العقل الإنساني في سيرورة توظيف الإنسان للعقل في أي من المجالات التي يوظفه فيها والأهم من كل هذا أنها معنية بجعل دور الإنسان في العالم مشتملاً على اكتشافه

حين راح يؤكد أن العلمانية هي هذه الدولة التي يعيشون بظلمها ويخضعون فيها لقوانين لا تتعارض والشريعة الإسلامية هو بذلك يربط مفهوم العلمانية بسمات الدولة ويقوم بتحويل ما هو موضوعي إلى منطقي كذلك لم يراع الاعتبارات الاستمولوجية للمفاهيم التي تؤدي إلى رفض الدولة الدينية من حيث المبدأ لأن لدى الإنسان القدرة على تنظيم شؤون حياته على كل المستويات باستقلال عن الدين بمعنى آخر إن الموقف الاستمولوجي للعلمانية هو «موقف من طبيعة المعرفة العلمية «أي المعرفة المطلوبة لغرض تنظيم شؤوننا الدنيوية» مؤداه أن هذا النوع من المعرفة لا يجد ولا يمكن أن يجد أساسه الأخير في الدين»^(٣٠).

ويجب الإشارة إلى أنه قد اتخذ موقفاً معاكساً للموقف الاستمولوجي مصرحاً بأن الأديان جاءت لأن الناس عاجزون عن تنظيم شؤون حياتهم ويقول في هذا الصدد «لو لم تكن المعاملة بين الناس عسيرة المأخذ كثيرة العثرات لما اقتضت أن تنزل من السماء ديانسات لتنظيمها وهداية الناس... ومع أن الإنسان أعطى القدرة نفسها على التفكير والتدبير حتى لا ينساق وراء غرائزه

يعتقد زكي نجيب أن طبيعة الإسلام قابلة لأي شكل من أشكال الحكم (ملكيات، جمهوريات، سلطانات، إمارات) لأنه لا يتعرض نظرياً لصورة أي حكم بشرط أن لا يتعارض الحكم مع الدين ومع أن مفكرنا أكد عدم وجود علاقة ضرورية بين الدين والسياسة إلا أنه جعل أحكام الدين هي المعيار الذي تقاس عليه كل أحكام الدولة ويجيز للدولة أن تضع قوانين لم ترد في الشريعة الإسلامية بشرط أن لا تتعارض الشريعة وهو يرفض أن تحل الشريعة الإسلامية محل القوانين الوضعية التي تعمل بها الدولة وهذا الرفض لا يقوم عنده على أساس معيار عقلي وإنما على أساس معيار ديني فالقوانين الوضعية على حد تعبيره تساير الشريعة من الألف إلى الياء باستثناء الحدود كحد السرقة والزنا وبيرر عدم التزام الدولة بتطبيق هذه العقوبات بادعائه أن ما تفعله الدولة يتناسب مع ما قرره الشرع من حيث المبدأ فالشرع اشترط أن يطبق حد السرقة في مجتمع عادل ونظراً لاستحالة توفر هذا المجتمع فالدولة غير ملزمة بتطبيق هذا الحد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن زكي نجيب قد ابتعد عن السمات الحقيقية لمفهوم العلمانية

وكذلك رهن بمدى شعورهم وتوحيد فاعلية جهودهم، وبقدرتهم على التحرر من النخبة، والتخلي عن وهم التوجه المصلحي إلى مراكز السلطة كوسيلة للتجديد، والعمل على تنمية وتعميق المجتمع المدني الديمقراطي والعلمانية والارتفاع بعالمنا ومجتمعنا إلى مستوى متطلبات ومستجدات القرن الواحد والعشرين، فهي بحسب نظرنا فعل اختبار ووعي نقدي علمي وإنساني، فهذا هو الدور الحقيقي للفكر في الفترة الراهنة ولاسيما في عالمنا العربي.

ويصبح كالحوان، إلا أن هذه القدرة يمكن أن يوجهها نحو الوقيعة والغدر^(٣١).
إذا شيوع الفكر العقلاني النقدي، والتنمية والتحديث على المستوى القومي، والمشاركة الجماهيرية الواعية والفاعلة. وعن طريق هذه تتم إمكانية الخروج من إشكالية الفكر بين النظرية والممارسة، وينفتح الأفق للتفسير والتجدد الحضاري لهذا المجتمع العربي، والحقيقة إن الانتقال من الخطاب الأيديولوجي إلى الخطاب النظري العلمي، رهنٌ بوعي المفكرين والمتقنين العرب الملتزمين بقضايا أمتهم،

الهوامش

- ١- محمد جابر الأنصاري: النهج التوفيقي، إشكالية اللاهزم في الفكر والواقع، مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد ٢٦، العددان الثالث والرابع، ١٩٩٨، ص ٢٣١.
- ٢- زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١، ص ٥-٦.
- ٣- محمود أمين العالم: الفكر العربي بين النظرية والتطبيق، مجلة عالم الفكر، مجلد ٢٦، ص ٣٦٨.
- ٤- أنطون سعادة: شروح في العقيدة، طبعة آذار، ١٩٥٨، بيروت، ص ١٥٨.
- ٥- أنطون سعادة: الآثار الكاملة، ١٦، ص ٨٠.
- ٦- برهان غليون: اختيال العقل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٠، ص ٢٢.
- ٧- أنطون سعادة: الآثار الكاملة، ١٦، ص ٨٠.
- ٨- أمين الخولي: مناهج تجديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١١٤.
- ٩- أمين الخولي: المجددون في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١، ص ٣٠.
- ١٠- المصدر السابق، ص ٤١.
- ١١- المصدر السابق، ص ١٤٨-١٤٩.

- ١٢- المصدر السابق، ص ٣٦-٣٧.
- ١٣- المصدر السابق، ص ٣٢-٣٣.
- ١٤- المصدر السابق، ص ٣٣.
- ١٥- المصدر السابق، ص ١٥٥-١٥٦.
- ١٦- أمين الخولي: مناهج تجديد، ص ٢٢٩.
- ١٧- زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٠٤.
- ١٨- عادل ظاهر: الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٣، ص ٣٨.
- ١٩- علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٢٤.
- ٢٠- عادل ظاهر: الأسس الفلسفية للعلمانية، ص ٦١.
- ٢١- زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٣٤٦.



آفاق المعرفة



الاستثمار في الأعمال الفنية

د. نبيل اللو

من العسير تقييم الأعمال الفنية كاللوحات والأعمال النحتية لأنها أعمال وحيدة الأنموذج فليس هناك من منتج مماثل تماماً منافس أو بديل ما يعني أن اللوحة كنسخة مفردة وحيدة لا ينافسها شيء من جنس مضمونها، فهي بالتالي بقانون الندرة الاقتصادي لا تُقدر بثمن، أو على الأقل عالية القيمة لندرته الحقيقية في الواقع. وعلى مقتني هذه اللوحة «الفريدة» أن يقتنع، نفسياً على الأقل، أن المبلغ الذي دفعه ثمناً للوحة التي اقتناها، دون أن يكون في نيته بيعها أو الاتجار بها، يعدل في نظره المتعة التي يحصل عليها من

* أديب وأستاذ في جامعة دمشق.

العمل الفني، الفنان مطيع علي.

الاستثمار في الأعمال الفنية

الفنية، وبهوياتهم الحقيقية. ومؤشرات السوق الفني غير ثابتة وغير واضحة ولا مقياس لها، وهذا كله يجعل تسعير الأعمال الفنية عشوائياً اعتبارياً، والمشتري العادي، محب الفن واقتناء الأعمال الفنية، لا يمتلك معياراً قيمياً يجعله مرتاحاً كي يتخذ قراره بشراء لوحة أو عمل فني، ومقارنة السوق المحلية الفنية بالسوق العالمية تجعلنا نُصعق عندما نعرف أن اللوحات لدينا هي أعلى من نظيراتها الأوروبية لفنانين أوروبيين. ولو أدخلنا عامل دخل الفرد ومستوى المعيشة لظهرت الفروقات كبيرة جداً لصالح السوق الأوروبية. ونحن هنا لا نتكلم عن أعمال كبار الفنانين المتوفين، وإنما نتكلم عن الفنانين الشباب.

ولنقارن بين سوق الأعمال الفنية بسوق مادة مصنّعة تُباع ويتداولها الناس حسب حاجاتهم لها، حسب قانون العرض والطلب، مروراً بسوق السندات (الأوراق المالية) التي يمكن أن نعتبرها سوقاً وسطى بين السوقين اللذين ذكرناهما: سوق الأعمال الفنية وسوق المنتج المصنّع. ليس في سوق الأعمال الفنية آلية تحدد الأسعار. في حين أن سوق السلع المصنّعة تخضع لآلية تسعير تنافسية يحكمها السوق. فمند عصر آدم سميث Smith فهم الاقتصاديون آلية تحديد «السعر الطبيعي»

مشاهدتها كل يوم معلقة في جدار منزله. أو فلنقل أن يقتنع بأن المتعة التي يحققها من مشاهدتها تعادل المتعة التي يحصل عليها من إنفاق المبلغ الذي دفعه فيها في وجوه مختلفة أخرى. وهذا يعني أن سوق اللوحة الفنية مرتبط حكماً بدواق مقتدر أو بدواق يقتصد لاقتناء لوحة تدخل السرور إلى قلبه كلما شاهدها معلقة في جدار منزله. وإن لم يكن الأمر كذلك فالمشتري في هذه الحالة مقتدر يرى في العمل الفني استثماراً مالياً يحصل عليه من بيعها بعد شرائها.

لقد اهتم الاقتصاديون الأول كثيراً بمفهوم القيمة الطبيعية: وهي القيمة التي يحددها طلب السوق، فتيارات السوق هي التي تعطي «الشيء» قيمته الحقيقية. لكن هذه القيمة الطبيعية لا تنطبق على الأعمال الفنية، وخصوصاً إذا كان الأمر يتصل بأعمال كبار الفنانين التشكيليين فليس هناك «قيمة طبيعية» ولا سعر محدد، وإنما هناك سعر غير طبيعي. وتتفاوت أسعار الأعمال الفنية وتتأرجح ولا تثبت على حال ويكون تأرجحها أحياناً غير متوقع أو متعمد ومبالغاً فيها كثيراً بفعل الذين يستثمرون في الأعمال الفنية. هذا ويتميز سوق الفن بعدم الشفافية فيما يتصل بالأسعار وبيع بعض الأشخاص الذين يقتنون الأعمال



إذا دخلت عوامل خارجية في الآلية لتؤرجح السوق ثانية. والسعر التوازني في السوق هو سعر مغناطيسي، وهو الذي يجعل من آليات السوق آليات متناغمة، وهو الذي يكسب التحليلات الاقتصادية شكلها المنطقي، وهو الذي يطمئن المستثمرين ويضع بين أيديهم قاعدة منطقية تمكنهم من اتخاذ قراراتهم الاستثمارية في السوق. إن وجود هذه الآلية

لسلعة من السلع مطروحة في الأسواق. ولم يكن يخرج عن طوق هذه القاعدة سوى «السلع» التي تصنع بأنموذج وحيد. وقد عكف سميث وريكاردو Ricardo ومن جاء بعدهما من الاقتصاديين على دراسة هذه الحالة المحددة: السلعة المصنعة كأنموذج وحيد. وتعلمنا أدبيات الاقتصاد أن من شأن التنافسية أن تعيد السعر السائد في السوق إلى السعر المتوسط، والمبدأ الاقتصادي هنا بسيط جداً. فعندما يصبح سعر سلعة ما أعلى بكثير من مستواه التوازني في الأسواق يصبح الهامش الربحي المحقق فيه أعلى بكثير من هوامش الربح المحققة في سلع أخرى من المستوى نفسه، الأمر الذي يدفع برؤوس الأموال

إلى الاستثمار في السلعة التي تباع بأعلى من سعرها الحقيقي فيزداد إنتاجها وطرحها في الأسواق الأمر الذي يؤدي إلى انخفاض سعرها حتماً. ولا يتوقف الاستثمار في إنتاج السلعة المرغوبة المطلوبة في السوق إلا عندما يبلغ سعرها حده الأوسط الأمر الذي يعيد الأمور إلى نصابها في السوق، إلا

يخضع سعر المنتج الصناعي لعلاقة نوعيته بسعره، وتكون حركته في السوق بنسأء على طلبه، وعندما يكون سعر المنتج أعلى من تكلفته بكثير سيسعى المستثمرون الصناعيون إلى طرح كمية كبيرة منه في الأسواق وبسرعة، إما بإفراغ ما لديهم منه في مستودعاتهم، أو بتشغيل العاملين ساعات إضافية وفي أوقات العطل والأعياد. لكن هذه الآلية لا يمكن أن تنطبق بأي حال من الأحوال على الأعمال الفنية الإبداعية. الأمر الذي يدفع بالمستثمر أن يأخذ هذا الأمر في حسبانته عندما يستثمر في الأعمال الفنية ففانون «السوق» مختلف جداً في هذه الحالة.

المنتج المصنوع في جنسه هو نفسه ويحل محل منتج آخر في جنسه، في حين أن لوحة فنية أو منحوتة هي فريدة وحيدة، حتى لو رسم الفنان لوحتين في موضوع واحد، فلا يمكن للوحة منهما أن تحل محل الأخرى.

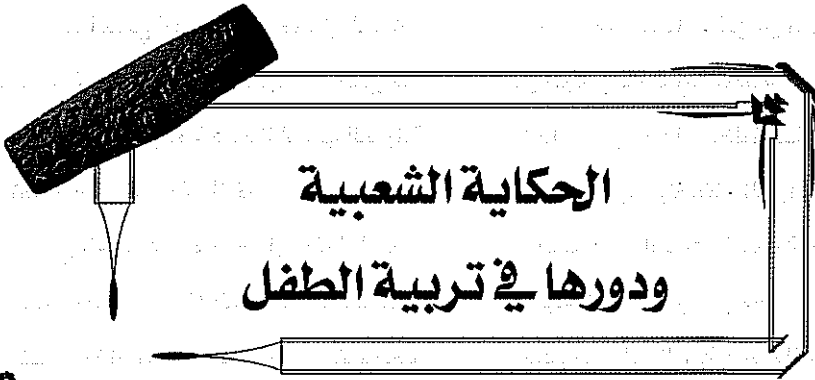
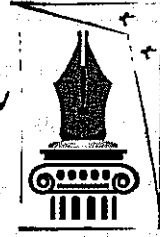
حامل السهم في البورصة يمتلكه اسمياً ومادياً ويستطيع بيعه بحرية في سوق الأوراق المالية ضمن قواعد معلومة. في حين أن مالك العمل الفني له في امتلاك عمله سلطة احتكاره، وبالتالي يبيعه أو استثماره في عروض خاصة، لقاء جعالة يفرضها، أو الاستئثار به في منزله معروضاً أو مخزناً.

المرجعية هي التي تطمئن المستثمر والمشتري، وهي التي تطمئن الأسواق عموماً، وهي التي تقدم المعلومات التي يحتاجها صناع العمل الاقتصادي. فالمعطيات التي نعرفها عن تكاليف صناعة السلعة وطبيعة الطلب عليها في السوق وقياساتها وخدمة رأس المال المستثمر فيها تكتسب أهميتها من أنها جميعها تُعين المراقب المتحفظ للاستثمار على تقييم السعر المتوازن للسلعة. وبغياب هذه الآلية وما يدور في فلكها لا تقترب أسعار السلعة من مستواها المتوازن ولن تفيد المعلومات الدقيقة التي نوهنا عنها في هذه الحالة، فلن يكون لها سوى قيمة بحثية أكاديمية غير مفعلة في السوق.

يفترض المستثمر في الأعمال الفنية وجود مشترٍ خاص لعمل من الأعمال تمكنه «فراسته» التجارية مدعومة «برأي» استشاري فني حاذق متتبع لحركة «السوق» الفنية في البلاد من نصحه بشراء أعمال لفنان بعينه لأنه مطلوب في السوق أو أنه سيطلب لاحقاً. وقد لا تكون الأعمال الفنية المهمة بالضرورة هي الأعمال المتداولة أو المعول عليها بالتداول الاستثماري في فترة قادمة. هي مسألة معقدة إذن العامل الفني فيها محدود الهامش والأثر أحياناً.



آفاق المعرفة



د. ثائر زين الدين

(١) تمهيد

لعلَّ الحكايةَ من الأشياءِ الأولى التي يتعرَّف إليها الإنسان في حياته ومنذ سنوات طفولته المبكرة - بكل ما تحمله من إحساسٍ بالسعادة والمتعة والفرح والحزن والخوف والرغبة، وربما من خلال الحكاية «تبدأ تصوراتنا الأولى عن العالم، عن الخير والشر، عن الحق والباطل وعبرَ التصورات والتخيلات التي تثيرها الحكاية لدى الإنسان يُدرك بصورة أفضل حقيقة الحياة، ويصبحُ مؤهلاً كي يختار غاياته ومطامحه الواقعية التي يصبو إليها»^(١).

* شاعر وناقد سوري.

② العمل الفني، الفنان شادي العيسى.

الحكاية الشعبية ودورها في تربية الطفل

على الوجه، وتلون صوتي يوافق المواقف والشخصيات وما إلى ذلك.

وتخلو الحكاية من الاستدلال العقلي، «وتكتفي بالسردي الحكائي دون خوض في التفسيرات، ويقبلها السامع بعاطفته ووجدانه، ومن هنا يمكن أن يسهم تفعيلها بشكل إيجابي في تنمية مخيلة الطفل العربي وإثرائها، من خلال توظيفها فيما يوسع آفاقه التصويرية وثقافته الخيالية»^(٢).

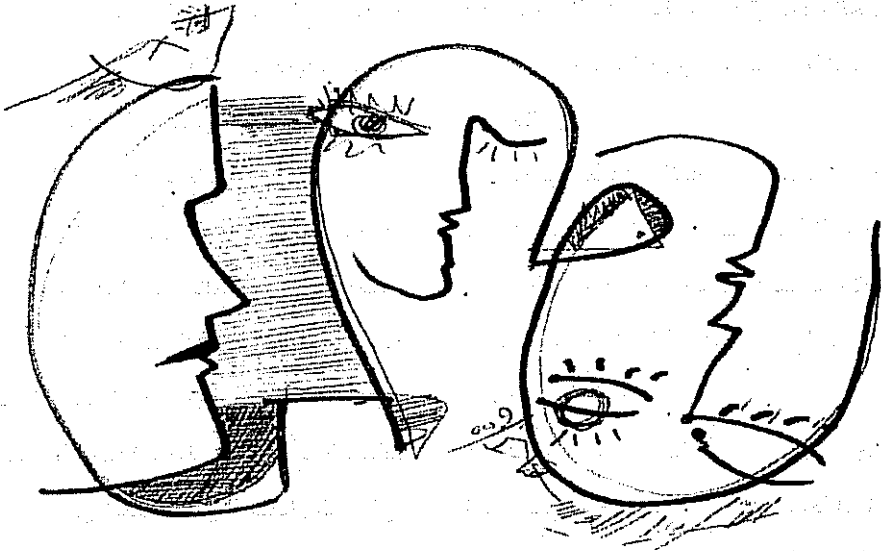
وتقسم الحكايات الشعبية - كما يرى أحد الباحثين الروس إلى مجموعات ثلاث: حكايات على السنة الحيوانات، وأخرى تصور حياة الناس الواقعية، وثالثة هي حكايات الجن والساحرات^(٣)، ويرى هذا الرأي أن أقدم الحكايات الشعبية وأكثرها عراقية هي تلك التي وردت على السنة الحيوانات، وفيها تؤدي دور البطولة مجموعة من وحوش الغابة وحيواناتها؛ فيتصف كل من هذه الوحوش بصفات ثابتة تميزه عن غيره: فالثعلب خبيث ومحتال، والديك مفرور وطائش، والذئب شرس وجشع، وأحياناً غبي وما إلى ذلك.

في حين تصنف الدكتورة نبيلة إبراهيم الحكايات في صنفين: حكايات خرافية

والحكاية الشعبية أحدثها يتناقلها الناس شفويًا جيلًا بعد جيل - قبل أن تبدأ الشعوب بتدوينها خوفًا عليها من الضياع، وسيبقى وجودها الشفوي بشكل أو بآخر على السنة الناس ما استمر الناس، لأنها تمثل أرواح الشعوب التي أبدعتها، وتحمل السمات الجوهرية لوعيها وثقافتها وتصوراتها العامة، كما تحمل ثقة هذه الشعوب العميقة بانتصار قيم العدالة والخير.

يروى الحكاية - عادة - راوٍ حفظها عن سبقه وقد يكون هذا الراوي جدةً عجوزاً يتحلق أحفادها من حولها أو أمًا تضطجع في ليلته شتوية إلى جوار طفلها، أو رجلاً موهوباً في مجلس ما، ويستخدم هذا الراوي لغته الخاصة إلى حد بعيد، دون التقيد بألفاظ الحكاية كما سمعها من قبل، مع الحفاظ على شخصياتها وحوادثها، ولكنه قد يتفان بترتيب بعض الأحداث، من حيث التقديم والتأخير، وقد يختصر أشياء غير قليلة وفقاً لوضع المستمعين من حوله؛ ملأ أو شعوراً بالنعاس مثلاً، أو رغبة عارمة وشوقاً للتلقي.. وما إلى ذلك.

ويترافق السرد - بطبيعة الحال - بإشارة توديعها اليدان، وتعابير متغيرة ترسم



عدد المربين والاختصاصيين النفسيين الذين يهتمون بفن الحكاية كوسيلة لتعليم الطفل، وتربية وتطوير مداركه في مختلف المراحل، ولاسيما مرحلة ما قبل المدرسة، ويستخدمها بعضهم بهدف تصحيح سلوك الطفل، وتفعيل نشاطه، وتأسيس مناخ نفسي طيب لديه. وفي سياق استخدام الحكاية الشعبية والأسطورة لغايات تربية مختلفة نقع على ثلاثة تيارات مختلفة من الآراء نستعرضها بشيء من الإيجاز:

أ - التيار الأول: يمثله الدارسون والباحثون الذين يرفضون بشكل قاطع أن تستخدم الحكايات الخرافية والأساطير في الأدب المعد للأطفال، بل يعترضون

وأخرى شعبية، وقد تمزج بينهما في حكايات خرافية شعبية^(٤).

وتكثر التصنيفات والتقسيمات^(٥)، حتى يرى د. أحمد زياد محبك، أن تصنيف الحكايات عامة أمر لا يخلو من تعسف.

٢) الحكاية الشعبية والطفل:

انطلاقاً من أن الطفولة هي المرحلة الأهم في تكوين الشخصية الإنسانية، ومن أن فيها تتبلور السمات الأساسية لما ستكون عليه شخصية الطفل في قادم الأيام، يزداد الاهتمام بتربية الطفل تربية متكاملة تشمل النواحي الوجدانية والعقلية والاجتماعية كافة. وهنا تبرز الحكاية كواحدة من أهم الأدوات التي تهض بهذا الدور، ويزداد

الحكاية الشعبية ودورها في تربية الطفل

والجبن والتواكل عندما تدق ساعة الجد .. والإيمان بالخوارق والإيمان بالمشعوذين والدجالين .. إلخ»^(٨)

ويصب في هذا التيار رأي الدكتور هادي نعمان الهيتي الذي لا يرى في الأساطير سوى «أكذوبة كبيرة» بعد أن كانت في الأمس البعيد عقيدة راسخة، وهي بهذا المعنى مادة لا تناسب الأطفال^(٩).

كما يستند هذا الرأي عند بعض الدارسين العرب إلى امتلاء حكاياتنا الشعبية بنماذج وصور نمطيّة سلبية قد تفسد الطفل، منها مثلاً صورة المرأة-الخالة (زوجة الأب) القاسية الشريرة، التي لا تتورع عن قتل ابن زوجها لأتفه الأسباب^(١٠)، مما يخلق كرها وعداء مسبقين لدى الطفل تجاه كل خالة، ولدى الخالة نفسها تجاه أبناء وبنات زوجها، بالإضافة مثلاً إلى صورة الشطار واللصوص المحببة^(١١)؛ ف(علي بابا) مثلاً ليس إلا سارقاً، حتى لو كان يسرق مغارة اللصوص، فهل سرقة السارق عمل مباح ومقبول أخلاقياً واجتماعياً.

وببالغ هؤلاء انطلافاً مما سبق، فيرون أن من غير المقبول تقديم الحكايات الخرافية للأطفال حتى ولا معدلة أو محوّرة

على كل الأنماط الحكائيّة التي تستخدم الخيال الواسع والوسائل السحرية، وترتكز على ارتحال الأبطال إلى عالم المجهول، عالم الأرواح والشياطين والأشباح، دون الاهتمام بتفاوت هذه الأنماط في تصويرها لهذا العالم وعلاقته بالعالم الواقعي، ويمثّل تولكين- أحد كتّاب الأطفال العالميين- هذه النظرة. حيث رأى أن الأساطير مادة سيّئة مليئة بالأحداث المفزعة، والشخصيات المرعبة التي تهدّد أمن الأطفال الداخلي، وتشعرهم بعدم الأمان في هذا العالم^(١٢). وتستند وجهة النظر هذه إلى القول: «بأن هذا العالم الخرافي أو الأسطوري من شأنه إبعاد الطفل عن معرفة ذاته، وتغريبه عن محيطه، وكيفية التعامل معه، وتقديم حلول جاهزة للمشاكل العويصة التي تتطلّب نضالاً مريراً في بعض الأحيان، ويعدّ هذا الأمر من مكامن الخطورة في الأساطير وجلب الحكايات الخرافية إن لم يكن كلّها- إلى جانب ما تحمله من الإغراق في القدرية والقسمة والنصيب وأفعال الزمن ومكائده^(١٣)، والهروب من المسؤولية، ونزعة التبرير، ورد الأمور إلى إرادات مستترة، والاندفاع والطيش عندما يكون السروي والحذر ضروريين،

الحكاية الشعبية ودورها في تربية الطفل

تتطابق مع عالم الطفل الباطني، ويمكن لهذا الأخير أن يتقمص بسهولة مختلف مظاهر الحكاية»^(١٣).

وهو بذلك يسرى في استخدام الأسطورة والخرافة في أدب الأطفال مسألة صحيحة ويحث عليه ربما بسبب ما تمتلكه من غرائبية الأحداث، والإدهاش، وقدرات الأبطال الخارقة على تحقيق المعجزات وتجاوز الصعاب والعقبات، ولحركة الزمن فيهما، مما يثيري مخيلة الطفل وينميها.

ج - التيارات الثالث: يعترف أن للأساطير والحكايات الشعبية المختلفة بعداً أساسياً في الحضارة، وأن توظيفها في تربية الطفل عقلياً ووجدانياً أمر لا يخفى على أحد، وخاصة تلك الحكايات التي تتوجه في الأساس إلى تربية الطفل، وتنمية مخيلته، وقدراته الذهنية والوجدانية، فهي تقدم له أنموذجات من السلوك الإنساني الجيد، وتكون أداة للمعرفة في تشكيل تصوّره عن الكون، والمحيط الاجتماعي، ولا بأس من أن تمرّ تلك الحكايات الأسطورية والشعبية بمقاييس العصر ومعاييرها قبل أن تقدّم للطفل، بحيث يتم تثقيفها من التصوّرات المرعبة، والقيم الضارة والشوائب المفسدة، ربما لأن تلك

أو محدثة «فالأمنيرة الساحرة، والجان، والخاتم السحري»، حكايات تجاوزتها الحياة الحديثة وطواها الزمن، وأدخلت الحياة العصرية أدواتها التي تتناسب مع طبيعتها، وارتكزت على العلم ووسائله، فبدل (بساط الريح) أصبحت مركبة الفضاء، وبدل أن يكلم الطفل (الخاتم السحري)، صار يكلم العقل الإلكتروني وهكذا»^(١٤).

ب- التيار الثاني: يقوم على نفي التعارض بين الأسطورة والخرافة من جهة والعلم من جهة أخرى لأن لكل منهما حقله الخاص به، والمجال المحدّد لعمله، وكل منهما يشبع حاجات ورغبات مختلفة في النفس الإنسانية، وعليه نسمع أصوات بعض علماء التربية تتعالى مبددة الخوف من استخدام الأسطورة والحكاية الخرافية في الأدب المكتوب للطفل؛ فيقول وودول في كتابه «تربية الطفل البناءة»- وقد نشرته منظمة اليونيسكو لأهميته: «يتصل اهتمام الطفل بالقصص الخرافية، بحاجته إلى إعطاء شكل درامي للمشاكل التي تعترضه، ولإبداعات خياله، فالعديد من عناصر الفلكلور (الفن الشعبي)، ومن القصص الخرافية بما في ذلك المشاهد العنيفة،

الحكاية الشعبية ودورها في تربية الطفل

والأخصائي النفسي في أعمال هؤلاء هو التأسيس لفضن الحكاية، ومكانة الحكاية في حياة الشعب، ووصف عالم الأنموذجات الحكائية. وتحظى بأهمية خاصة في أعمال هؤلاء مسألة إظهار وكشف الطاقات التربوية الكامنة في الحكايات، والوظائف التعليمية والتطويرية، والتربوية والبيئية، والإمتاعية لهذه الحكايات.

إن القيمة التربوية للحكاية الشعبية مشروطة بتوفر عوامل عدة فيها، أهمها:

- ١- إمكانية وصولها للطفل، خفتها، لغة سردها البسيطة.
- ٢- موضوعها القريب من عالم الطفل، ووجود أنموذج البطل القادر دائماً على الانتصار.
- ٣- الشمول، والاكتمال في الحالة التي ترسمها الحكاية.

٤- انتصار الخير على الشر، ما يجعل الطفل يشعر بأنه محمي وفي أمان.

إن أبطال الحكايات الشعبية ذات الطابع الإنساني، هم شخصيات فريدة، محبوبة، هم أقوياء، وشجعان ومقدامون، ولطفاء، يسرعون دائماً لتقديم المساعدة في المواقف الصعبة، و ينصرون الضعفاء ويهزمون

الحكايات الشعبية أو لنقل معظمها لم توضع أساساً للطفل، ولاتلبي احتياجاته التربوية والتعليمية، فمن الضروري إذاً حين نتعامل مع حكاية شعبية تراثية أو غيرها أن نعمل على صوغها بصورة تخصّ الطفل، بطريقة نجنبه فيها ما لا يتلاءم مع مستواه العقلي والنفسي والاجتماعي، وبشكل يجعلها لا تشذّ عن مفاهيم التربية الحديثة.

٣- الحكاية الشعبية ذات القيمة التربوية:

أدت الحكايات الشعبية عموماً دور المربي والمعلم والمعالج النفسي الخاص، ولئن استطاعت النماذج الباهرة منها أن تحافظ على قيمتها من الزمن، إلا أن الكثير منها تقادم من حيث الموضوع والمحتوى والأفكار، بل القيمة التربوية. وراحت أمور الحياة الجديدة ومشاكلها تتطلب ولادة حكايات جديدة، وليس من قبيل المصادفة -والحال هذه- أن يظهر الكثير من الحكايا القديمة بحل معاصرة، تلائم الحالة الجديدة.

إن دراسة تاريخ الحكاية الشعبية، كاتجاه في دراسة الفلكلور بدأت تحضر بقوة في أعمال الكثير من الباحثين المتخصصين، وغير المتخصصين لكن ما يعني المربي

الحكاية الشعبية ودورها في تربية الطفل

كثيرة، استغرق وقتاً طويلاً، أو قصيراً إلخ.. وكلما كان الطفل أصغر سناً، انساب الوقت بالنسبة له أكثر بطئاً، إنه يعيش دون زمن، مثله مثل الحكاية نفسها.

والمكان أيضاً غير مرئي: جبال، غابات، سهول، سماوات، مياه. ويتم التعبير عن الإحساس بالمكان في الحكاية من خلال عبارات مثل: في إحدى الممالك، في إحدى الدول (دون تحديد، وإطلاق)، وعبارات مثل: في السهول، في الجبال، في المروج الخضراء (فضاءات طبيعية)، في القصر، في المغارة، في الخان... إلخ (فضاءات واقعية ضيقة..)

إن الدور الذي تؤديه الحكاية في حياة الطفل كبير جداً، فهي تنمي قدرات الطفل على الكلام، وتركيز الانتباه، وتقوي مهاراته اللغوية إن تم القصص بالعربية الفصحى البسيطة، وهي تساعد على الربط بين الواقع والخيال وتنمي الحوار بين الطفل وأبويه، وتنمي لديه مهارة الاستماع وآدابه من مثل عدم المقاطعة، والإجابة بشكل مرتب وبعد طرح سؤال محدد، وهي تعمل أيضاً على تعميق الرابط بين الأشقاء في الأسرة، لاشتراكهم في سماع الحكايات

الأعداء، وهم في الحكايات السحرية أبطال لا تحرقهم نار، ولا تفرقهم مياه، تساعدهم في ذلك وسائل كثيرة، منها بساط الريح، وماء الحياة، ومردة يخرجون من مصباح علاء الدين، أو من قمقم أو خاتم وما إلى ذلك. وبالتالي فهؤلاء الأبطال يحرضون لدى الطفل الرغبة في مساندتهم، والتخلي بصفاتهم ومزاياهم، فينبذ الكسل والخمول ويبدأ بالإيمان بالمعجزات وقوة الإرادة، وأن لا شيء مستحيل، ويشعر أن إمكاناته غير محدودة، ويتحرر من المخاوف: (أنا أستطيع.. أنا لا أخاف.. أنا قادر..).

يكتسب الطفل من مثل هذه الحكايات قيمةً جمالية عديدة «الجمال، البطولة، التفوق، السعادة..»

وفي الحكايات الساخرة والواقعية يتعرف الطفل أيضاً إلى مقولات جمالية مختلفة «كالفكاهة، والبطولة، والنبيل والسفالة..»

من خلال الحكايات يبدأ الأطفال بالإحساس بالزمن والمكان واستيعابهما: في البداية فنياً، ونفسياً، ثم فيزيائياً، فالإحساس بالزمن يتم التعبير عنه من خلال عبارات اعتيادية في الحكاية مثل: في قديم الزمان، مرّ وقت طويل، انسابت مياه

الحكاية الشعبية ودورها في تربية الطفل

الطفل منذ طفولته المبكرة، وهو يتقبلها على مستوى اللاوعي في أعوامه الأولى ما قبل المدرسة، ذلك لأن الحكاية سهلة وبسيطة ومرحة وجذابة، وغالباً ما تكون ذات نهاية سعيدة.

رابعاً- الحكاية تسمح بتوسيع أطر الحياة اليومية، بل بالتخلص من أية أطر أخرى أو قيود، وتنشط الحُلم بقوة ودون حدود.

خامساً- من خلال النماذج الحكائية يمكن بسهولة، ودون قسر الخروج من المواقف الصعبة.

سادساً- والأهم هو أن الطفل يتمثل دون وعي سلوك الأبطال الرئيسيين الإيجابيين ويتخيل نفسه واحداً منهم.

وطرائق التعامل مع الحكاية من قبل المرين عديدة: فقد تقرأ الحكاية على الطفل قراءة، أو قد تروى وتسرد شفويًا بعد أن يكون المرين قد امتلكها جيداً، ويولي ذلك حوار مع الطفل حول الحكاية، وقد يسرد الحكاية الطفل نفسه، وقد تسرد بلسانه وعنه مليئة بالمغامرات المختلفة، واللقاءات.. إلخ، وقد تكون حكاية وضعها الكبار للصغير، أو حكاية ألفها الطفل نفسه عن أي شيء، أو عن نفسه.. إلخ..

نفسها في الآن نفسه ومناقشتها، أو إعادة سردها فيما بينهم.

كما أن هذه الفوائد تصبح أكبر للطفل حين تقوم الأم نفسها بعملية القص، عندها تصبح لحظة السرد هي لحظة تفاعل مابين الأم وطفلها، لحظة اندماج فيما بينهما تختفي أثناءها عصبية الأم وتتوقف أوامرها ونواهيها وإرشاداتها، وكذلك يزول تمرّد الابن، لتحل محل كل ذلك روح الود والصفاء والحميمية، وتنتهي بنوم الصغير هانئاً سعيداً، ولاسيما حين تحسن الأم اختيار الحكاية، التي تبعث الاطمئنان والثقة في النفس، وتبتعد عن الخيالات المفزعة والموضوعات المرعبة.

إن استخدام الحكاية كوسيلة لخلق الانسجام والهارموني في حياة الطفل أمرٌ فعال لأسباب عدة⁽¹⁰⁾:

أولاً- إن هذا الجنس الفني (الحكاية) غير متطلب، وهو لا يفرض شروطاً، الحكايةُ عموماً تسردُ قصةً خياليةً جذابة.

ثانياً- وفن الحكاية نفسه يعنى بالتخيل وتوليد الأفكار وينشطهما، يعلم ذلك القاص نفسه والمستمع.

ثالثاً- الحكاية - كما أسلفنا - ترافقُ

الحكاية الشعبية ودورها في تربية الطفل

مشروع حياةٍ مستقبلية للطفل - أن نأخذ بعين الاعتبار تأسيس أنموذج جمالي متكامل ومتناسق وغني من خلالها . يستطيعُ الطفل فهم الأنموذج وتقبله أثناء الاستماع إلى الحكاية أو قراءتها، ولكنه يظهرُ نفسه بشكلٍ كامل ويعيش مع البطل والحدث اللذين يعجبانه، ويطبق التصرفات بنفسه، ويقلد البطل أو يرفضه: فقط في عملية التعبير الذاتي عن نفسه، ولأجل ذلك من المهم إدخال وظائف متنوعة في الحكاية يستطيع الطفل التعامل معها، وينبغي ألا يكون الأبطال الذين يرافقونه في الحكايات، قد قدّموا له بالمصادفة أو عفواً الخاطر، فاختيار حكاية للطفل أو تأليفها يتطلبان تطبيق قواعد وشروط وظروف محددة ومدروسة، مؤسسة على الخصائص النفسية والعمرية للطفل نفسه، في سن معينة .

عند تأليف الحكايات الخاصة للأطفال أو اختيار المناسب من الحكايات الشعبية بعد العمل عليها يمكن أن يراعى وجود أبطال رئيسيين دائمين، يحدد المربي من خلال وجودهم الدائم المشكلة الأساسية التي يريد معالجتها أو حلها، ويمكن بالتأكيد أن يظهر في هذه الحكايات أبطال ثانويون آخرون

إن تأليف الحكاية من قبل الطفل عن نفسه، أو عن غيره يمكن أن يحقق وظيفة تشخيصية، لأن الطفل حينئذٍ سيتحدث عن أمنياته ومخاوفه وأحلامه ومعاناته بشكلٍ أو بآخر، فيكون من شأن التحليل النفسي لهذه الحكاية أن يحدّد مشاكل الطفل الداخلية التي لا يستطيع أن يعبر عنها بصورة مباشرة .

يستخدمُ الأخصائيون النفسيون، والمربون والفنانون - الذين هم على دراية عميقة بعالم الطفل وبخواص تطوره في السنوات المبكرة، ولاسيما ما قبل المدرسة - الحكايات لتقديم صورة جمالية للوسط الذي يعيش فيه، ويستثمرونها أيضاً لغايات تعليمية إجرائية: في الدروس والنشاطات التشكيلية وفي الموسيقى والرياضيات .. إلخ .. فالحتوى الموضوع في إطار الحكاية الشيقة وباستخدام طرائق توصيل وجذب مختلفة يُفعل نشاط الطفل، ويمكنه من استيعاب ما يريده المربي .. فالحكاية تقدم للطفل العالم على شكل أنموذج قصصي مُحِب يقدر على اختراقِ عالمه مباشرة خلافاً للكلمات والإرشادات التي يقدمها الكبار له ومن المهم جداً - كي تصبح الحكاية

التراثية في أنها تربي لدى الطفل القيم الإنسانية النبيلة العامة وترسخها. أما تلك الحكايات التي يتم تأليفها بسبب ظهور مشكلات خاصة في تجمع الأطفال أو ضمن وسط خاص بهم فإنها تقوم بوظيفة (الإسعاف النفسي السريع)، وتساعد في حل مشكلات خاصة جداً بالأطفال (هنا والآن). في حين أن الحكايات ذات الطابع المدرس والمصمم بعناية سواء كانت ذات أصل تراثي، أو من تأليف أديب مبدع فهي موجهة لتأسيس أنموذج حياة، ويجوهرها موجهة لبناء أو رسم حياة الطفل المستقبلية.

يطرحون أو يحملون مشكلات أخرى، تساعد في حل المشكلة الأساسية، وهؤلاء يتحررون تدريجياً ومع تطور أحداث الحكاية من مشكلاتهم، وقد يختصون. وإحدى مهمات المربي أن يلفت انتباه الطفل بشكل عفوي إلى الأساليب والطرق التي يمكن اتخاذها أو تنفيذها. إن كل حكاية أو قصة هي بصورة ما حالة حياتية من الضروري أن يعيشها الطفل، وهذه الحكايات تؤدي دور المربيّات في حياة الكثير من الأطفال^(١٦).

وعليه يمكننا أن نؤكد أن طرق استخدام الحكايات في تطوير وتنمية الطفل كثيرة بما فيه الكفاية. وتتلخص أهمية الحكايات

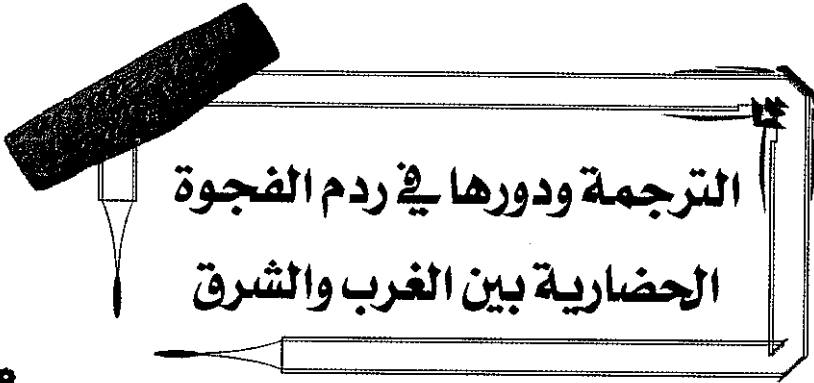
الاحالات

- ١- الحكاية الشعبية أنواعها.. مغزاها وطرق بنائها، ترجمة عن الروسية: سيف الدين القنطار، مجلة الكويت العدد (١٩٠)، أغسطس (١٩٩٩) ص ٤٦.
- ٢- زكية عوض الحارثي، بين التفعيل والإقصاء / الأسطورة والتربية، مجلة الإلكترونية «المعرفة الأرشيفية» العدد ١٥٤.
- ٣- المصدر (١) ص ٤٦.
- ٤- الدكتورة نبيلة إبراهيم، قصصنا الشعبي بين الرومانسية والواقعية، بيروت/طرابلس، دار العودة ١٩٧٤، أو انظر كتابها: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، القاهرة، دار نهضة مصر، ص ٥٦ - ١٩٤.
- ٥- انظر: فوزات رزق - نائز زين الدين، حكايات تروى في جبل العرب، دمشق، وزارة الثقافة ٢٠٠٦ ص ١٣. والدكتور أحمد زياد محبك: حكايات شعبية، دمشق، اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٩، ص ٢٧ - ٢٨.
- ٦- زكية عوض الحارثي «سابق».
- ٧- شوقي عبد الحليم، الفلوكلور والأساطير العربية، بيروت ١٩٧٨، دار ابن خلدون ص ١٠٥ / نقلاً عن زكية الحارثي «سابق».

- ٨- إبراهيم محمد بلعوشة، الفن الشعبي وأثره في التكوين النفسي للطفل، وزارة الإعلام، الهيئة العامة للاستعلامات، مصر ص ٢٦.
- ٩- هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال بين المرونة والتعصب، «الطفولة والتنمية» العدد ١ مصر ٢٠٠١ ص ١٩٣.
- ١٠- انظر حكاية «الطير الأخضر» في كتابنا «حكايات تروى في جبل العرب». «سابق» ص ١٠٦.
- ١١- انظر حكاية «عصفور وجرادة» في كتابنا السابق الذكر ص ١٢٥.
- ١٢- عربي العاصي، الحيوان في قصص الأطفال، الكرمل للدراسات، ط ١، دمشق ١٩٨١ ص ١٠٦.
- ١٣- مصادر الخرافة في قصص الأطفال www.TEBJN.NET نقلاً عن زكية عوض الحارثي / سابق /
- ١٤- و.ي. درين، ماضي وحاضر ومستقبل الحكايات الشعبية كوسيلة للتطوير الجمالي للأطفال، نيجنيفر توفسك، روسيا / باللغة الروسية/.
- ١٥- نفسه، نيجنيفر توفسك، روسيا / باللغة / الروسية/.
- ١٦- رودجرز. ك. نظرة في التربية النفسية. إعداد الإنسان، موسكو ١٩٩٤ / باللغة الروسية/.



آفاق المعرفة



الترجمة ودورها في ردم الفجوة الحضارية بين الغرب والشرق

د. منير سويداتي

ليس استطراداً القول إن الحاجة إلى الترجمة بين اللغات قديمة قدم اختلاف الناس وثقافتهم ولغاتهم، وقد نشأت الحاجة إلى التواصل بين الشعوب في أوقات السلم والحرب على حد سواء، ومع الثورة الهائلة التي يعيشها العالم في مجال المعلومات وفي عصر الإنترنت، أصبحت الترجمة ضرورة لا بد منها، ولم تعد العزلة الثقافية (والحضارية) أمراً ممكناً، وأصبحت الضرورة أكبر لخلق توازن بناءً بين ثقافات الشعوب، وأصبح التعصب لثقافة ما أحد جذور التعصب العرقي.

* باحث سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

الترجمة ودورها في ردم الفجوة الحضارية بين الغرب والشرق

الترجمة بين اللغات، ويذهب معظم علماء اللسانيات والترجمة المعاصرين من أمثال «نعوم تشومسكي» و«يوجين نايدا» و«بيتر نيومارك» وخلافهم إلى أن ما يقال في لغة ما يمكن أن يقال في لغات أخرى بغض النظر عن التشابه والاختلاف بين تلك اللغات. ومما يجب أخذه بالاعتبار هو أن الاختلاف بين اللغات لا ينحصر في المفردات والقواعد والتراكيب الصوتية والصرفية والمعجمية، بل يتعدى ذلك إلى المكونات الثقافية والدلالية المترابطة لكل لغة من تلك اللغات، فالمفردات مثلاً في لغة ما لها ذاكرة تاريخية ووجدانية واكتسابها يعني استحضرها ذهنياً ووجدانياً، إلا أن هذا المفهوم لا يعني على الإطلاق عدم قابليتها للترجمة، أضف إلى ذلك أن لكل لغة مضمونها الثقافي وأساليبها المتنوعة ومبادئها وخبراتها الثقافية وأصولها الذهنية والوجدانية المشتركة، وهذا ما يجعل الترجمة الأمينة الكاملة ممكنة حيناً وغير ممكنة أحياناً.

يتبين مما سبق أنه لا يكفي أن يكون المترجم ضليعاً بقواعد وتراكيب ومفردات لغتين حتى يترجم من وإلى إحداهما، بل لابد له من المعرفة والاطلاع على البعد

ومما هو جدير بالذكر أن الفجوة الحضارية الثقافية بين الغرب والشرق تزداد اتساعاً هذه الأيام، إذ إن معظم أشكال العلوم والمعرفة يتم إنتاجها في الغرب الذي يملك وسائل التقنية والاتصال مما يجعل معظم دول الشرق مستقبلية ومستهلكة لهذا الإنتاج، مما يحتم على معظم دول الشرق، ومنها الدول العربية مضاعفة جهودها وتطوير وسائل نقل المعرفة لمواكبة ما يجري في الغرب بأسرع ما يمكن، فالذي يملك المعرفة ويمتلك المعلومات يمتلك السيطرة والهيمنة، وكما يقولون فإن «المعرفة قوة». من هنا تبرز الحاجة المتزايدة للترجمة في منطقتنا العربية ونقلها من الوسطين الأكاديمي والثقافي الضيقين نسبياً إلى مختلف الأوساط الإعلامية والسياسية وخلافها، ولابد أيضاً من استثمار التقنيات الحاسوبية لتحقيق خطوات بارزة في مجال الترجمة الآلية من اللغات الغربية إلى اللغة العربية وبالعكس، إذ إن العالم العربي لا يزال -للأسف- يعتمد إلى حد كبير على جهود فردية عشوائية بعيدة عن المؤسسة. والجدل الذي يثار من حين لآخر بين علماء اللغة وأساتذة الترجمة يتمحور حول صعوبة



الحضاري لكل لغة كأداة تواصل إنساني تضطلع بدور هام هو حفظ ونقل خبرات الشعوب وثقافتهم ضمن أطر إدراكية مختزنة في الذاكرة الاجتماعية والثقافية لكل شعب من الشعوب، وقبول أو رفض أو تعديل الأنماط التعبيرية الواردة في نص ما يعتمد على الأطر الإدراكية والأنماط الثقافية التي يتمثلها كل من المترجم والقارئ الناطق باللغة المترجم إليها، وفي هذا المجال يقول اللغوي الروسي Komissarov إن قبول القارئ للنص المترجم يعتمد - إلى حد

ومفيد لأن الترجمة تبع ثقافة وبسطة علم، وكل جهد يبذل لتمهيد سبيلها هو جهد نافع، وكل سعي لقطف ثمارها هو سعي نبيل وممتع، إذ لامتعة إلا بعد مشقة، وإذا عثر الباحث فيها على لؤلؤة صغيرة نسي ما كابد من سهر وضجر وأحس بفرحة من حقق هدفاً عزيز المنال.

يتبين مما سبق بأن قصة الترجمة على امتداد العصور هي قصة الإنسان على هذه الأرض، وتتوالى القرون فيزداد البشر تقارباً، إذ لا يوجد أمام الشعوب والحضارات من سبيل إلى التقارب والتعارف، بل وحتى

بعيد - على مدى التوافق بين أنماط التعبير ضمن الأطر الإدراكية المختزنة في الذاكرة الاجتماعية والثقافية للقارئ الناطق باللغة المترجم إليها، وعليه فإن التعامل مع النص قد لا يكون بالضرورة عملية محايدة في جميع الأحوال.

ويرى شحادة الخوري (الفصل ٢٧٠: ١٩٩٦) بأن الحديث عن الترجمة شاق ومفيد وممتع، شاق لأن الباحث فيها كالفائض في بحر واسع لا يكاد يدرك ساحله لاتساع مدى الترجمة وتشعب طرقها ووعورة مسالكها،

إلى اللغة العربية وبالعكس على الرغم من كون الترجمة حضور نافذ نطل من خلالها على الآخرين من شعوب الأرض وأممها، فهذه النافذة تمكنا من التعرف على ما عند الآخرين من معارف وعلوم متنوعة كما تمنحنا فرصة لتقديم ما لدينا للآخرين معرفين بعلومنا المتنوعة وحضاراتنا العريقة وتراثنا التليد.

يطرح الكثير منا هذا السؤال: هل استطاعت الترجمة أن تخدم الإبداع؟ والإجابة عليه ليست بـ «نعم» أو «لا» لأن ترجمة الأعمال الإبداعية كالشعر والقصة والمسرح وخلافها عملية شاقة تحتاج إلى جهد خاص، لأن لكل لغة نظامها اللغوي وموازينها الشعرية الخاصة ومحاولة فرض تلك النظم والموازن من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف وليست سوى محاولة القيام بما لا يستطيع، لذا نجد كثيراً من المترجمين يلجؤون إلى التخلص من قيود الشعر ويترجمون الشعر شعراً مرسلأ. هذا ويمكن القول بأن الترجمة استطاعت أن تخدم الإبداع على الرغم من مواجهة المترجم في النص الإبداعي مجازات واستعارات يوردها الكاتب وفقاً لطرائق التعبير والذوق الأدبي

الصراع، سوى الترجمة التي تفتح مغاليق الأبواب ولم يَأقل نجم الحضارة العربية الإسلامية إلا حين تضاءلت فيها قيمة العلم والترجمة. أجل لقد لعبت الترجمة ولا تزال تلعب دوراً هاماً وحساساً في خدمة الحضارة الإنسانية والتقارب ما بين الشعوب، وتشهد الترجمة في أيامنا هذه ازدهاراً لم تشهد له مثيلاً من قبل، ويعود ذلك إلى الثورة العلمية والتكنولوجية التي تشهدها شعوب العالم، فلم تعد الإنجازات العلمية حكراً على شعب من الشعوب ولم تعد حبيسة لحدود إقليمية، فالترجمة تشكل أهم وسائل التبادل العلمي والفكري والثقافي بين الأمم والحضارات ولا غنى عنها في نشاطات الهيئات الدولية والأجهزة الدبلوماسية ومراكز البحوث العلمية والمواصلات الدولية والسياحة والإعلامية وخلافها.

ومن الجدير بالذكر القول بأن الترجمة في هذه الأيام تحظى باهتمام كبير لدى مختلف دول العالم، إلا أن الترجمة في عالمنا العربي لا تزال تعد نشاطاً فكرياً ثانوياً ولا تزال المكتبة العربية تقتصر إلى الكتب المتخصصة في الترجمة وإلى الكتب العلمية والأدبية المترجمة من لغات أخرى

رباعيات الخيام إلى الإنكليزية ترجمة تعد بحق من عيون الترجمات في العالم، واشتهر بها أكثر من شهرته كشاعر في لغته الأم، ونتيجة لتلك الترجمة انتقل الخيام من شاعر إقليمي مغمور (لا يعرف في غير بلاد فارس) إلى شاعر عالمي طبقت شهرته الآفاق. وعلى الرغم من تجاوز ترجمات رباعيات الخيام إلى العربية الخمسين ترجمة، يبدو أن ترجمة أحمد رامي هي الترجمة الوحيدة التي اقتريت من مجال الأصل وعذوبته عن طريق فهم الرباعيات وهضمها وتعويض كلماتها ببدائل ذات معان دقيقة، حفظت جوهرها وصانتها من الابتذال والتشويه.

في الغرب أصبحت كلمة «الرباعيات» مرادفة لكلمة «خيّام» ويعود الفضل في ذلك إلى الشهرة الواسعة التي حظيت بها ترجمة إدوارد فيتزجيرالد (رباعيات الخيام) في القرن التاسع عشر، والنقاد المعاصرون الذين أشادوا بهذه الترجمة كثيرون من أمثال تينيسون وكارلايل ودانتي غبرائيل روزيتي وسوينبيرن وروسكين وغيرهم. في الحقيقة أفاد الخيام كثيراً من ترجمة فيتزجيرالد حيث كتبت عنه آلاف الكتب والمقالات منذ ذلك الحين وترجمت الرباعيات بعد ذلك

في لغته ومجتمعه. فالأسلوب الأدبي في الترجمة ينطلق من قواعد جماعية ثابتة تشكل أساس الفنون والآداب بصفة عامة، والأدب العربي لخير مثال على ذلك إذ من الضروري أن تتفق الترجمات من اللغات الأجنبية إلى العربية، فالمترجم الشعري يحتاج إلى ملكة الخيال علاوة على الشحنة العاطفية التي يتميز بها القلب.

لقد نجح بعض المشاهير في ترجمة بعض الروائع العالمية نجاحاً باهراً، فالشاعر الإنكليزي المشهور Mathew Arnold اشتهر بترجمة هوميروس Homer، إذ كان يعتقد أن الشعر يجب أن يترجم شعراً وعلى المترجم أن يراعي الوزن والتفعيلة عند الترجمة، في حين أن المترجم Francis Newman اعتقد أن وزن القصص الغنائي Balled Meter هو الأفضل لنقل هوميروس من الإغريقية إلى الإنكليزية المعاصرة، وتبرز صعوبة الإبداع في عدم التمكن من نقل ظلال المعاني والشحنات العاطفية الكامنة في مفردات لغة الأصل إلى اللغة الهدف، وكذلك لا يمكن نقل الجرس الموسيقي للمفردات من لغة إلى أخرى. الشاعر الإنكليزي إدوارد فيتزجيرالد ترجم

الترجمة ودورها في ردم الفجوة الحضارية بين الغرب والشرق

بأن العدد يبلغ ٧٥ رباعية. وكما يبدو فإن المترجمين الذين ترجموا رباعيات الخيام إلى لغات أجنبية لم يكونوا على دراية بمثل هذه الحقائق، فعلى سبيل المثال قام ج. ب. نيكولاس عام ١٨٦٧ بترجمة ٤٦٤ رباعية إلى الفرنسية، هذا وأكد فيتزجيرالد غير مرة أن ترجمته لم تكن أمينة بشكل كبير ولم تكن تستهدف بالضرورة قراء الفارسية، وعلى الرغم من تحرر فيتزجيرالد بهذه الترجمة إلا أنه حافظ على سحر ونكهة الشرق، ويكاد يجمع معظم المستشرقين على أنه حافظ روح ووجدان الشاعر المسلم عمر الخيام، ويمكن القول إن ترجمة فيتزجيرالد بالإنكليزية تكاد تكون أقرب إلى الشعر الإنكليزي الفيكتوري أكثر من الشعر الفارسي.

وفي عام ١٩٥٢ نشر آرثر ج. آربري Arbrry Arther ترجمة جديدة لـ ٢٥٢ رباعية ولم يقصد من ترجمته إدخال تحسينات على ترجمة فيتزجيرالد بل ليعطي صورة أكثر وضوحاً عن رباعيات الخيام، حيث التزم الترجمة الحرفية للأصل. ومن أشهر ما ترجم من الغرب إلى الشرق أعمال وليم شكسبير حيث قام العديد من المترجمين

مراراً وتكراراً، ومن بين المترجمين المتميزين لرباعيات الخيام نجد ترجمات المستشرق المتميز أ.ج. إريبري (A.J. Arberry) والشاعر والناقد روبرت غريفز Robert Graves وعمر علي شاه وغيرهم.

ومن الغريب جداً أن من بين النقاد من يشكك في أن عمر الخيام هو الذي كتب تلك الرباعيات، ويقولون إن من المعروف أنه كان فلكياً ورياضياً ناجحاً وأنه من المهتمين بأعمال الفيلسوف المسلم ابن سينا، ولكن لا توجد أية إشارة معاصرة إلى كونه شاعراً، على أية حال، يعزى الكثير من النقاد إلى أن ما ينوف على الألف رباعية هي من شعر الخيام، ولكن حقيقة كم رباعية هي فعلاً من شعره؟ هذه قضية لم تحسم بعد، حيث يعتقد بعض المهتمين أنه لم يكتب أيّاً منها وعليه يجب حذف اسمه من تاريخ الأدب الفارسي، لكن معظم الباحثين لم يذهبوا إلى هذا الحد، فهناك آرثر كريستنسن Arther Christensen، يعتقد أن عدد الرباعيات التي ترجمها تبلغ ١٢١ رباعية، ويعتقد صادق هداية أن العدد يبلغ ١٤٣ رباعية، ويعتقد محمد علي فروغسي أن العدد يبلغ ١٧٨٢ رباعية، بينما يعتقد علي داشتي

والطيب صالح وخلافها. ومن جهة أخرى، عد كثير من النقاد أن ترجمة الإنجيل مهمة لا تنتهي، حيث ترجمت نصوص الكتاب المقدس من العبرية إلى الآرامية واليونانية ثم إلى معظم اللغات الأخرى عبر العصور واستمرت هذه المهمة إلى يومنا هذا، حيث تم نشر النسخة المعدلة لترجمة الإنجيل باللغة الإنكليزية عام ١٩٨٩ ونسخة أخرى معدلة عام ١٩٩٠ في سلسلة من الأعمال المترجمة لن تكون بالتأكيد آخر الترجمات، هذا وقد ترجم الإنجيل أيضاً إلى الأرمنية والقبطية والعربية، وفي عهد النهضة لوحظ اهتمام خاص بترجمة الإنجيل إلى اللغات الأوروبية.

وفي القرن التاسع عشر أدى اهتمام البروتستانت بترجمة الإنجيل إلى ظهور ترجمات تصدر لأول مرة باللغات المتداولة في كل من آسيا وأفريقيا والأمريكيتين وجزر البحر الهادي، ومن بين الترجمات الأكثر قبولاً وشيوعاً، على سبيل المثال ترجمة جديدة للإنجيل صدرت باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٠، وترجمة راقية منقحة صدرت في أمريكا عام ١٩٥٢ حيث ظهرت الأولى عام ١٩٨٩ والأخرى ١٩٩٠.

بنقلها إلى العربية من أمثال: خليل مطران وجبرا إبراهيم جبرا ومحمد عناني وغيرهم، فمسرحية «حلم ليلة صيف» يشترك فيها عالم السحر بعالم الحياة اليومية وعنوان المسرحية، كما يقول المترجم محمد عناني، مستمد من الفولكلور الأوروبي القائل بأن أشد أيام العام حرارة هو منتصف الصيف الذي يؤثر في الذهن تأثيراً خاصاً.

إذن لا بد لترجمة الأعمال الإبداعية من نقل المعاني والإيماءات الواردة في النص المصدر، ولا بد للمترجم من أن يكون قادراً على إحداث نفس التأثير في قارئ النص المترجم. ومن أمثلة الترجمات الراقية ترجمة كتاب «كليلة ودمنة» إلى العربية عن ترجمة نقلت من أصل هندي، وترجمات مسرحيات شكسبير إلى اللغات المختلفة كتلك التي ترجمت إلى الألمانية حيث ترجم شليجل سبع عشرة مسرحية من مسرحيات شكسبير إلى الألمانية بنجاح حتى أصبح بمقدور الألماني أن يتذوق أدب شكسبير في لغته الأصلية، ومن أمثلة الترجمة من العربية إلى الأجنبية ترجمات القرآن الكريم والمعلقات وبعض الأعمال الأدبية المعاصرة كترجمات أعمال نجيب محفوظ

في القصة والرواية والمسرحية؟ والجواب ببساطة: إن أدبنا تنقصه في هذا المجال حركة ترجمة منظمة دائمة تنقله إلى اللغات العالمية والمعروفة كمثل أول ترجمة إنكليزية لجانب من شعر المعلقات على يد «ليال» المستشرق الإنكليزي المعروف.

قبل عدة عقود ازدهرت حركة الترجمة إلى العربية للروائع العالمية، شرقية أو غربية، مما أدى إلى ملاحقة النتاجات العالمية المتوالية إضافة إلى الإبداعات الماضية لكبار الفلاسفة والمبدعين العالميين أمثال: شكسبير وفولتير وفيكتر هيجو وتشارلز ديكنز ودانتي وغيرهم من المبدعين الذين خلدت أعمالهم وترجمت إلى عدة لغات نظراً لما تحتويه من أفكار إنسانية تهم البشرية جمعاء، وفي أواسط خمسينيات القرن الماضي إلى أواسط الستينيات منه كانت هناك حركة ترجمة نشطة وكان مركزها لبنان وسورية، تزعم هذه الحركة عدة مثقفين مثل منير بعلبكي وبهيج عثمان وجورج طرابيشي وسهيل إدريس وسامي الدرويي، وكانت الأعمال الجديدة لسارتر والبير كامو وسمون دي بوفوار وكولن ولسون تدخل اللغة العربية بعد شهور من نشرها بلغاتها

كما حظيت حكايات ألف ليلة وليلة باهتمام واسع من قبل الدارسين في الشرق والغرب لما لهذه الحكايات من أهمية في التراث القومي، الذي اجتمعت فيه غرائب الأخبار التاريخية الممزوجة بالخيال الجامح والأساطير والخرافات والقصائد والأمثال، والنسخة الأولى من كتاب ألف ليلة وليلة كتبت بلغة عربية فصيحة وبأسلوب يمتاز بقوة البيان والبناء وهناك بعض الباحثين الذين حاولوا زوراً رد أصول ألف ليلة وليلة إلى أصول يهودية.

ونحن في العالم العربي أحوج ما نكون إلى الترجمة للاطلاع على الثقافات والعلوم عند الأمم المتقدمة، فالإنسان العربي يتطلع إلى اليوم الذي يجد فيه الكتاب الجيد المترجم لمسايرة العصر واكتساب الخبرة والتزود بالعلوم العصرية في شتى المجالات والحقول، بدل العيش على فتات التراجم الهزيلة وقد خطت مجامع اللغة العربية خطوات تستحق عليها الشكر والدعم والتشجيع. يتردد بين الفينة والأخرى تساؤل بين الأدباء والدارسين العرب مفاده لماذا لم يبلغ أدبنا الذبوع المنشود على رغم سمو كثير من آثاره إلى مستوى كبار الكتاب العالميين

الترجمة ودورها في ردم الفجوة الحضارية بين الغرب والشرق

شكسبير إلى اللغة العربية، باختصار يمكن القول: إن روائع الآداب العالمية لم تعم الحضارة إلا عن طريق الترجمة فهي جسر لا بد منه بين الأمم وضرورة لا غنى عنها.

يقول نذير العظمة: إن ترجمة سير هاملتون جب «لرحلة ابن بطوطة» من العربية إلى الإنكليزية أو ترجمة ألفرد غويوم لكتاب السيرة لابن اسحق، أو ترجمة ريتشارد بورتون (المستشرق لا الممثل) لألف ليلة وليلة لم تثر الجدل الذي أثارته ترجمات فيتزجيرالد لـ عمر الخيام، وترجمة نيكلسون لـ «لزوميات أبي العلاء المعري» أو ترجمة وليم لولك لـ «معلقة لبيد بن أبي ربيعة ومن قبله وليم جونز واي جي آريري لـ «المعلقات كافة اقتضت إلى جانب المهارات اللغوية والبلاغية والذوقية في لغات متعددة القدرة على إبداع النص المقابل بالمقاييس الجمالية التي يقبلها أو يستسيغها العصر، ويقبلها الذوق في اللغة المترجم إليها.

الأصلية متمشية مع الترجمات الأخرى، هذا وترجم سليمان البستاني الألياذة و خليل مطران وجبرا إبراهيم جبرا ومحمد عناني مسرحيات شكسبير «هاملت وماكبث وعطيل وتاجر البندقية وخلافها»، واستطاع البستاني إخضاع النص الهومري للأوزان العربية والنظم المنوط بها، فلقد استطاع أن ينقل المعاني الهوميرية للمحمة الألياذة ولكنه لم يحقق إثارات النص الجمالية والذوقية رغم اللغة السليمة والوزن والقافية، ويعتقد بعض النقاد أن ترجمة البستاني جاءت في المستوى فوق الوسط بقليل، واحتلت مكانة في تاريخ الصلوات الشعرية بين العرب واليونان، ويعتقد الدكتور نذير العظمة بأن ترجمات مطران خليل مطران لمسرحيات شكسبير المشهورة تمت على يد شاعر مشهود له بالبراعة لكنه في ترجماته لم يكن كذلك، وهذا عائد لكونه لم يستوعب المسرحيات الشكسبيرية من خلال أصولها الإنكليزية، بل ترجم الترجمات الفرنسية لمسرحيات



آفاق المعرفة



قراءة في نثر الشاعر القروي

محمد علي درويش

لعل أبرز صفات الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) أنه شاعر مقاتل.. فقد قاتل طيلة حياته المديدة بالشعر، وبالموقف الوطني المشهود، أعداء أمته العربية من مستعمرين وصهاينة وشعوبيين ودعاة طائفية. ومنذ بدايات القرن العشرين المنصرم كانت قصائد القروي الوطنية تؤلف اللغة العربية الجامعة التي يتكلمها كل العرب من المحيط إلى الخليج. يقول عنه الناقد د. إحسان عباس: «ما من شاعر عربي معاصر امتزجت حياته بحياة أمته كالشاعر القروي...». وقد حق له أن يقول، وقد قال ذلك مراراً، أنه

* ناقد سوري.

العمل الفني، الفنان مطيع علي.

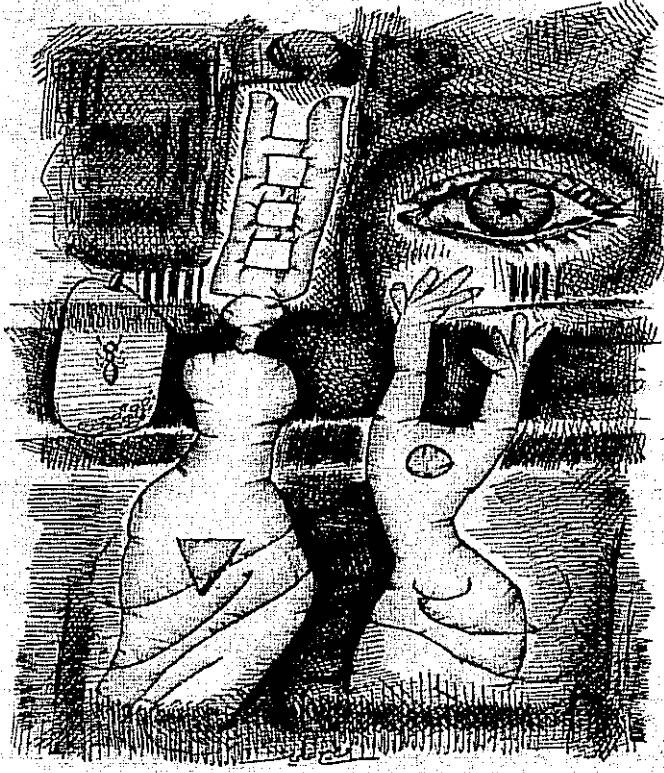
في جميع كتاباته النثرية تلك نائر مرموق يكتب عربية سليمة في مفرداتها وبنائها، بعيدة كل البعد عن الضعف والركاكة.. فيها حلوة ومتانة أسلوب ورقة وبلاغة في الهندسة والتركيب.

يقول الأديب والناقد اللبناني جهاد فاضل بهذا الصدد: «أذكر أن القروي، رَحِمَهُ اللهُ، قادني يوماً إلى غرفة نومه في بلدة البريارة فأطلعني على ما لديه من أوراق ومستندات خاصة فيها الكثير مما كتبه نثراً، مما نشره ومما لم ينشره. وعندما طلبت منه أن يعد كل ذلك ليصدره في كتاب مستقل على أساس أنه فخر القروي، وجدته غير متحمس للفكرة، فحالته الصحية لم تكن على ما يرام، ونظره كان قد شح. كانت إحدى عينيه قد فقدت البصر نهائياً، فيما عينه الأخرى شحيحة الرؤية أيضاً، خاصة وأنه كان في الخامسة والتسعين من عمره...».

ولكن النثري كان قد هياً في أواخر أيامه بعض نثره للطبع.. وهي مقالات وأبحاث وخطب وردود وحوارات كان جمعها وترتيبها يسيراً عليه لسهولة تناولها من بين أوراقه ولأن بعضها مشهوراً وقد طبع مراراً. وقد صدر كل ذلك في بيروت تحت

ارتبط بقضايا أمته حتى أشغلته عن كل ما في الحياة من متع ومغريات.. بل إنه يقول ببعض السخرية: «لقد نسيت الارتباط حتى بزوجة!». فيما تمتلئ سيرة القروي دائماً بنضال لا يعرف الفتور أو المهادنة من أجل أهداف الأمة. وقد ظل حتى أيامه الأخيرة مشغول الفكر بحاضر العرب ومستقبلهم وكأنه في بدايات حياته لا في أواخرها.

وقد لا يعلم الكثيرون أنه نائر أصيل. ولا يقل مستوى نثره عن مستوى شعره، فهو في النثر قد امتلك الأسلوبية البلاغية العربية متأثراً، بصورة أكثر خصوصية، بإعجاز القرآن الكريم. وكما كان القتال قدر القروي في الشعر، فإن القتال كان قدره في النثر أيضاً. وكما لا يقل نثر القروي جودة عن شعره فإنه بقوته وجزالته من حيث الكثرة، فقد كان القروي حيناً من الدهر رئيساً لتحرير مجلة «الرابطة الوطنية السورية» التي كانت تصدر في سان باولو بالبرازيل، كما عمل في عدة صحف عربية أخرى في المهجر. وكان باستمرار أحد أبرز خطباء الجالية العربية في مناسباتها المختلفة. وبالإضافة إلى ذلك كتب القروي أبحاثاً وردوداً شتى تتصل بشعره و شعر سواه. وهو



عنوان «أعمال القروي النثرية»، وهو يؤلف قسماً هاماً من نثره، وإن لم يكن يؤلف سوى جزء من ذلك النثر الغزير. في إحدى صفحات هذا الكتاب يتذكر القروي بيتين قالهما في قصيدة ألقاها بمناسبة تكريمه في القاهرة أيام الوحدة بين مصر وسورية. هذان البيتان نظمهما خصيصاً لسمعها طه حسين عندما عرف بوجوده في الحلقة فقال:

«لولا القرآن لما بقيت اللغة العربية»

ويضيف: إن أكبر عدو للصهيونية هو القرآن «هو الذي جمعنا وألف بيننا، وهو الذي أبقى علينا وعلى لغتنا وعلى استقلالنا ولولاه لذهبنا من زمان» (ص ٣٦٧) وعندما أعطى حديثاً يوماً لمندوب مجلة عربية تدعى «العالم العربي» ودع الصحفي قائلًا له: كلمة «العالم العربي» تطربني لأنها تذكرني بالوحدة العربية.. وهو بالطبع لا يؤمن بوجود أمة لبنانية بل أمة عربية، وإن كان يحب لبنان

من بيك عهد الموامي والدمى فأنا

والحمد لله قد حطمت أصنامي

شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت

عرويتي مثلي الأعلى وإسلامي

وكان القروي يأخذ على طه حسين أنه

ترك حضارة الإسلام وأخذ يركض وراء

الفراعنة وقبورهم وينبش المومياء ويفرضها

على الزمن الحاضر (ص ٣٧٩). وفي صفحة

أخرى يقول القروي:

قراءة في نثر الشاعر القروي

به محيط فما إن تنزعه حتى يتعانق الماء
ويعود جسداً واحداً وروحاً واحدة كما كان»
(ص ١٨ - ١٩).

ويثور القروي بوجه من يأخذ عليه
انصرافه إلى الشعر القومي. كان وديع
ديب أستاذ الأدب العربي في جامعة بيروت
الأميركية قد أصدر كتاباً عنوانه: «الشعر
العربي في المهجر الأميركي» تعرض فيه
للقروي بالنقد في هذا الكتاب، قال وديع
ديب: القروي جرفته القوا في في تيارها.

القروي استهواه تصفيق المنابر. القروي ما
نظم الكثير من شعره الوطني إلا وفي نفسه
شوق إلى اعتلاء المنابر وتصفيق الناس.
القروي يستدرجه المنبر إلى ما يرضي عبادة
المنابر الخشبية. القروي في شعره تطرف
في القول تطرفاً تأباه النفوس. القروي يميل
إلى مجاملة الخاصة وإرضاء العامة وتهريج
النقاد». ويرى القروي أن بعض النقاد،
بنقدهم الخاطئ عملوا على صرف أذهان
النشء عن واقع أمرهم، وزهدوهم في الأدب
العربي الذي لا غناء لنا اليوم إلا به، «وإنما
نحن أحوج إلى أدب يخشاه المستعمرون.
لا أدب يكون هم أول ناشريه والداعين له
ومروجيه. وبالاختصار إنكم تهلون كل
الإهمال ما يجدر بكم أن تعنوا به كل العناية
وهو الأدب العربي الحماسي. لقد حشد

حياً لا يوصف.. وكان يعتبر العروبة «روح
معن وحاتم والسموع في سلوك كل نبيل
عربي، وروح عنبرة وامرئ القيس والأخطل
والمتبني في خيال كل شاعر عربي، وروح
خالد وأسامة وطارق وصلح الدين.. على
سيف كل جندي عربي، وروح أبي بكر وعمر
وعثمان وعلي على قلب كل متسلط عربي،
إنها البحر المحيط يضم أرخبيل أقطارنا
التي ينبغي أن تجري فيه رياح تضامننا كما
تشتهي سفن أمانينا».

ويضيف: «ويقولون فشلت العروبة.
قولوا: بل عوقت عن النصر إلى حين، ثم كان
المؤتمرون بها هم الفاشلون، من سار على نور
العروبة لم يضل، ومن عمل بوحيتها لم يضر،
باسفنجة العروبة يمسح الضغن، ويميثاقها
تزول القطيعة، وعلى شاطئ وحدتها يتكسر
الاستعمار، وعند آفاقها يقف زحف الليل،
وفي ظل علمها تغمض عين الأمن، وفي
مياطينها الواسعة تم الحركة وتثمر المواهب
وينشد اليسر والرخاء. ومن أحشائها تولد
العبقرية، ومن عروقها يتفجر دم الأصالة.
فأين كانت خيلها فهناك تعقد ألوية النصر،
وتنفخ أبواق السيف في المضامير. كل حزب
لا يولد من صلبها فهو دخيل عليها، متريص
بها، وهي كالبحر لا يشقه إسفين. تضرب
فيه العمود فيشغل منه بقدر حجمه وهو

الشاعر الإنساني قبل أي شاعر سواه». ويطرح القروي على وديع ديب والنقاد الآخرين الذين يأخذون عليه التزامه القومي: «أطلبون من شعراء الوطنية اعتدالاً وهم يطوون بين جوانحهم شعور أمة؟ إذا احترق صدري عطشا، أستطيع تحديد قياس الماء الذي أصبه في الكأس إذا كان إلى الخط الذي تزر عليه الجيوب أو الذي تدور عليه القلائس؟ وإذا لدغنتي أفعى، أفأملك تعديل صيحتي لثلا أوقظ النائمين؟» (ص ٣٠).

كان القروي منذ البداية يكره الظلم والظالمين والاستعمار والمستعمرين، وكانت عرويته طبعاً وسجية في النفس قبل أن تكون عقيدة أو فكرة. وإذا عدنا إلى ديوان القروي (الجزء الأول، طبعة دار المسيرة البيروتية، ١٩٧٨، ص ٥٣٦) نجد هذه العقيدة التي نظمها القروي سنة ١٩١٦. عقب صدور وعد بلفور المشؤوم مباشرة وفي وقت كان فيه الوعي القومي مختلفاً جداً عما هو عليه اليوم ومطلعها:

الحق منك ومن وعودك أكبر

فاحسب حساب الحق يا متجير

تعد الوعود وتقتضي إنجازها

مهج العباد، خسئت يا مستعمر

لو كنت من أهل المكارم لم تكن

من جيب غيرك محسنا يا بلقر

ووديع ديب في كتابه ما حشد من الأمثلة على الحنين والغزل والتفلسف والأمومة والتصوف وما إلى ذلك من النواعم، ولكنه أعرض إعراضاً تاماً عن الحماسيات. أما لماذا غلبت الحماسة على شعره، فهو يشرح ذلك أبلغ شرح: «ما كدت أنهض بقدمتي حتى صكت مسمعي أنات أمتي، ولفحت وجهي زفراتها، فطويت جناحي عند سريرها مخضماً خيالي لواقعها الأليم، مقدماً واجب تمريرها على التفريد في الخماثل والتتقير بين الحقول. ولو أنني أدركت أمتي صحيحة قوية، لحلقت مع الأسراب في ألف سماء بعد سمائها. لقد سلب اللصوص نصيب أمتي من خبز الحرية والعدالة والحق، وغادروها في وطاء الذل مدنفة تدميها القيود والحرية والعدالة والحق أسمى المعقولات التي ينشدها الإنسان الراقي، بل أغلى الجواهر الروحية، المشعة من صدر الرحمان، لا يحيا قلب بشري نبيل إلا بقطر نداها، ولا يمكن أن يتصور خير ولا جمال ولا سعادة في هذا الوجود إلا بانعكاس نورها. فما شعري الحماسي إلا أم صارخ من أغوار نفس أزعجت عن ذلك المحل الأرفع، ومثله العليا، فهي دائمة الحنين إليها والتوجع لفراقها والسجع بذكراها واستئزال بركاتها. وما الشاعر الوطني الحمي في أمة مستعبدة إلا

متمسك بها معتبرها جوهر وجوده وجوهر الوجود كله. عاش القروي ٩٦ عاماً كانت عبارة عن نشيد قومي، عن سيرة قومية، عن نضال حزب قومي كانت قصائده، ابتداء من العشرينيات، تحفظ غيباً في تطوان ولحج وحلب، وبغداد، وطرابلس الغرب، في كل مكان من الوطن العربي. ولكن مع مرور الزمن ودورة الأيام هناك أمور كثيرة انحرفت وضاعت وفقدت توازنها وهذا الشيخ الجليل في منزله في قرية ساحلية من قرى لبنان الشمالي، تدعى البريارة، يراقب الأحداث وتحولاتها عساه يرى فجر العروبة وقد أهل وسطع. كان يفرح عندما يرى أن الأمل قريب وكان يكتب حتى الموت وهو يرى الأمة تتخبط في الأمها ومحنها. ولا شك أنه عندما مات حمل معه إلى قبره كل هذه الآلام والمحن، ولا شك أيضاً أنه لفرط ما أحب العرب والإسلام، كان يشعر دائماً بأن قضية العرب كما هي قضية الأمة كلها هي قضيته الشخصية في آن.

عد من تشاء بما تشاء فإنما
دعواه خاسرة ووعدك أخسر
فلقد نضوز ونحن أضعف أمة
وتؤوب مغلوبا وأنت الأقدر
فلكم وقى متواضعا إطراره
وكبا بفضل رذائه المتكبر
ويذكر القروي أنه نظم هذه القصيدة (قصيدة وعد بلفور) معرضاً بأحمد شوقي وحافظ إبراهيم و خليل مطران وسواهم من شعراء العرب الكبار الذين مروا بهذا الحدث ذي التأثير البالغ على المصائر العربية مرور الكرام، دون أن يقفوا عنده ويستجلوا معانيه. وكان القروي يعزو تجاهل هؤلاء الشعراء لوعد بلفور وعدم الاهتمام به لضعف في الوجدان القومي عندهم.
وفي الواقع كان القروي منذ صباه المبكر «عروبياً». في الثانية عشرة من عمره نظم أول قصائده وكانت في هجاء أحد الحكام الأتراك (ص ٤٤ من أعماله النثرية) ومنذ ذلك الوقت والقروي معتصم بعروبته



آفاق المعرفة



شخصية المعري في «سقط الزند»

تامر سفر

كتب الباحثون كثيراً عن أبي العلاء، في القديم وفي الحديث، ونظروا إلى جوانب عديدة من حياته وأدبه وتفكيره ومعتقداته، ولكن رأيت هؤلاء الباحثين، بالإجمال، لا يعنون العناية اللازمة بدراسة ديوانه الذي جمع فيه جملة من أشعاره واختار له هو بنفسه اسمه المعروف «سقط الزند» قاصداً بهذه التسمية الشعرية المجازية أن يرمز إلى الحقيقة التي ينطوي عليه هذا الديوان، وإلى الواقع الذي يمثله من حياته ومن شخصيته ومن أدبه.

* أديب سوري.

© العمل الفني، الفنان علي الكفري.

شخصية المعري في «سقط الزند»

أكثر هذه الأشعار وأروعها شاعرية وأقواها دلالة عليه إنما صدرت عنه في أعلى مراحل شببته، وفي أخصب مراحل شاعريته، وفي أدق التجارب التي عاناها في حياته قبل معتزله، بل في أقسى هذه التجارب وأعماها أثراً في نفسه ووجدانه وتفكيره. ولقد أبيع لنفسي أن أقول إن الذين أرخوا لأبي العلاء من القدماء، قد أوهمونا أن صاحب «سقط الزند» نفسه لم يكن راضياً كل الرضا عن أشعاره التي تضمنها هذا الديوان، فقد نقل أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي^(١) عن أستاذه أبي العلاء نفسه ما يوهم هذا المعنى، إذ قال: «لما حضرت أبا العلاء، قرأت عليه كثيراً من كتب اللغة، وشيئاً من تصانيفه، فرأيت يكره أن يُقرأ عليه شعره في صباه، الملقب بـ«سقط الزند»، وكان يغير الكلمة بعد الكلمة منه إذا قرئت عليه، ويقول معتذراً عن تأيئه وامتناعه عن سماع هذا الديوان: «مدحت نفسي فيه، فلا أشتي أن أسمع». وكان يحثي على الاشتغال بغيره من كتبه»^(٢). وفي رسالة كمال الدين بن العديم، المسماة «الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتحري عن أبي العلاء المعري» قال مؤلف الرسالة وهو يستعرض توالييف أبي العلاء: «من الأشعار التي نظمها: ديوانه المعروف بـ«سقط الزند» وهو ما قاله في أيام الصبا

فان الزند - لغة - هو العود الذي تُقْتَدَح به النار، وسقط الزند هو أول نار تخرج من الزند عند الاقتداح^(٣). وقد قصد المعري هذا المعنى بذاته، لأن «سقط الزند» يجمع الكثير من شعره الذي نظمه في أوائل حياته، فهو إذن أول تلك النار العبقرية التي اقتدحها زناد ذهنه العبقري. ولكن الأمر في هذه الأشعار لا يقتصر على هذا الظاهر السطحي من دلالة التسمية، بل الواقع إن ديوان «سقط الزند» يصح أن يكون المدخل الحقيقي لدراسة أبي العلاء دراسة مستوعبة متوغلة في جوانب شخصيته جميعاً، وأعني أن هذا الديوان جدير بأن يكون للباحثين والناقدين بمنزلة ما يسمى «مفتاح الشخصية» لمن يشاء منهم أن يستجلي شخصية أبي العلاء على حقيقتها وواقعها الأصيل. وقد يرجع أكبر السبب في أن أولئك الباحثين لم يهتموا بديوان «سقط الزند» اهتمامهم بغيره من آثار أبي العلاء، إلى ما هو شائع عند الذين أرخوا لحياة أديبنا العظيم من القدماء، من أن هذا الديوان إنما يجمع أشعاره التي قالها في صباه، فلقد تمسك الباحثون المحدثون بكلمة «صباه» على حرفيتها، ولم ينظروا إلى هذه الأشعار نفسها بحيث يجدون أن الذي صدر عنه في صباه هو أقل ما يحتويه «سقط الزند»، وإن



قصده إلى معرة النعمان ولازمه مدة حياته يقرأ عليه بعد أن استعفى - أي المعري - من ذلك، ثم أجابه فقرأ عليه الكتب إلى أن مات - يقصد المعري - وقد أشار إلى ذلك في مقدمة «ضوء السقط». وأقام أبو عبد الله الأصبهاني بحلب، وروى عن أبي العلاء كتباً متعددة من تصانيفه، وهو الذي سأله أبو العلاء أن يشرح له «سقط الزند» فشرحه، ووسمه بـ«ضوء السقط»^(٤). ومن هذا النص ومن أمثاله في تضاعيف عدد من المراجع التاريخية الأدبية، يتبين بجلاء وتوكيد أن أبا العلاء كان حفيماً بديوانه «سقط

في أول عمره، وهو من أحسن أشعاره، وقد اعتنى به العلماء وشرحوه، مقداره خمس عشرة كراسة، تزيد أبياته المنظومة على ثلاثة آلاف بيت، شرحه الخطيب التبريزي وشرحه ابن السيد البطليوسي وأحسن شرحه»^(٤). وقال ياقوت في «معجم الأدياء» (الجزء الثالث ص ١٥٤) في معرض الكلام عن مؤلفات أبي العلاء: «... ومن غير هذا الجنس كتاب لطيف فيه شعر قيل في الدهر الأول يعرف بكتاب «سقط الزند» وأبياته ثلاثة آلاف». هكذا تواترت أقوال القدماء الذين أرخوا لأبي العلاء، حتى استقام في أذهان المحدثين أن «سقط الزند» ليس ذا شأن يؤبه له في آثار المعري ما دام من نتاج صباه.. وما دام المعري نفسه لم يكن يابه لهذا الديوان، كما توهمنا مقالة أبي زكريا التبريزي. والحقيقة أن المعري كان يحتفل بديوانه هذا احتفالاً ظاهراً. يدل على ذلك أنه عني بشرح الغريب من ألفاظه وجعل هذا الشرح في كتاب خاص سماه «ضوء السقط» وقد تحدث ابن العديم عن هذا الكتاب فوصفه بأنه «يشتمل على تفسير ما جاء في سقط الزند من الغريب، مقداره عشرون كراسة، وضع - أي المعري - هذا الكتاب لتلميذه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني، وكان رجلاً فاضلاً

شخصية المعري في «سقط الزند»

فقال: أمهلني حتى أكتب جواب السجل إلى مجلس الوزارة، فلعل العفو يسامحني بالمقام في بلدي، إذ لا يمكنني الخروج منه. فأمله الأمير، فأحضر الكاتب للوقت، وأملى عليه هذه الرسالة - أي «الرسالة الفلاحية» - يعتذر فيها عن عدم الرحيل بعجزه عنه^(٧). وفضلاً عما لهذه الحكاية، بوجهيها، من دلالة على احتفال أبي العلاء وتلاميذه بديوان «سقط الزند»، تدل كذلك على احتفال الناس في عصره بهذا الديوان وبأدب أبي العلاء وبمكائنه، كما تدل على إباء المعري نفسه وعزوفه عن عروض المال والجاه، وقد دلت على ذلك روايات عدة في أخبار أبي العلاء. ومهما يكن من شأن رواية التبريزي، المتقدمة الذكر، فإنها لا تستطيع أن تعارض ما نقلناه وما لم نقله من الروايات والأخبار المستفيضة عن اهتمام أبي العلاء بهذا الديوان.

«سقط الزند» والمدخل إلى فهم

شخصية المعري:

يخرج المتنوع لاختلاف الباحثين القديم والمتجدد بشأن أبي العلاء، من حيث فلسفته ومعتقده ومذهبه، ومن حيث طريقته في العيش وعلاقته بمجتمعه وأراؤه بالناس والحياة والكون، بظن يقرب إلى اليقين في أن معظم تلك الآراء المتخالفة المتناقضة

الزند» إلى حد أن تلاميذه كانوا يروونه عنه بالإجازة، وكان عدد من طلاب العلوم الوافدين إليه من أقطار مختلفة يدرسون هذا الديوان عليه في جملة ما يدرسون. فقد ذكر السيوطي في «بغية الوعاة» في ترجمة القابسي أنه «كان ممن يعاني الأدب، فقدم مصر وأخذ عن علمائها، ثم توجه إلى المعرة فلازم أبا العلاء، وأخذ عنه ديوانه «سقط الزند» وكتب منه نسخة جيدة، ورجع إلى مصر فقدمها للحاكم وقراها عليه، فأعجبه نظمه، وأرسل إلى عزيز الدولة الوالي بحلب أن يحمله - أي يحمل المعري - إلى مصر. فاعتذر، فكف عنه^(٨). ويروي أحمد تيمور باشا «هذه الحكاية بصورة أخرى نقلاً عن مقدمة رسالة للمعري تسمى «الفلاحية» تقول إن القابسي هذا لما رجع إلى مصر بنسخته «سقط الزند» أهداها للوزير أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي، فأعجب بها واستدعى كاتب الديوان وأمره أن يكتب إلى عزيز الدولة متولي حلب وأعمالها، في حمل أبي العلاء إلى مصر، ليبنى له دار علم، وسمح بخراج معرة النعمان له في حياته وبعدها، فوصلت الأوامر إلى ديوان الشام بكتب السجل، فكتب وجّه على البريد، فلما وقف عليه عزيز الدولة نهض للوقت حتى دخل معرة النعمان، وقرأ السجل على أبي العلاء،

شخصية المعري في «سقط الزند»

الدهور» إلى أبي العلاء نظرة شاملة بصيرة، فأقام فارقاً واضحاً بين المعري الإنسان في شبابه والمعري المتفكر المتمذهب في أيام عزلته وشيخوخته. لقد تتبه مارون عبود إلى مرد الخطأ الذي وقع فيه معظم الذين درسوا أبا العلاء من المحدثين، إذ أسبغوا على حياته كلها ثوب زهده وتعففه وانقباضه عن الناس ومقته إياهم وتغلفه بالأحاجي والأسرار دونهم، كما يظهر في «اللزوميات»، لا ثوبه في عهد «سقط الزند».

وبهذا الصدد يقول أديبنا الناقد الباحث مارون عبود: «فقد توهم الناس، حتى الخواص من الأدباء - هداانا الله وإياهم - أن أبا العلاء خلق منزهاً عن الشهوات، بريئاً مما يسميه غيرنا الضعف البشري، لا ينقصه شيء من الكمال في نظرهم، حتى كادوا يجعلوه بمعزل من الغرائز، كأنه غير مركب من لحم ودم. إن أبا العلاء، أيها الفضلاء، - وهذا لا يضير عصمته التي تزعمونها له - قد تغزل كالشعراء لأنه أحب مثلهم - الحب لا يضر يا سادة - وأحس بما أحس به كل مركب من نفس وجسد وله دماغ وقلب»^(٨).

حين لم يحصر مارون عبود نظره في نطاق «اللزوميات» وسائر ما أنشأه أبو العلاء في «محبسيه»، وجد «سقط الزند»، ثم وجد في

إنما استمدها الباحثون، في الأكثر، من مصدر واحد، هو حياة أبي العلاء في عهد كهولته الأخير وشيخوخته، وفي «لزومياته» وبعض رسائله التي أنشأها آنئذ، ولم ينظروا إلا قليلاً في حياته عهد الحداثة والشبيبة، وفي ما كان له عهد ذاك من شعر وأدب وسيرة. ولست أعني، طبعاً، أنهم لم يتحدثوا عن حياته في طوري الحداثة والشباب، ولم يفصلوا الحديث فيهما تفصيلاً كافياً، فإن أكثرهم صنع ذلك، ونخص الدكتور طه حسين بالذكر، لأنه بذل جهداً رائعاً في استقصاء حياة أبي العلاء من فجرها إلى مغربها، وفي تحقيق أخباره كلها على منهج علمي واضح بكتابه «تجديد ذكرى أبي العلاء». ولكن الأمر الذي أعنيه هو أن حياة المعري وشعره في أيام حداثة وشبابه وقسم من كهولته الأولى، لم يكونا مرجعاً للباحثين في دراسته وفي تعرف شخصيته من منابعها وأصولها. ولذلك جاءت آراؤهم عنه، في الغالب، متناقضة، لأنها منتزعة من ظواهر سيرته وشعره أيام ما كان يلتزم سيرة متكلفة، ويقسر نفسه وفنه على أشياء قد لا تكون في الأصل من مكونات شخصيته وفنه.

ومن الإنصاف للحق أن نذكر الأستاذ مارون عبود في أول من يمكن استثناءهم في هذا المقام. فقد نظر في كتابه «زوبعة

شخصية المعري في «سقط الزند»

وقف من أمر أبي العلاء الإنسان الذي يحيا في «سقط الزند» عند هذه اللحظات، ولم يجاوزها إلى تفصيل كامل يخرج منه «بالحلقة المفقودة» التي تصل المعري هذا بالمعري المفكر المتمذهب الزميت بعد أن انطفأت نار شبيبته.. فإن هذا لا يقل قطعاً من شأن السابقة التي بدأها صاحب «زويعة الدهور» باهتدائه إلى شاعر «سقط الزند»، دون أن يخلطه بناظم «اللزوميات»..

روى الثعالبي في «يتيمة الدهر» عن المصيصي الشاعر أنه قال: «رأيت بمعرة النعمان عجباً من العجب، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد، ويدخل في كل فن من الجد والهزل، يكنى أبا العلاء، وسمعته يقول: أنا أحمد الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر. وأخذ بهذه الرواية كل من أرخ لأبي العلاء بعد ذلك، ولم نجد من يكذبها أو ينكرها عليه، غير أن الدكتور طه حسين شك في أن أبا العلاء كان قادراً على أن يلعب الشطرنج والنرد^(١)، وتأول قوله أنه يحمده الله على العمى كما يحمده غيره على البصر، تأولاً ليس يخلو من تلك النظرة التي ينظر بها الباحثون إلى أبي العلاء من خلال حياته في «اللزوميات». ونحن نأخذ بهذه الرواية من حيث دلالتها العامة، دون تفاصيلها بالدقة. فسواء كان

أشعار هذا الديوان وأغراضه شاعراً إنساناً يحيا كالشعراء، وكالناس في زمانه، ورأى أبا العلاء لا يقول عبثاً، أي لا يصدر عن غير قلب يخفق بالحب، حين يقول:

أيا دارها بالخيف إن مزارها
قريب، ولكن دون ذلك أهوال
أو حين يقول:

أيا جارة البيت الممنع جاره
غدوت ومن لي عندكم بمقيل
لغيري زكاة من جمال فإن تكن

زكاة جمال فاذكري ابن سبيل
وراه، كذلك، يمدح كالشعراء، ويهنئ بالزفاف وغيره مثلهم، ويغلو ويبالغ حتى لا يقصر عن صاحبه المتبني في اللغو والمبالغة، ويجني غلة الشعر ويذوق بواكير محصوله كما يفعل غيره من شعراء ذلك الزمن، ويرثي كما يرثون، ويهجو مثلهم ولكن دون هجر، ويفتخر ويدعي مثل الشعراء بل أكثر منهم، إذن «فلنثق جيداً أن المعري إنسان مثلنا، أكل وشرب وتلذذ مثل الناس، وهو لم يكذب حين قال:

تنسكت بعد الأربعين ضرورة
ولم يبق إلا أن تقوم الصوارخ
فكيف ترجي أن تشاب، وإنما

يرى الناس فضل النسك والمرء شارخ^(٢).
وإذا كان أديبنا الكبير مارون عبود

شخصية المعري في «سقط الزند»

على امتلاء من علاقاته الإنسانية بحياة مواطنيه، وانفعال وجدانه الشعري بالكثير من هذه العلاقات، وأنه كان ينظر إلى الناس والحياة من خلال عواطفه وعلاقاته هذه، وأن النظرة المتزمتة المتبرمة بالناس وبالحياة لم تكن عهدئذ قد وجدت سبيلها إلى نفسه وتفكيره.

وأول ما يلفت انتباهنا من الدلالات على ذلك في شعر «سقط الزند»، ما جاء في قسم «الدرعيات» من أبيات قالها في لاعب شطرنج:

قل لترب الآداب في كل فن

وحليف الندى وحرب العذول

أيها اللاعب الذي «فرس» الشطرنج همت في

كفه بالنصهيل

من يباريك والبياذق، في كفك يغلبن كل رخ،

ودفيل،

تصرع «الشا» في المجال ولو جاء مردى بالتاج

والإكليل

لطف رأي يستأسر الملك الأعظم بالواحد

الحقير الدليل

أنت فوق الصوي في هذه الخلة، مزري غيرها

بالخليل^(١)

لسنا نسدرى متى نظم المعري هذه الأبيات، ولكن يكفيها منها دلالتها الصريحة على معرفة أبي العلاء بأدوات الشطرنج

أبو العلاء يلعب الشطرنج والنرد حقاً أم لم يكن، وسواء أكان يعني حقيقة ما يقول من أنه يحمد الله على العمى ما يحمده غيره على البصر، أم كان يعني من هذا القول ظاهره وفي نفسه شيء آخر، أمماً سخراً بالمبصرين، وإما اعتداداً بالنفس وفخراً - فإن هذه الرواية بجملتها، تدل - على كل حال - أن شاعر المعرة الفتى كان ظريفاً مرحاً يجالس الظرفاء، ويشارك أهل الهزل هزلهم وأهل الجدّ جدّهم، ويتصل بمواطنيه في المعرة اتصال مواطن إنسان، فهو يحيا حياتهم اليومية في غير تحفظ، ويخالطهم في لهوهم دون تزمت، ويحس معهم إحساس المسرة والمرح، دون أن تمنعه العاهة شيئاً من ذلك، بل تزيده العاهة إقبالاً على مثل ما يقبل عليه أترابه المبصرون توكيداً لوجوده وتفوقه.

وإذا أخذنا بالرواية من حيث دلالتها هذه، مع علمنا أنه ليس في أخبار أبي العلاء ما ينفي شيئاً من نصها، فهي من الوجهة التاريخية المحض ثابتة غير منقوضة، فإذا أضفنا إلى ذلك أن أشعار «سقط الزند» ذاتها تبين بأن الرواية ليست غريبة عن الواقع الذي كان يحياه أبو العلاء في عهده الأول الذي سبق عهد عزلته وتزده، ازددنا يقيناً بأن شاعر المعرة قد مارس حياته الأولى

شخصية المعري في «سقط الزند»

في حلب، أكثر مما يدفع إليها الاستبشار
بالزواج وبالمولود، أو التهئة بهما لذاتيهما
- قلنا أولاً: إن هذا أيضاً دليل على أن أبا
العلاء لم يكن يكره أن يمدح أمراء زمانه، ولم
يخالف طريقة الشعراء في عهده من هذا
الوجه. ونقول ثانياً: إن شاعر المعرة قد
ذكر المرأة في القصائد الثلاث، إلى جانب
المدح، ذكراً جميلاً تفوح منه رائحة الرجل
الإنسان الذي يرى في المرأة وجه النعمة
والنضرة والغبطة والخير. في حين هو يرى
في اللزوميات أن: «بدء السعادة إن لم تخلق
امرأة» ويظهر لنا أنه لم ينظم هذه القصائد
في صباه، لأن جامع الديوان - وأبو العلاء
نفسه هو جامع الديوان - عودنا أن ينص
عند كل قصيدة قالها في الصبا أنها مما
قاله في ذلك العهد. فإذا رجعنا إلى إحدى
هذه القصائد نسمعه يقول لصاحبه الذي
يهنئه بزفافه:

وتهن «النعمة» السنية واليس

حلل المجد والفعال الخطير

وتمتع «بنضرة العيش، إذ جا

عليك في رونق الزمان النضير

«خير» أيدي الزمان عند بني

الدنيا أتت في أوان خير الشهور

يا لها «نعمة» وليس بيدع

أن تحوز الشمس رق البذور^(١١).

وحركاتها معرفة الخبير، ثم دلالتها ضمناً
على أن رواية «يتيمة الدهر» عن ظرف أبي
العلاء ومشاركته في لعب الشطرنج زمن
شبيبته، ليست بعيدة ولا غريبة عن الصدق
والواقع، حتى في أضعف فقرة منها، وهي
الفقرة التي شكك فيها الدكتور طه حسين
كما تقدم.

ولنقارن الآن أبا العلاء الكاره للزواج
وللمرأة وللنسل، المتشدد في هذه الكراهية إلى
الحد المعروف عنه في أشعار «اللزوميات»،
أو إلى الحد الذي دفعه - كما يخبرنا أكثر
المؤرخين له - أن يوصي بأن يكتب على قبره
ذلك البيت الذي يصف جماع آرائه الصارمة
في النسل والزواج والحياة معاً:

هذا جناه أبي علي،

وما جنيت على أحد

لنقارن أبا العلاء هذا صاحب

«اللزوميات»، بأبي العلاء صاحب «سقط

الزند»، فسرى أن هذا الآخر قد أنشأ ثلاث

قصائد في تهئة ثلاثة من قومه بزواجهم،

وأنشأ قصيدتين في التهئة بمولودين.. ترى،

أيتوافق هذا الاندفاع في التهئة بالزواج

وبالمولود، مع تلك النظرة الساخطة إلى المرأة

والزواج والتناسل؟ إن بين الأمرين تناقضاً

ظاهراً... فإذا قيل لنا إن هذه القصائد كان

يدفع إليها المدح والمجاملة لبعض الأمراء

شخصية المعري في «سقط الزند»

يقصد أن هذه العروس ليس ينبغي أن تشبهه - كالعادة - بالظباء، بل هي أشبه باللبوة أخت الأسد في امتناعها وحصانتها وعفافها. ألا ترى أن المرأة هنا - عند أبي العلاء - تناقض المرأة عنده هناك في اللزوميات؟

وفي حين يرى أبو العلاء - في اللزوميات - إن من الخير للإنسان أن لا يولد، وأن الحياة هي هبة أئيمة يجني بها الآباء على الأبناء:

فليت وليداً مات ساعة موته

ولم يرتضع من أمه النساء
نجده هنا، في «سقط الزند» يرى نقيض ذلك أيضاً.. فهاهو ذا يهنئ أبا القاسم ابن القاضي التوخي بمولوده، فكيف يهنئه؟
إنه يرى الوليد المستهل «نعمة» نزلت من السماك الأعلى، فاستحق أن توفى بمولده النذور، وأن تساق الهدايا إلى البيت الكريم، أي الكعبة، لأنه يرى المولود الكريم سراً من أسرار المجد لأبيه:

متى نزل السماك فحل مهداً

تغذيه بدرتها الشدي^(١٦).

أهل بصوته، فأهل شكرأ

به الأقوام، وافخر الندي^(١٧).

بيوم قدومه وجبت علينا النذور، وسيق

للبيت الهدى^(١٨).

ونرى - استطراداً - أن نثبت هنا أبياتاً ثلاثة في القصيدة خص بها أبو العلاء مدينة حلب، قال:

«حلب» لسولي جنة عدن

وهي لسغادين تارسعير

والعظيم العظيم يكبر في عينيه منها الصغير الصغير
«فقويق، في أنفاس القوم بحر وحصاة منها نظير ثبير^(١٩)»

وفي القصيدة الثانية، وأكثرها طراز من المديح العادي المألوف، يخلص الشاعر إلى تهنئة أمير حلب بعمره، فيقول:

الآن قاله عن الهيجاء «مغتبطاً»

طال امتراؤك خلفي نابها الضببس^(٢٠).

في حين نرى المرأة في اللزوميات، موضع سوء ظنه دائماً، لا يثق بحفاظها على حصانتها، ويرى أن ضعفها على الإغراء هو الأصل في سلوكها، بحيث يقول هناك - في اللزوميات -:

وما يمنع الخود الحصان حصونها

ولو أن أبراج السماء حصونها

نراه - مع ذلك - هنا في «سقط الزند»

يراه أخت الأسد الصعب في امتناعها عن

غير المحلل لها من الرجال. وهاهو ذا يقول

لأمير حلب الذي يهنئه بعمره، في القصيدة

المتقدمة الذكر، وهو يصف عروسه:

مارية الغيل أخت الظبي فزت بها

بلرية الغيل أخت الضيغم الشرس^(٢١)

شخصية المعري في «سقط الزند»

أرى راح المسرة أثلمتني
وتلك، لعمرى، الراح الحلال
وقبل اليوم ودعني مراحي
وأستثنيه أيام طوال
هنيئاً، والهناء لنا جميعاً
يقيناً لا يُظنُّ، ولا يخال
أهل فبشر الأهلين منه
محيا في أسرته الجمال
بإخوته الذين هم أسود
على آثار مقدمه عجال
فإن تواتر الفتیان عز
يشيد حين تكتهل الرجال
وهل يشق الفتى بنماء وفر
إذا لم تتل أينقه فصال^(١٧).
ستركز حول قبلك العوالي
وتكثر في كنانتك النبال
فإن مناي أن يثري حصاكم
ويقصر عن زهائم الرمال^(١٨).
يستوقفنا من هذه القصيدة العاطفية،
أولاً: إحساسها الصادق وصفاً لها النفسي
والتعبيري معاً، وثانياً: نظرة أبي العلاء إلى
التناسل هذه النظرة الطبيعية السليمة، فإذا
الوليد الجديد بشارة بمواليد كثيرة تتبعه،
وإذا تكاثر الأبناء عز للأبء يشيدونه لهم
في أعمال الكهولة، وإذا هم المال الطيب،
ولا يثق المرء بنمو هذا المال إلا أن يتناسل

وسرالمجد مولود كريم
أبان وفوده خبر جلي
علو زائد بأبي علي
أتاك بفضل الله العلي
ويهنئ ثانية صديقاً له بمولوده، وقد كتب
له الصديق نبأ ولادته، فإذا النبأ عنده -
أي أبي العلاء - «بشرى»، وإذا الوليد نفسه
هو «النعمة»، ونحس هنا حرارة الصدق
في تهنئته، وتكاد نبضات قلبه تنتقل إلى
صدورنا ونحن نقرأ هذه اللفظة إلى صديقه.
وفي ظننا أن هذه التهنئة الشعرية كانت في
أوائل عهده بالعزلة، وكانت ما تزال في
نفسه صبوات إلى تلك المتع الروحية بقاء
الأصدقاء والشعراء، وما يزال يضطرب
وجدانه وينفعل بتجارب حية باقية من
زمانه الأول:

كتابك جاء (بالنعمة) بشيرا
ويعرض فيه عن خبري سؤال
وحالي خير حال كنت يوماً
عليها، وهي صبر واعتزال
فأما أنت، والآمال شتى،
فلقياك السعادة لو تنال
بعدنا، غير أننا إن سعدنا
بغبطة ساعة، عكف الخيال
ولو صنعاء كنت بها لهزت
هواي إليك نوق أو جمال

شخصية المعري في «سقط الزند»

أي أن الفرق بين أبي العلاء في «سقط الزند» وبينه في اللزوميات من هذا الوجه، هو أنه في الأول شاعر، وفي الثاني متفلسف، أو - إذا شئت - فيلسوف، أو فلنقل: مفكر متمذهب، يجري في هذه المسألة على غير ما تقتضيه طبيعة الشاعر الإنسان.

ومن منا يجهل بيتيه السائرين في مطلع قصيدته المعروفة:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل

عفاف وإقدام وحزم ونائل

أصندي، وقد مارست كل حقيّة،

يُصدّق واش، أو يخيب سائل^(١١).

في «سقط الزند» قصيدتان موضوعهما

الفخر، ولكن قصائد غيرهما جاءت في

الديوان في مواضيع أخرى، يطلع الفخر

أثناء أبياتها، لمناسبة حيناً، ولغير مناسبة

حيناً آخر، وفخر أبي العلاء تبدو من المتبني

نفحة ظاهرة، ولعل قصيدة «ألا في سبيل

المجد» أدل على هذه النفحة المتبينة، سواء

برويها الصاحب ويعروضها المجلجل، أم

بكبرياء التحدي ممثلة بها أوداج شاعر

المعرة، تشبهاً بكبرياء صاحبنا أبي الطيب

شاعر الفرسان، وفارس الشعراء..

واني وإن كنت الأخير زمانه

لأت بما لم تستطعه الأوائل

ويتلو بعضه بعضاً، وإذا أبو العلاء يتمنى، أغلى ما يتمناه لصديقه، أن يتكاثر أبناؤه حتى يقصر عدد الرمال عن أعدادهم.. يقول هذا وهو في عافية من نفسه ووجدانه، وفي رغبة صادقة أن ينال هذا الصديق ما هو خير ونعمى له، والنسل هنا هو خيره ونعماء.. أين هذا كله من رأي أبي العلاء في الأبناء وفي التماسل وفي «جناية الآباء على أبنائهم حين يهبونهم «نقمة» الحياة»؟ أين هذا الرأي الذي ينطق به «سقط الزند» من ذلك الذي تضج به «اللزوميات»؟

وينقم أبو العلاء على الناس، في اللزوميات، لأنهم يفتخرون، ويرى افتخارهم، كالكذب، منشؤه الجهل، فعلام يفتخر الناس وهم تراب ومن التراب:

ادفع الشرس إذا جاء، بشر

وتواضع، إنما أنت بشر

هذه الأجسام ترب هامة

فمن الجهل افتخار وأشر

فكيف شأن أبي العلاء، إذن في «سقط

الزند»، أهو يرى الفخر هنا كما هو هناك

عنده.. الفرق بين حاله هنا وهناك،

هو الفرق بين من يمارس الافتخار بنفسه

فعلاً إلى حد الغلو والإغراب، ومن يفلسف

الافتخار للناس، وينقمه عليهم، ويمجب

منهم أن يجدوا في إنسانهم موضع فخر..

الفنية المحض، أن نصف المبالغات الشعرية في باب الفخر، كذباً وصادقة، مع أننا نعلم أن أمثال هذه المبالغات لاتقصد إلى المعاني الحقيقية الحرفية التي تنطق بها الألفاظ والعبارات، بل لاتقصد حتى إلى المعاني المجازية الجزئية المباشرة التي تدل عليها كل عبارة بنفسها منفصلة عن علاقتها بالكل الكامل لبناء القصيدة وموضوعها، وإنما هي تقصد - بمجموعها وبدلالاتها الكبرى الشاملة - إلى التعبير عن مشاعر إنسانية تمتزج بآمال الشاعر ومطامحه وأشواقه الكبيرة، غير أن خيال الشاعر قد يضخمها في فورة من فوران العنجهية الفردية، وقد يكون الكبت الاجتماعي أو الحرمان أو الشعور بالاضطهاد والظلم سبباً في هذه الفورة، أو سبباً في جموح الخيال إلى أبعد حدوده تعويضاً عن نقص، أو انتقاماً لحرمان. وإذا صح أن نصف هذه المبالغات بالكذب والصادقة في باب الفخر، فلماذا لا نصفها كذلك في باب المدح، أو في باب الرثاء، أو في باب الغزل الخ. ٩.

نخلص إلى القول أنه إذا اعتبرنا أن ديوان «سقط الزند» من شعر أبي العلاء في مراحل صباه وفي شببته وفي كهولته،

لقد قال المعري هذا الكلام وهو في عنفوان حيويته، وفي عز إقباله على الدنيا، وله في الحياة آمال كبار، وأمامه دنيا بغداد لما تزل يومئذ دنيا أحلامه، فكان طبيعياً أن يزهو هذا الزهو كله، وليس في ذلك عيب يعيبه، فقد كان شاعراً، وكان يستشعر في ذاته أمراً غير عادي، وكانت في نفسه أشواق أكار لما تمتحنها التجربة الكبرى المنتظرة، وكانت شهرة ذكائه وتفوقه في الحفظ والفتنة تكتسح بلاد الشام وتجاوزها إلى العراق ومصر، وتتضخم في طريقها إلى الناس حتى تبلغ حدود الأساطير، ولعلها كانت وهي تجوب الآفاق، ترجع إلى مسمعه بضجتها وضخامتها الأسطورية، فينتشي بها، ويُزهو بنفسه، فيفخر هذا الفخر الموقل في المبالغة. وما ندري، أهذا نوع من الفخر، وقد كان مألوفاً في شعرنا العربي عهد أبي العلاء، أن الفخر يدخل في باب الصادقة، كما يرى الدكتور طه حسين، بحيث ينبغي أن يتزده عنه شيخ المعرفة.. هنا أيضاً الخطأ في إسباغ ثوب الشيخوخة الزاهدة المتزمتة على حياة أبي العلاء كلها من حدائمه وشبابه إلى يوم «محبسيه».. وفي المسألة أمراً آخر: أيصح، من الوجهة

سقط الزند، أولاً وأخراً، فنقرأ قصائد المعري في المديح، وفي اللقاء والفراق، وفي الشوق والحزن، وفي الرثاء، وفي التهنية، وفي الغزل والنسيب، وفي الوصف، وفي الفخر كذلك. أي أنه يعبر في هذه القصائد عن انفعالات وجدانية عاطفية يظهر الإنسان من خلالها كائناتاً يمنحه الشاعر حبه أحياناً، وإشفاقه حيناً، وإعجابه حيناً، وقد يغضب منه بعض الأحيان، ولكن لا عن مقت وكراهية، ولا عن ريبة وسوء ظن، وقد يتألم في أحيان أخرى، ولكن لا عن تقزز من الحياة أو يأس من فضائلها وخيرها، ولا عن برم بالإنسان أو عن ضيق بعلاقته الإنسانية معهم، بل كثيراً ما نراه يتألم هنا لأنه فارق بعضهم، أو لأن صلة من الصلات الحبيبة إليه يخشى أن تنقطع بينه وبين بعضهم الآخر، أو لأن الموت قد اغتال أحدهم وكان يرجو له البقاء طويلاً، لأن له في هذا البقاء متعة وأنساً وملاذاً روحياً. أخيراً نرى أننا كلما ازددنا إقبالاً في دراسة شعر المعري تكشف لنا جوانب مضيئة في شخصيته حملت في قلبه وعقله بذور التقدم والحرية الفكرية وبوارق العواطف الإنسانية النبيلة.

كما يرى ذلك العديد من الباحثين ومنهم الأستاذ مازون عبود والدكتور حسين مروة وغيرهم، وحين ندرس أخباره وأخبار البيئات المختلفة التي عاشها في مراحل حياته، حدثاً وشاباً وكهلاً وشيخاً، وحين ننظر - مع ذلك - إلى وجوه المعرفة التي تهيأ له أن يكسبها، وإلى أنواع العلوم والآداب التي تمثلها ذهنه وانفعلت بها مواهبه العقلية والشعورية، وحين ننظر - بعد هذا - إلى آثاره الأدبية التي نعلم جميعاً أنها البؤرة الصافية التي تشع في سيرته النفسية والفكرية والسلوكية معاً، ونعلم أنها المرجع الأول، بل الأوحد، لتفسير المزاج «العلائقي»، ولفهم «الفلسفة» العلائقية. أقول: إننا حين نفعل ذلك بشيء من الاستقصاء والتعمق، فإننا نرى أبا العلاء رجلاً تطفح نفسه رغبة في كل ما يرغب به الناس، ويتأثر وجدانه بكل ما يتأثر به وجدانهم من أوضاع الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية والأدبية جميعاً، ويريد أن يملأ نفسه ووجدانه بكل التجارب الإنسانية التي يتهيأ لإنسان تلك البيئات أن يمارسها وينفعل بها ويفيد منها علماً أو لذة أو علاقة ما بالحياة وبالطبيعة وبالكون. وعندما نقلب صفحات ديوانه

الهوامش

- ١- المنجد، ص ٢٩١.
- ٢- أبوزكريا هو أشهر تلاميذ أبي العلاء، وله مصنفات معروفة، منها: شرح الحماسة، وشرح المعلقات، وتهذيب ألفاظ ابن السكيت، ولد سنة ٥٢١هـ وتوفي فجأة في بغداد سنة ٥٥٢هـ، ودخل مصر في عنفوان شبابه، ثم استوطن بغداد ودرّس الأدب بالمدرسة النظامية، وكان إماماً في علوم اللغة العربية، وقد حقق كتاب «التهذيب» للأزهري في اللغة بإشراف أبي العلاء في المعرفة، وقد رحل إليه من تبريز.
- ٣- كتاب «أبو العلاء»، تأليف: أحمد تيمور باشا، ص ٢٠.
- ٤- أبو العلاء المعري، دفاع ابن العدم عنه: تحقيق وعرض سامي الكيال، ص ١١٢.
- ٥- المصدر السابق. ومن الشروح المعروفة لديوان «سقط الزند» شرح أبي يعقوب يوسف بن طاهر النحوي المسمى بـ «التنوير» وهو عبارة عن «ضوء السقط» مصلحاً ومزيداً فيه، وقد طبع بمصر سنة ١٩٤٠ غفلاً من اسم مؤلفه ابن طاهر النحوي ومنسوباً لأبي العلاء نفسه.
- ٦- السيوطي، بغية الوعاة، ص ٢٠٨.
- ٧- أبو العلاء المعري، أحمد تيمور، مرجع سابق، ص ٩٢.
- ٨- مارون عبود، زوينة الدهور، ص ١٤.
- ٩- الشارح: من يكون في شرح العمر، أي الصبا.
- ١٠- د. طه حسين، تمهيد ذكري أبي العلاء، ص ١٣٧.
- ١١- الصولي: هو أبو اسحق الصولي وقد كان ماهراً بلعب الشطرنج، والخليل: هو الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب علم العروض. «راجع: د. حسين مروة: تراثنا.. كيف نعرفه، ص ٤٩٦.
- ١٢- ديوان «سقط الزند»، ص ١٥.
- ١٣- قويق: نهر صغير معروف في حلب. وثبير: اسم لبضعة جبال في ظاهرة مكة.
- ١٤- الهيجاء: الحرب. امترى: استخراج الحليب من ضرع الناقة أو غيرها. الخلف «بكسر الخاء»: حلمة الضرع. الناب: الناقة المسنة. الضبب: الشرس العسير.
- ١٥- الغيل: أجمة الغباء والأسود. الضيفم: الأسود.
- ١٦- السماك: كوكب نير. الثدي: بضم التاء المشددة وكسر الدال وتشديد الياء: جمع ثدي.
- ١٧- الندي: النادي.

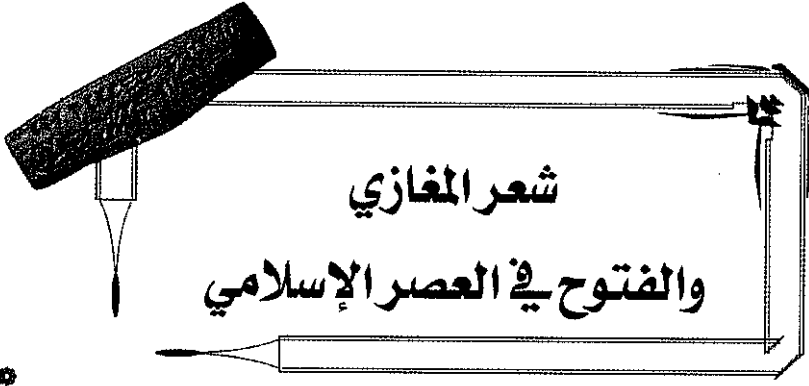
- ١٨- الهدي «بفتح الهاء وكسر الدال»: جمع هدية والمقصود بها هنا الأضحية.
 ١٩- الوفير: المال. الأنيق: ناقة. الفصال: جمع فصيل، ولد الناقة.
 ٢٠- يثري حصاكم: يكثر عددكم. الزهاء: القدر والمثال.
 ٢١- تجديد ذكرى، مرجع سابق، ص ١٩٢.

المراجع

- ١- فؤاد افرام البستاني، منجد الطلاب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط ٤، ١٩٥٦.
 ٢- ديوان «سقط الزند»، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠.
 ٣- أحمد تيمور باشا، «أبو العلاء المعري»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
 ٤- مارون عبود، «زوبعة الدهور»، دار مارون عبود، بيروت، ط ٣، ١٩٧٠.
 ٥- أبي العلاء المعري، تحقيق وعرض: سامي الكيالي، القاهرة، دار سعد بمصر للطباعة والنشر، ١٩٤٥.
 ٦- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ترجمة القابسي، المطبعة الجمالية بمصر، القاهرة، ١٩٤٦.
 ٧- د. حسين مروة: تراثنا... كيف نعرفه؟، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦.
 ٨- د. طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط ١٩٧٦، ٨.
 ٩- باقوت الحموي، معجم الأدباء، الجزء الثالث.



آفاق المعرفة



وهذان وهذان

كان الصراع الداخلي الذي أناخ بكله في الجزيرة العربية، إبان العصر الجاهلي، قد استنفد قوة العرب، وقت في أعضادهم، وجعل بأسهم بينهم، ولما أشرق الإسلام بنوره الوضاء جمع العرب والمسلمين تحت راية واحدة ألقت بين قلوبهم، وأنستهم ماكان بينهم في الجاهلية من ضغينة وشنآن وتنافس واختلاف، وأصبحت الأمة كتلة واحدة، مجتمعة الشمل، متماسكة البنيان تسير نحو هدف واحد، وتحمل مسؤولية مشتركة، وكان أن وجهت

* باحث سوري.

العمل الفني، الفنان جورج عشي.

شعر المغازي والفتوح في العصر الإسلامي

قضوا رحبهم لما مضوا لسبيلهم
 وخلقنت لبلوى مع المتغير
 ثلاثة رهط قدموا فتقدموا
 إلى ورد مكروه من الموت أحمر
 وجاء عصر الراشدين، فالأمويين،
 وامتدت آفاق الشعر العربي بفضل الفتوحات
 العربية التي وسعت أغراضه فانتقل هذا
 الشعر إلى حواضر الشام والعراق وغيرها،
 ونشطت حركة الفتوح في العصر الأموي
 خاصة، وأخذ الشعر يصف مغازي المسلمين
 وفتوحهم، وما لقوه في بلاد الأعاجم، ويشيد
 بالقيادة البارزين وفي مقدمتهم قتيبة بن
 مسلم الباهلي، الذي سار النصر في ركابه
 حتى وصل إلى «سمرقند» المدينة العظمية
 للصفد فنصب عليها المجانيق، ورمها بها،
 حتى طلب أهلها الصلح، وقد قال في ذلك
 كعب الأشقري:

كل يوم يحوي قتيبة نهباً
 ويزيد الأموال مالا جديداً
 باهلي قد ألبس التاج حتى
 شاب منه مفارق كن سودا
 دوخ الصفد بالكتائب حتى
 ترك الصفد بالعراء قعودا
 كلما حل بلدة، أو أتاهها
 تركت خيله بها أخدودا

قوتها إلى الفتوح، حاملة معها مفاهيم الخير
 والعدالة والمساواة، وفي ظلال ذلك انبعثت
 نفحات شعرية اتجهت إلى الحث على
 الجهاد، وتمجيد الانتصار ووصف المعارك،
 وثناء الشهداء، ومن مقدمات ذلك ما كان
 يقال من الشعر خلال الغزوات والمعارك
 التي كانت في عصر النبوة. ومما يذكر في
 هذا المقام أبيات قالها الصحابي الشاعر
 عبد الله بن رواحة، وكان مع الجيش الذي
 أرسله النبي عليه السلام إلى «مؤتة» وولى
 عليه زيد بن حارثة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة
 وضربة ذات فرع تنذف الزيدا
 أو طعنة بيدي حران مجهزة
 بحرية تنفذ الأحشاء والكبدا
 حتى يقال إذا مروا على جدثي:
 يا أرشد الله من غاز، وقد رشدا
 وقد استشهد ابن رواحة في تلك الموقعة،
 وكان قد أخذ الراية من جعفر بن أبي
 طالب، وقتل قبلهما أيضاً زيد بن حارثة،
 فقال شاعر المسلمين، ممن رجع من غزوة
 مؤتة، يرثيهم:
 كفى حزناً أني رجعت، وجعفر
 وزيد، وعبد الله في رمس قبر



وإذا كنا نجد شعراء
فاتحين لم يضربوا في
الشهرة بهم وافر، فإن
هناك عدة منهم كانوا
فرسان السيف والقلم
معاً، حين اشتركوا في
تلك المغازي والفتوح،
وفي مقدمتهم «أبو ذؤيب
الهدلي» الشاعر المخضرم
الذي أدرك خلافة عثمان،
وشهد فتح أفريقيا سنة
٢٦هـ في جند عبد الله
بن أبي سرح، ثم عاد إلى
مصر بصحبة عبد الله بن
الزبير، ومات فيها، ولعبد
الله يقول في تلك الغزاة:

أمن المنون وريبها تتوجع

والدهر ليس بمعتب من يجزع
ومع أبي ذؤيب، ويذكر «مالك بن الربيع»
الذي لحق بسعيد بن عثمان بن عفان فغزاه
معه خراسان، ولم يزل بها حتى مات، واشتهر
بقصيدته اليبائية الرائعة التي رثى بها نفسه
عندما حضرته الوفاة وأولها:
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بجنب الفضأزجي القلاص النواجيا

وصاحب صدق كسيد الضراء

ينهض في الحرب نهضاً نجيحاً
وشيك الفضول بطيء القبول
إلا مشاحاً به أو موشيحاً
وأبو ذؤيب هذا، هو صاحب القصيدة
العينية التي رثى فيها أولاده الخمسة الذين
قضوا بالطاعون في مصر، والتي اختارها
المفضل الضبي في «مفضلياته» ومطلعها:

شعر المغازي والفتوح في العصر الإسلامي

ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني
أوضارعا من ضنى لم يستطع حولا
ولو رحنا نتتبع ما قيل في المغازي والفتوح
من شعر لضاق بنا المجال، لمكان هذا الشعر
من الوفرة والغزارة. وقد حفلت أمهات كتب
التاريخ والأدب بنصوص كثيرة من شعر
الفتوح كتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير،
والبداية والنهاية لابن كثير، والأغانى لأبي
الفرج الأصفهاني.

ويكفي أن نشير إلى أن لهذا الشعر قيمة
أدبية كبيرة، لأنه زاد في معاني الشعر عمقا،
وفي أخيلته اتساعاً، وفي أسلوبه سهولة
وعذوبة، وفي العاطفة قوة واتقاداً، نجد ذلك
كله في أشعار الفرسان غيرهم ممن اشتركوا
في تلك الفتوح، وأبلوا فيها بلاء حسناً، وكان
لهم مآثر تذكر وينوه بها على مدى العصور،
ومنهم: عمر بن معدي كرب الزبيدي، وأبو
محجن الثقفي، ويشرب بن ربيعة الخثعمي،
وقيس بن المكشوح المرادي، ابن أخت عمرو
بن معدي كرب، وهو الذي قتل رستم قائد
الفرس في معارك القادسية، وقال في ذلك:
جلبت الخيل من صنعاء تردي
بكل مدجج كالليث سامي

وفي هذه القصيدة يقول:
ألم ترني بعث الضلالة بالهدى
وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
لعمري لئن غالت خراسان هامتي
لقد كنت عن بابي خُرسان نائيا
وقد كنت عطافا إذا الخيل أدبرت
سريعا لدى الهيجا إلى من دعائيا
وقد كنت صبارا على القرن في الوغى
وعن شتم ابن العم والجار وانيا
فطورا تراني في ضلال ونعمة
ويوما تراني والعناق ركابيا
ويوما تراني في رحى مستديرة
تخرق أطراف الرمال ثيابيا
وثالث ذينك الشاعرين: «النابغة
الجمدي» الذي كان مع عبد الله بن الزبير،
ثم خرج مهاجراً إلى الأمصار المفتوحة،
ومات بأصبهان بعد أن عمر طويلاً، ومن
قوله لامراته حين خرج غازياً
باتت تذكرني بالله قاعدة
والدمع ينهل من شأنيهما سبلا
يا بنت عمي كتاب الله أخرجني
كرها، وهل أمنعن الله ما فعلا؟
فإن رجعت قرب الناس يرجعني
وإن لحقت بربي فابتغى بدلا

شعر المغازي والفتوح في العصر الإسلامي

بملاحم شعرية تروى في وصف الفتوح
ومعاركها ولقاء الأعداء .

وشعر الفتوح، بعد ذلك، لون جديد ظهر
في أدبنا العربي بظهور الإسلام، وأضاف
إلى أغراض الشعر موضوعات وأفكاراً قيمة
جديرة بالدراسة والبحث، تضاف إلى وصف
المعارك، ورتاء الشهداء، ومنها الحنين إلى
الأوطان، وتسجيل خطرات النفوس وتوقد
العواطف، ووصف القلاع والحصون وآلات
القتال وما إلى ذلك. هذا إلى الروح الدينية
التي تسري في ذلك كله وتمجد الجهاد
والشجاعة، وتتغنى بالانتصارات في أسلوب
محبب، ولغة عفوية نائية عن التكلف
والتصنع.

وجئن القادسية بعد شهر

مسيومة، دوابرها دوامي

فناهضنا هنالك جمع كسرى

وأبناء المرزبة الكرام

فلما أن رأيت الخيل جالت

قصدت لموقف الملك الهمام

فأضرب رأسه فهوى صريعا

بسيف لا أقل ولا كهام

ثم إن لشعر المغازي والفتوح قيمة

تاريخية لا تجحد، لأنه يطلعنا على أخبار

الدولة العربية الإسلامية، وما وصلت إليه

من امتداد في السلطان، ويعطينا أيضاً صوراً

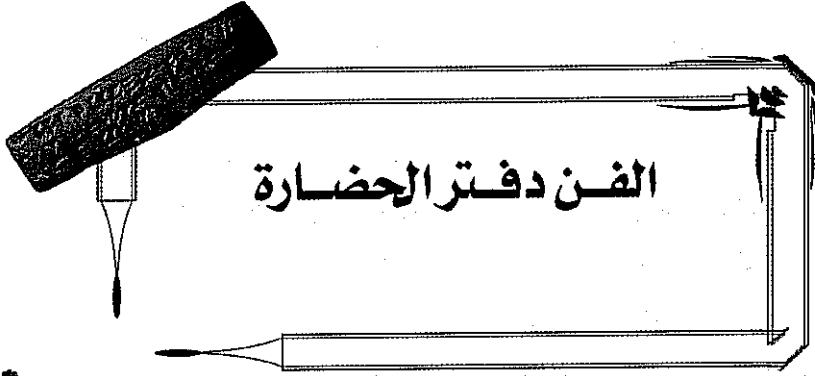
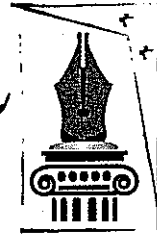
صادقة لا نجدها دائماً في كتب التاريخ، لأنه

يعبر عن تجارب عاشها أصحابها وأحسوا

بها، حتى إن بعض هذا الشعر يبدو أشبه



آفاق المعرفة



باكير محمود باكير

عندما نتكلم عن الحضارة، فإننا بشكل عام نقصد كل نشاط يدوي وعقلي كان يقوم به الإنسان ويعبر بوساطته عن جميع فعاليات حياته المعيشية والفكرية والسكنية خلال تاريخ حياته الطويلة على الأرض، والتي تمتد إلى عمق عشرات الألوف من السنين التي عاشها الإنسان وحتى الوقت الحاضر.

فمنذ بدء الوعي العقلي عنده تجاه محيطه، وتجاه البيئة التي يعيش فيها، وأمام تحدّيه لقسوة الحياة التي فرضت عليه، بدأ سعيه وبدأ عمله من أجل

* شاعر وأديب سوري.

العمل الفني، الفنان جورج عشي.

في تأمين حاجات حياتها من طعام ومأوى وحماية لها ولصغارها.

وباعتماده على وعي العقل عنده، بدأ يستعمل الأدوات المتوفرة في بيئته، مثل الحجر والعصا من أغصان الشجر، وبدأ يستعمل الطين وجلود الحيوانات وعظامها لصنع العديد من الأدوات الخدمية اليومية وللدفاع عن نفسه ضد الحيوانات أو ضد الغير من بني جنسه، وذلك بعد أن يتخذ من لحم الحيوان الذي يصطاده، غذاء له.

وساعده العقل على أن يخضع البيئة المحيطة لصالحه، حيث استطاع تطويع موجودات الطبيعة لخدمته وأغراضه، في حين ظلت بقية الكائنات الأخرى تعتمد على ما أعطتها الطبيعة من مخلب وناب وجلد سميك وريش وجناح.

وخلال مسيرته الحياتية استطاع تدجين الحيوان واستخدام النار وتعلم بذر الحبوب في التربة وتعلم غرس النبات، وأقام قرب مواقع الماء لأنه ضروري للحياة.

تجمع الإنسان في أسرة، ثم تجمع في عائلة، ثم صارت العائلة مجموعة اجتماعية من الناس ثم بدأ التعاون بين المجموعة والجماعات وبدأ الاستقرار والتجمع

تأمين متطلباته الحياتية التي تساعده على استمرارية البقاء مثله مثل بقية الكائنات -غذاء- مأوى- أمن.

ومثل كل الكائنات التي وجدت على الأرض، يحمل في داخله غريزة حب البقاء، ويكافح بكل إمكانياته من أجلها. ويكافح ضد ما يحيط به من عوامل طبيعية كالبراكين والزلازل والحرائق والسيول وغيرها، ويكافح ضد المخلوقات الأخرى التي تؤذي مثل الحيوانات المفترسة والحشرات والهوام وغيرها.

يتميز الإنسان عن بقية المخلوقات الأخرى بقدرة العقل عنده على محاكاة الأشياء وملاحظة المحيط الذي يعيش فيه، وفي محاولة تفسير ما يستطيع تفسيره، كما يمتاز بتكوينه الجسدي الذي يستطيع بواسطته ممارسة الكثير من النشاطات اللازمة لمتطلبات بقائه وللمحافظة على حياته وأمنه.

وهو ككائن عاقل بدأ يدرك الأشياء حوله ويسبر كنهها بعقله البدائي وبيديه اللتين تساعده على تأدية النشاط الذي يقصده، فهو بخلاف كل المخلوقات الأخرى التي كانت وما تزال تعتمد الغريزة البحتة



الحيوان أو النبات أو الحفر في التربة.

هذه الأدوات العديدة التي أبدعها الفنان البدائي من الأشياء الموجودة حوله لتساعده في تلبية حاجاته اليومية، تعلم تسويتها وتشذيبها بعقله البسيط الواعي، الذي أخذ يفتح شيئاً فشيئاً على الاستفادة من المواد البسيطة التي كانت تحيط به. وتعلم بعقله الواعي كيف يسد باب الكهف بحجر كبير منعاً للحيوانات الوحشية، وتعلم كيف يرتفع إلى الكهوف العالية خوفاً من المطر والسيول، وأن يلجأ إليها لتقيه عوامل الطبيعة من مطر وبرد ورياح.

حول مصادر الغذاء وأماكن المياه وتشكلت القرية الأولى.

إن حياته اليومية وإن السعي لجمع الطعام، وإن مطاردة الصيد من حيوان راكض إلى أنواع من الطيور، هذه الحياة تتطلب كثيراً من الأدوات المساعدة له، لقتل الحيوان أو حفر التربة أو تسوية الحجر وتشذيبها، لتصير قابلة للاستعمال اليدوي المفيد. والمحيط حوله لا يحتوي إلا على الخامات الأولية، وهي بالتالي تتطلب جهداً عقلياً وعضلياً لتتحول إلى أدوات ممكنة ومساعدة له في تأمين حاجاته.

لقد وجد الآثاريون في مناطق إقامة الجد الأول كثيراً من الأدوات الصوانية والفخارية ووجدوا كثيراً من الرماد الذي يدل على استعمال النار في الكهوف القديمة أو في البيوت البدائية التي كان يقيم فيها، ووجد الآثاريون كثيراً من الأدوات المصنوعة من عظام الحيوانات التي كان الجد القديم يصطادها ليستفيد من لحمها وجلدها وبالتالي من عظامها، حيث كان يشذبها حتى تصير صالحة كأداة حادة وسلاح ضد

من هذه العجالة نقول : استطاع الآثاريون معرفة شيء من حياة الجد الأول للإنسان هذه الحياة التي امتدت عشرات الألوف من السنين، اجتازها ببطء شديد من التطور والتبدل حتى استطاع أن يصل إلى عصر الفخار، وكيف يكوّن من الصلصال العديد من الأدوات التي يحفظ فيها طعامه وحاجياته، والتي أضيفت إلى ما عملته يده من العظام والحجارة والخشب، هذا الفنان البدائي الذي أخذ يُطوّر ما حوله ليصنع أشياء تفيده في حياته اليومية، أين تعلم كل هذا الفن، والذي هو أشبه بالفن الطفولي في عصرنا الحاضر، تعلم ذلك من تطور عقله الواعي لِكُنْه الأشياء ومحاولة تحويلها من شكل لآخر. ودخل الإنسان في العصر الحجري الحديث ثم اكتشف بعض المعادن وبتأثير النار فيها استطاع تحويلها إلى بعض الأدوات مثل النحاس والقصدير ثم البرونز.

وبدراسة الكثير من مخلفات الإنسان القديم عرّف الآثاريون شيئاً من أسلوب حياة الإنسان في السكن والطعام والصيد وتربية الحيوان وتكييف جزء من البيئة التي حوله لصالحه.

لقد ذهب ذلك الإنسان، وبقيت معالم كثيرة من أساليب حياته تدل على أسلوب إقامته واستيطانه في كثير من بقاع العالم. كما بقيت بعض أعماله الفنية اليدوية التي تدل على شيء من التفكير الديني، ومحاولة البحث بفكره البسيط عن القوى الخارقة والمؤثرة في حياته، وصار يُفكر في وجوده هو وفي سبب وجوده وفي سبب موته، وإلى أين يكون مصيره آخر الأمر، وإلى من يلجأ في وقت الشدة أو عند وقوع المصيبة أو الكارثة والتي تخرج بمفعولها القوي عن نطاق قدرته العقلية والعضلية، والتي لا يستطيع لها رداً ولا تفسيراً. ومن خلال عجزه ورعبه من القوى الخارقة التي لا يستطيع مقاومتها. والتي كان وما يزال أخواها الموت. أخذ يلجأ في تقديره إلى قوى تستطيع أن تحميه أو تنتقم له أو تخلصه مما هو فيه، فكانت فكرة الأقوى في الطبيعة وكان تقديسه للقوى الخارقة مثل الرعد أو البرق أو الكواكب أو الحيوانات القوية ظناً منه أنها قادرة على أن تساعد في حل معضلاته أو تحميه وتدافع عنه، وأخذ يصنع لها أشكالاً طوطمية ترمز إليها اختصاراً لتلك القوى ووصل إلى مرتبة المقدس منها، وأحياناً

سنة خلت، تلك الرسوم المُعبّرة والمرسومة بوسائل بدائية على جدران تلك الكهوف مثل الترية الحمراء أو الحجارة الحوارية أو قطع الفحم الخشبي. تُعبّر تلك الرسوم عن احتفاليات الصيد عند إنسان تلك الحقبة، وتعبّر عن طرق الصيد التي كان يتبعها بوساطة العصا أو الحجارة بعد المطاردة العنيفة، وعندما يتمكن من صيده يستفيد من لحمه وجلده وعظامه. كما تدلنا تلك الرسوم على نوع الحيوان المطارد الذي كان يعيش في تلك الحقبة والذي انقرض من أروبة والعالم ولم يبق من سلالته حالياً.

ذلك الفنان المجهول الذي خط بأنامله وبما تيسر له من حجارة حوارية وفحم وتلوينات ترابيّة أو نباتية، استطاع أن يُصوّر شخصه ويعبّر عن حركاته في محاولة محاصرة الحيوان وصيده، دون أن يدرك أن تلك الرسوم ستبقى ثابتة حتى عصرنا، حيث يستدلّ منها العلماء على أسلوب حياة إنسان ذلك العصر، وربما كان يرسمها من باب الترفيه أو التعبير عن فرحه بهذا الصيد. فترك لنا عن غير قصد طبعاً وبهذه الخطوط الفنية المتواضعة، إشارات تاريخية مهمة عن حياته القديمة.

وبزوال الخطر يقيم الرقص والفرح احتفالاً بالمقدس الذي خلصه، وتحول الاحتفال عند كثير من الجماعات البشرية في القديم إلى عملٍ طقسيٍّ مُتَّبَع وإلى تقديم إغراء للمقدس ليعاود المساعدة، فكانت الأضاحي والقربابين البدائية.

وقد قام الفنان الفطري القديم بتكوين الأشكال والصور من خلال الخشب أو النحت في الحجر أو تكوينه من الصلصال الطري أو المشوي بالنار، هذه الأشكال التي حاول الفنان أن يعبّر بوساطتها عن المقدس أو تكون بديلاً عنه أو رمزاً له، فظلت صور وتمائيل الآلهة من جيل إلى جيل قائمة في ذاكرة الأجيال واستمرت وكثيراً ما تنتقل من شعب لآخر وبأسماء قريبة أو مختلفة مثل آلهة الخصب - آلهة الحرب - ربة المياه، إلخ..

ومن أقدم الأعمال الفنية التي اكتشفها علماء الآثار، تلك الرسوم الباقية على جدران الكهوف العميقة التي كان يلجأ إليها الإنسان القديم من أجل الأمن، ويجعلها مأوى له، تلك الكهوف الموجودة في جبال البرينية بين فرنسا وإسبانيا، والتي قدّر علماء الآثار عمرها بحوالي عشرين ألف

الكتابات البدائية التي كانت تُدوّن من قبل الخطاط الفنان المبدع عن طريق الخط الهيروغليفي أو المسماري، والتي كان الإنسان القديم يُدوّن بوساطتها طقوس العبادة للآلهة، أو المعاهدات المقامة مع الآخرين، أو يدوّن القوانين أو الآثار الأدبية من أساطير وغيرها، حتى وصلت إلينا واستطعنا معرفة شيء ما عن ماضي تلك الأمم والشعوب.

إن قيام الزقورات وإنشاء برج بابل وصور الثيران المجنحة على الأبواب والأسوار القديمة، وإن قيام المعابد والأوابد والأهرامات في مصر القديمة، ورسوم الحياة والمسوت والحساب، وتقديم القرابين وتحنيط جثث الموتى، وصور الصيد النهري وبقايا الأثاث الفاخر للملوك والأمراء، وإن الكتابات المدوّنة على أوراق البردي، والتي تسجل التعاليم والقوانين وطقوس العبادة وغيرها، كلها من عمل أنامل فنانين بذلوا جهدهم وفنهم في سبيل النحت والتدوين.

وينسحب هذا الكلام على الآثار الموجودة في إبلا وماري وأوغاريت وتدمر، وغيرها من مناطق العالم القديم في معظم بقاع العالم في الشرق والغرب مثل اليونان القديم وروما القديمة وكل دول الشرق القديمة.

وننتقل نقلة واسعة في التاريخ لنصل إلى حدود الألف الرابع قبل الميلاد وما بعده، لنلاحظ معالم حضارة الإنسان المتطورة بشكل واسع في كثير من مناطق تواجده وتجمعه في العالم.

كيف قرأنا حضارة السومريين القديمة والتي كشفها علماء الآثار في جنوب العراق، والتي تعود إلى ما قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، والتي تلتها حضارات قديمة عديدة مثل الكلدانيين والبابليين والآشوريين، وكيف قرأنا حضارة ما قبل الأسرات في مصر القديمة، وكيف قرأنا حضارة الأسرات المصرية والتي امتدت ألوف السنين، لقد قرأ علماء الآثار حضارات تلك الأمم من خلال ما ترك فنانونها من آثار أقاموها وكونوها بأناملهم المبدعة كالأعمال اليدوية من الفخار والحجر وقرأ علماء الآثار تلك الأعمال العمرانية التي أقامها الفنانون من مهندسين ومعماريين لإقامة ما يحتاج إليه آلهتهم أو ملوكهم، كالقصور والمعابد، وقرأ علماء الآثار تلك النقوش الباقية على الحجر والفخار والتي تحكي أسلوب حياة الماضين وتصور طقوسهم الدينية وحروبهم وأعمالهم اليومية، كما قرأ علماء الآثار تلك

تعطي فكرة عن قدرة الفنان الأسود الذي كان منذ القديم وما يزال يعطي ويعبر من خلال منحوتاته عن حياته الخاصة والمغلقة في عمق الغابات الكثيفة والمطيّرة، والتي

عزلته عن العالم لألوف السنين. عندما تم اكتشافها وإذا تابعنا نقلتنا المعرفية إلى حضارة كريت القديمة وإلى اليونان القديمة، لوصلنا إلى المدهش في النحت المبدع والعمارة الضخمة المتناسقة والتي شيّدت من أجل تمجيد الآلهة، أو إقامة تماثيل أو نصب تذكارية للملوك والأبطال والعباقرة، إلى جانب الإنشاءات العامة الضخمة مثل المسرح والأسواق والساحات.

وينسحب هذا القول على حضارة الرومان التالية لهم وآثار روما الشرقية - بيزنطة - والتي ما تزال آثار الجميع باقية حتى اليوم في كثير من أماكن تواجدهم القديم وخاصة حوض البحر الأبيض المتوسط ، وما يزال علماء الآثار يبحثون وبشكل مستمر عن مخلفات أولئك الفنانين الكبار من مهندسين ومعماريين ونحاتين تركوا آثار بصماتهم في العديد من المدن الباقية معالمها حتى اليوم في المشرق والمغرب في تدمر - أفيان - بصرى البتراء - بعلبك وفي المغرب العربي

كل هذه الآثار والمعالم والأوابد أقامها وصنعها فنانون عظام، منهم المجهولون الذين طواهم النسيان ولم نعرف عن حياتهم وأعمالهم شيئاً.

لقد ذهب الفنانون المبدعون، وطوتهم الأيام في صفحاتها المنسية، وبقيت أعمالهم الراقية التي تصور الآلهة والملوك والخالدين من الرجال، وبقيت آثار الأوابد التي شاركوا بتصميمها وإقامتها.

لم يكن الملوك هم الصانعون، ولم تكن الآلهة هي المبدعة، ولولا إبداع الفنان المعبر عن حضارة تلك الأزمنة لاندثرت تلك الحضارات ولما عرفنا عنها شيئاً، ولضاع ذلك التراث الإنساني في طي النسيان والمجهول، ولما استطاع علماء الآثار قراءة أو معرفة أي شيء عن الماضي. وعندما ذهبنا إلى أفريقيا السوداء جنوب الصحراء نجد الكثير من المنحوتات الخشبية المأخوذة من البيئة - شجر الغابات- والتي تُعبّر عند الأفريقي الأسود عن المقدّس وعن الأساطير وعن حيوان الغابة، وتعبّر أحياناً عن سلوكه الاجتماعي في الفرح و الحزن، وتعبّر عن العادات والتقاليد التي يعيش طقوسها إنسان تلك البيئة، وكلها بالتالي

وأشكاله وممثل مشغولات ومصكوكات المعادن الثمينة والحلي والجواهر، هذه الأعمال وغيرها مثل الأختام الأسطوانية وغير الأسطوانية التي توجد نماذجها في كل العصور التاريخية وفي معظم المناطق الحضارية والآثرية المكتشفة من قبل علماء الآثار.

وهناك الكتابات والخطوط في معظم مناطق العالم القديم كان الخطاط الفنان يدون الأعمال والمواثيق والمعاهدات والقوانين وطقوس العبادات على الحجر أو على الفخار، والتي استطاع العلماء بعد جهد ومعاناة فك رموزها وقراءة نصوصها، ومعرفة الكثير عن تاريخ تلك الأمم والممالك الغابرة ومعرفة الكثير عن نشاطها الديني والاقتصادي والحربي. كما قرأ علماء الآثار الكثير من قصص وأساطير الإنسان القديم والتي كان يعتقدونها ويدونها لتعبّر عن فكره وثقافته الدينية والاجتماعية.

وما حجر رشيد الموجود في متحف لندن بنقوشه الكتابية الثلاثة، و نصب قانون حمورابي المشهور مع صورة الملك إلا صورة معبرة عن ثقافة وقدرة ذلك الفنان المبدع الذي دونها وبقيت حتى عصرنا.

وخاصة لبيبا يوجد العديد من بقايا المدن والمسارح التي تعود بأصول عمرانها إلى تلك المرحلة.

وإذا تجاوزنا المحيط الأطلسي نجد في أمريكا الوسطى والجنوبية العديد من المدن الأثرية القديمة التي تعبّر عن حضارة عامرة، عن أوابد تدل بقيائها على قدرة فنانها ومهندسها المعماري الذي أقامها مثل بقايا حضارة الأزتك والأنكا والمايا في مدينة أتزا في جزيرة يوكوتان وبقايا المايا في غواتيمالا وفي كوبان - الهندوراس.

هذه الصروح المقامة في زمن لم يكن فيه تكنولوجيا عالية المستوى وقادرة على رفع تلك الأحجار والأعمدة الضخمة، ولا يوجد كليات ومعاهد هندسية تُدرّس فيها أصول العمارة والثقالة وضغط التربة والزواية والشاقول ومع ذلك بقيت هذه الصروح والآثرية مجال عشق للسواح والزائرين وقارئ التاريخ الذين يتتبعون مثل هذه الأعمال العمرانية للإنسان القديم.

إلى جانب ذلك هناك الفنون والمشغولات اليدوية والخاصة عند معظم الشعوب والتي كانت تتعاطاها لمتطلبات الحياة اليومية أو للتكسب مثل النسيج الرائع القديم بفنونه

قدرة المهندس المعماري والفنان العربي المسلم على إقامة مثل هذه الأوابد التاريخية مثل المسجد الأموي بدمشق و مسجد قرطبة وقصر الحمراء في الأندلس وتاج محل في الهند، وكثير منها في إيران والعراق وتركيا. ولم يلتفت الفنان المسلم إلى تصوير الإنسان وتجسيده في تماثيل، ولكنه اعتنى كثيراً برسم الزخارف والتوريق والخط العربي الذي أبدع في تكوينه وزخرفته، فقد اتخذ منه فناً متميزاً لا تزال بقاياه موجودة في كثير من الأماكن العمرانية والحضارية إلى جانب عناية الفنان المسلم بالعديد من الصناعات التي تحتاج إلى خبرة وإبداع مثل القماش والمعادن والحلي والحفر على الخشب وفن الأرابسك.

ولا مانع أن نذكر آخر المعماريين العظام المهندس المعماري - سنان باشا - والذي صمم وأقام على اتساع الإمبراطورية العثمانية العشرات من الأعمال العمرانية الخالدة في استانبول ودمشق وغيرها من مدن الإمبراطورية العثمانية في زمانه.

وأخيراً: فإن معظم الفنانين الذين نفذوا تلك الأعمال الحضارية البسيطة والمعقدة والتي تبدأ من استقرار الإنسان القديم وحتى

وبعد دخول قياصرة روما وبيزنطة في الدين المسيحي وإيمانهم بالمسيح عليه السلام، بدأت تُقام الكاتدرائيات والكنائس بدلاً من المعابد الوثنية، وبعضها كان يقام على أنقاض المعابد الوثنية بعد زوال الاعتقاد بها. ونذكر على سبيل المثال كنيسة القديس سمعان العمودي في شمال سورية، وكنيسة القيامة وأيا صوفيا والكاتدرائيات الضخمة في العالم الغربي والتي ما تزال باقية تشير إلى عظمة الفنان والمهندس المعماري الذي صمم وأقام مثل هذه الصروح. ونورد هنا قصة الفنان الإيطالي مايكل أنجلو الذي بقي أربع سنوات مستلقياً على ظهره فوق سقالة عالية وهو يرسم قصة الخلق الدينية على سقف كنيسة السيستن في إيطاليا.

ومن البديهي أن تنتقل إلى ساحة الحضارة الإسلامية التي تأثرت بحضارة البلاد المفتوحة واستقرت وكونت لنفسها حضارة ذات خصوصية متميزة في العمران والعلوم وغيرها. والحواضر الإسلامية مليئة بشواهد العمران الذي يدل على قدرة الفنان العربي المسلم في إقامة المساجد والقصور والأسوار والجسور على الأنهار، وما تزال تلك الأعمال العمرانية باقية وشاهدة على

وبادت في مرحلة من مراحل التاريخ القديم والوسيط والقريب من الحديث، وما يزال علماء الآثار يبحثون ويحفرون في أماكن وجود ذلك الإنسان الحضاري السابق وفي مخلفاته العمرانية والثقافية والدينية، يستنبطون ويستقرئون الحجارة والفخار والتراب ومخلفات ذلك الإنسان من أعمال يدوية وكتايبية حتى يصلوا إلى شيء من تاريخ حياته وأسلوب معيشته في كل المناطق التي كان يعيش فيها ويبني وقيم. حتى المقابر لم تسلم من البحث والدراسة في سبيل الوصول إلى بعض المعلومات التي تعطيهم شيئاً من تاريخه، وأعتقد أن أقواماً وشعوباً كثيرة مضت ووقعت عليها ظاهرة الانقراض والضياع والفناء ولم يبق منها ومن أعمال فنانها ما يدل على تاريخها وعلى أسلوب حياتها.

إن تلك الآثار التي ندرسها هي عمل فني بكل معنى الكلمة، السكين الحجري . تمثال الطوطم . صناعة الأختام الفخارية والحجرية . الحلي والزينة . التمثال المقام والمعبر . تاج العمود المنحوت . المعبد المقام . الصرح الملكي . المسجد . الكنيسة . القصور

اليوم، هم مجهولون ولا نعرف عن حياتهم شيئاً، فهم الجنود المجهولون الذين تركوا لأسيادهم من الملوك والولاة والحكام أعمالاً حضارية تخلد اسم الحاكم وتضع ذكره في سجل التاريخ، بينما هو كان كبش فداء لذلك العمل. وما من عمل فني وخالد قام به الحاكم أو السلطان، إلا ونفذه وأقامه فنان مبدع، من الجرار الفخارية البدائية إلى الحلي الذهبية والمجوهرات التي تزيّن صدور الملكات والأميرات في كل العصور، وإلى التماثيل التي كانت تقام تمجيداً للإله المعبود أو الحاكم أو الملك وصولاً إلى المعابد الضخمة والقصور والقبور والأهرام والمسلات والزقورات والتي كانت تأخذ قسماً كبيراً من وقت وجهد ذلك الفنان العظيم، كما تأخذ قسماً كبيراً من ميزانية الحاكم وخزينة الدولة التي كانت تأمر بإقامة هذه الصروح، وكثير منها كان يقام على حساب جهد الشعب وعرقه وعلى الضرائب المجبأة منهم كيفاً أو قسراً.

لقد التفت كل الآثاريين والتفتت جهودهم ويحثهم الآثارية إلى التفقيش والدراسة في مخلفات تلك الدول والأمم التي قامت

الفن دفتر الحضارة

والثقافة في كل مكان وصارت الحضارة عامة في علمها وإنتاجها، تنتقل بسرعة من مكان إلى مكان، بواسطة الوسائل المعرفية الحديثة والمتوفرة عند الجميع، وتستفيد كل الشعوب من تطوراتها المستجدة، وحتى وجدت الإمكانيات وتوفرت التقنيات والمعرفة لشعب من الشعوب، صار قادراً على تقليد وإبداع وإنتاج الكثير من معالم الحضارة الحديثة.

وإني إذ أكتب هذه العجالة، أود أن ألفت نظر الفنانين إلى زوايا من التاريخ الإنساني لم ينتبه معظمهم إليها، ومعظم المؤرخين أيضاً يَمرون على تلك الإبداعات الفنية دون توقف، حيث تشغلهم قراءة التاريخ ودراسته وأحياناً تشغلهم القيمة المادية وما تساوي، عن دراسة ذلك العمل الفني الذي سجل وخذ ذلك التاريخ.

ويجب أن نذكر بإجلال حين قراءتنا للتاريخ بشكل عام أنامل أولئك الفنانين العظام الذين ساهموا في إبداع وتخليد تلك الآثار الحضارية والتاريخية والتي تشير وتصور حضارة الشعب أو الأمة التي تقوم بدراسة تاريخها.

الملكية وغيرها - الجسور - السدود - الأسوار - القبور الفخمة - الزخارف - النقوش - الأعمال الفنية والخطوط الكتابية من العصر المسماري والهيروغليفي حتى عصر الخط العربي. هي كلها أعمال فنانين عباقرة شاركوا في صنعها وإقامتها تخليداً لألهتهم ولملوكهم ولشعوبهم. ذهب الفنانون وسادتهم وشعوبهم وبقيت أعمالهم تعبر عنهم وتصور حضارتهم وتصور حياة ملوكهم وحياة شعوبهم.

ومن خلال هذه الدراسة المتواضعة يصح القول عندنا أنه من خلال دراسة كل الأعمال الفنية التي تشير إلى حضارة من الحضارات في التاريخ الإنساني وعبر كل العصور نستطيع أن نقول (الفن دفتر الحضارة). ذهب الفنانون وبقيت أعمالهم نقرؤها لتدلنا على حضارة شعوبهم.

وإذا دخلنا عصر الكتابة الحديثة، عصر تسجيل الأعمال الفكرية واليدوية، وإثباتها في سجلات وصحف ووضعها فوق رفوف المكتبات، نجد أن لكل شعب خصوصيته التي يتميز بها من فكر وعمل وعمران، وقد صار المجهول معلوماً، وتداخلت أعمال الشعوب بعضها ضمن بعض، وانتشرت المعرفة

سَطراً واحداً عن تاريخهم وأعمالهم التي
قدموها وأقاموها عبر ما مضى من عصور
وأعوام.

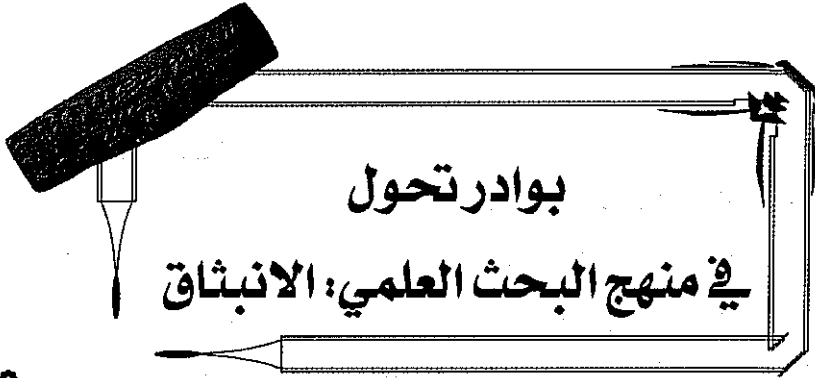
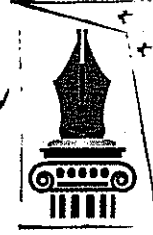
ولولا إبداعات هؤلاء الفنانين المعلومين
والمجهوليين، لما كان بمقدورنا أن نعلم عن
ذلك الماضي شيئاً، ولا أن نخط في كتبنا

إضاءة من:

- ١- موجز وصف الآثار الهامة - المتحف المصري ١٩٥٤
- ٢- الثقافة العالمية - ملف الحضارة المصرية.
- ٣- تدمير والتدميريون - عدنان النبي
- ٤- بناء الأجيال - فن النقش على الأختام - محمد سليمان حسن .
- ٥- المعرفة - العدد ٤٩٦ أسلافنا في عصر ما قبل التاريخ - سلطان محيسن .
- ٦- مجلة مهد الحضارات العدد (٦-٧) بداية ظهور المدن - د. عمار عبد الرحمن .
- أمريكا اللاتينية قوس قزح الثقافات الملونة - غادة الحسين .



آفاق المعرفة



وائل الأتاسي

تمهيد:

تساءل مرة أحد الفيزيائيين: ألا يجوز أن تكون قوانين الطبيعة التي توصل إليها الإنسان حتى الآن هي مجرد قوانين يقتصر مجال تطبيقها على ما يمكن أن تتناوله وسائل الرصد المتوافرة لديه. أو أن يكون جزء الكون الذي أتيج للإنسان أن يدرسه، ضيقاً بحيث تبدو قوانينه بسيطة محدودة حتى إذا امتد به الزمان واتسع المكان بدت الأمور مختلفة كل الاختلاف. أو ربما كان

* أديب وباحث سوري.

العمل الفني، الفنان جورج عشي.

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

الآن يوماً بعد يوم. وقد أتت دراسة الظواهر الشواشية مبرراً آخر لهذه الشكوك. فقد بينت أن المنظومات الديناميكية المعقدة تبدي حالات للمادة لم يستطيعوا أن يجدوا لها تفسيراً بالرجوع إلى المكونات الأولية للمادة.

تبدو عبارة «انبثاق» غامضة بعض الشيء... إنها تعني أن قوانين الطبيعة تنتج عن سلوك كلاني للمادة مستقل عن مكوناتها الأولية، أو باختصار: تثبت من كل مستو تنظيمي للمادة قوانين جديدة، فكأنها تلك «الخلايا الآلية الذاتية التصرف»، تلك automates التي تحدث عنها بعض الباحثين والتي تخيلوا أن كل خلية منها تُغير حالتها تبعاً لحالة الخلايا المجاورة لها. ولقد أخذت بهذه الفكرة (كما سنرى) أسماء لامعة في الفيزياء، ومن بينهم حامل جائزة نوبل روبرت لافلان. وهو يلخص، في مقاله هنا، نظريته للانبثاق بأنه يشبه لوحة للرسم الانطباعي مونييه المكونة من بقع فوضوية ولكنها تبدو من بعد أمتار قليلة حقلاً أخذاً للزهور».

بالفعل، لنسترجع الماضي: حين اكتشف نيوتن قوانين الديناميك وأمكن بهذه

أمرنا تجاه الكون كمن ينظر إلى لوحة نظرة شاملة، ثم تبدو اللوحة عند إمعان النظر فيها مختلفة جداً عما سبق أن توهمه أشياء واضحة يمكن أن يتعرف تفاصيلها؟ إذا صح أي واحد من هذه الافتراضات كان معناه أنه لا وجود لقوانين شاملة تنطبق على كل مكان وزمان.

يقول محرر مجلة La Recherche (التي اقتبس منها هذا المقال) في هذا الشأن⁽¹⁾:

«إن هذا السؤال قديم قدم العلم نفسه. وهو اليوم موضوع سجال يشغل فيزيائيين ونظرين ويستحثهم».

ترى ما طبيعة القوانين التي بني بموجيها عالمنا المحسوس؟ كيف نفسر تنوع الظواهر الطبيعية؟ هل ثمة حقاً قوانين كبيرة أساسية تسود مادة مكونة من كيانات أولية؟ هذا ما كانت تتادي به الطريقة الاختزالية التي تريد أن تجد أساساً موحداً يمكن تمثيله أخيراً بالذرات ومادون الذرات أو بالأوتار أو غير ذلك، ثم تُفسر الظواهر كلها انطلاقاً من هذه المكونات. ولكن إطلاق زعم شامل كهذا، سيتعذر تبريره. هكذا يرد الآخذون بنظرية الانبثاق الجديدة، فهؤلاء يزدادون



القوانين تفسير الكثير من الظواهر الطبيعية التي كانت معروفة على مستوى الإنسان العادي وحياته الطبيعية المعتادة، ظن المجتمع العلمي أن هذه القوانين شاملة. ثم اكتشفت الكهرباء وأدى اكتشافها إلى الديناميك الكهربائي (الإلكتروديناميك). وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدت ملامح أزمة تهدد فيزياء نيوتن. وقد أدى حل هذه الأزمة كما نعلم عام ١٩٠٠ إلى إيجاد قوانين مختلفة كل الاختلاف عن قوانين نيوتن وتهيمن على العالم ما تحت الذري.

وقد أمكن بعد البحث المتواصل التوصل إلى ما يسمى الإلكتروديناميك الكمومي ثم إلى الكروموديناميك الكمومي الذي يسود عالم نواة عالم الذرة. ولكل من هذه المجالات قوانينها المعبر عنها برياضيات تناسبها.

هذا إذا نظرنا في مستويات الطبيعة التي في مستوى حياتنا اليومية. أما إذا نظرنا إلى المستويات الأكبر فالأكبر والأعقد فالأعقد فسنجد عالماً تسيطر عليه قوانين نيوتن ثم التيرموديناميك ثم قوانين النسبية العامة..

ولقد أحس الإنسان بالزهو لاكتشافاته هذه ولما ألقته من تفسير لكثير من ظواهر الطبيعة.

وفي أثناء هذه التطورات طرحت مسألة الأجسام الثلاثة. فقد أثبتت قوانين نيوتن ومنهجه في التفكيك صحة قوانين كبلر التي اقتصر على دراسة حركة جسمين يتجاذبان بحسب قانون الثقالة. ولكن حركة ثلاثة أجسام ظلت معلقة إلى أن خصص ملك السويد جائزة مالية لمن يحلها. فتصدى لها العالم الكبير هنري بوانكاريه. وعلى الرغم من أنه لم يحلها وهذا حسب

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

هذا مجددة. وهي نظرية الانبثاق، التي تصنفها مجلة *Larecherche* بأنها ستسرّع مسيرة الفيزياء. وقالت إن أشد المتحمسين للدفاع عنها هو روبرت لفلان *Robert Laughlin* الذي يحمل جائزة نوبل عن أبحاثه في مجال المادة المكثفة. وقد انضم إليه الآن نفر من كبار الفيزيائيين المعادين لكل الرموز البالية ولكل فكر متحجر. ويصرح هؤلاء الفيزيائيون المعادون للرموز البالية أنه مضى عهد الاختزالية التي تجعل العالم المحسوس منوطاً ببعض القوانين الأساسية. أما هم فيسلمون بمقولة عكسية تصف الفيزياء بأنها كالدمى الروسية: كل دمىة، في داخلها دمىة جديدة، أي إن كل مستو من مستويات التعقيد في المادة له قوانينه الخاصة. وهكذا يتوقعون أن يكون للقرن القادم علم يولي اهتماماً أكبر بظواهر تشاهد على الصعيد الإنساني (الحياتي) الذي لا يزال الآن بعيداً عن متناول العلم. فالسؤال المطروح الآن: هل للطبيعة قوانين؟ أم أن لكل مستو من مستوياتها قوانينه؟ لقد أثار هذا السؤال جدلاً محموداً بين أوساط العلماء والفلاسفة. وهكذا ظهرت منذ بضع سنين، وبصورة قوية،

قول المؤرخين- إلا أنه لفت الأنظار إلى عمق الصعوبات التي تكتنف التفكير بحلها انطلاقاً من دراسة حركة الأجسام جملة بعد مراعاة التأثيرات المتبادلة بينها. أي دراستها بالطريقة الكلاسيكية الاختزالية.

يُعد هذا المثال الذي يقتصر على ثلاثة مكونات، نموذجاً مبسطاً لمسائل أعمق، كدراسة تغير حالات المادة من غازية إلى سائلة ومنها إلى صلبة أو بالعكس. فإذا أريد تفسير هذه التغيرات انطلاقاً من المكونات الأولية للمادة لزم عندئذ وضع مليارات المعادلات. وهذا ما وقف الإنسان عاجزاً عنه حتى في حالة ثلاثة أجسام فقط.

تُعد دراسة بوانكاريه هذه فاتحة لدراسة ما يسمى بالشواش ودراسة المنظومات الديناميكية عامة (أي المنظومات المعقدة المكونة من مكونات أولية كثيرة يؤثر بعضها في بعض). وتعتمد هذه الدراسة على وصف الأحوال التي تطرأ على المنظومة بكليتها.. ولكن ما يسعى إليه أصحاب نظرية الانبثاق هو اعتبار كل سوية من سويات التعقيد لها قوانينها الخاصة.

لقد أدت ملاحظات من هذا القبيل إلى القول بنظرية في الفيزياء تُعد في مجالها

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

كلاني) وأنها من الناحية العملية لا علاقة لها بالقوانين التي تهيمن على السيورورات الفردية الضمنية. والمثال البسيط على ذلك هو قوانين الشواش: (لأن قوانينه تصف وضعية المنظومة ككل دون إعطاء أهمية تذكر إلى أنه مكون من ذرات وهذا ما قام به في البدء عدد من الفيزيائيين..) وهكذا يبدو تمسك لافلان بفكرته تحدياً للحس الفطري (الشائع لدى الجميع) الذي يفهم عادة من قولنا قوانين «منبثقة» يعني أنها تتبثق من مستوى من التنظيم هو الأدنى في سلم المستويات، وأنه لا بد من اعتبار أحد هذه المستويات هو الأساس وأن كل ما عداه هو نتيجة للقوانين السائدة فيه والتي لن يكون بالإمكان انبثاقها من مستوى آخر، وإلا وقعنا في مطب التسلسل إلى اللانهاية. لذلك يرى لافلان أن هذا الفهم التقليدي للانبثاق هو فهم خاطئ.

وهكذا سيبدو طرح لافلان، عندما نجري عليه تحليلاً مبدئياً، متعارضاً مع المذهب الذي ولد مع مشروع عقلنة المعرفة المتمثل بالاختزالية. والمقصود بهذا التعبير هو تفسير نوعيات الظواهر الطبيعية المتعددة بعدد صغير من المكونات الابتدائية وقوانين

هذه المشكلة الحاسمة بالنسبة لتفهم المادة وقوانينها.. وأثارت السؤال التالي:

هل الطبيعة بئر بلا قعر؟

بمعنى أننا كلما أمعنا النظر بتفاصيل أدق بدت لنا قوانين جديدة دون أن نصل إلى قوانين ختامية يجيب الكاتب ميتشل بيتبول Michel Bitbol (الذي يهتم بفلسفة الفيزياء، ويعمل في مركز البحث الإبيستمولوجي التطبيقي) عن هذا السؤال بالمقالة التالية:

قد لا يكون ممكناً لأية نظرية فيزيائية أن تكون نظرية أساسية. إذ قد تنتظم الطبيعة من تلقاء ذاتها دون أن يكون لها أصل تُبنى عليه أو مكونات أولية. تلك هي عقيدة «الانبثاق» الجريئة التي يأخذ بها عديد من الفيزيائيين.

في آذار من عام ٢٠٠٥، افتتح روبرت لافلان جديلاً محموماً ما انفك يحتدم في الأوساط العلمية نظراً لأهميته الكبيرة بالنسبة لطريقة فهمنا للعالم. فقد نشرت له دار Basic Books كتاباً بعنوان «عالم مختلف: إعادة كتابة الفيزياء من البدء». يؤكد فيه أن جميع قوانين الطبيعة «منبثقة». بمعنى أنها تنتج عن سلوك جماعي (أو

أساسية، أو بحسب تعبير الفيزيائي الفرنسي جان بران Jean Perrin هو «تفسير المرئي المعقد باللامرئي البسيط» جاعلاً بذلك من البساطة دليلاً على الصحة. هذا هو الفهم التقليدي للاختزالية.

مثال ذلك أن النظرية الذرية القديمة، التي أسسها لوسيبوس وديموقريطس، كان أحد انتصاراتها هو تفسير الندرة أو الخلخلة (في الحالة الغازية). أما في الأجسام الصلبة فالذرات تكون متقاربة ومتماسكة وكذلك في السوائل إلى حد ما. كانت نظريتهما تقوم على أن المادة مكونة من جسيمات تفصل بينها في الخلاء مسافات قد تكبر وقد تصغر. وهكذا أرجعاً حالات المادة المرئية الثلاثة إلى أوضاع الذرات غير المرئية المكونة لها. لكن هذا الشرح لم يكن سوى شرح كيفي. أما في القرن التاسع عشر فقد أثبتت فكرة الذرة أنها قادرة على توحيد مجال واسع من الظواهر الفيزيائية والكيميائية. وقد استخدمها دالتون في عام 1808 الكي يفسر قانون النسب المعينة. ومنذ عام 1850 أمكن للنظرية الذرية أن تفسر تبعاً لظواهر التيرموديناميك كضغط الغازات أو انتقال الحرارة بين الأجسام.

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق ويفترض هذا التفسير أن الضغط ودرجة الحرارة هما نتيجة للسلوك الإحصائي لعدد هائل من الجزيئات التي تخضع بدورها لقوانين الميكانيك الكلاسيكي.

على أن التجاح المبهر، الذي لقيته النظرية الذرية، بدا مؤيداً للاختزالية وفي الوقت نفسه غير موات لها. لأنه أبرز المسافة بين الفيزياء والكيمياء من جهة وبعض ظواهر الطبيعية كالحياة من جهة أخرى. فالكائنات الحية مثلاً، تتحدى قوانين الفيزياء وخصوصاً التيرموديناميك. أفليس سلوكها الغائي الموجه لهدف متنافياً مع القوانين السببية؟ ثم ألا يبدو نموها الذي يسير بها نحو مزيد من التنظيم متعارضاً مع المبدأ الثاني للتيرموديناميك، الذي يقتضي أن تسير المنظومات نحو مزيد من الفوضى؟ أو أليس من الواضح على الأقل أنه لم يكن في كل ما عرف من قوانين الفيزياء والكيمياء وحدهما ما يمكن أن ينبئ مقدماً بالظواهر البيولوجية. ولكن إذا كان اختزال الكائن الحي إلى مجرد فيزياء أمراً مستبعداً، أفلا يلزمنا عندئذ الاستعانة بـ «مبدأ حيوي»؟

لقد رفضت زمرة من البيولوجيين والفلاسفة البريطانيين هذه المثوية (مادة

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

تلطف من قدرة هذه القوانين على التفسير، لأن عليها التسليم باستحالة التنبؤ، ومن ثم استحالة استنتاج الخواص والقوانين المنبثقة استناداً إلى خواص وقوانين تسود في عالم المكونات الأولية.

«مبدأ الانبثاق ليس جديداً (هذه الفقرة مضافة من معد البحث)

ذلك أن فكرة «نظام منبثق عن فوضى» تعود جذورها إلى فكرة دارون عن التطور الناتج عن الاصطفاء الطبيعي والصراع من أجل البقاء. والفكرة ذاتها نجد ما يشبهها عند عالم البيولوجية الجزئية فرانسوا جاكوب. فهذا الباحث يرى أن إحدى طرق التطور الخاضعة للمصادفة هي طريقة «الترقيع» (أو بالفرنسية bricolage). وهذه الكلمة تستعمل عادة لوصف أعمال الشخص الذي يقوم في منزله بأعمال ترميم أو صيانة أو تحسينات دون الاستعانة بنجار أو حداد أو سباك أو بالتمديدات الكهربائية أو غير ذلك. ويشرح جاكوب فكرته هذه بقول: ملخصه أن قطعاً من الصبغيات قد تنفصل عن موضعها أثناء الانقسام الخلوي وتلتصق بمكان آخر غير مكانها و تؤدي عندئذ وظيفة غير تلك التي كانت تؤديها

مقابل حياة أو روح) واقترحت حول العام ١٩٢٠ «طريقاً وسطاً» بين الاختزالية والحيوية، وهذا الطريق لم يكن سوى الانبثاق الذي طبق هنا على الكائنات الحية. (إذ تقول فلسفة بعض البريطانيين ولاسيما ألفرد نورث هوايتيهد «إن الكل أكبر من مجموع الأجزاء» فالمنظومات الخاضعة لقوانين الفيزياء والكيمياء يمكن على هذا الأساس أن تنبثق فيها حياة).

وهكذا لم يفترض الانبثاقيون البريطانيون أن في المنظومة البيولوجية شيئاً آخر سوى أساس فيزيائي كيميائي من الذرات، وقالوا: إن منظومات معقدة العلاقات من هذا النوع يمكن أن تنبثق منها خواص وقوانين بيولوجية جديدة لم ترد قبل ذلك (أو لم يكن ثمة ما ينبئ بها). مثال ذلك: القوانين التي تميز الحياة، والقوانين المعتدلة الماكروية *macroscopique intermédiaire* التي تسود في الموائع والأجسام الصلبة. وقد بررت هذا الاعتقاد فكرة عن السيرورات المعقدة توصف عادة بأنها لا خطية. لم تحتفظ هذه المدرسة من الاختزالية القديمة إلا بفكرة أن المكونات الأولى للعالم كله هي الذرات وقوانين الفيزياء الميكروية. ولكنها

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

أفلوطين (٢٥٠ ق.م. مؤسس الأفلاطونية الحديثة في مدرسة الإسكندرية). لا يوجد شيء معزول فعلاً عن دورة الكون. كل شيء مرتبط، بكل شيء ويصدر عن واحد أحد متسام ولا يتضمن أي تجزئة أو تمايز أو كثرة لارس أوزانجر (١٩٤٤م. يحمل جائزة نوبل في الكيمياء، وهو فيزيائي أيضاً من بالتييمور. استخدم تقنيات رياضية لكي يصف ويفسر ظهور خواص ترموديناميكية جديدة في أثناء تغير حالات المادة الصلبة.

قوانين منبثقة

وهكذا يضيع الأمل في إبراز منشأ الخواص والقوانين المنبثقة. فإذا لم يكن هذا مبدئياً إلا أنه من غير الممكن اشتقاقها من أوليات، فلا بد عندئذ من أن نعزو لها ذاتية حقيقية مستقلة عن هذه الأوليات. أما إذا كان تعذر «اشتقاق هذه الخواص والقوانين من أوليات»، ناشئاً فحسب عن أن وسائلنا الرياضية عاجزة عن استنتاجها وأنها لهذا السبب تبدو غير متوقعة، فهذه الخواص والقوانين تكون عندئذ مجرد ظواهر عارضة. في الحالة الأولى نعتز بأن للخواص والقوانين المنبثقة وجوداً مطلقاً شأنها شأن الخواص والقوانين الأولية. أما في الحالة

وهكذا يتكون في النتيجة نمط كائن مختلف. وقد أكدت ذلك دراسة تغيرات الحمض النووي عند الكائنات الحية عبر العصور. كما تتفق فكرة الراهب اليسوعي تيار دي شلردان مع هذا الرأي، فهي تقول إن العملية التطورية يمكن أن تؤدي إلى ظاهرة تتعارض مع المبدأ الثاني للترموديناميك الذي يقول إن المنظومات المادية تتجه إلى مزيد من الفوضى. بل ذهب بفكره إلى أن الخلق بدأ بتفجر سار في جميع الاتجاهات ثم أدى هذا الشواش في أحد أركانه إلى ظهور الوعي والإنسان. (٢) وهذه الفكرة ذاتها عبر عنها إيليا بريغوجين في كتابه La Nouvelle Alliance الذي تُرجم ملخص له إلى العربية بعنوان نظام ينتج عن شواش نشرته الهيئة العامة للكتاب في سورية عام ٢٠٠٩.

لم يظهر مفهوم الانبثاق إلا منذ أكثر من ثلاثين سنة بقليل. ومن العلميين الذين تركوا بصماتهم في تاريخ هذا الاتجاه: أرسطو (٣٥٠ ق.م. الكل أكبر من مجموع أجزائه. النار والهواء والتراب والماء هي متصلات وليست مؤلفة من ذرات غير قابلة للتقسيم).

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

الذي يلزمنا لإيجاد قوانين التيرموديناميك الماكروية هو التوزعات الإحصائية التي يمكن استنتاجها هي أيضاً من سيرورات ميكروية عشوائية. (أي دون أي مراعاة لكونها خاضعة لقوانين حتمية).

في نهاية سنوات ١٩٢٠ أثبت ظهور ميكانيك الكم وجود أصول لنزعة الشك هذه. فقد أصبحت لدى العلماء منذ ذلك الحين أسباب وجيهة للتسليم بأن قوانين التيرموديناميك ليست وحدها منبثقة من قوانين احتمالية، بل إن قوانين الميكانيك الكلاسيكي هي أيضاً منبثقة من قوانين كمومية معروفة بصفات الاحتمالية. ولكن القوانين الكمومية تتميز بشكل من اللاحتمية الميكروية (المتأصلة). وللتدليل على ذلك يكفي أن نتذكر قوانين الارتباب لهيزنبرغ، أو أن الحالات الكمومية لا تسمح إلا بحساب احتمالات قيم المتغيرات التي نقيسها.

نستدل من ذلك على قاعدة عامة، مفادها أن ثمة قوانين أولية متعددة يمكن اتخاذها أساساً لقوانين منبثقة. أو بقول آخر إن القوانين المنبثقة يمكن أن تتحقق أو تظهر للوجود بطرق متعددة. وهذا يحتم

الثانية فلا يمكن أن نعزو لها سوى شكل من الوجود يتوقف على وسائنا الرياضية.

في الوقت نفسه تقريباً، أي نحو العام ١٩٢٠، أثار بعض التأمل في نجاح الاختزالية شكوكاً حول إمكانية الوصول إلى ما يمكن أن تختزل إليه الظواهر، وهذه مفارقة، إذ كيف يثير النجاح ريباً؟. فقد طالب الفيزيائيان النمساويان فرانز إكسندر وإروين شرودنجر، ومعهما الرياضي الفرنسي إميل بورل، بتقدير أهمية الفيزياء الإحصائية دون حكم مسبق. ففي البدء اعتمدت هذه الفيزياء على الاعتقاد بأن حركة الجزيئات تخضع لقوانين حتمية هي قوانين نيوتن التي تخضع لها الأجسام المادية الماكروية. فدعونا ننظر ما طبيعة قوانين الفيزياء الإحصائية.

الفيزياء الإحصائية

ولكننا نستطيع صرف النظر عن اعتقادنا بأن حركة الجزيئات حتمية. بالفعل إن كل ما تثبته الفيزياء الإحصائية هو أن قوانين التيرموديناميك يمكن إرجاعها إلى سلوك فوضوي للميارات الجزيئات. أما افتراضنا بأن كلاً منها يخضع لقوانين حتمية فليس له أهمية على الإطلاق: إن الشيء الوحيد المهم

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

إنها محمية من التقلبات التي تطرأ على الأساس. إن مفهوم حماية القوانين المنبثقة تجاه الأساس هو مفهوم حاسم. وقد استخدم دليلاً للمؤلفين من أمثال لفلان، الذي يؤكد أن القوانين المتعارف على أنها «أساسية» وكذلك القوانين التي، على الرغم من افتراضها أنها تصلح أساساً لجميع القوانين الأخرى (كقوانين الثقالة وقوانين الكهرطيسية)، هي أيضاً منبثقة.

ثم إن حماية القوانين المنبثقة من كل ما يجري على الصعيد الأدنى يتيح لنا تفسير عدة خصوصيات مدهشة تتحلّى بها القوانين الأساسية. إنها تفسر قبل كل شيء دقتها الملحوظة بالفعل، إن القيمة الوسطى لعدد فلكي من العمليات المشتتة يقودنا لا محالة إلى سلوك شامل أسيل (خال من المطبات) ومنظم. وهذا ما يدعو لافلان «الإتقان المنبثق من عدم الإتقان». كما تفسر الحماية التماثلات الشكلية بين بعض قوانين المادة المكثفة التي يرى لافلان أنها منبثقة، وبعض قوانين المادة الأولية التي يفترض أنها أساسية. وتفسر كذلك التماثل بين «الفونونات» phonons (وهي أشكال من كموم الاهتزازات التي تنقلها شبكة ذرات

وجود سياج كتيّم بين مختلف مستويات القوانين، لأن معرفة القوانين المنبثقة لا تعطينا سوى معلومات تقريبية عن القوانين الأولية. (٣) فخلال عام ١٩٨٠ قام ستيفن ولفرام واختصاصيون آخرون في مجال محاكاة المنظومات المعقدة على الحاسوب بدفع هذه الحقيقة حتى غايتها القصوى. وقد توصلوا إلى إثبات أن القوانين الماكروية للهيدروديناميك والتيرموديناميك التي سبق أن تبين أنها تعتمد في الأساس على قوانين الميكانيك الكلاسيكي أو الكومومي الميكروية، يمكن أن تتبثق أيضاً، وبحدافيرها، من أساس أسهل بكثير. كان الأساس البديل الذي اختاروه هو نموذج من خلايا هي «آلات تتصرف من ذاتها automates» وتكون شبكة من «الخلايا» التي يمكن أن تظهر بعدد محدود من الحالات (مثلاً ٠ أو ١) وتغير حالتها تبعاً لحالة الخلايا المجاورة.

مبدأ الحماية

نخلص من مسيرة الفكر هذه إلى أن القوانين المنبثقة متحررة إلى حد بعيد من أساسها الذي قدرناه. لأن القوانين المنبثقة تظل مستقرة عندما تجري تغييرات كبيرة في أساسها، وهذا ما يعبر عنه بالقول

برادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

يتبادل التأثير مع حقله الكهربيسي الخاص به). وقد جرى تصحيح رياضي لهذا العيب في نهاية عام ١٩٤٠ وأطلق عليه اسم «إعادة التطبيع».

نظرية الحقول

ولكن ما علاقة إعادة التطبيع، التي لا تعدو أن تكون حيلة حسابية، مع مفهوم جوهري مجرد كانبثاق قوانين الفيزياء؟ لكي نفهم هذه العلاقة، يجب أن نركز انتباهنا على تطور تقنيات إعادة التطبيع الحديثة. فعلى قدر ما تقدمت هذه التقنيات، أمكن للباحثين أن يأخذوا عتبات الطاقة التي كانوا يكتفون حتى الآن بجعلها تنتهي إلى اللانهاية - على محمل الجد (بمعنى أنها عتبات حقيقية وليست افتراضية). ألا يجوز أن يكون معنى هذه العتبات، التي ثبتت عند قيمة منتهية، أنها هي الحدود الفعلية لصلاحية النظرية؟ أليست هي الفاصل بين مجال الطاقة المنخفضة الذي تكون فيه النظرية صالحة، وبين مجال الطاقة المرتفعة الذي لم يجز استكشافه بعد؟ إذا كان الأمر كذلك، عندئذ يمكن اعتبار مجال الطاقة المنخفضة مجالاً من التنظيم منبثقاً: أو مستوياً لمكونات وقوانين منقولة من مستو

بلورة) وبين الفوتونات التي هي كموم الطاقة الكهربيسية التي يفترض أنها أساسية. إن شدة هذه التماثلات التي لا حصر لها تلفت النظر لدرجة يتعذر معها ألا نعتبرها تطابقاً أصيلاً.

ولكن، طبعاً، ليس تطابقاً بين تفاصيل السيرورات الضمنية، بل فقط في أن هناك سيرورات ضمنية تتجلى حصيلتها في الحالين على شكل واحد على الصعيد المنبثق.

في السنوات العشرين الأخيرة دعمت معرفة أكثر رسوخاً بنظرية الحقول الكمومية (وهي إحدى أكثر نظريات الفيزياء شهرة) مقولة إن قوانين الطبيعة منبثقة. فقد وحدت هذه النظرية نظريتي الكم والنسبية الخاصة وبررت بدقة غير مسبوقة وجود تأثيرات متبادلة بين الجسيمات «الأولية» وجعلتها معقولة بعد أن كانت تؤدي إلى قيم لانهائية. فقد أبدت عند ولادتها عام ١٩٣٠ عيباً خطيراً وهو ظهور حدود لا نهائية عندما تتبادل الجسيمات التأثير فيما بينها، أو عند تبادل الجسيمات التأثير مع ذاته (كما في حساب احتمال انتقال الإلكترون من نقطة إلى أخرى مع علمنا أن الإلكترون

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

هو على صواب، وأن مقولته تنطبق على مجالات علمية أخرى. وهو المدافع الأول عن مفهوم «الانبثاق» في العلوم الفيزيائية، الذي استخدمه في وضع نظرية جديدة حول الموائع الكمومية.

س: كيف تعرف مفهوم «الانبثاق»؟

ج: لقد طور هذا المصطلح كثيراً في السنوات الأخيرة حتى لقد شمل معاني كلمات عديدة. المقصود من كلمة «انبثاق» هو مبدأ تنظيم فيزيائي: أي ظهور قوانين لا يمكن استنتاجها من قوانين أساسية (سابقة لها). فالطبيعة مليئة بأشياء يمكن أن نشبهها بلوحات انطباعية وأن نجد أوجه الشبه بينهما. فقد سبق لمونيه أن جعل حقل ورود يثير اهتمامنا لأنه يظهر كلاً «تاماً». مع أن بقع الدهان في اللوحة تبدو عشوائية وغير تامة ولا متقنة. إن عدم الإلتقان هذا يثبت أن الشيء الجوهري في اللوحة هو مستويها من التنظيم: إن ما نراه هو أكثر من مجرد بقع دهان، أو إن صح التعبير إن اللوحة تنبثق من مجموعة بقع غير منظمة ظاهرياً.

س: ما المثال الذي تعطيه عن

ظاهرة فيزيائية «منبثقة»؟

ج: ظاهرة التبلور، أي توزع الذرات

تنظيمي ضمنى عالي الطاقة منفصل جزئياً عن المستوي الأول، أعني عن المستوي المحمي منه. إن لمراتب المستويات هذه تطبيقات نظرية معروفة. لنفرض أننا اتخذنا من نظرية الحقول الكمومية القياسية أساساً. فإذا ثبتنا عتبة منتهية للطاقة تسمى عادة «طاقة مقطع» عندئذ نستفيد من معرفتنا لكيفية إنشاء «نظريات فعلية للحقول» انطلاقاً من هذا المقطع يمثل مجموعة من القوانين المنبثقة التقريبية. من المغري مثلاً التسليم بأن نظرية الحقول الكمومية القياسية (التي قد تستعين بطاقات مقطعية عند إجرائها عملية إعادة تطبيع)، تمثل هي نفسها منظومة من القوانين.

وختاماً لهذا البحث فقد ينير الحوار التالي الذي أجري مع روبرت لافلان زوايا ظلت غامضة:

حوار مع روبرت لافلان

أستاذ في الفيزياء النظرية في جامعة

ستانفورد

جائزة نوبل ١٩٩٨

إننا «نعيش نهاية الاختزالية»، هكذا قال لافلان. فمنذ خمسة عشر عاماً وهو يبذل جهده لكي يثبت أن هجومه على العقيدة السائدة في العلوم الفيزيائية

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

س: في أي مرحلة من عمالك
في العلم أصبحت موالياً لمفهوم
الانبثاق؟

ج: كثيراً ما كان هذا المفهوم موضع
نقاش أثناء عملي منذ عدة عقود في مجال
البحث في فيزياء المادة المكثفة. ومن ناحيتي
أنا فقد بدأت أهتم به عن كثب في بداية
تسعينيات القرن الماضي. إن التطورات
التي تحققت مؤخراً في نظرية الأوتار، التي
تدعي أن كل مادة تتكون من أوتار لا متناهية
في الصغر تظل تهتز، جعلتني أقرر تأليف
كتاب حول الموضوع. لأن نظريات «كل شيء»
على العموم ونظرية الأوتار على الخصوص
جعلت حيرتي تتزايد. لأنها نظريات لا
يمكن تزييفها، إذ ما من تجربة يمكن أن
تثبت بطلانها. وقد تحققت أن قبول الناس
لنظرية الأوتار راجع لأسباب عقائدية. وكان
هذا الاكتشاف صدمة لي، لأنني كنت أظن
أن العلميين يرفضون كل شكل من أشكال
العقائد المتصلة. أما في الواقع فهذا أبعد
ما يكون عن الحقيقة، فالكائنات البشرية
ينتمون بشكل ما لأنظمة من العقائد. إن
الأفكار الانبثاقية المتأصلة بعمق في الثقافة
الغربية، نبعت هي أيضاً عند فلاسفة

توزعاً منظماً على هيئة شكل مجسم.، فهذا
مثال مهم من السهل أن نبين أن الذرات
تتجه فيه نحو التبلور لأنها تتبادل التأثير
فيما بينها وفق قواعد معروفة. ولكن،
بالمقابل، من الصعب جداً إثبات أن هذا
النمط من التنظيم خال من كل عيب. مع
أن الترتيب المتقن للذرات أمر في غاية
الأهمية. لأن دقة القوانين المتعلقة بصلابة
جسم بلوري تتوقف على هذا الترتيب، ولن
تكون الصلابة مضمونة إن لم يكن الترتيب
تاماً. وعدم الترتيب هذا وما لا نريده قطعاً
لهيكل الطائفة عندما نجد أنفسنا فيها
على علو عدة كيلومترات عن الأرض. فنحن
في الحقيقة نرتاح ونطمئن بناء على ثققتنا
بقوانين الصلابة، حتى وإن لم يكن من السهل
فهم أسسها، بل إنه من المستحيل -حسب
علمي- استنتاجها من الفيزياء الذرية. إن
هذه الاستحالة تتعارض مع الاختزالية في
العلم، أي مع المبدأ القائل يمكن أن نستنتج
جميع قوانين الفيزياء من قوانين أكثر منها
أساسية. ويرتكب دعايتها نفس الخطأ حين
يؤكدون أن المادة الحية ليست سوى شكل
معقد من الكيمياء وأن الكيمياء ليست سوى
شكل معقد من الفيزياء.

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

إليها إلا في حالات في غاية البساطة، وفي مجالي، الأجسام الصلبة، نزل ملتصقين في كيمياء المواد المصنعة. وأحد الدروس الأولى التي علينا حفظها هي ألا نفرض أبداً أن المادة التي قيد البحث ستتصرف تصرفاً «منطقياً» بل بالعكس يجب ألا نفاجأ بظهور تصرف (منبثق) غير منظر.

س: طورت في عام ١٩٨٤ نظرية تدعى «مفعول هول Hall الكمومي الكسري» الذي يبين أن الإلكترونات في مادة مصنعة ليس من الضروري أن تكون شحنتها الكهربائية كاملة، بل يمكن أن تكون كسرية، وأن الإلكترونات تتصرف عندئذ كمائع كمومي. فهل ساعدك مفهوم الانبثاق على إنجاز هذه النظرية؟

ج: نعم، لأن فكرة المائع الكمومي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم انبثاق استعرت من الأدبيات التي تهتم بميوعة الهيليوم الفائقة (وهي ظاهرة كمومية تصل إليها بعض المواد عندما تصبح حرارتها منخفضة جداً فتسيل عندئذ دون احتكاك). كما استعرت فكرة شحنة كسرية من شريف Robert Schrieffer الحائز على جائزة نوبل ١٩٧٢ الذي استعملها لكي يفسر خواص ناقليّة أحد

يونانيين رواقين يعتقدون بوجود نظام طبيعي خلفي (خلف الظاهر). وقد أصبح هذا النظام ظاهراً و«منبثقاً» نتيجة لدراسة قوانين الطبيعة.

س: تنبأت في كتابك المنشور عام ٢٠٠٥ «عصر الاختزالية»

ج: في حقيقة الأمر لقد استهلكت الاختزالية وانتهى أمرها لفتح في فيزياء الجسيمات، التي تعد أخصب مكان للمقاربة الاختزالية، نجد هذه المقاربة «ظاهراتية»، إن ما يُشاهد تجريبياً يُستخدم في صياغة قوانين فيزيائية أساسية. وهذه القوانين يزداد تأصلها نتيجة فعل الملاحظة والتحليل نفسه أكثر مما هو تنبؤ. فلن يماري أي فيزيائي في حقيقة أن هذه القوانين هي نفسها «منبثقة».

لقد عمل الكيميائيون بالطريقة نفسها. إنهم يتحدثون عن بنية الجزيئات كما لو أنها بداية أبحاثهم ونهايتها. فالكيمياء ليست سوى كتاب ضخ من الوصفات. ولا نعلم حقاً لماذا تؤدي هذه الوصفات عملها. إنها تؤديه، نقطة والسلام! وإذا انطلقت من الميكانيك الكمومي وحاولت مثلاً حساب نتيجة تفاعل كيماوي، فإنك لن تتوصل

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

في الأصل ورثة منهج اختزالي. فهم يعالجون المسائل ظناً منهم أنهم قادرون حتماً على شرحها بقوة الحسابات.

أما البيولوجيون فيلجؤون إلى مقارنة مختلفة. إنهم يعرفون منذ البدء أنه لن يكون باستطاعتهم وضع معادلة لأي شيء، وأنهم إن وضعوا فستكون حساباتهم في جميع الأحوال خطأ.

وفكرة الكوسمولوجية التي تنص على أن الكون خلق إثر انفجار هائل، Big Bang هي فكرة انبثاقية أصيلة. فالكون، حسب النماذج الحالية، ظهر وأخذ يتوسع وسيظل يتوسع بطريقة عرضية، إذ يمكن للكون أن يؤدي إلى تكوين عوالم أخرى. ويذهب أندريه لاندي Andrei Linde (وهو أحد زملائي في قسم الفيزياء في جامعة ستانفورد) إلى حد التأكيد على وجود أكوان «موازية». وهي بعيدة عنا لدرجة أن ضوءها لا يمكن أن يصل إلينا. وهو يخمن أن كوننا يخفي عنا مناطق تختلف قيم الثوابت فيها عما هي عندنا، كتلك الإلكترون مثلاً. وبناء عليه، لا بد أن يختلف سلوك نوى الذرات وقوانين الكيمياء أيضاً. فالكون كما نعرفه ليس نتاج

البوليميرات العضوية، وهو البولياستلين. ثم حصل شريف وألان هيجر Alan Heeger على جائزة نوبل في الكيمياء عام ٢٠٠٠ لاكتشافهما الآلية المسؤولة عن ناقلية البوليمرات. وبذلك أسهما إسهاماً كبيراً في فهم الناقلية العضوية. فقد تساءل كيف يمكن للتيار أن ينتشر في مواد تتحرك فيها الذرات بسهولة حول وضع توازنها. وكان جوابهما: إن الذرات تتساق بمرور الإلكترونات، فتتحرك المجموعة متوافقة (حركة واحدة) حاملة شحنة كسرية. هذا مثال نموذجي، إذ إن إيضاح الظاهرة تم بفضل أفكار «انبثاقية» بسطت فيما بعد في ضوء نموذج هو بالأحرى اختزالي وواضح و«أنيق»، ويتحلى بقدرة كبيرة على التفسير. س: هل تُطبق الأفكار الانبثاقية في مجالات أخرى غير الفيزياء؟

ج: قطعاً، فالبيولوجية مثال جيد. ولنتذكر أن الذين أدخلوا مصطلح الانبثاقية هم البيولوجيون. وليس هذا بالأمر العرضي. لأن البيولوجية تصف بالأساس «ظواهر» من نوع تلك التي تحدث أثناء الانقسام الخلوي. ولهذا السبب تجد الفيزيائيين غالباً ما يصبحون بيولوجيين رديئين لكونهم

بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق

لحبة البوشار. لأن هذه الحبة تبدو بالمجهر شبيهة جداً ببنية كومة من المجرات والمادة الممتدة. وطلبت من لند Linde أن يكتب المعادلات التي تتبأ ببنية حبة البوشار ثم يحلها. هذا الطلب مستحيل، لأنني تعرضت لمسائل من هذا النمط عندما كنت أعمل في مختبر لورنس ليفرمور Lawrence Livermoer المختص بالتسلح. ولذلك تكونت لدي معرفة جيدة بظواهر الانفجار وما كان منها قابلاً للحساب وما لا يقبل. إن الجسم الذي ينفجر غير مستقر، وهذا ما يحدد بالضرورة من قدرتنا على التنبؤ بمجريات الانفجار. سواء أكان الأمر متعلقاً بحبة بوشار أم (من باب أولى) بالكون.

حتمية تاريخية، بل نتاج حوادث جائزة منوطة بطرق تنظيم المادة وانتظامها.

س: إذن لا يمكن التوصل إلى الانفجار العظيم بالانطلاق من مقارنة اختزالية؟

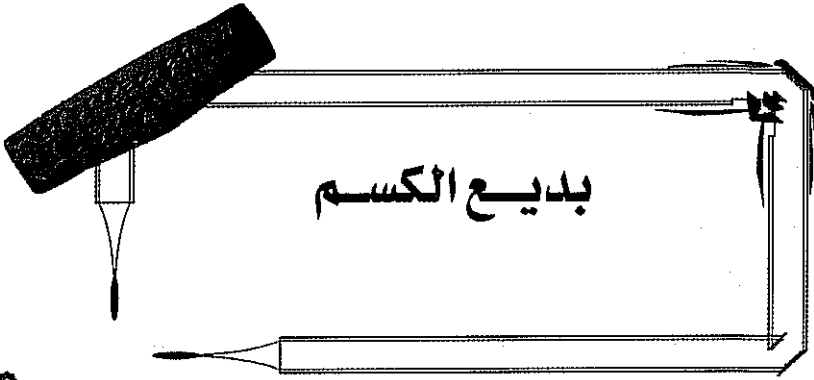
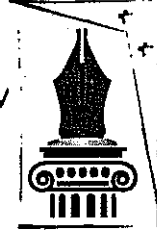
ج: إني أؤمن بذلك فعلاً. فحتى وإن كانت فكرة الانفجار العظيم تقوم على مقارنة انبثاقية، إلا أن الباحثين يلجؤون في معظم الأحيان إلى دراستها باستخدام مقارنة اختزالية. والمناقشات التي أجريتها مع لند Linde بهذا الخصوص حول نمذجة «الانفجار البدائي» توضح ذلك. ولكي يفهم صعوبة هذه المحاولة، اقترحت عليه أن يبدأ بنمذجة منظومات أبسط، كالبنية المكانية

الهوامش

- ١- عدد شباط ٢٠٠٧ رقم ٤٠٥ ص ٣.
- ٢- راجع كتاب ظاهرة الإنسان. تأليف دي شاردان، مطابع الألفباء دار الأديب دمشق ١٩٧١ ص ١٨.
- ٣- لقد سبق لبوانكاره أن أثبت أن القوانين التي يتم التوصل إليها انطلاقاً من فرضية معينة يمكن التوصل إليها من فرضية أخرى مختلفة تماماً عنها. لذلك إذا أمكن تفسير قوانين مثبتة سلفاً انطلاقاً من فرضية معينة (ذرية مثلاً) لا يعني أن النظرية الذرية تصف واقعاً لا ريب فيه.



آفاق المعرفة



محفوظ أيوب

أستاذي الجليل..

دائماً تطل علي ذكراك العظيمة..

ذكرى أيام الجامعة التي قضيناها برعايتك وتوجيهك وتزويدك لنا

بالمعلومات الثمينة.

وأراك تجلس وراء المنضدة الكبيرة في قاعات التدريس، بشعرك الأسود

الطويل المسرح إلى الوراء، وبعينيك السوداوين الواسعتين الغارقتين في

* كاتب ومترجم سوري.

✍️ العمل الفني، الفنان شادي العيسمي.

بديع الكسم

كبار الفلاسفة، وما أوجههم إلى الكف عن الثرثرة والظهور، والتمسك بالحقيقة وصونها. ولعلمهم أدركوا هذا أخيراً، واقتدوا بك.

ويحضرني هنا قول عميد الجامعة التي منحك شهادة الدكتوراه في سويسرا:

-لقد عادت الفلسفة العربية إلى سابق ازدهارها بوجود بديع الكسم فيها.

وربما لم يلحظ أنك تملك فكراً أصيلاً أكثر منهم، وأن الأقدار قد ألقت بك في زمان ومكان لا يسمحان لك بعرضها كما ينبغي ونشرها لتبلغ أقصى مدى لها.

وكنت قد تقدمت إلى تلك الجامعة برسالة تحمل عنوان:

البرهان الميتافيزيائي.

وأرى ملامحها في كتابك:

الحقيقة الفلسفية.

ونلت عليها أعلى درجة فلسفية.

ولا أدري كيف وافقت أن يقوم أحد طلابك بترجمتها عن الفرنسية إلى العربية بعنوان: البرهان في الفلسفة.

وهذا العنوان لا يعبر عن حقيقة الفكر الذي تتضمنه، لأن البرهان في الفلسفة

التأمل والحكمة، ووجهك الرقيق، وقامتك المتوسطة، وجسمك النحيل، الذي كرسته للفلسفة والعلم، وأذكر يوم سألتك:

-أستاذي.. هل لديك فلسفة خاصة

بك؟

وأجبتني:

-نعم.. لدي أطر فلسفية.

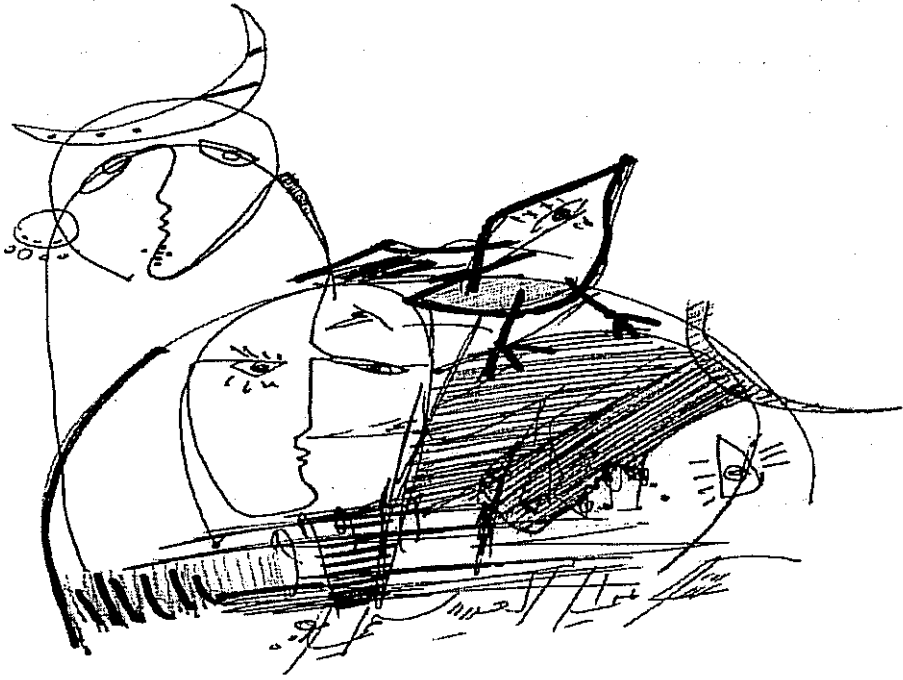
-لماذا لا تنشرها؟

-عندما تكبر ستفهم سر هذا الأمر.

وكبرت، وفهمت ما أردت أن تقوله لي، وأن الأقدار قد شاءت أن نولد في أكثر الأزمنة والأمكنة بعداً عن الحقيقة وتكراً لها، وكثيراً ما تقرر علينا أن نصمت، وترد عنا عن عرضها. ومصير من غامر بعرضها معروف، وفي مصير ابن رشد عبرة لنا.

وقد انتقد بعضهم صمتك، ولم يعرفوا أن الصمت أحياناً يكون أكثر بلاغة ودقة من كل كلام يقال في غير حينه وموضعه، وإن الثرثرة وحب الظهور ليست فضائل، بل مرض ابتليوا به وعلاجه يقتضي الكف عنها، وتعلم الصمت الذي يصون الحقيقة من عبث من هو غير جدير بها.

وحبذا لو تعلموا الصمت، كما فعل بعض



الفائدة، أن تفلح صديقتي الشامية الفاتحة،
في جلب البسمة إلى وجهك السرح، بتعليقاتها
البريئة وظلها الخفيف وكلامها الناعم جداً.
وتتقبل ذلك بروح طيبة، بينما كانت تثير
لدى غيرك مشاعر وردود فعل أخرى، دفعت
بعضهم إلى تهديدنا بترسينا.

وفي كل الأحوال كنت مثلنا الأعلى
وقدوتنا وأملنا المرتجى.
وتوسمنا أن تتغير الظروف وتفسح المجال
لإعطائك ما أنت جدير به.
وما مررت مرة في ساحة المرجة، إلا

يشمل كل أشكال المنطق. ورسالتك تركز
على البرهان الميتافيزيائي، ودوره في
الوصول إلى الحقيقة. وإن كانت الميتافيزياء
جزءاً من الفلسفة، ينبغي التأكيد عليها وعلى
أهميتها، ليمر دورها جيداً في رسالتك
ومعرفة حقيقتها.

وتتوالى الذكريات.. ذكريات رحلة
قمنا بها مع أساتذتنا إلى منين وصيدنايا
ومعلولا.... وكنت نموذجاً وقدوة لنا في
هدوئك وتقبلك لمزاحنا ومداعباتنا لك
وكم كان يسعدني في دروسك الغزيرة

بديع الكسم

نحن العرب.. لاهم العرب.. لأننا ننتسب إلى
الحضارة العربية ورسالتها وقيمها، ونريد
أن نعيد إليها بريقها، ونطورها لتبلغ أسمى
ذرى الحضارة.

ولا أريد أن أطيل الكلام الآن.. ولا بد لي
من أن أصمت.. وسأعود إلى الحديث عنك
ما دمت حياً.

تلميذكم المخلص

محفوظ أيوب

ورأيت تمثالك ينتصب شامخاً مقابل نصب
الجامع العظيم، ويرسل نحوه أشعة العلم
والمعرفة كالشمس المشرقة.

وأقول لنفسي:

-ألا يجدر بالأمم أن تمجد عباقرتها

بهذه الطريقة؟

ونحن طلابك المخلصين قد تعاهدنا على
نشر أفكارك في كتبنا وكتاباتنا وأحاديثنا،
لنتجلى الحقيقة التي فيها، في زمن ربما
يصبح أكثر ملاءمة لها.. وأنت القائل لنا..



آفاق المعرفة



ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

أحمد مثقال قشعم

الزواج سنة شرعها الله، وتقوم على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، فالنساء شقائق الأقوام - كما في مجمع الأمثال للميداني - والمقصود بالأقوام: الرجال، وسنة الله هذه هي التي تضمن استمرار النسل، وصون الأعراض، وحفظ الأنساب، وتحفظ البشر من الوقوع في مهاوي الفجور والرذيلة، وتحميهم من أمراض الفواحش الخطيرة التي تتعرض لها المجتمعات التي تنتشر فيها الفاحشة.

وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا» / الفرقان: ٥٤، وقال الله تعالى: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ

* أديب وباحث من سورية

العمل الفني، الفنان مطيع علي

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

لا يمكن فصله أبداً إلا في بعض الحالات التي تتطلب الانفصال بين الزوجين، وهذا ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

واستمرار هذه العلاقة الوطيدة عشرات السنين تولد بين الزوجين حالة من الروحانية والتوحد تجعل كل واحد لا يستغني عن الآخر، ولا يصبر على مفارقتها، ولذلك نرى كثرة القصص والروايات والأشعار التي وردت في هذا الشأن، ولعلّ الأشعار التي قيلت في رثاء الأزواج هي من أجمل الأشعار التي تدل على صدق الإحساس، ونبل المشاعر، وهذه الأشعار التي قيلت في الرثاء لا تمثل إلا جزءاً يسيراً، لأن هناك أشعاراً لم تدون أبداً، وذهبت مع أصحابها بعد أن انطوت صفحة العلاقة المقدسة بين الأزواج بسيف الموت.

ولا بدّ أن نقسم بحثنا هذا إلى عنصرين أساسيين حتى ينتظم كل نوع من الأنواع الشعرية ضمن موضوعه، وهي:

أولاً- رثاء الزوجات.

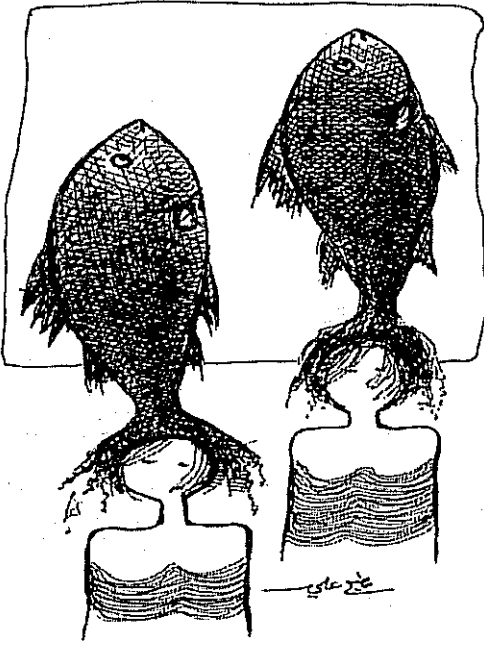
ثانياً- رثاء الأزواج.

وفي بحثي هذا سأستخدم لفظي: (الزَّوج والزَّوْجَة)، وذلك لورودهما في كتب اللغة والأدب، وذلك هو الأيسر للقارئ، وهو

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً» / النحل ٧٢/.

فالزواج نعمة من نعم الله، وسنة من سنن المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولا تستقيم حياة إلا بكليهما معاً: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ»، وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم مبيئاً: «التزويج بركة، والولود رحمة». وقال صلى الله عليه وسلم معرضاً بمن لم يكن بشأنه معنياً: «النكاح سنّتي، فمن رغب عن سنّتي، فليس مني». وقال صلى الله عليه وسلم محذراً من العزوف عن الزواج: «تناكحوا تناسلوا تكثروا، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة». وقال صلى الله عليه وسلم مبيئاً الاقتداء به والانتساء: «حَبِّبْ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ الطَّيِّبَ وَالنِّسَاءَ» وقال صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضى للبصر، وأحصن للفرج».

من خلال ما تقدم نرى مدى حرص الإسلام على العلاقات الزوجية، والدعوة إلى الزواج المبكر لأنه الحافظ للشباب من الوقوع في أتون الفواحش، وهكذا قامت العلاقة بين الأزواج على المحبة والاحترام والتقدير، فكل واحد يكمل الآخر، وهذه العلاقة تتحول مع مرور الزمن إلى رباط وثيق



الواقع بكل أطيافه، وغرفته من منابعه الثرة، وما وصل إلينا هو القليل، ومن هذه الصور كانت صورة المرأة الزوجة التي نجدها في بعض قصائد شعراء الجاهلية، وهي تعطينا أنموذجاً للمرأة ومكانتها في الجاهلية، وليس كما يرى البعض أن المرأة كانت ذات مكانة متدنية فيها، ومن أجمل هذه القصائد ما كانت في رثاء الزوجة ومدى قربها من الرجل، فالشاعر «عمرو بن قيس بن مسعود المرادي» يرثي زوجته، ويطلب من (سعيدة)، ويبدو أنها ابنته، أن تقوم وتبكي معه، وطلبه البكاء على سعدى زوجته هو تعبير عن بكائه

المشهور السائر بين الناس، وقد استخدم العرب كلا اللفظين، ولكن القرآن الكريم لم يرد فيه إلا لفظ الزوج بالتذكير:

((الزَّوْجُ لِلْمَرْأَةِ: «الْبَعْلُ» وللرجل: «الزَّوْجَةُ»، بالهاء، وفي المحكم الرجل زوج المرأة، وهي زوجته وزوجته. وأبناها الأضعى بالهاء. وزعم الكسائي عن القاسم بن معن أنه سمع من أزد شنوءة بغير هاء، ألا ترى أن القرآن جاء بالتذكير: «اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ...» قال بعض النحويين: أما الزوج فأهل الحجاز يضعونه للمذكر والمؤنث وضماً واحداً،

تقول المرأة: هذا زوجي، ويقول الرجل: هذه زوجي. قال الله عز وجل: «اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ»، «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»، وقال: «وَأَنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ» أي امرأة مكان امرأة. ويقال أيضاً: هي زوجته؛ قال الشاعر:

يا صاح، بَلَّغِ ذَوِي الزَّوْجَاتِ كُلَّهُمْ:

أَنْ لَيْسَ وَضُلٌّ، إِذَا انْحَلَّتْ عُرَى الذَّنْبِ^(١)
أولاً- رثاء الزوجات:

حفل الأدب الجاهلي بصور أسرة في أكثر مجالات الحياة، وقد عكست هذه الصور

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

أذهلتاه، ولم يصدّق ما أتاه به ناقل الخبر،
وصار وجده يفور عليها حسرة وتأسفاً،
وتمنى أن يسقى قبرها بالغمام:

ألم ترَ أن جمرَةً جاء منها

بيان الحق إن صدق الكلام

نعاها بالندي لنا حزام

أحق ما يقول لنا حزام

فلا تبعد وقد بعدت وجدتي

على جدث تضمّنها الغمام⁽³⁾

ومن المؤلم الفاجع جداً أن تموت الزوجة،

وفي بطنها ولدها، فتكون المصيبة أعظم

مصائباً، وأكثر إيلاماً، وهذا ما حصل عندما

توفيت امرأة الفرزدق، وفي بطنها: (جمع)،

وهو الولد في بطن أمه، فقال الفرزدق يرثي

الزوجة والولد معاً، وهو يرى أن الولد هو

جفن سلاحه، وهو الرجل ذو الحفيظة على

اعتبار ما سيكون، ولكن الزمن لم يمهله:

وجفن سلاح قد رزئت، فلم أنح

عليه، ولم أبعث عليه البواكيا

وفي جوفه من دارم ذو حفيظة

لو أن المنايا أنشأته لياليا⁽⁴⁾

ومن الفجائع أيضاً أن تموت الحبيبة

والعروس بعد العرس بأيام قليلة، وما زالت

المباركات بالعرس تأتي من الناس، وفضأة

ينقلب كل شيء، فتختلط الأحزان بالأفراح،

وتعم المساة، ويتحول العرس إلى مأتم، كم

وجزعه عليها، فهو يرى أن النوادب مهما
عددتنا وأحصينا من مناقبها، فلا يقدرن
على حصر جميع ما فيها:

سعيد قومي على سعدى فبكيها

فلسبت محصية كل الذي فيها

في ماتم كظباء الروض قد قرحت

من البكاء على سعدى مآقيها⁽⁵⁾

ومن الذين رثوا الزوجة الشاعر «يعلى

ابن منية ويكنى أبا نفيس»، وهو من بني

العدوية من بني تميم من بني حنظلة، وكان

قد تزوج امرأة من بني مالك بن كنانة يقال

لها: زينب، ولهم حلف في بني غفار، وهي

من بنات طارق اللاتي يقطن:

نحن بنات طارق

نمشي على النمارق

الندر في المخاتق

والمسك في المضارق

إن تقبلوا نعانق

أو تدبروا نضارق

فراق غير وامتق

ونرى الشاعر «النمر بن تولب» لما بلغه

أن امرأته «جمرة» توفيت، وقد نعاها له

رجل من قومه يقال له: «حزام أو حرام»،

مبهوتاً دهشاً، فقال والحيرة والمفاجأة قد

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

السعادة والفرح تتحول الدنيا في نظرهم إلى كابوس، فيزهدون في الدنيا، ويجزعون لما ألم بهم من مصيبة، ويحاولون التمسك والزهد في كل أمر، وحالة الشاعر: «مسلم بن الوليد» خير دليل على ذلك، فقد كانت زوجته قريبة منه، ومن أهله، وكانت أثيرة لديه، ومطبعة له، فماتت فجزع عليها جزعاً، وتمسك مدة طويلة، وعزم على ملازمة ذلك، فأقسم عليه بعض إخوانه ذات يوم أن يزورهم ففعل، فأكلوا وقدموا الشراب فامتنع منه وأباه، وأنشأ يقول:

بكاءً وكأْسٍ كيف يجتمعان

سبيلهما في القلب مختلفان

دعائي وإفراط البكاء..... فإذني

أرى اليوم فيه. غير ما تريان

غدت والثرى أولى بها من وليها

إلى منزل نساء.. لعينك دان

فلا حزن حتى تنزف العين ماءها

وتعترف الأحشاء بالخفان

وكيف بدفع اليأس والوجد بعدها

وسهماهما في القلب يعتلجان^(٧)

ويبلغ الحب بين الزوجين مداه الأقصى

عندما يتمنى الشاعر أن يكون فداءً لزوجته

في الموت، وإذا لم يكن ذلك، فهو يتمنى أن

تكون الميتة له ولزوجته معاً في وقت واحد،

وخصوصاً بعد أن ينقضي شبابهما معاً،

هو صعب هذا الموقف؟ وكم هي مأساوية حال هؤلاء المفجوعين، ولعل الزوج العريس هو الأشد مصاباً وألماً وجزعاً، وهذا ما حصل مع «يعقوب بن الربيع» الذي أحب جارية حسناء، فطالباها سبع سنين، يبذل فيها جاهه وماله وإخوانه، حتى ملكها، وأقامت عنده ستة أشهر، ثم ماتت، فقال فيها أشعاراً كثيرة منها:

وأتاني التّعبي منك مع البشري، فيا قرب

أوبة من ذهاب^(٨)

وتشتد حالات الأسى والحزن بعد موت

الأزواج الأحبة وفراقهم، ونرى الأصحاب

والجيران يحاولون تخفيف المصيبة على

صاحبيها، ومنهم من ينصح بزيارة قبر

الزوجة الحبيبة، عل ذلك يسلي الهمّ عندما

يبث القبر لواعجه وناره الملتهبة، ولكن هذا

الزوج يعجب من هؤلاء الناصحين لأنهم لا

يعرفون أن قبر زوجته في قلبه، وإلى هذا

أشار: «محمد بن عبد الملك الزيات» في رثاء

زوجته:

يقول لي العذال: لو زرت قبرها

فقلت: وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث، فأجهل فقدّها

ولم أبلغ السن التي معها الصبر^(٩)

ويصل الأمر ببعض المحبين لزوجاتهم

إلى أن تتقلب حياتهم رأساً على عقب، فيعد

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ مِنْ مَفْقُودَةٍ
إِذْ لَا يِلَاثِمُكَ الْمَكَانُ الْبَلْقَعُ^(١)
ومن الشعراء من كان يحفظ وِدَّ زوجته
في حياتها ومماتها، ويقسم بعد موتها أن
يحافظ على ذلك الود والعهد الذي كان
بينهما، وهذا العهد هو دائمٌ مادامت
الحمائم تتوح وتبكي فوق فروع الأشجار،
وهو كلما رأى الحمائم تتوح، فإن دموعه
تسيل وتتهمر، ولا يستطيع أن يتمالك نفسه،
أو أن يستطيع وقف عبراته وتهداته، وهذه
هي حالة الشاعر: «مدرك بن يزيد مولى
بني مرة» بعد وفاة زوجته:

من مبلغ أم الجنيب رسالة

وإن أصبحت بالرمس بين الصفايح

فإنِّي لراعٍ حفظٌ غيبك ما بكت

على شُعْبِ الذُّومِ الْحَمَامِ النَّوْاحِ

فكم عبرة أرسلتها بعد عبرة

وكم غصّة أتبعتها لا أباع^(٢)

ومن الرثاء الحار والمؤثر، وهو من الشعر
المشهور السائر، ما كان من أمر رثاء جرير
لزوجته: «خالدة أم حزرة من بني كليب»
التي بكأها بدم قلبه حياءً من أن تنزل دموع
عينيه، وأظنه قد بكأها بدموعه كثيراً،
ولكنه أبى أن يفصح عن ذلك في شعره، وهو
في رثائه المؤثر يطلب لها السكنينة والرحمة،
ويتذكر شمائلها وسجاياها الكثيرة، ويأسى

ولم يبقَ إلا الأُنس والصَّحبة، وهكذا نجد
الشاعر: «محمد ابن محمد بن أبي حرب
ابن عبد الصّمد أبو الحسن بن النرسي
البغدادي» الكاتب الشاعر، وهو من الشعراء
المطبوعين وأصحاب النوادر، وكان من
ظرفاء بغداد، ولكن الزمان أقعده، ومسه
الفقر، وكسدت سوقه، ولم يبق له إلا زوجته
يناجيها وتناجيها، فلما ماتت فإنه تمنى
الموت معاً:

لما تعذّر أن أكون لها الصدا

فتعيش بعدي أو تموت جميعاً

أتبعتها حلل الشباب، فما بقي؟

فسوادُ عيني قد أذيبَ دموعاً^(٣)

أما زوجة الشاعر: «مويك المزموم» فقد

كانت تكره الوحدة وتخشاها وهي حيّة،

ولكنها في موتها أصبحت ضمن قبر في

أرضٍ خالية لا أنيس بها، فبأسى لحالتها

الموحشة، ويطلب من صاحبه أن يعوج على

تلك الأرض لكي يلقي السلام عليها، ولكن

هيهات أن تجيب، ثم يطلب لها السكنينة

والرحمة من الله، وخصوصاً في هذا المكان

القفر الموحش:

أمرز على الجدث الذي حلت به

أم العلاء، فحيها لو تسمع

أتى حلتب..... وكنت جد فروقة

بلداً يمرّ به الشجاع، فيفزع

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

كانت إذا هَجَرَ الحَلِيلُ فِرَاشَهَا
خُزِنَ الحَدِيثُ..... وَعَفَّتِ الأَسْرَارُ^(١١)
واشتهر بعض الشعراء بأكثر من قصيدة
في رثاء زوجته، وذلك بسبب علاقة الحب
الوطيدة التي كانت بينهما، ولكن الموت
عجز عن محو صورة الزوجة من قلب وفكر
الزوج، فكان دائم التذكّر لها، وهذا ما نجده
عند الشاعر «محمد بن شعيب الكرياني»،
وربما لا تكون أشعاره سائرة معروفة بين
الناس، وهو من أهل فاس، ويكنى: أبا
العبّاس، ويعرف بابن شعيب من قبيلة
كريانة، وهي من قبائل الرّيف الغربي، وقد
قال أكثر من قصيدة جميلة في رثاء زوجته
الحيبة: «صَبَحَ» فقبرها هو أحبّ الأمكنة
إليه، ويتمنى أن يكون قبره بجانب قبرها،
وهو يخاف المنية أن تأتيه فيقبر في مكان
بعيد من قبر حبيبته:

يا قَبِيرَ صَبَحِ حَلِّ فَيْكِ

بمَهجَتِي أَسْنَى الأَمَانِ

وَعُدوتُ بَعْدَ عِيَانِهَا

أَشْهَى البَقَاعِ إلى العِيَانِ

أَخْشَى المَنِيَةَ إنْهَا

تُقْصِي مَكَانَكَ عَن مَكَانِ

كَم بَيْنَ مَقْبُورِ بَفَاسٍ وَقَابِرِ البَقِيرِوان^(١٢)

ويعاوده الحنين إليها في كل أمر،

ويخاطبها وهي ترقد في جدتها، علها

لمرأى الأولاد، وهو شيخ كبير، ولا يقدر على
شيء، ولكنه متيقن من أن القرناء لا يدوم
لهما دوام بسبب اختلاف الليل والنهار،
وكأنهما يقضمان أيام الأحبة، ويسرقان
منهما الأنس والسرور:

لولا الحياءُ لهاجَنِي استِعبارُ

ولزرتُ قَبْرِكَ..... والحبيبُ يُزارُ

نِعَمَ القَرينِ... وَكُنْتَ عِلقَ مَضِيَّةٍ

وارى بِتَغْفِ بُلِيَّةِ الأَحجارِ

ولقد أراك كُسيتِ أَجْمَلِ منظرِ

ومع الجَمالِ سَكِينَةَ ووقارِ

كانت مُكْرَمَةَ العَشيرِ... ولم يكنِ

يخشى غَوائِلَ أم حَزْرَةَ.. جارِ

صلّى الملائكةُ الأَديينَ تُخَيروا

والصالحونَ عَليكِ والأَبْرارِ

وعَليكِ من صلواتِ رَبِّكَ كَلِمًا

ضَجَّ الحَجيجُ ملبِدينَ وغاروا

والرّيحُ طَيِّبَةً..... إذا اسْتَقْبَلْتِها

والعَرَضُ..... لا دَنَسٌ ولا خَوَارُ

ولُهِتِ قَلْبِي إذ عَلَتْنِي كَبْرَةُ

وذَوو التَّمائمِ من بَنِيكَ.... صغارُ

أَرْضِ النُّجومِ وقد مَضتْ عَوْرِيَّةُ

عُصْبِ النُّجومِ كأنَّهُنَّ صِوارُ

لا يلبثُ القَرْناءُ أن يَتَفَرَّقوا

ليلُ يَكُرُّ..... عليهمُ ونهارُ

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

دموعه الغزيرة هي التي تحجب رؤية زوجته المتوقّاة، وهو يأنس بالنسيم العليل، ويصيخ إليه السمع لكي يسمع مناجاة الأحيّة، وهكذا استبدل رؤيتها بالنظر إلى رؤيتها بالسمع، وتمنى أن ترسل خيالها على البعد، وهذا الخيال سيجد طريقها سريعاً لأنه سيهتدي بنار الحشا:

يا موحشي والبعدُ دونَ لقائه

أدعوكَ عن شحطٍ، وإن لم تسمع

يدتيك مني الشوقُ حتى إنني

لأراك رأي العينِ لولا أدمعي

وأحنُّ شوقاً للنسيمِ إذا سرى

لحديثكم، وأصيحُ كالمستطلعِ

كان اللقاءُ فكانَ حظي ناظري

وسطَ الفراقِ فصارَ حظي مسمعي

فابعثْ خيالكِ تهديهِ نارَ الحشا

إن كانَ يجهلُ من مقامي موضعي

واصحبهِ من نومي بتحفةِ قادمِ

فصدي قليلِ ركايبكم لم تُجمع^(١٤)

ثانياً- رثاء الأزواج:

النساء - كما يقال - أرقّ قلوباً من الرجال،

وأشدّ جزعاً وولهاً عند المصاب، فهن ذوات

قلوب شجية، وعواطف جياشة، وفي طبيعتهن

الضعف، ولذلك نجد أن رثاء الرجال عند

النساء هو أبلغ منه عند الرجال، ونرى شعر

الرثاء عندهن أرقّ وأشجى، وأكثر إيلاماً

تسمع أو تجيب، ويتحسر على أيام الشباب الرقيقة التي ذهبت من عمره، تلك الأيام الخوالي التي تركت بين الترائب والتراقي لوعة وحرارة لا تنطفئ أبداً، وتسيل دموع عيونهم مدراراً، وكأن هذه الحرقّة والحرارة لا تشرب إلا من دموعه كؤوساً دهاقاً:

أعلمت ما صنعَ الفراقُ

غداةً جدّ به الوفاقُ

أولى لجسمك أن يرقُ

ودمعُ عينك أن يُراقُ

أما الفؤاد فعندهم

دعوه.... ودعوى الاشتياقُ

أعتاد حبّ محلهم

فمحلّ صدرك عنه ضاقُ

وأهال سائلة الشبا

ب مضت بأيامي الرقاقُ

أبقت حرارة لوعة

بين الترائب والتراقُ

لا تنطفي..... وورودها

من أدمعي.... كأس دهاق^(١٥)

وإذا ارتحل الشاعر بعيداً عن نيار

زوجته، فهو لا ينسى العهود والأيام الجميلة،

فيزوح يناجيها على البعد، ويبثها لواجع

الشوق على الرغم من بعد المسافة الفاصلة،

وهو يعلم أنها لا تسمع صوتاً، ولكنه يرى أن

الشوق يقرب مسافات القلوب، وهو يرى أن

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

تحمل العينُ قذى العينِ... كما
تحملُ الأمُّ قذى..... ما تفتلي
إنني قاتلةٌ مقتولةٌ
فلعلَّ الله..... أن يرتاحَ لي
يا قتيلاً قوَّضَ الدهرُ به
سَقَفَ بيتي جميعاً.... من علِ
ورماني فقُذِّه من كثبِ
رميةً المصمى به المستأصلِ
هدمَ البيتَ الذي استحدثته
وسعى في هدمِ بيتي الأولِ
مسني فقُدَّ كليبٌ بلظى
من ورائي.... ولظىَ مستقبلي
ليس من يبكي ليومينِ كمن
إنما يبكي ليومٍ..... ينجلي
دركُ الثائرِ شافيه..... وفي
دركي ثأري ثكلُ المشكلِ
ليتَه كان دمي فاحتلبوا
دَرَّراً منه دمأ من أكحلي^(١٤)
وتمدح النساءُ في رثاءِ الأزواجِ الرجولةِ
والكرمِ والشجاعةِ، وتشبَّه الزوجَ بالجمالِ
والفحلِ والحصانِ والكبشِ والأسدِ الذي
يحمي العرينَ، وهذا ما نجده عند امرأةٍ
من طيِّبِ ترثي زوجها الذي تصفه بالفنيقِ
المسدمِ، وهو الفحلُ المعرقُ المنعمُ:
دعا دعوةً عندَ الشرا آلَ مالكِ
ومن لا يجبُ عندَ الحفيظةِ يكلمِ

وتأثيراً وبكاءً، ونجد معاني الرثاء عند المرأة
تختلف عن معانيه عند الرجال، والرثاء
عند النساء موجود منذ أقدم الأزمنة، وقد
وصلتا بعض المراثي الجميلة من الأدب
الجاهلي، ومن النساء اللواتي فجعن بالإخوة
والزوج كانت: «جليلة بنت مرة» ولعل رثاءها
زوجها كليباً هي من صور الرثاء القديمة
البليغة، وهي الحائرة العاجزة، فقد قتل
أخوها جساس زوجها كليباً، فانظر إلى
أحاسيسها المتوقدة بلظى المصيبة، فهي من
أشجى الألفاظ وأبلغها، تثير كوامن الأشجان،
وتقدح شر النيران، فهي القاتلة والمقتولة،
وفعل أخيها قصم الظهير، وأدنى الأجل،
وهي التي لا تدرك ثأرها أبداً، وتتمنى أن
تموت ليرتاح، أو أنهم قد احتلبوا الدم من
أكحلها، وهو عرق الحياة:

يا ابنة الأقوام إن مُتِ فلا
تعجلي باللوم حتى تسأني
فإذا أنت..... تبينتِ التي
عندها اللوم... فلومي واعذني
إن تكن أخت امرئٍ ليمت على
جزعٍ منها..... عليه فافعلي
فعلُ جساسٍ على ضئي به
قاطعٌ ظهري.... ومدنٍ أجلي
لوعينِ فديتِ عيني سوى
أختها وانفقات لم أحفلِ

فيا ضبيعةَ الفتيانِ إذ يقتلونه

بيطن الشرا مثل الفنيق المسدم

أما في بني حصن من ابن كريمة

من القوم طلاب التراب غشمشم

فيقبل جيراً بامرئٍ لم يكن به

بواءً..... وتكن لا تكايل بالدم^(١٦)

ومن أشهر النساء الشواعر في التاريخ

العربي «الخنساء»، وهي الشاعرة التي

اشتهرت برثاء أخويها وزوجها، ولكن رثاء

أخويها كان هو الأكثر عندها، وعندما رثت

زوجها: «مرداس بن أبي عامر» فإنها قد

أشارت إلى أن زوجها قد فضل الآخرين

بحلمه، وأنه إذا عزم على أمر أمضاه، وأنه

بطل تهابه الأبطال، ويلج الأمكنة التي يخافها

الناس، وهو يرد أي موردٍ يريده، وهي تذكر

أعداد السبي الكثيرة حول البيوت، وهو

يجود عليهم بكل خير، ولا يزدريهم، فمن

برأي الخنساء يعدله مجداً وسودداً^(١٧) وهو

الذي يرجح كفة الميزان دائماً:

لما رأيتَ البدرَ..... أظلمَ كاسفاً

أرنُ سوادُ..... بطنُه وسوائلُه

رنيئاً..... وما يغني الرنينُ وقد أتى

بموتك من نحو القرية... حاملُه

لقد خار مرداساً على الناس قاتلُه

ولو عاده كُناته..... وحلائلُه

وقضل مرداساً على الناس حلمه

وإن كلُّ همٍّ همٌّ فهو فاعلُه

وأن كلُّ وادٍ..... يكره الناس هبطه

هبطت... وماءٍ منهلٍ أنت ناهلُه

وسبي كآرام الصريم..... تركته

خلال ديار مستكيناً... عواطلُه

فعدت عليهم بعد بؤسى..... بأنعم

فكلهم تُعنى به.... وتواصلُه

متى ما توازن ما جداً.. يُعتدلُ به

كما عدلَ الميزان بالكف راطلُه^(١٧)

ونجد الشاعرة «ضباعة بنت عامر بن

قرط بن سلمة الخير بن قشير» رثت زوجها:

«هشام بن المغيرة»، وكانت قد أسلمت وولدت

لهشام سلمة، ونجد أنها تحمد في زوجها

خصالاً منها أنه مأمّن كلّ خائف ومضطر،

وهو كريم الأخلاق، وموئل اليتامى وراعيهم،

وهو ربيع الناس في القحط والجذب، ويأبى

الضيم، ورأيه أصيل واضح، ولا تجد فيه

أية خصلة من خصال سوء الذم، فهو لا

يلوم ولا يذم، ولا يخذل، ولا يمن بعبائمه،

ولا يسرع إلى قول سوء الفاحشة، ويحفظ

لسانه عن القول المقذع، فلا يظلم أبداً:

وإنك لو وألت إلى هشام

أمنت وكنت في حرم مقيم

كريم الخيم خفاف حشاه

ثمال لليتيمة واليتيم

العهد ٥٥٢ أيار ٢٠٠٩

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

قومٌ إذا ركَبُوا سَمِغَتْ لَهُمْ
لَفْطاً مِنَ التَّأْيِيهِ وَالزَّجْرِ
وَالخَالِطِينَ نَحِيَّتَهُمْ بِنُضَارِهِمْ
وذوي الغنى منهم بذى الفقر
هذا ثنائى.... ما بقيت لهم

وإذا هلكت أجننى قَبْرِي^(١٧)
وتتجلى الأخلاق السامية في شعر
الزوجات الشواعر كثيراً، فهن العفيفات
الطاهرات الحافظات، وهن يبكين الأزواج
لا للأنس والنعيم، وإنما يبكين في الأزواج
خصالاً تتمثل بمكارم الأخلاق والفروسيّة،
وليس أصعب على المرأة من أن يموت زوجها
قبل ليلة الدخول، فهذه فاجعة مؤلمة، وبداية
محزنة لهذه العلاقة التي أتى الموت عليها،
ولكن هذه الزوجة ترى ما لا تراه الأخريات
في الأزواج، فهي تبكي زوجها المتوفى بكاءً
حاراً مؤثراً، وهي ترى أن المعالي والرمح
والسيوف والأفراس قد فقدت أفضل
فرسانها، فبكاء تلك المرأة يقطع نياط القلب
على زوجها الذي أرمها قبل ليلة العرس،
وهي زوجة «محمد بن هارون الرشيد»،
واسمها: «لبانة بنت علي بن ربيعة»، وكانت
من أجمل النساء، فقتل محمد عنها ولم يَبِن
بها، فقالت تَرثِيهِ:

أبكيك لا للنعيم والأنس

بل للمعالي والرمح والقرس

ربيع الناس.... أروع هبرزي
أبى الضيم ليس بذى وصوم
أصيل الزاي.... ليس بحيدري
ولا تكذ العطاء.... ولا ذميم
ولا خذالة إن كان كؤن
ذميم في الأمور... ولا ملهم
ولا متبرع بالسوء فيهم
ولا قذع المقال.. ولا غشوم
فأصبح ثاوياً بقرار رمس

كذلك الدهر يفجع بالكريم^(١٨)
والذي يبدو من خلال هذه الأبيات
والأبيات التي ستأتي عند الخرنق بنت هفان
أن الشاعرة هي نفسها، ولكن الاختلاف
حصل في اسم الأب، والذي يؤكد ذلك أن
المصيبة متشابهة، وهي موت الأب والولد
والزوج، فهي في الأبيات التالية تدب قومها
الأبطال الصناديد، والطيبين الكرماء،
والطاهرين العفيفين، وهي ترى أن الشاء
عليهم هو واجب مادامت على قيد الحياة،
فإذا ماتت فإن القبر هو الذي يسكنها
ويجنّها داخله:

لا يُبْعِدُنْ قَوْمِي السذي هُم
سُمُّ العُدَاةِ وَأَقْفَةُ الجُرْزِ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُغْتَرِكِ
والطَّيِّبِينَ مَعَاقِدَ الأَزْرِ

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

فلم أزل بدمي أبكيك جاهدة
حتى بقيت بلا عين ولا جسد
والله يعلم لولا الله ما رضيت

نفسى سوى قتلها يوماً لها بيدي^(٢١)
والذلفاء بنت الأبيض متزوجة من ابن
عمها نجدة بن الأسود، وهي امرأة جميلة
كالغصن الرطب طولاً، وكانت دائمة البكاء
على قبره، وقد رثيت وقد أكتبت على القبر،
ويكت بكاءً محرقاً وأظهرت من وجدها ما
خافوا منه على نفسها، فقالت النساء لها:
يا ذلفاء، إنه قد مات السادات من قومك
قبل نجدة، فهل رأيت نساءهم قتلن أنفسهن
عليهم؟! فلم يزلن بها حتى قامت فانصرفت
عن القبر، فلما صارت منه غير بعيد عطفت
بوجهها عليه، وراحت تخاطبه شعراً، وبعد
حول أتت قبر نجدة لزيارته، ويكت وأنشدت
شعراً، وقد مرّ بها شباب الحي فوجدوها
بارزة من خبائها، وهي كالشمس الطالعة،
إلا أنه يعلوها كسوف الحزن، فسلموا عليها،
وقالوا:

يا ذلفاء إلى كم يكون هذا الوجد على
نجدة؟! أما أن لك أن تتسلي بمن بقي من
بني عمك عمّن هلك، ها نحن سادات قومك
وفتيانهم ونجومهم، وفينا السادة والذادة،
والبأس والنجدة. فأطرقت ملياً، ثم رفعت
رأسها باكياً تقول:

يا فارساً بالعراء مطرحاً
خانته قواده مع الحرّس
أبكي على سيد... فجعت به
أرملني قبل ليلة العرس
أم من لير أم من لعائدة
أم من لتذكر الإله في الغلس
من للحروب التي تكون لها
إن أضمرت نارها بلا قبس^(٢٢)
ولا تجد الشاعرة «الذلفاء بنت الأبيض»
معزياً ومواسياً إلا أن تبت لواعج القلب إلى
قبر زوجها وابن عمها: «نجدة»، وهي تعتذر
إليه عن الفراق لأنه ليس بيدها، فهو أمرٌ
فوق قدرة البشر، وظلت تبكي وتبكي وتذرف
الدموع، وهي تطلب من مدامعها أن تستقي
الدموع من الكبد بعد أن جفت الدموع في
العينين، فأية صورة مؤثرة هذه؟! وأي مدى
قد وصل الحب إليه؟!!

وهكذا ظلت على هذه الحال إلى أن
أصبحت جثة هامدة بلا روح ولا جسد:
يا قبر نجدة لم أهجرك مقلية

ولا سلوتك من صبري ولا جلدي
لكن بكيتك حتى لم أجد مدداً
من الدموع ولا عوناً من الكمد
وأياستني جفوني من مدامعها
فقلت للعين فيضي من دم الكبد

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

التمثال من جمالها، وعليها من الحلي
والحلل ما لم يُر مثله، وهي تَبكي بعين غزيرة،
وصوتٍ شجيٍّ، فتعجب من اجتماع الحزن
مع جمال اللباس وكثرة الزينة، فلما سألتها
عن ذلك، أنشأت تقول:

فإن تَسألاني فيم حُزني فإنتني
رَهِينَةٌ هَذَا القَبْرِ يَا فَتَيَانِ
وَإني لَأَسْتَحْيِيهِ..... وَالتَّرْبُ بَيْننا

كما كُنْتُ أَسْتَحْيِيهِ.. حينَ يَراني
أهابُك إجلالاً وَإِنْ كُنْتُ في التُّرى

مَخافَةٌ يَوْمَ أن يَسُوءَكَ شاني
فالزوجة هي دائمة التذکر للزوج وأيامه،
وهي لا تفتأ تزور قبره، وتناجيه، وتذكره
بالأيام الخوالي، وتبته حالها وهمومها،
وتتمنى أن تكون معه، أو أن تخفف عنه من
خشونة القبر ووحشته، ويروى عن امرأة
كانت تزور قبر زوجها أنها تضع خدها على
القبر حتى يشعر بنعومة خدها بدل خشونة
اللحد القاسي، وهي ترى أن رشدتها قد غاب
وذهب بذهاب زوجها، وتطلب من زوجها أن
يسمع شكواها ونجواها عليها تطفئ بهذه
المناجاة بعض اللهب المستعمر في جوانحها:

خُدِّي يَقيقِ خَشُونَةَ اللُحْدِ
وَقَلِيلَةَ لَكَ سَيِّدِي خُدِّي
يا ساكنَ القَبْرِ الذي بوفاته
عَمِيَّتْ عَلَيَّ مَسالِكُ الرُّشدِ

صدقتُم إنكم لنجومٌ قومي
ليوثٌ عندَ مختلفِ العوالي
ولكنْ كان نجدةٌ بدرٌ قومي
وكهضهمُ المنيفَ على الجبالِ
فما حُسنُ السماءِ بلا نجومِ
وما حُسنُ النجومِ بلا هلالٍ (٣٧)
ثم دخلت خباءها، وأرسلت سترها، فكان
آخر العهد بها.

وكثيراً ما يتم إلقاء العتب على الزمان،
وخصوصاً عند الموت ومخالفة المطلوب،
فعندما يأتي الموت على الزوج الحبيب، فإن
الزوجة ترى أنها قد خرجت من جنة وارفة
الظلال، وهما أشبه بغصنين أخضرين،
ذبل أحدهما حين تم وطاب، وهذا ما تراه
أعرابية ترثي زوجها، وكانت تأمل منه خير
القمر:

كُنَّا كغُصنَيْنِ في جُرثومةٍ بَسَقًا
حيناً على خيرٍ ما يَنمي به الشَّجَرُ
حَتَّى إذا قِيلَ قد طالت قُرُوعُهُما
وطابَ قِنَواهُما... واستنَّظَرَ الثَّمَرُ
أخْتى على واحدٍ رَبِّبُ الرِّمانِ وما
يُبقي الرِّمانُ على شيءٍ... ولا يَدُرُ
كُنَّا كأنجمٍ ليلٍ بينها قَمَرُ

يَجْلُوا الدَّجَى فَهُوى من بينها القَمَرُ (٣٨)
ويروى الأصمعي حادثة لامرأة قائمة
على قبر زوجها، وكان معه صاحبه، وكانها

اسْمَعُ ابْنَكَ عَلْتِي.. فلعنني

أَطْفِي بِذَلِكَ حُرْقَةَ الْوَجْدِ^(١٤)

وأحياناً يكون هول الفاجعة ووقعها على المرأة شديداً، فلا تعرف ماذا تقول أو تتصرف، وتكون هذه الحالة أشد في لحظة وقوعها، أو إذا كانت الزوجة تبكي على قبر زوجها، وكأنها تسترجع الحادثة، وتتذكر أيام الأُنس والسعادة مع الزوج، فقد روى الأصمعي أنه دخل المقابر، فإذا هو بامرأة تتوح على زوجها، وهي سافرة، فلما رآته غطت وجهها، ثم كشفته، وأنشدت قائلة:

لَا صَنْتُ وَجْهًا كُنْتُ صَائِنَةً

أَبْدًا... وَوَجْهَكَ فِي الثَّرَى يَبْلَى

يا عصمتي في النائبات..... ويا

ركني القوي... ويا يدي اليمنى^(١٥)

أما الشاعرة «زهراء الكلابية»، فقد رثت زوجها، وهو ابن عمها، وبكته بكاء حاراً، ولكن قبره كان في رمال بعيدة عنها، ولكنها رغم البعد تتأوه من ذكره، وتتشوق إليه، فقد كان الليل عندها، وهي بجانب ابن عمها هنيئاً مؤنساً تنام ملء جفونها، ولا تخاف شيئاً مادام إلى جانبها، فهو الذي يرد الضيم، ويمنع الأذى من الاقتراب، ولكنها بعد موته صارت تطلب العون والرحمة من الأعداء، وهذا جرح الفؤاد لا يمكن أن يلتئم أبداً:

تَأَوَّهْتُ مِنْ ذِكْرِي ابْنَ عَمِّي، وَدَوَّهْتُ

نَقَا هَائِلَ جَعْدُ الثَّرَى وَصَفِيحُ

وَكَنْتُ أَنَامُ اللَّيْلَ مِنْ فِئْتِي بِهِ

وَأَعْلَمُ أَنْ لَا ضَيْمَ.. وَهُوَ صَحِيحُ

فَأَصْبَحْتُ سَأَلْتُ الْعَدُوَّ... وَتَمَّ أَجْدُ

مِنْ السَّلْمِ بَدْءًا... وَالضَّوَادُ جَرِيحُ^(١٦)

وضربت الأمثال بوفاء الزوجات بعد وفاة أزواجهن، وقد روت الكتب قصصاً كثيرة عن زوجات في مقتبل العمر، وهن ذوات جمال وأدب، ولما توفي الزوج أبين أن يقبلن الزواج من أحد، أليس هذا دليلاً على صدق الشاعر ونبل الأحاسيس؟!! وقد خطبن من سادة القوم، إنه حب تغفل في الحشا والعظام، فلم تعد تلك المرأة المخلصة ترى في غير الزوج الحبيب من يكون أهلاً لكي يسد مكانه، أو يحل محله في القلب، فالقلب مازال مليئاً به، وقد روى «أبو زيد» في بلاغات النساء عن امرأة ذات بعل كان قد مات عنها، فعرض عليها الزواج، ولكنها عند سماعها طلبه، أكبت على الأرض طويلاً طويلاً، ثم رفعت رأسها منشدة:

كُنَّا كَفَصْنَيْنِ... فِي أَرْضِ غَدَاؤُهُمَا

مِيزَةُ الْجَدَاوِلِ فِي رَوْضَاتِ جَنَاتِ

فَاجْتَنَّا خَيْرَهُمَا... مِنْ أَصْلِ صَاحِبِهِ

دَهْرِيكُرْبًا حَزَانٍ وَتَرْحَاتِ

ظاهرة رثاء الأزواج والزوجات في الأدب العربي

وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم
في قول بعضهم. وكانت صالحة، ولما مات
رثته زوجته بأبيات مؤثرة، حيث تطلب من
عيونها ألا تكفكف الدموع حتى الممات:

يا عينُ جودي بدمعٍ غيرِ ممنونٍ
على رزيةِ عثمان بنِ مضعونٍ

على امرئٍ بان في رضوان خالقه
طوبى له من فقيدِ الشخصِ مدفونِ
طابَ البقيعُ له سكنى وغرقه
وأشرقت أرضه من بعد تفتينِ
وأورتِ القلب حزنًا.. لا انقطاع له
حتى الممات... فلا ترقى له شوني^(٣٨)

وكان عاهدني.... إن خانني زمنٌ
أن لا يواصل أنثى بعدَ مثنواتي
وكنتُ عاهدتهُ أيضاً.... فشطَّ به
ريبُ المنونِ..... لمقدارٍ وميقاتِ
فاضرفُ عنانكَ عمَّن ليسَ يصرفه
عن الوفاءِ خلاباتُ التَّحياتِ^(٣٧)
ومن الذين حرّموا الخمر في الجاهلية
كان «عثمان بن مضعون»، وقال: لا أشرب
شراباً يذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى
منّي، ويحملني على أن أنكح كريمتي!...
وزوجته هي خولة بنت حكيم، ويقال:
خويلة السلميّة. وهي أمّ شريك، وهي التي

الهوامش

- ١- لسان العرب - ابن منظور- تقدم: الشيخ عبد الله العلايلي - إعداد: يوسف خياط وندم مرعشلي - بيروت - دار لسان العرب - مادة: (زوج).
- ٢- معجم الشعراء- المرزباني - الموسوعة الشعرية - الإصدار الثالث - المجمع الثقافي في (أبو ظبي) ١٩٩٧-٢٠٠٣م.
- ٣- الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - الموسوعة الشعرية - الإصدار الإلكتروني الثالث - المجمع الثقافي في (أبو ظبي) ١٩٩٧-٢٠٠٣م.
- ٤- أخبار أبي تمام - الصولي - بيروت - دار الآفاق الجديدة - ط ٣/ - سنة /١٩٨٠م - /ص /٢٢٠.
- ٥- التذكرة الحمدونية - ابن حمدون - الموسوعة الشعرية - الإصدار الإلكتروني الثالث - المجمع الثقافي في (أبو ظبي) ١٩٩٧-٢٠٠٣م.
- ٦- المصدر السابق.
- ٧- المصدر السابق.
- ٨- الوافي بالوفيات - صلاح الدين الصفدي - الموسوعة الشعرية - الإصدار الإلكتروني الثالث - المجمع الثقافي في

(أبو ظبي) ١٩٩٧-٢٠٠٣م.

٩- شرح ديوان الحماسة - المرزوقي - الموسوعة الشعرية - الإصدار الإلكتروني الثالث - المجمع الثقافي في (أبو ظبي) ١٩٩٧-٢٠٠٣م.

١٠- معجم الشعراء - المرزباني - الموسوعة الشعرية - الإصدار الإلكتروني الثالث - المجمع الثقافي في (أبو ظبي) ١٩٩٧-٢٠٠٣م.

١١- ديوان جرير - شرح محمد بن حبيب - تحقيق: الدكتور: نعمان محمد أمين طه - مصر - دار المعارف - سنة ١٩٦٩م - ص / ٨٦٢ و ٨٦٣ و ٨٦٤ و ٨٦٥ و ٨٦٦ و ٨٦٧.

١٢- الإحاطة في أخبار غرناطة - لسان الدين ابن الخطيب - تحقيق: محمد عبد الله عنان - المجلد الأول - القاهرة - مكتبة الخانجي - ط / ٤ - سنة / ٢٠٠١م - ص / ٢٧٥.

١٣- المصدر السابق - ص / ٢٧٦ و ٢٧٧.

١٤- المصدر السابق - ص / ٢٧٧.

١٥- العمدة في محاسن الشعر وأدابه - ابن رشيق القيرواني - الجزء الثاني - تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - ص / ١٥٣ و ١٥٤.

١٦- بلاغات النساء - ابن طيفور - إيران - مطبعة شريعت قم - ط / ٢ - سنة / ١٣٧٨هـ - ص / ٢٦٢.

١٧- ديوان الخنساء - بيروت - دار صادر - تحقيق: كرم البستاني - سنة / ١٩٦٣م - ص / ١٢٤ و ١٢٥.

١٨- أشعار النساء - المرزباني - الموسوعة الشعرية - الإصدار الإلكتروني الثالث - المجمع الثقافي في (أبو ظبي) ١٩٩٧-٢٠٠٣م. وقد أضفنا السوا إلى أنك في مطلع القصيدة ليستقيم الوزن - الهبرزي: الجميل الوسيم - الحيدري: الغليظ.

١٩- الحماسة البصرية - البصري. وفي الحماسة البصرية للبصري - الجزء الأول - بيروت - عالم الكتب - ط / ٣ - ١٩٨٣م - ص / ٢٢٧.

٢٠- العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسي - تحقيق: محمد سعيد العريان - بيروت - دار الفكر - المجلد الثاني - سنة / ١٩٥٣م - ص / ٢٠٤.

٢١- معجم الأدباء - ياقوت الحموي - الجزء السابع عشر - دار الفكر - ط / ٣ - سنة / ١٩٨٠م - ص / ١٦٠ و ١٦١.

٢٢- معجم الأدباء - ياقوت الحموي - الجزء السابع عشر - دار الفكر - ط / ٣ - سنة / ١٩٨٠م - ص / ١٦٠ و ١٦١.

- ٢٣- العقد الفريد- ابن عبد ربه الأندلسي- تحقيق: محمد سعيد العريان- بيروت- دار الفكر- المجلد الثاني- سنة ١٩٥٣م- /ص ٢٠٤/- وقد وردت الأبيات الثلاثة الأولى في ديوان الخنساء مع اختلاف بعض الألفاظ- بيروت- دار صادر- تحقيق: كرم البستاني- سنة ١٩٦٣م- /ص ٧٤/.
- ٢٤- المصدر السابق- ص /٢٠٥/.
- ٢٥- المصدر السابق- ص /٢٦١/.
- ٢٦- الحماسة البصرية- البصري- الجزء الأول- بيروت- عالم الكتب- ط/٣- /١٩٨٢م- /ص ٢٢٧ و ٢٢٨/.
- ٢٧- بلاغات النساء- ابن طيفور- إيران- مطبعة شريعت قم- ط /٢/- سنة ١٣٧٨هـ- /ص ٢٥١/.
- ٢٨- الوافي بالوفيات- صلاح الدين الصفدي- الموسوعة الشعرية- الإصدار الإلكتروني الثالث- المجمع الثقافي في (أبو ظبي) ١٩٩٧- ٢٠٠٣م.

المصادر والمراجع

- ١- أخبار أبي تمام- الصولي- بيروت- دار الآفاق الجديدة- ط/٣- سنة ١٩٨٠م/.
- ٢- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين للخالدين- وفي الحماسة البصرية للبصري- الجزء الأول- بيروت- عالم الكتب- ط /٣- /١٩٨٣م/.
- ٣- الإحاطة في أخبار غرناطة- لسان الدين ابن الخطيب- تحقيق: محمد عبد الله عنان- المجلد الأول- القاهرة- مكتبة الخانجي- ط /٤- سنة ٢٠٠١م/.
- ٤- الأمالي- أبو علي القالي- الجزء الثاني- بيروت- دار الكتب العلمية- سنة ١٩٧٨م/.
- ٥- بلاغات النساء- ابن طيفور- إيران- مطبعة شريعت قم- ط /٢- سنة ١٣٧٨م/.
- ٦- تاريخ الآداب العربية- لويس شيخو- بيروت- منشورات دار المشرق- ط /٣- سنة ١٩٨٦م/.
- ٧- تزيين الأسواق- داود الأنطاكي- تحقيق: أمين عبد الجابر البحري- الجزء الأول- بيروت- دار الكتب العلمية- سنة ٢٠٠٢م/.
- ٨- الحماسة البصرية- البصري- وفي الحماسة البصرية للبصري- الجزء الأول- بيروت- عالم الكتب- ط /٣- /١٩٨٣م/.
- ٩- ديوان جرير- شرح محمد بن حبيب- تحقيق: الدكتور: نعمان محمد أمين طه- مصر- دار المعارف- سنة /١٩٦٩م/.
- ١٠- ديوان الخنساء- بيروت- دار صادر- تحقيق: كرم البستاني- سنة ١٩٦٣م/.

- ١١- الشعر والشعراء- ابن قتيبة الدينوري- تحقيق: أحمد محمد شاكر- مصر- دار المعارف- سنة /١٩٦٦م/.
- ١٢- العقد الفريد- ابن عبد ربه الأندلسي- تحقيق: محمد سعيد العريان- بيروت- دار الفكر- المجلد الثاني- سنة /١٩٥٣م/.
- ١٣- العمدة في محاسن الشعر وأدابه- ابن رشيقي القيرواني- الجزء الثاني- تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- ١٤- لسان العرب- ابن منظور- تقديم الشيخ عبد الله العلايلي- إعداد: يوسف خياط وتديم مرعشلي- بيروت- دار لسان العرب.
- ١٥- معجم الأدباء- ياقوت الحموي- الجزء السابع عشر- دار الفكر- ط/٣- سنة /١٩٨٠م/.
- ١٦- الموشى- الوشاء- بيروت- دار صادر- ط/١- سنة /١٩٦٥م/.
- ١٧- الموسوعة الشعرية- الإصدار الثالث- المجمع الثقافي في (أبو ظبي) ١٩٩٧- ٢٠٠٣م.



حوار العبد

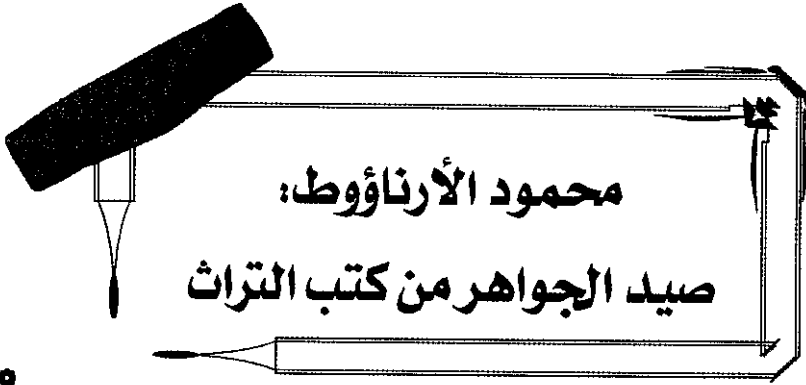
مع محمود الأرنؤوط:



صيد الجواهر من كتب التراث

حوار: عادل أبوشنب

حوار العَدو



اعداد، عادل أبو شنب

عرفته قبل ثلاثين سنة كان في «سيمنار» لغة الألبانية في برشتنا عاصمة كوسوفا، وكنت مدعواً إليه. ولما دعيت إلى مهرجان الشعر في مدينة ستروغا بمقدونيا القريبة من كوسوفا صحبتته معي إلى هناك ليعينني في ترجمة من العربية إلى الألبانية ومن الألبانية إلى العربية، ومنذ ذلك الوقت صار صديقاً عزيزاً. ثم عرفت أنه يعمل مع والده الشيخ عبد القادر الأرناؤوط -رحمه الله- في تحقيق كتب التراث. وعندما توفي والده حل محله في شؤون الحديث النبوي وما يتصل به، وأخذ يتمم ما بدأ به من خدمة لهذا الجانب الهام من

* أديب وقاص سوري



محمود الأرنؤوط: صيد الجواهر من كتب التراث

الإسلامي، ثم تابعت تحصيلي في مجالس والدي العلمية ومجالس زميله الشيخ شعيب الأرنؤوط سنوات طويلة وأفدت من جلوسي إليهما فوائد عظيمة، وأفدت أيضاً من صلاتي بعدد كبير من العلماء والأدباء الذين أقمّت علاقة طيبة بهم في مراحل مختلفة من الحياة في سورية وخارجها، وأذكر منهم الأستاذ سعيد الأفغاني، والدكتور شاكراً الفصّام، والدكتور مازن المبارك، والدكتور ناصر الدين الأسد، والدكتور خالد عبد الكريم جمعة، والشيخ حمد الجاسر، والأستاذ عادل أبو شنب، والدكتور محمود الريدأوي، والدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي، والأستاذ عبد العزيز رباح، والدكتور حسام الدين فرفور، بنسب مختلفة فيما بينهم، وأفدت من صلاتي بغيرهم أيضاً.

- أعرف أنك تعلمت صناعة تحقيق كتب التراث على يدي والدك وبعض أصدقائه، فهل لك أن تقصّ علينا تجربتك في هذا الأمر غير السهل؟

• انصرفت انصرفاً كلياً للعمل بتحقيق كتب التراث منذ بداية عام ١٩٨٠ وقمت بتحقيق ما يزيد على ثلاثين كتاباً منفرداً وبمشاركة الآخرين وأشرفت على تحقيق عدد من الكتب التراثية الهامة، وراجعت ما يزيد على خمسة عشر كتاباً مما حققه

جوانب التراث فأجاد، واقترن اسمه بصناعة تحقيق التراث الدقيقة التي يبدو فيها كأنه يصطاد الجواهر من البحار العميقة، إنه الباحث المحقق الأستاذ محمود الأرنؤوط، الذي كان صديق العلامة الدكتور شاكراً الفصّام، رحمه الله، وقد عمل عملاً حثيثاً في جمع وإخراج مجمل آثاره بكتاب سماه «القطوف الدانية»، وقد نشرته وزارة الثقافة بدمشق في خمسة أجزاء العام الماضي، وكم يسرني أن أستضيفه في هذا الحوار النادر مع باحث محقق مثله:

- أرجو أن تحدثني عن مولدك ونشأتك ودراساتك.

• ولدت في دمشق بحي الديوانية البرانية الذي أصبح يعرف الآن بحي العدوي لأسرة ألبانية الأصل قدمت من إقليم كوسوفا إلى دمشق، ونشأت يتيم الأم في كنف والدي العلامة الشيخ عبد القادر الأرنؤوط، وقامت على تربيتي جدتي عقب وفاة والدتي وأنا دون الرابعة من عمري، وتزوج والدي -رحمه الله- بزوجة ثانية نالني من الأذى منها ما لم أستطع وصفه في حياة والدي ولا بعد مماته أيضاً.

والتحقت في صفري بمدرسة الإسعاف الخيري، ثم بمدرسة شكري القوتلي، ثم بإعدادية الفتى العربي، ثم بمعهد التوجيه

١٩٩١، وأغلقتة في نهاية ١٩٩٥، وأنجزت فيه إخراج كتب تراثية مختلفة منفرداً وأخرى بمشاركة بعض الأصدقاء.

ومما زاد في سعة اطلاعي وتوسع دائرة خبرتي في شؤون التراث عامة مشاركتي في عدد كبير من المؤتمرات ذات الطابع التراثي في سورية وبعض البلدان العربية والإسلامية والأوروبية.

وسميت أميناً لتحرير مجلة التراث العربي التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب في سورية سنة ١٩٩٧ ومارست العمل في المجلة المذكورة إلى نهاية عام ٢٠٠٠م.

ودعيت كضيف شرف على «المؤتمر الدولي لتحقيق التراث العربي» الذي نظّمته جامعة آل البيت في الأردن سنة ٢٠٠٤م، وطلب مني تقديم عرض لتجربتي في تحقيق كتب التراث فقدمت ورقة للمؤتمر بعنوان «من مذكرات عابر سبيل في منتصف الطريق».

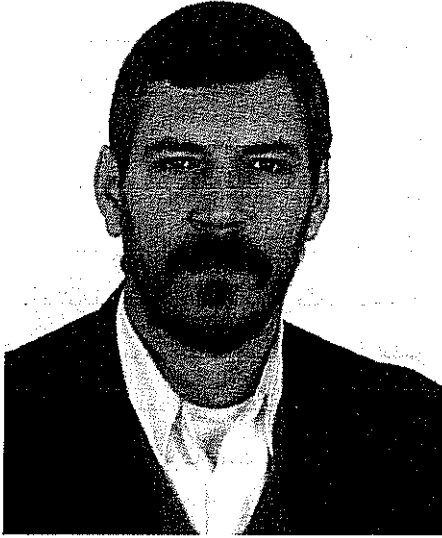
وأقيم لي حفل تكريم في برشتنا عاصمة كوسوفا سنة ٢٠٠٦م ونظم معرض لآثارتي العلمية والأدبية على هامشه مدة يومين.

وقامت دار المأمون للتراث بدمشق بإخراج كتاب عني بمناسبة بلوغي الخمسين من عمري عام ٢٠٠٤م عنوانه «سيرتي بقلمتي وأقلام ثلّة من أصدقائي» كتبت القسم الأول

غيري، وقدمت لكتب كثيرة مما حققه بعض المحققين الذين تربطني بهم صلة صداقة طيبة، وألفت مجموعة من الكتب ذات موضوعات تراثية ومجموعة أخرى ذات موضوعات أدبية وثقافية وكتبت ما يزيد على مئة وخمسين مقالة في شؤون التراث نشرتها في عدد كبير من الصحف والمجلات العربية في سورية وخارجها، وقدمت عدداً كبيراً من البحوث المتصلة بأعلام التراث لعدد من الموسوعات العربية في سورية وخارجها وللموسوعة الإسلامية بإستانبول. وقدمت عدداً كبيراً من المحاضرات المتصلة بشؤون التراث في سورية والأردن وتركيا وأوزبكستان وكوسوفا والمملكة العربية السعودية.

وزرت ما يزيد على مئة مكتبة دولية وخاصة في بلدان عدة عربية وإسلامية وأوروبية. وقد أكسبتي زياراتي لتلك البلدان وغيرها صداقات كثيرة لعدد كبير من العلماء والباحثين أعتز بها، وقد وسّعت تلك الصداقات والصلات مداركي وأفادتني فوائد لا تقدر بثمن، وأطلعتني على وجهات نظر مختلفة في أمر تحقيق نصوص التراث العربي وإخراجها.

وأسست مكتب ابن عساكر لتحقيق وتصحيح كتب التراث بدمشق في بداية



ويحتوي على ذكر ما جرى من الأحداث في تلك السنوات باختصار، وعلى ما يقرب من عشرة آلاف ترجمة من تراجم الخلفاء، والملوك، والوزراء، والقادة، والأدباء، والشعراء والكتّاب، والفقهاء، المحدثين، والأطباء، والحكماء، والمتصوفة، وغيرهم من أعيان الزمان وقد خصصت المجلد الحادي عشر والأخير منه للفهارس العامة التي فتحت مغاليقه.

٢- كتاب إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين» لابن طولون الدمشقي، وقد نشرته مؤسسة الرسالة ببيروت، ويضم نصوص معظم الرسائل التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لملوك الأمم وزعماء القبائل العربية التي كانت في أصقاع مختلفة من

منه بنفسه، وكتب القسم الثاني منه مجموعة كبيرة من أصدقائي، وقدم له اثنان من أعلام التراث الكبار في الوطن العربي هما الدكتور عبد الهادي التازي، والدكتور ناصر الدين الأسد.

ووقع اختيار الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي عليّ للقيام بتحقيق كتاب «سُلم الوصول إلى طبقات الفحول لحاجي خليفة بإشرافه، وقد أنجزت تحقيقه وهو تحت الطبع الآن باستانبول وسيصدر قريباً إن شاء الله تعالى.

- ما هي الكتب التراثية التي قمت بتحقيقها لوحدهك أو بالاشتراك مع آخرين، أرجو أن تذكر أسماء أهمها وتلخص موضوعاتها باختصار؟

• الكتب التي حققتها أو أسهمت بتحقيقها كثيرة، وسوف أذكر أسماء أهمها مع تلخيص مضامينها بالقدر الممكن الذي يقدم فكرة عنها.

فأما أهم ما قمت بتحقيقه من كتب التراث منفرداً فهي الكتب التالية:

١- كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، ويقع في أحد عشر مجلداً، ونشرته دار ابن كثير بدمشق، ويضم تاريخاً لألف سنة من تاريخ الأمة من السنة الأولى وإلى سنة ألف من الهجرة،

وانتشاره إلى منتصف القرن الثامن الهجري تقريباً، كالمدينة المنورة، ومكة المكرمة، وبيت المقدس، ودمشق، والقاهرة، والإسكندرية، وبغداد، وحمص، والكوفة، والبصرة، واليمن، والأندلس، والمغرب، والجزيرة، والديينور، وهمذان، والسري، وقزوين، وجرجان، ونيسابور، وطوس، وهراة، ومرو، وبلخ، وبخارى، وسمرقند، والشاش، وفرياب، وخوارزم، وشيراز، وغيرها من بلدان بلاد ما وراء النهر، وقد علقت على الكتاب تعليقات مطولة مفيدة أبانت بتوسع عما ألمح إليه مؤلفه الإمام الكبير.

ومما قمت بتحقيقه بالاشتراك مع عدد من الأصدقاء الكتب التراثية التالية:

١- تعريف ذوي العُلا بمن لم يذكره الذهبي من النبلا، لتقي الدين الفاسي، وقد نشرته دار صادر ببيروت، وهو ذيل على كتاب «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي، ويضم ألفاً ومئة واثنين وسبعين ترجمة لأعلام الزمان من الملوك والخلفاء، والأمراء، والقادة، والأدباء، والشعراء، والنحاة، والفقهاء، والمفسرين، والمحدثين، وغيرهم ممن مات في القرن الثامن الهجري، وقد شاركني العمل بتحقيقه الأستاذ أكرم البوشي وألحقنا بآخره فهارس هامة أسهمت بفتح مغاليقه وتقريب الاستفادة منه.

الجزيرة العربية يدعوهم فيها إلى الإسلام. ٢- كتاب «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب» للعلامة محمد بن درويش الحوت البيروتي، ويضم ألفاً وسبعمئة وستاً وثمانين حديثاً وأثراً ومثلاً وقولاً مما اشتهر على ألسنة الناس عبر القرون، وقد صدره مؤلفه بمقدمة هامة وختمه بفصول كثيرة تتعلق بموضوعات مختلفة تتصل بأمر الأحاديث الموضوعية وسواها من الموضوعات الحديثية الهامة، وقامت بنشره دار الفكر ببيروت سنة ١٩٩١م، ثم قمت بإعادة تحقيقه من جديد، وسوف تصدر طبعته الثانية قريباً بعون الله.

٤- فتاوى الإمام النووي، لابن العطار، وقد نشرته دار الفكر بدمشق، ويضم طائفة كبيرة من المسائل العلمية والموضوعات الشرعية التي سئل عنها الإمام النووي مما يتصل بحياة الإنسان في دينه ودنياه فأجاب عنها إجابات مفيدة نافعة تظهر تضلعه بشؤون الفقه وشجونه.

٥- الأمصار ذوات الآثار، للإمام الذهبي، وقد نشرته دار ابن كثير بدمشق، وقد تحدث مؤلفه فيه عن الأمصار الإسلامية العريقة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة أيام عزها ومجدها باختصار، وأشار إلى دورها الهام في حركة تدوين علم الحديث

وغيرهم، وقد شاركني العمل به الأساتذة: رياض عبد الحميد مراد، وياسين محمود الخطيب، وأكرم البوشي، وأديب محمد الغزاوي، وألحق بالأجزاء الستة جزءاً للفهارس العامة، وقد قدمت للكتاب بمقدمة هامة جداً أوضحت فيها أهمية «تاريخ دمشق» و«مختصره» وما أضافته «تكملة المختصر» من الفائدة للمختصر بانضمامها إليه.

٤- المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام بن حنبل، للعلامة العليمي، ويقع في ستة أجزاء، وقامت بنشره دار صادر ببيروت، ويضم ألفاً وستمئة وأربعة وخمسين ترجمة لأعلام علماء المذهب الحنبلي، وقد افتتحه مؤلفه بترجمة مطولة للإمام أحمد بن حنبل، وختمه بترجمة للعلامة محمد ابن محمد بن أبي بكر السعدي المصري قاضي الديار المصرية في عصره، ويقع الكتاب في ستة أجزاء الأخير منها للفهارس العامة، وقد شاركني العمل بتحقيقه الأساتذة: رياض عبد الحميد مراد، وحسن إسماعيل مروة، وإبراهيم صالح، ومحيي الدين نجيب، وتصدرته عدة مقدمات تحدثت عن قيمته العلمية الهامة.

٥- تاريخ فنون الحديث النبوي، للعلامة الشيخ محمد عبد العزيز الخولي، وقد أرنخ فيه لهذا العلم الجليل من جميع جوانبه،

٢- معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر الدمشقي، وقد نشرته دار الفكر بدمشق، ويضم أربعمئة وثمانية وعشرين ترجمة للشعراء والشاعرات منذ العصر الجاهلي وإلى أواسط القرن السادس الهجري ومن بلدان مختلفة على الشرط الذي وضعه ابن عساكر لمن ترجم له من الأعلام في كتابه العظيم «تاريخ مدينة دمشق» ويضم طائفة كبيرة من الأشعار الرائعة وبعضها مما لم يرد له ذكر في دواوين أصحابها وقد أوردها ابن عساكر بالأسانيد منه إلى أصحابها على قاعدته في كتابه المذكور في إيراد الأحاديث والأخبار والأشعار وغيرها، وقد شاركني العمل بتحقيق هذا الكتاب الأصدقاء د. حسام الدين فرفور، ود. رياض عبد الحميد مراد، ود. نزار أباطة وقد انضرد د. حسام الدين فرفور بتحقيق الجزء الأول منه، وشاركتاه بتحقيق الأجزاء السبعة التي تلتها.

٣- تكملة مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور، ونشرته دار الفكر بدمشق، ويقع في ستة أجزاء، ويضم ألفين وثمانمئة وسبعين ترجمة لأعلام الزمان من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، والخلفاء، والأمراء، والوزراء، والقادة، والفقهاء، والمؤرخين، والشعراء، والمحدثين، والأدباء،

الأسد الوطنية بدمشق ومكتبات عدد كبير من العلماء.

- أعرف أن لك كتباً كثيرة من تأليفك فما هي أهمها وأقربها إلى نفسك؟

• جميع كتبي عزيزة على قلبي ولكن أهم كتبي التي أفتها هي:

١- كتابي الكشكول الصغير، فهو أول مؤلفاتي وباكورتها جميعاً، وقد نشرته مؤسسة الرسالة ببيروت، ثم مكتبة دار العروبة بالكويت ودار ابن العماد ببيروت.

٢- كتابي عناقيد ثقافية، وهو الآخر يضم مجموعة كبيرة من مقالاتي المنشورة على فترات متباعدة ومعظمها في شؤون التراث، ونشرته دار المأمون للتراث بدمشق.

٣- كتابي زهرات الياسمين، وهو أيضاً يضم مجموعة من مقالاتي التي نشرتها على فترات متباعدة ومعظمها تراثية، ونشرته مكتبة دار العروبة بالكويت.

٤- كتابي أعلام التراث في العصر الحديث، ويضم ثمانين ترجمة لأعلام العلماء الذين خدموا التراث العربي من جميع أرجاء المعمورة، وأعتز به اعتزازاً كبيراً وقد أصبح من أهم المراجع بين أيدي الدارسين والحمد لله.

٥- كتابي مقالاتي في مجلة التراث

وتحدث عن جهود أعلامه الكبار الذين أثروا المكتبة العربية الإسلامية بمؤلفاتهم المختلفة التي تعد في طليعة الآثار الهامة في العصور الذهبية من تاريخ أمتنا العظيمة، وقد شاركتني العمل بتحقيقه الأستاذ محمد بدر الدين قهوجي، ونشرته دار ابن كثير بدمشق، وتصدرته مقدمة هامة تتصل بتاريخ الحديث النبوي الشريف كتبها والدي الشيخ عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله.

- ماهي أهم المكتبات التي زرتها للبحث عن المخطوطات العربية؟

• أهم المكتبات التي زرتها مراراً وتكراراً وترعرعت فيها وأنا طفل صغير، ثم أفدت منها في سنوات شبابي المكتبة الظاهرية العريقة بدمشق، ثم زرت دار الكتب المصرية بالقاهرة، ومكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، ثم مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة، ومكتبة مركز الملك فيصل بالرياض، ومكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ومكتبة الحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة، ومكتبة فيينا الوطنية بالنمسا، ومكتبة تيرانا الوطنية بألبانيا، ومكتبة أبي ریحان البيروني بطشقند، والمكتبة السلیمانیة، ومكتبة متحف توب كابي سراي باستانبول، وأفدت فوائد عظيمة من زياراتي المتكررة لمكتبة

٢- شرح الأربعين النووية، للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شعرف النووي دمشقي، ويضم أحاديث نبوية هامة جداً تتصل بشؤون الدين والدنيا، وقد قام بمراجعتها والدي الشيخ عبد القادر الأرنؤوط -رحمه الله تعالى- وأغناه بتعليقات مفيدة، ونشرته دار ابن كثير بدمشق.

٣- القطوف الدانية ويضم مجمل آثار العلامة الدكتور شاعر الفحام -رحمه الله- خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمان، وقد استغرق عملي فيه جمعاً وتصنيفاً وتصحيحاً لتجاربه طبعه الكثيرة، وفهرسة لموضوعاته، وكتابة للتقديم الذي تصدره، ما يزيد على ثلاث سنوات ونيف، بانقطاع تام له.

٤- موسوعة نضرة النعيم، وهي في أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد أسهمت بإعدادها مع عدد كبير من الأساتذة من مختلف الأقطار العربية والإسلامية، وصدرت عن دار الوسيلة بجدة في المملكة العربية السعودية، وانحصر دوري فيها بما يتصل بشؤون النصوص الحديثة وتخريجها، فقد قمت بمراجعة النصوص الحديثة التي جمعها وخرَّجها بعض المشاركين في إعدادها من الأساتذة، فضبطت ألفاظها، واستبدلت

العربي، واسمه يتحدث عنه، وقد تصدره تقديم لأستاذي وصديقي الناقد الكبير الدكتور محمود الريداوي، ونشرته مؤسسة النوري بدمشق.

٦- كتابي المخطوطات العربية في البانيا، وقد نشرته دار الفكر بدمشق، وهو أول كتاب تحدث عن مخطوطات ذلك البلد البلقاني الشهير، وضم تعريفاً بثلاثة وأربعين مخطوطة من مخطوطات المكتبة الوطنية بتيрана، وتصدره تقديم هام كتبه سيبقى للذكرى على مرّ الأيام إن شاء الله تعالى.

٧- كتابي سيرة العلامة الشيخ عبد القادر الأرنؤوط، ونشرته دار البلخي بدمشق، وقد حرصت فيه على رسم الصورة الصحيحة لوالدي -رحمه الله- دون زيادة أو نقصان.

وهناك كتب صنفتها وقدمت لها أعتز بها، أذكر منها:

١- مختصر جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، يضم خمسين حديثاً من الأحاديث النبوية المشروحة شرحاً علمياً وافياً ومخرجة تخريجاً مفصلاً مما يحتاج إليه الإنسان في أمور دينه ودنياه، وتصدره تقديم لصديقي العزيز الدكتور حسام الدين فرفور، ونشرته دار الثقافة والتراث بدمشق.

مظان أي مسألة يريد أن يتولى تحقيقها من النص الذي بين يديه، وكلما تقدم المشتغل بتحقيق النصوص التراثية إلى الأمام ازدادت خبرته توسعاً يوماً بعد يوم، والخبرة في هذا الأمر تراكمية، أي كلما تقدم تقدمت خبرته معه إلى الأمام، ولتحقيق كتب التراث فروع ومجالات مختلفة.

- أعرف صلتك الطيبة بالدكتور شاكِر الفحام، رحمه الله، فكيف نشأت صلتك به، وكيف تعززت وماذا أثمرت؟

• لقد قامت صلتى بالعلامة الدكتور شاكِر الفحام منذ أن أقدمت على تحقيق كتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي سنة ١٩٨٢م، ثم تطورت صلتى به على مراحل، وأعجب كل منا بالآخر، وكلما تقدمنا إلى الأمام كانت صداقتنا تزداد قوة ومتانة لأنها قامت على محبة الله عز وجل ولم تكن بيننا أي مصلحة مادية، وقد تحدثت عن صلتى به بتوسع في مقدمتي لكتابي «القطوف الدانية» الذي جمعت فيه مجمل آثاره - رحمه الله - بأجزائه الخمسة، الذي قدمت للمكتبة العربية من خلاله سفرأ هاماً سيسفيد منه هذا الجيل والأجيال اللاحقة من أبناء الأمة على مر الأيام إن شاء الله، وقد كتبت

نصوصاً ضعيفة اختاروها بأخرى صحيحة، وأضفت الكثير من الإضافات إلى تخريجاتها التي كتبها من اختار تلك النصوص.

٥- وأسهمت بكتابة عدد كبير من البحوث المتعلقة بترجم العلماء والأدباء والمحدثين والمؤرخين وأعيان الزمان للموسوعة العربية التي تصدرها رئاسة الجمهورية في سورية، وموسوعة أعلام العرب والمسلمين التي تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس، والموسوعة الإسلامية التي تصدر عن وزارة الأوقاف التركية في استانبول، ولو جمعت تلك البحوث لشكلت كتاباً هاماً.

- هل تعتبر صناعة التحقيق - أو كار التحقيق - لكتب التراث تتطلب موهبة خاصة، اشرح لي ذلك واضرب لي بعض الأمثلة على ذلك؟

• أجل تتطلب صناعة تحقيق كتب التراث موهبة في شؤون العلم عامة، وشؤون الانصراف لخدمته انصرافاً تاماً بشكل خاص، وإن محبة العلم والصبر على تحصيله والازدياد منه في كل يوم ومتابعة الشاردة والواردة في أمره هي أهم بند من بنود رأسمال المشتغل في تحقيق كتب التراث، يضاف إلى ذلك اطلاع واسع على المكتبة العربية الإسلامية من جميع جوانبها لمعرفة

الأستاذة الدكتورة نجاه المريني من المغرب مقالة عن هذا السفر الهام نشرتها مجلة الموقف الأدبي التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب في عدد أيلول ٢٠٠٨ ويمكن للقراء الكرام الاطلاع عليها وقراءة ما جاء فيها من التقييم للكتاب وللجهد الذي بذلته في جمعي لمادته وتصنيفي وترتيبها لها، ولا تسأل عن السعادة التي غمرت الدكتور شاكر -رحمه الله تعالى- حين صدر عن وزارة الثقافة بأجزائه الخمسة على مرحلتين، الأولى صدر فيها الجزء الأول، والثانية وصدرت فيها الأجزاء الأربعة الأخيرة من الثاني إلى الخامس، ثم أقامت مديرية الثقافة بدمشق ندوة عن الكتاب شاركت فيها مع مجموعة من الزملاء وتحدثنا فيها عن الكتاب من جوانب مختلفة بحضور الدكتور شاكر -رحمه الله- وحضور زوجته وابنته، وكانت سعادته بها لا توصف.

- يقال إن الكتب التراثية تلقى اهتماماً خاصاً من القراء ومن دور النشر، وإن العاملين في تحقيقها ينالون أجوراً جيدة، فهل تعيش أنت من دخلك في مجال تحقيق الكتب التراثية؟

• نعم إن الكتب التراثية تلقى اهتماماً خاصاً من القراء في معظم الأقطار العربية،

بل في جميعها، ولا يقتصر الأمر على الأقطار العربية فقط، بل يتعداها للأقطار الإسلامية جميعها، ولبلدان أوروبية وغير أوروبية أيضاً، واهتمام دور النشر بمجمله بها يعود إلى أنها بضاعة رائجة مريحة تعود عليها بكسب سريع.

- هل ترغب بتوريث ابنك (عبد القادر الصغير) ما ورثته عن أبيك (عبد القادر الكبير) من حب لخدمة كتب التراث ولماذا؟

• أجل أحب أن أوريث ولدي وتلميذي (عبد القادر الصغير حفظه الله) ما ورثته عن والدي وأستاذي (عبد القادر الكبير رحمه الله) من حب لخدمة كتب التراث، ولكنني أفكر جيداً بالبحث له عن سبيل يبعد عنه استغلال أصحاب معظم دور النشر الذين يستغلون المشتغلين بتحقيق كتب التراث أبشع استغلال للأسف، وأنصح من الآن بالتفكير بإيجاد وسيلة أخرى للحصول على مصدر رزقه منها إن أمكن، وأن يكون العمل بتحقيق كتب التراث بالنسبة له من باب ممارسة الهواية وإكمال ما بدأ به والده وجده من قبل في خدمة السنّة النبوية وكتب تراث الأسلاف كي لا يعاني ما عانيته أنا في الحياة من الصعوبات المادية التي يصعب وصفها والصبر عليها.

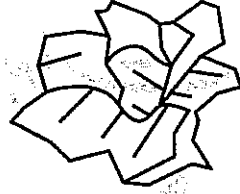
من الأقطار العربية، ويكاد لا يوجد أديب كبير في الوطن العربي إلا وتربطني به صلة، ولكن لا يمكنني أبداً نسيان الأدياء الكبار الذين ربطتني صلة طيبة بهم، أمثال عبد السلام العجيلي وعادل أبو شنب، وخالد سعود الزيد، وسليم الزركلي، وخالد قوطرش، رحم الله من انتقل منهم إلى الدار الآخرة وأطال عمر الباقين.

- أتتابع الحركة الأدبية والفكرية والثقافية - وخاصة التراثية - في سورية؟ ومن هم الأدياء السوريون وغير السوريين الذين عرفتهم، ومع من تختلط منهم؟

• نعم أتابع الحركة الأدبية والفكرية والثقافية والتراثية في سورية ومعظم الأقطار العربية بقدر ما يسمح لي الوقت، ولقد عرفت أدياء كثيرين في سورية وعدد



مناجات



إعداد: أحمد الحسين

صفحات من النشاط الثقافي

كتاب الشهر

إعداد وتقديم: محمد سليمان حسن

الأخلاق في فلسفات الشرق

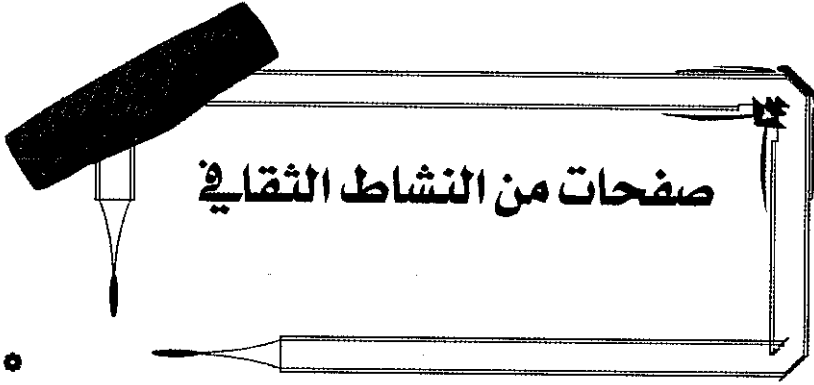
آخر الكلام

رئيس التحرير

جوهر الموسيقى



مناجيات



أحمد الحسين

توصيات مؤتمر القدس الدولي:

أوصى المشاركون في المؤتمر الدولي حول القدس في العهد العثماني في ختام أعمال جلساته بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق بضرورة الاهتمام بقضية التوثيق والتعليم من خلال زيادة حركة البحث العلمي الخاصة بمدينة القدس خلال فترة العهد العثماني وحصر الدراسات التي جرت حول هذا الموضوع وتبويبها وحفظها خدمة للباحثين الذين يدرسون في هذا الموضوع.

* أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

ع

من دور أساسي في تربيته المجتمع الدولي والأطر الإقليمية والمحلية بضرورة المحافظة على هذا التراث الحضاري كثروة هامة للأجيال الشابة والتركيز الإعلامي بأشكاله كافة على ترسيخ الذاكرة الحضارية للقدس الشريف.. فلسطينياً وعربياً وإسلامياً ومسيحياً وعالمياً.

كما أوصى المؤتمر بتوظيف نتائجه في سياق وحدة الصف الفلسطيني والعربي وخاصة في مجالات الفكر السياسي، والتوثيق التاريخي وإعادة الاهتمام بدراسة تاريخ القدس في العهد العثماني بشكل موضوعي وعلمي من خلال الحياة الاجتماعية والبعث الإنساني في التسامح وقبول الآخر والعمارة ووظائفها في إطار المنظور الإسلامي.

وشددت التوصيات على ضرورة إعادة النظر بمفردات القسرات التاريخية واستقراء منهجي علمي موضوعي في قراءة التاريخ العثماني كجزء هام من التاريخ الإسلامي العام.

ونوه المؤتمر بدور منظمة المؤتمر الإسلامي ومركز أرسिका والنشاطات المبرمجة التي يتخصص بها هذا المركز وخاصة في المجالات الثقافية والتراثية داعين إلى إنشاء مركز دراسات القدس والتنسيق مع المراكز

ودعا المؤتمر إلى تكثيف حركة البحث العلمي حول هذا الموضوع الذي لم ينل حقه بعد من التمحيص والدراسة بهدف إظهار الحقائق والوقائع التاريخية لتلك الفترة وتقديم المصادقية العلمية لأجيالنا الشابة وتوفير الحماية القانونية للتراث الحضاري لمدينة القدس، ودعم الجهود العربية والإسلامية والدولية لمنع التعديات والعبث بهذا التراث المهم من خلال دعوة المنظمات الدولية والجهات المسؤولة في المجتمع الدولي.

وأكدت توصيات المؤتمر على ضرورة تحقيق كافة المصطلحات وأسماء الأماكن والآثار التاريخية والدينية في القدس لمواجهة المخططات الإسرائيلية لتزوير وتزييف الحقائق التاريخية والدينية والأثرية لتحويلها إلى مصطلحات وأسماء إسرائيلية ودعم أهل القدس وتوفير وسائل الدعم اللازمة للمحافظة على هوية المدينة التراثية والتاريخية ودعم الأوقاف ومؤسساتها في القدس والسعي الجاد إلى ترميم الآثار الإسلامية والمسيحية في القدس.

ولفت المؤتمر إلى دور الإعلام في توعية المجتمع إزاء خطورة ما يجري وتحديد مسؤولية وسائل الإعلام وما يقع على عاتقها

العربية الدائمة حتى تتحرر من الاحتلال الإسرائيلي داعياً الأمة العربية والإسلامية لاستثمار احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٩، لإعادة الوعي للذاكرة بمكانة القدس في عقيدة العرب والمسلمين وفكرهم وحضارتهم وتراثهم الوجداني والروحي، من جانبه أكد الدكتور علي القيم معاون وزير الثقافة أن الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية يستحضر عظمة هذه المدينة العريقة الخالدة خلود التاريخ، ويؤكد عروبته عبر التاريخ، ويبطل الحجج الزائفة التي يدعيها الصهاينة حول القدس^(١)

القدس في نشاطات فنية:

أقام اتحاد المصورين العرب في أوروبا معرض القدس بين الماضي والحاضر، المعرض الذي ضم أكثر من مئة صورة تناولت تاريخ القدس منذ القرن الثامن عشر، حيث تعبر إحدى الصور عن القدس كمركز متوسط بين القارات ومهد الديانات والبقعة الأقرب إلى السماء.

كما أظهرت الصور جوانب من الحياة الاجتماعية حيث المرأة الريفية تطحن على «الجاروشة» العدس والقمح بطرق بدائية، ومن ضمنها صورة تظهر دور المرأة وهي

الأخرى ذات العلاقة وترجمة بعض الكتب الهامة التي تناولت مدينة القدس باللغات الأخرى وترجمة الكتب الصادرة باللغة العربية إلى اللغات الأخرى إضافة إلى إصدار كتاب عن أعمال المؤتمر باللغات العربية والتركية والإنكليزية. تجدر الإشارة إلى أن سورية قد احتضنت هذا المؤتمر تعبيراً عن احتفائها بالقدس عاصمة للثقافة العربية، حيث أقامت وزارة الثقافة هذه التظاهرة إلى جانب فعاليات والنشاطات الأخرى التي تنظمها في هذا المجال، وقد تضمنت فعاليات المؤتمر الذي أقيم بالتعاون مع مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باسطنبول تسع جلسات بحثية تناولت محاورها العلمية قضايا العمران والترميمات المعمارية في القدس، إضافة إلى موضوعات التعليم والمؤسسات التعليمية والثقافية فيها، وسلطت الأضواء على جوانب الحياة الاجتماعية والسكانية والاقتصادية للقدس خلال العهد العثماني. وكان الشيخ تيسير التميمي قاضي

قضاة فلسطين قد دعا خلال المؤتمر إلى أن تتبنى منظمة المؤتمر الإسلامي توصيات المؤتمر الدولي حول القدس في العهد العثماني، وأن تكون القدس عاصمة الثقافة

معرضه القادم داخل سفينة بعنوان «حول البحر المتوسط» وسيطوف بمنطقة حوض المتوسط.

ثم ألقى الدكتور صبري الريحان وزير الثقافة كلمة قال فيها: هذا المعرض تتكلم فيه اللوحة الأولى عن مكانة القدس بين حضارات العالم، والصورة الأخيرة في المعرض تظهر المشهد المأساوي لجنود الاحتلال وهم يمارسون الغطسة على أبناء الشعب الفلسطيني.

كما أشاد الوزير بالملابس وبالوفد الثقافي الذي عاد من فلسطين بعد أن شارك في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية، وأكد الوزير أن الصور تعرض عيون الفلسطينيين وهي تهزأ بجنود الاحتلال، وهو ما يدل على أن الاحتلال مرحلة عابرة والقدس دائماً كانت تحرر بعد احتلالها.

وفي القدس المحتلة افتتحت فعاليات مهرجان فلسطين الدولي للفن والثقافة بمشاركة فرق عربية وعالمية، ومن بينها فرقة الموسيقار العراقي إلهام المدفعي وفرقة نار الأناضول التركية وفرقة أستورم الألمانية.

وصرحت مديرة المهرجان إيمان الحموري «إن مشاركة مدفعي هذا العام هي الإنجاز

تحمل الجرة وتساعد زوجها في بناء الأسرة من خلال توفير المياه.

كذلك تظهر الصور المكتبات في القدس ومشهد إعدام شهداء الثلاثة الحمراء محمد مجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير. ومن العصر الحديث نرى جنود الاحتلال وهم يستعرضون قوتهم أمام المسجد الأقصى ويمارسون البلطجة ضد الشعب الفلسطيني.

وألقى فتحي أبو الطبول رئيس اتحاد المصورين العرب كلمة تناول فيها الصور ومصدرها وتاريخها وهدفها وهو توجيه رسائل إعلامية إلى الغرب عن ظروف القدس وما تمارسه سلطات الاحتلال ضد أبناء القدس والفلسطينيين.

وأضاف أبو الطبول: يهدف اتحاد المصورين العرب في برامجه إلى التوسع إعلامياً للتعريف بالثقافة والحضارة والفنون العربية من خلال التبادل الفني والثقافي وبناء التعاون المشترك ومد جسور الصداقة بين المصورين والفنانين العرب والألمان والأوروبيين بشكل عام.

وأكد أن موقع اتحاد المصورين العرب الإلكتروني قد زاره أكثر من ١٨٠ ألف زائر، وقال إن اتحاد المصورين العرب سوف يقيم

ويشارك في مهرجان هذا العام إضافة إلى مدفعي وفرقة نار الأناضول وستورم الألمانية وفرقة الفنون الشعبية، فرقة للموشحات الفلسطينية من بلدة ترشيحا، وفرقة دام الفلسطينية وهي أول فرقة راب فلسطينية، وفرقة يلالان الفلسطينية للغناء.

ومن الفرق العربية تشارك في المهرجان فرقة تشيكو والجبسيز الجزائرية للموسيقى الفجرية، وكذلك فرق الدلعونا التي تجمع موسيقيين من منطقة الشرق الأوسط ومن الغرب، وعمت الفرقة على دمج الأغاني التقليدية لمنطقة الشرق الأوسط مع مقطوعات من موسيقى الجاز.

وقد قدمت فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية في حفل الافتتاح لوحات فنية راقصة جديدة، عبرت عن تعاقب فترات الاحتلال في فلسطين منذ العهد العثماني^(١).

الأييسكو: ومشروع النهوض بالعربية:

في إطار تنفيذ مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة، انعقد بمقر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس اجتماع لجنة من الخبراء

الأكبر للمهرجان، وحضوره يسهم في ترسيخ قاعدة الحضور الفني العربي إلى الأراضي الفلسطينية.

وأوضح أن القائمين على المهرجان أطلقوا عليه اسم «مهرجان الحرية والصمود» مضيفة إن «هذا المهرجان هو وسيلة ثقافية إبداعية وحلقة وصل بين فلسطين والعالم، ومنه نساهم في كسر الحصار».

وهذه هي المرة الحادية عشرة التي ينظم فيها مركز الفن الشعبي، مهرجان فلسطين الدولي للثقافة والفنون، وكان انقطع عن إقامة المهرجان بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٥ بسبب اندلاع الانتفاضة الثانية.

وبدأت فعاليات المهرجان بعرض جديد لفرقة الفنون الشعبية الفلسطينية بحضور رسمي وشعبي كبير في ساحة واسعة في الهواء الطلق في فناء قصر الثقافة في رام الله.

وشارك أكثر من خمسين طفلاً وطفلة ارتدوا اللباس الأسود في عرض صاخب تم خلاله إيقاد شعلة المهرجان الذي يستمر أسبوعاً، وجسد الأطقال في عرضهم الصراعات التي مرت بها منطقة الشرق الأوسط، وفلسطين تحديداً، منذ بدايات التاريخ.

من أن الحديث عن هذه الظاهرة لا يخلو أحياناً من مبالغة وتهويل، لأنه لا يأخذ في الاعتبار التوسع الكبير الذي عرفته اللغة العربية منذ أوساط القرن الماضي، وما أدى إليه نشر التعليم، وتطور وسائل الإعلام من نهضة لغوية، وأكد الخبراء على أن تعليم اللغة العربية في حاجة ماسة إلى جهود كبيرة ترفع من مستواه، وتحقق جودته لتؤدي اللغة دورها في تجلية الطاقات الفكرية والإبداعية وفي الحفاظ على الهوية العربية، ودعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وتوصل المجتمعون إلى أن أسباب تدني مستوى تعليم اللغة العربية تردُّ إلى ثلاثة مسببات هي: الازدواجية اللغوية، وما يترتب عليها من مزاحمة العامية ولهجاتها العربية للغة الفصحى، مزاحمة شديدة، في الأسرة والمجتمع ووسائل الإعلام، وفي المدرسة أيضاً، وثانيها: الثنائية اللغوية التي تؤدي إلى هيمنة اللغة الأجنبية في أقطار عديدة على اللغة القومية، وثالثها: المؤسسات التربوية بكل مكوناتها من متعلم ومعلم، وأهداف وطرائق تدريس، ومناهج وتقييم وامتحانات.

وانتهى الاجتماع إلى إقرار مجموعة من التوصيات، التي تهدف إلى معالجة

والمختصين لدراسة أسباب ومسببات تدني مستوى تعليم اللغة العربية في الوطن العربي، واقتراح خطة للتعاون بين الدول العربية في مجال تبادل الخبرات التدريسية في تخصصات اللغة العربية، وكيفية الاستفادة من تجارب بعض الدول العربية في طرق تدريسها.

وقد افتتح الدكتور محمد العزيز بن عاشور المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أعمال الاجتماع بكلمة أشار فيها إلى المنزلة الرفيعة التي تحظى بها اللغة العربية في حضارتنا وتراثنا وإبداعنا، وإلى ما تتعرض له اليوم من تحديات كبيرة في مواجهة اللغات الأخرى التي تغزو مدارسنا وبيوتنا، لافتاً إلى أن الدفاع عن اللغة العربية والسعي إلى ضمان استمرار منزلتها في عالم اليوم، ما هو إلا صيانة لذاتنا، وفي الوقت نفسه مساهمة حضارية في جهود الإنسانية من أجل ضمان التسوع الثقافي، والتصدي لخطر النمطية والهيمنة الثقافية

بعد ذلك ناقش الخبراء القضايا المطروحة في هذا المجال من خلال أوراق العمل التي قدموها، حيث تبين من النقاش أن اللغة العربية الفصحى تشكو ضعفاً على مستوى المكتوب والمسموع، على الرغم

والعلوم إلى حصر ما أنجزته في مجال اللغة العربية عامة وتعليمها وتعلمها خاصة من بحوث ودراسات ومؤتمرات، وإعادة طباعتها ونشرها وتعميمها على الدول العربية عبر اللجان الوطنية.

دعوة الدول العربية إلى موافاة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتقارير مفصلة عن تجاربها وجهودها السابقة والحالية في مجال التمكين للغة العربية والنهوض بتعليمها وتعلمها.

وقد ضم فريق الخبراء الذين شاركوا في اجتماع الأليسكو وإعداد الوثائق والتوصيات المتعلقة بالنهوض بتعليم اللغة العربية مجموعة من الباحثين من: سورية وتونس وليبيا ومصر والجزائر والمغرب⁽³⁾ مكتشفات أثرية جديدة:

عُثرت شعبة تنقيب الآثار في دائرة آثار حماة على جدران وبقايا كنيسة أثرية في منطقة إلبية على بعد ٢٥ كم جنوب غرب مدينة حماة بمساحة ٣٦ متراً مربعاً تعود إلى الفترة البيزنطية القرن السادس الميلادي.

وأشار رئيس شعبة تنقيب الآثار في حماة إلى أن الكتابات الموجودة على الحجارة البازلتية للجدران بينت أنه يطلق على الكنيسة اسم كنيسة مارجورجيوس ويعود

قضية اللغة العربية في إطار العمل العربي المشترك، والتعاون بين الدول العربية، ضمن رؤية سياسية قومية شاملة، وتتمثل هذه التوصيات في الآتي:

دعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى المباشرة في تنفيذ برامج مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة، والدعوة إلى وضع سياسة لغوية قومية، وسياسات وطنية متناسقة معها، وخطط لتنفيذها من خلال برامج قومية ووطنية.

دعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى إعداد مشروع تشريع يعمم استخدام اللغة العربية في مجالات التربية والتعليم والإدارة والإعلام والإعلان وقطاعات العمل والإنتاج، كما يحدد دور اللغات الأجنبية ووظائفها.

الاستفادة من خطة العمل الوطنية التي أعدتها لجنة تمكين اللغة العربية في الجمهورية العربية السورية.

إثراء الدراسة المقدمة إلى هذا الاجتماع في ضوء المناقشات والملاحظات والإضافات التي تضمنتها الأوراق التي تقدم بها الخبراء.

دعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة

الثلاث منها بناء دائري الشكل تولوس وعلى مجموعة من الأواني الفخارية والرقم المسمازية العائدة للفترة البابلية.

كما كشفت البعثة الأثرية البريطانية العاملة في موقع تل براك الأثري الواقع على بعد ٤٠ كيلو متراً شمال شرقي مدينة الحسكة ثلاثة قبور جماعية تعود إلى ٣٦٠٠-٣٨٠٠ قبل الميلاد خلال أعمالها التقيينية للموسم الحالي.

ويحسب المعلومات التي ذكرتها دائرة آثار الحسكة فإن الدراسة الأولية للقبور الجماعية المكتشفة تشير إلى أن المدفونين فيها ماتوا في مجزرة جماعية وأن القبور الثلاثة تم الكشف عنها بالتحديد في موقع تل مجنونة الواقع في الجهة الشمالية الغربية من موقع تل براك الأثري.

يشار إلى أن أعمال التنقيب في موقع تل براك الأثري بدأت عام ١٩٧٦ بالتعرف على مقبرة احتوت على هياكل عظمية إنسانية لحوالي ١٥٠ شخصاً ومقبرة أخرى ضمت هياكل عظمية إنسانية وحيوانية إضافة إلى ٧٠٠ طبة ختم طيني ودمى طينية وأدوات حجرية وتعود هذه المكتشفات إلى النصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد.

من جانب آخر ذكر أن عدد البعثات

بناؤها إلى العهد البيزنطي الذي سبق العصر الإسلامي بفترة قصيرة لافتاً إلى أن عمليات التنقيب كشفت أن المنطقة كانت مأهولة خلال الفترة الملوكية ثم أهملت حتى أواخر الفترة العثمانية حيث سكنتها أسرة محلية.

وأضاف رئيس شعبة تنقيب الآثار أن المنطقة التي اكتشفت فيها هذه الكنيسة الأثرية غنية بالكنايس والمقامات الدينية والتاريخية حيث شكلت منطقة إبلية مع قرية دير الفراديس القريبة منها مجمعاً للاديرة والكنايس الصغيرة في المنطقة الوسطى من سورية خلال الفترة البيزنطية.

وفي محافظة الحسكة تابعت البعثة الأثرية السورية البلجيكية المشتركة خلال العام الحالي أعمال موسمها السابقة في المسح والتنقيب في موقع تل شاغر بازان الأثري الذي يقع شمال الحسكة، ويبعد عنها بحدود ٤٠ كم، حيث أوضح رئيس دائرة آثار الحسكة أن البعثة المشتركة عثرت خلال هذا العام على مجموعة أبنية مبنية من اللبن تتوضع فوق المبنى الحكومي العائد للفترة البابلية ووجد بداخل الأبنية مجموعة من القبور، كما تم التعرف على أبنية تعود إلى فترة حسونة وفترة حلف بمراحلها

الأثرية التي عملت في محافظة الحسكة خلال العام الحالي وصل إلى ست بعثات أثرية هي البعثة الأثرية الوطنية العاملة في تل مبطوح شرقي وثلاث بعثات مشتركة سورية-أوروبية ويتوقع وصول عدد البعثات مع نهاية العام إلى تسع عشرة بعثة أثرية وإنّ عدد البعثات الأثرية التي عملت في محافظة الحسكة خلال العام الماضي وصل إلى تسع عشرة بعثة أثرية منها ثلاث بعثات وطنية وثمانية بعثات مشتركة وثمانية بعثات أجنبية. (١)

مهرجان النهضة الأفريقية:

قدم أكثر من ٨٠٠٠ فنان ومثقف أفريقي وأميركي وبرازيلي في الجزائر مشاركاتهم الموسيقية والأدبية في المهرجان الثقافي الأفريقي الثاني الذي يقام بعد ٤٠ عاما على المهرجان الأول تحت شعار «النهضة الأفريقية»، وذلك بمشاركة ٥١ بلداً من الدول الأعضاء الـ ٥٢ في الاتحاد الأفريقي. وأكد زواوي بن حمادي عضو اللجنة التنفيذية لتنظيم المهرجان أن أكثر من ٨٠٠٠ فنان يمثلون الدول الأفريقية وكذلك الولايات المتحدة والبرازيل، ضيفتي المهرجان، إضافة إلى ٢٠ ألف فنان محلي شاركوا في فعاليات هذا المهرجان الثقافي

وأوضحت وزيرة الثقافة الجزائرية خالدة تومي أن الاتحاد الأفريقي يريد عبر هذا المهرجان «أن يظهر بقوة الأفكار والمخيلات...» «لنثبت للعالم أن أفريقيا في طريق النهضة»، وأضافت «نتوقع من هذا التجمع ظهور مواهب جديدة في الموسيقى والفنون، ومنتظر كذلك أن يقدم هذا المهرجان عرضا عاما للثقافة الأفريقية». ويتضمن المهرجان فقرات أدبية، حيث يوجد أكثر من ٢٠٠ كتاب لأفارقة مرموقين، وقصصا مصورة، وفنوننا بصرية، وعروضا موسيقية، إضافة إلى الرقص والمسرح والتراث.

كما تضمن البرنامج محاضرات عن الاستعمار والنضال من أجل الاستقلال وندوات عن الأدب الأفريقي.

البابطين للإبداع الشعري بالتعاون مع كلية الآداب في الجامعة.

وشهد الاحتفال الذي أقيم في مدينة بورتسودان - ميناء السودان على ساحل البحر الأحمر - حضور كبير من الدارسين والأساتذة المشاركين من جامعات الخرطوم وأم درمان الإسلامية وكسلا والبحر الأحمر ولقيف من المسؤولين في حكومة ولاية البحر الأحمر شرقي السودان.

وأشاد مدير الجامعة البروفيسور محمد الأمين في كلمة ألقاها في الاحتفال بالتعاون مع مؤسسة البابطين التي تهتم بالأدب واللغة والشعر وتستهدف الشعراء بالدورات المتقدمة لخدمة الأمة العربية معرباً عن تقديره للاهتمام الذي توليه المؤسسة العملاقة للجامعة والذي يدل على الدور الرفيع الذي تقدمه في خدمة الأمة العربية.

من جانبه ثمن منسق الدورات في مؤسسة البابطين عبد الجواد العبايدلي جهود جامعة البحر الأحمر وكذلك تعاون الجامعات العربية لنشر الثقافة والفنون لدعم مواهب الشباب المبدعين مؤكداً تواصل المؤسسة مع الراغبين في علوم العروض وتذوق الشعر العربي.

وقد أقيم المهرجان الأفريقي الأول في العام ١٩٦٩ تحت عنوان مواجهة الاستعمار، وذلك بعد انقضاء سبع سنوات على استقلال الجزائر فيما كانت بلدان أفريقية عديدة ما تزال تحت وطأة الاستعمار «ناميبيا، انغولا، غينيا بيساو». وفي الوقت الذي كانت جنوب أفريقيا تحت الحكم العنصري.

وكان المهرجان الأول قد شهد مشاركة فنانين مرموقين مثل المغنية ميريام ماكيبا «من جنوب أفريقيا» وكذلك مشاركة من حركات التحرير والحركة المناهضة للتمييز العنصري.

بدأ المهرجان رسمياً باحتفال ضخم وافق عيد استقلال الجزائر، حيث بدأت فرق شعبية فلكلورية تقديم عروضها في شوارع الجزائر العاصمة في المسارح المغلقة وفي الهواء الطلق، في كل من الجزائر العاصمة وبومردس والبليدة وتيبازا وفي مدن أخرى في شرق البلاد وغربها. (٥)

دورة مؤسسة البابطين:
احتفلت جامعة البحر الأحمر في شرق السودان بتخريج طلاب الدورة الأولى في مجالات اللغة وتذوق الشعر والعروض التي أقامتها مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود

شهور وستعقبها دورة أخرى تبدأ في شهر أكتوبر المقبل.

وتضمن برنامج الاحتفال مهرجان تحت شعار (أدب المؤانسة والاستعارة المليحة والقافية الحسنة) وشمل ملتقى للأدباء والشعراء، ومعرضاً تشكلياً للفنانين.

يذكر أن مؤسسة الباطنين أقامت في العام ٢٠٠٧ ست دورات تدريبية في جامعتي الخرطوم وأم درمان الأهلية في مجالات العروض وتذوق الشعر ومهارات اللغة العربية.

وكان الرئيس السوداني عمر البشير منح الأديب الكويتي عبد العزيز الباطنين في العام ٢٠٠٥ وسام العلم والآداب والفنون الذهبي من الدرجة الأولى تقديراً لإسهامه في دعم ورعاية المبدعين في مجالات الآداب والفنون والإبداع العربي وفي نشر الوعي وإسهاماته الواضحة في مختلف الدول العربية في هذا المجال.

كما أبرمت مؤسسة عبد العزيز سعود الباطنين للإبداع الشعري الكويتية وجائزة الرئيس السوداني عمر حسن البشير للمبدعين العرب مذكرة تفاهم بينهما تهدف إلى تشجيع تبادل المطبوعات والنشر والتوثيق والتدريب والأنشطة المشتركة. (١)

وقال العبابدي: إن مؤسسة الباطنين درجت على إقامة مثل هذه الدورات المجانية في إطار تنفيذ أهدافها الرامية لنشر العلم والثقافة والآداب العربية في مختلف البلدان العربية والإسلامية.

وأشار إلى أن الدورة سبقتها دورات مماثلة في كليات الآداب في جامعة الخرطوم وأم درمان مؤكداً أن سياسة المؤسسة هي الانتقال من مراكز الحراك الثقافي والبحث عن المهمشين من الذين يبحثون عن مثل هذه الدورات.

وأضاف إن قيمة الدورات تكمن في إحياء التراث العربي ونشره وتدعيم السيطرة على اللسان العربي الموزون والمقفى والابتعاد عما غير ذلك وربط هذا الجيل بتراثه الأصيل.

وقال: إن مؤسسة الباطنين أقامت ٢٢٥ دورة تدريبية في الوطن العربي في علم العروض وتذوق الشعر بالتعاون مع الجامعات العربية والإسلامية وبلغ عدد الخريجين أكثر من ١٨ ألف خريج.

من ناحيتها قالت منسقة الدورة الدكتورة هناء أبو زينب: إن الدارسين استفادوا من الدورة في مجال مهارات اللغة وتذوق الشعر وفنونها.

وأضافت: إن الدورة استمرت ثلاثة

صفحات من النشاط الثقافي

السيد أمين شلبي ومحمد عفيفي أستاذ التاريخ بجامعة القاهرة.

هذا وقد أثار الإعلان عن أسماء الفائزين بجائزة مبارك، كثيراً من الجدل المتصاعد حول القيمة الأدبية للجائزة وليس المادية، وعمّا إذا كانت تمنح حقاً للمخلصين للإبداع وحده وليس لأصحاب هامش الخطاب الحكومي الرسمي.

ولاحظ المتابعون أن اللجنة التي ترأسها وزير الثقافة المصري فاروق حسني أهملت ترشيحات الجهات الأهلية والجمعيات العلمية واعتمدت على حساباتها الحكومية في منح الجائزة إلى الأصوات العالية المسكونة بخرافة «أم الدنيا» والمسوقة لخطاب حكومي لا يتسق مع صوت الشعب المصري الذي يعيش تحت طائلة الفقر والتهميش.

يذكر أن لجنة التحكيم اشترطت على المرشحين التعهد بقبول الجائزة كما هي وعدم رفضها بعد الإعلان عنها، تلافياً لعدم تكرار رفضها على غرار ما فعله الروائي المصري صنع الله إبراهيم في دورة سابقة.

وكان إبراهيم الفائز بالجائزة آنذاك صعد إلى المنبر وصافح وزير الثقافة

جائزة مبارك: المحكمون فائزون!:

فاز الروائي المصري بهاء طاهر بجائزة مبارك في الآداب وهي أرفع الجوائز في البلاد وفاز بالجائزة نفسها كل من التشكيلي محمد طه حسين في الفنون وأستاذ الآثار علي رضوان في العلوم الاجتماعية.

أما جائزة الدولة التقديرية فقد فاز بها في الآداب كل من الناقد جابر عصفور مدير المركز القومي للترجمة والكاتب يوسف القعيد والناقد أحمد درويش.

وفاز بالجائزة نفسها في الفنون كل من كاتب السيناريو وحيد حامد والموسيقي جمال سلامة والمخرج المسرحي هاني مطاوع. وفي مجال العلوم الاجتماعية ذهبت الجائزة نفسها إلى كل من الكاتبة نعمات أحمد فؤاد والمترجم قاسم عبده قاسم أستاذ تاريخ العصر الوسيط والكاتب سيد القمني وأستاذ الفلسفة حسن حنفي.

أما جائزة التفوق فقد فاز بها في الآداب كل من الروائي الراحل يوسف أبو رية ورجاء ياقوت أستاذة اللغة الفرنسية بجامعة الأزهر وفي الفنون ذهبت الجائزة إلى كل من نقيب الممثلين أشرف زكي والمخرج المسرحي عبد الرحمن الشافعي وفي العلوم الاجتماعية فاز بالجائزة كل من مسعد عويس والسفير

العالم، هذا هو الحلم الوحيد والحقيقي لأي كاتب وقد حققته».

واعتبرت لجنة التحكيم لجائزة أمير استورياس أن «إسماعيل قدرى الكاتب والشاعر هو من أكبر الشخصيات الأدبية الألبانية وقد عبر الحدود ليتحول إلى صوت عالمي ضد التوتاليتارية»، ويعتبر قدرى من أهم الكتاب والمثقفين الأوروبيين في القرن العشرين وقد ترجمت أعماله إلى أكثر من ٤٠ لغة.

ولاقى كتابه الأول «الجنرال في الجيش الميت» (١٩٦٣) نجاحاً كبيراً في فرنسا. وفي ١٩٩٠ انتقل للإقامة في المنفى في باريس، أما كتابه «قصر الأحلام» (١٩٨٨) فيتمحور على موضوعه المفضل وهو التوتاليتارية وآلياتها والتواطؤ الذي يجعلها ممكنة.

ولد قدرى عام ١٩٣٦ في ألبانيا وعرف الحرب العالمية الثانية خلال طفولته كما أنه عرف احتلال إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية لبلاده وكذلك الاتحاد السوفيتي حتى قيام نظام الديكتاتور أنور خوجا.

يذكر أن جائزة أمير استورياس للآداب تمنح سنوياً منذ العام ١٩٨١ إلى شخص «يشكل عمله الإبداعي أو البحثي مساهمة مهمة في الثقافة العالمية في مجال الأدب

فاروق حسني والأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة جابر عصفور، وانتظر حتى انتهى الحضور من التصفيق ثم أطلق قبيلته: أخرج ورقة بدا واضحاً أنه كتبها سلفاً، وأعلن رفضه تسلم الجائزة وقيمتها المالية مئة ألف جنيه مصري لأنه يرفض تسلم الجائزة من «السلطة التي تعمل على قمع الشعب المصري وترهن سياستها الخارجية بإسرائيل وتقبل بوجود السفير الإسرائيلي رغم كل الممارسات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني من قمع وسفك للدماء».^(٧)

قدرى يفوز بجائزة استورياس:

اعتبر الكاتب الألباني إسماعيل قدرى أن فوزه بجائزة أمير استورياس للآداب «شرف عظيم» له بعدما أعلنت لجنة التحكيم في إحدى أعرق الجوائز الإسبانية منحه الجائزة للعام ٢٠٠٩ وأوضح قدرى: أن هذه الجائزة شرف عظيم لكل كاتب، وأنا فعلاً متأثر خصوصاً وأني كنت مرشحاً إلى جانب شخصيات أقدرها كثيراً، وقال: نقد عملت وترعرعت في بلد ستاليني توتاليتاري ولم أقل يوماً أنني منشق لكني حاولت دائماً أن أنتج أدباً طبيعياً في بلد غير طبيعي مثل ألبانيا، وأضاف «أنا اعتز خصوصاً بأن أعمالها تابعها آلاف القراء في كل أرجاء

صفحات من النشاط الثقافي

المهددة مدينة باكو المحصنة في أذربيجان، بعدما كانت أدرجت في العام ٢٠٠٣. وأدرجت اللجنة شبكة محميات الشعب المرجانية في بيليز ومنتزه لوس كاتوس الوطني في كولومبيا فضلاً عن المعالم التاريخية في ميتشيتا في جورجيا فأدرجت على لائحة المعالم التراثية المهددة، وأضافت إلى اللائحة التي تضم ١٤٥ بلداً، ثلاث دول جديدة هي بوركينا فاسو والرأس الأخضر وقرغيزستان.

وتضم لائحة التراث العالمي المواقع الجديدة التالية: بحر فادين (ألمانيا وهولندا)، جبال دولوميت في إيطاليا، منتزه الشعب المرجانية الطبيعي في توياتاها وهو امتداد لمنتزه شعب توياتاها المرجاني البحري في الفيليبين، قصر سكوكليت (بلجيكا)، آثار لوروييني (بوركينا فاسو)، برج هركلوس وهي منارة تعود إلى الإمبراطورية الرومانية في غاليثيا في إسبانيا، الملاحة الكبيرة في سالان لي بان وصولاً إلى الملاحة الملكية في ارك اي سينان، فضلاً عن إنتاج الملح المكرر (وهذا المعلم امتداد لملاحة ارك اي سينان الملكية في فرنسا)، سيدادي فيها وهو مركز زيبيرا غراندي التاريخي في الرأس الأخضر، النظام الهيدروليكي التاريخي

أو اللغة، ومؤسسة أمير استورياس التي يرعاها ولي العهد الإسباني الأمير فيليبي تمنح سنويا ثماني جوائز في مجالات الاتصال والعلوم الإنسانية، والعلوم الاجتماعية والفن والآداب والتعاون الدولي والانسجام والرياضة. (٨)

مواقع جديدة على لائحة التراث العالمي:

أدرجت منظمة اليونسكو على لائحتها للتراث العالمي ستة عشر موقعاً جديداً من بينها ثلاثة مواقع كانت مدرجة أصلاً وتم توسيعها لتتضم إلى حوالي تسعمئة موقع تم إحصاؤها إلى اليوم خلال الدورة السنوية للجنة التراث العالمي التي انطلقت في إشبيلية (جنوب إسبانيا).

وتميزت مشاورات اللجنة التي تولت دراسة سبعة وعشرين ترشيحاً، باستبعاد وادي ألبي في دريسدن في ألمانيا الذي كان أدرج منذ العام ٢٠٠٤ على لائحة التراث العالمي، بسبب مشروع بناء جسر في وسط المدينة، ورفضت ترشيحات أخرى من بينها: أعمال الفرنسي من أصول سويسرية لو كوربوزيه الهندسية والمدنية، فضلاً عن منطقتي كوس وسيفين في فرنسا، وسحبت اللجنة في المقابل من لائحة المعالم التراثية

صفحات من النشاط الثقافي

للبرنامج المقترح وتنوع جوانبه إضافة إلى الاستراتيجية العامة التي يستند إليها هذا البرنامج»، وأثت هيئة التحكيم على وجود مدينتين في أفريقيا هما لاغوس بنيجيريا وبورتو... نوفو في بنين من بين المدن السبعة المرشحة وأعربت عن أملها في أن يتم تعزيز الآداب والكتاب في هذه المنطقة، وتعكس هذه المبادرة أوجه التعاون فيما بين ممثلي الجهات المعنية بالكتاب كما أنها تمثل التزام مختلف المدن فيما يتعلق بتعزيز الكتاب والقراءة.

ويشار إلى أن اليونسكو تقوم كل سنة بتحديد العاصمة العالمية للكتاب لفترة عام تفصل بين الاحتفالين الخاصين باليوم العالمي للكتاب وحقوق المؤلف وذلك بمشاركة الرابطة المهنية الدولية الرئيسية الثلاث المعنية بعالم الكتاب وهي رابطة الناشرين الدولية والاتحاد الدولي لباعة الكتب والاتحاد الدولي لرابطة المكتبات وأمناء المكتبات. (١٠)

في شوشتر في إيران ماضياً وحاضراً وهو كناية عن جسور وسدود وقنوات ومبان وطواحين، مدينة كارال سوبي المقدسة في البيرو، ليفوتشا وأعمال المعلم بول في سيبس في سلوفاكيا وهي امتداد لسبيسكي هراد والمعالم الثقافية المرتبطة بها، الجسر-القناة وقناة بونتيسيلت في بريطانيا، المقابر الملكية لسلالة جوسيون في الجمهورية الكورية، جبل سليمان تو المقدس في قرغيزستان، مدينتا لاشو دو فون ولوكل في سويسرا حيث الهندسة المعمارية تجاري صناعة الساعات، جبل ووتاي في الصين، وهو جبل مقدس في البوذية. (٩)

بيونس أيريس عاصمة عالمية للكتاب:

وقع اختيار الأمم المتحدة على العاصمة الأرجنتينية بونس أيريس لتكون عاصمة عالمية للكتاب لعام ٢٠١١ خلال اجتماعها في مقر المنظمة في ١٢ حزيران الحالي أن الاختيار تم في ختام اجتماع لجنة الاختيار المؤلفة من ممثلين عن الرابطة المهنية الدولية الرئيسية المعنية بعالم الكتاب وعن اليونسكو.

وقالت الأمم المتحدة إن «اللجنة اختارت مدينة بونس أيريس نظراً للمستوى الرفيع

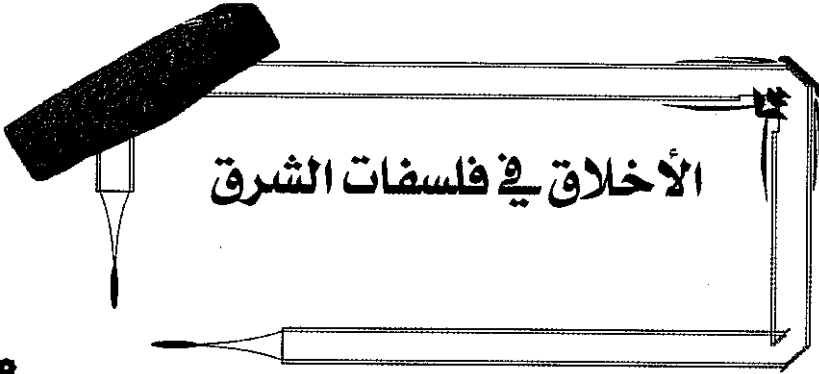
إحداثيات

- ١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا»
WWW.SANA.ORG.
- ٢- موقع نسيج
WWW.NASEEJ.COM
- ٣- وكالة الأنباء التونسية
WWW.AKHBAR.TN.
- ٤- موقع العرب أونلاين
WWW.ARABONLINE.CO
- ٥- وكالة الأنباء الجزائرية
WWW.APS.DZ .
- ٦- وكالة الأنباء الكويتية «كونا»
WWW.KUNA.NET.
- ٧- موقع البوابة
WWW.ALBAWABA.COM.
- ٨- موقع القناة
WWW.ALQANAT.COM
- ٩- وكالة رويترز
WWW.REUTERS.COM.
- ١٠- موقع ميدل ايست أونلاين
WWW.MIDDLE-EASTONLINE.CO





كتاب الشرق



الأخلاق في فلسفات الشرق

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن

إشكالية التعالق في النص الفلسفي بين الشرق والغرب، تكمن في الصراع التاريخي بين المعطى الحضاري للفكر الشرقي القديم منذ بدء التكوين للمجتمعات البشرية وحتى بداية الحضارة الإغريقية مع فسحة شرقية كمنت في الفلسفة أو الحضارة العربية الإسلامية، وبين الفلسفة أو الحضارة الأوروبية بما هي معطى حضاري حديث ومعاصر.

في جدل العلاقة بين هذين الركنين برز إلى السطح ما سمي بالمركزية الأوروبية كما هي المركزية الشرقية. تلك التي قدمت نفسها على أنها

* باحث سوري.



هو صراع بين الغريزة والعقل في الضابط الأخلاقي. ويحصر دراسته الأخلاقية في حضارات الشرق القديم والوسيط من الحضارة المصرية ووادي الرافدين والصين وبلاد فارس والهند. ودور هذه الحضارات في تكوين الحضارة اليونانية. منطلقاً من اعتراف اليونان بما سبقهم من الحضارات، وهو ما لا يعترف به أسلافهم.

وينطلق المؤلف في فهمه للنظرية الأخلاقية من جدل العلاقة بين الفكر والممارسة. فالنظرية الأخلاقية ليست مجرد رؤية معرفية مجردة، وهي رؤية عملية يمارسها الإنسان في حياته. وهو لم يبلغ التداخل بين الفهم الديني والفلسفي للأخلاق فهي سمة متداخلة في حضارات الشرق القديم. «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقد تنوعت النظريات الأخلاقية بتنوع المجتمعات وقيمها وموروثها المعرفي ودخلت مجال النسبية. وهي في المطلق النسبي «الحقيقة قبل جبال البيرينه خطأ ما بعدها». فلكل مجتمع نظمه الأخلاقية وقوانينه التي يعمل من خلالها.

ثم يدخل المؤلف في البحث عن تحديد معرفي لمفاهيم أخلاقية مثل: الفضيلة العدالة، القانون، الخير.. وكل القيم المعيارية، باعتبارها ذات أس أخلاقي في

البداية، وما قبلها لا يليق بها على الإطلاق. فقد طرحت المركزية الأوروبية منذ نشوئها في الحضارة الأوروبية الحديثة مع مطلع القرن الرابع عشر، أن لا فلسفة قبل اليونان. وبالتالي، فإن أهمية الحديث عن ذلك يحوز في حده الأقصى اعترافاً أولياً لفكر شرقي في بواكيره الأولى.

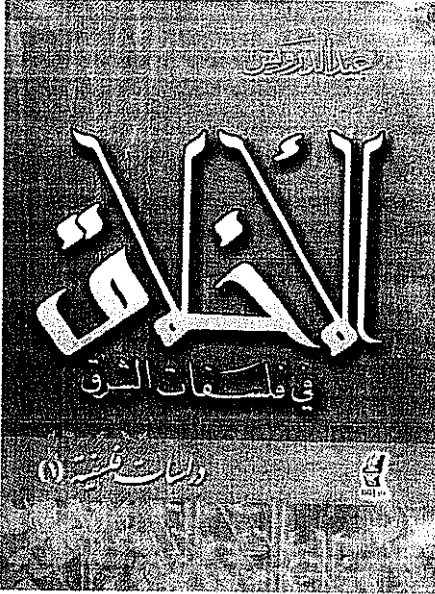
مثل هذا الطرح وإن لم يثبت مع الزمن حتى في نصوص مردييه، إلا أنه ما زال ساري المفعول في الفكر الفلسفي.

وهذا الكتاب «الأخلاق في فلسفات الشرق» لمؤلفه الباحث «عيد الدرويش» والصادر عن «دار إنانا» بدمشق لعام ٢٠٠٩/ . يقدم وجهة نظره حيال هذه القضية. هل يوجد فلسفة شرقية قبل اليونان؟ ويحاول الإجابة من خلال بحث على غاية من الأهمية الفلسفية، ألا وهو مبحث «فلسفة الأخلاق». يقع الكتاب في ١٦٠/ صفحة من القطع الكبير. تقدم عرضاً له، بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.



مقدمة الكتاب

ينطلق المؤلف من مقولة «أن الأخلاق هي أس الحضارة»، وأن تاريخ الشعوب



لابن منظور: الخلق الطبع والسجية. وفي الحديث النبوي الشريف (من أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق).

ويذكر مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق فيقول: الأخلاق عند القدماء ملكة تصدر بها الأفعال عن النفس من غير روية وفكر وتكلف. وتكلم الفلاسفة عن طبيعة الوجدان والضمير وطبيعة الخير والمحبة والواجب على الإنسان. ويرى البعض أن الأخلاق غريزية وفيها يقول الغزالي: (فلان حسن الخلق، والخلق أي حسن الظاهر والباطن، فالخلق عبارة عن هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير فكر ولا روية).

الأصل منتهياً إلى عرض أخلاقي لعدد من النظريات الأخلاقية في الشرق. مع تحديدات لمفاهيم أولية.

نشأة الأخلاق

منذ وجد الإنسان، بدأ يتلمس ما حوله، ويصوغ مصطلحاته وتعابيرها. فالأخلاق ليست علماً، ولكنها موضوع للعلم، يطلق عليه (علم الظواهر الأخلاقية). وهي من العلوم التي تتعلق بالكليات كما الجزئيات. والتقدم الخلقى للشعوب والأمم والحضارات يتمثل في تحسين التشريع الخلقى والقيم والمثل وتوسيع الدائرة التي يطبق فيها. إن الغاية التي ينشدها التشريع الأخلاقي أن يوائم نزوات الطبيعة البشرية التي لم تتغير، مع حاجات الحياة الاجتماعية وظروفها المتغيرة. وساد في تاريخ المجتمعات طابع الخيال للمسائل الأخلاقية الممزوج بالأساطير، فكانت النفس الإنسانية موضع الاهتمام دائماً.

تعريف الأخلاق

تبين لنا، أن الأخلاق هي نسبية العلاقات بين الفرد وأقرانه. والتفاضل بينهما هي تلك الفضيلة التي يجب أن تسود بينهما. وفي قواميس اللغة العربية نجد أن مفردة الأخلاق هي (الخلق) وفي القرآن الكريم (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ). وفي لسان العرب

الأخلاق في فلسفات الشرق

الأمور نسبياً. فقد صاغ مجموعة من المبادئ والمعايير لبلوغ السعادة والخير الأسمى لحياة الإنسان. وهي تعاليم تدعو إلى المحبة والتسامح.

وتجنح نحو السلوك العملي في حياة الإنسان. وقد ابتعد بتعاليمه عن المسائل الدينية والصفات الإلهوية، نحو إخضاع النفس لمجموعة من المعايير، والسيطرة على الرغبات والميول والشهوات، والتي يصل بها البوذي إلى تطهير النفس بما سمي (النيرفانا). ومن جملة تعاليمه السلوكية وصاياها العشر وهي، لا تقتل. لا تأخذ مالا إلا تستحقه. لا تزن. لا تكذب. لا تشرب المسكر. كل بشكل معتدل. لا تسمع غناء ورقصاً. لا تلبس حلياً ولا تتعطر. لا تتم في فراش باذخ. لا تقبل ذهباً ولا فضة.

إلى جانب ذلك. ظهر ما سمي بـ (الجانية) وهي دعوة أخلاقية وفلسفية تقوم على الدعوة للخير، والألم سمة الكائن الحي، وتدعو إلى الفضيلة والبحث عن السعادة وهم لا يؤمنون بالإله.

الأخلاق عند فلاسفة الصين

تعتبر الكونفوشية مرحلة مهمة من مراحل التفكير الفلسفي والأخلاقي عند الصينيين. وهو فيلسوف ينطلق من رؤية كونية. مقدماً مدينته الفاضلة. يتميز بنزعة

وفي الجبر والحتمية يبرز لنا القول القرآني: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا).

الأخلاق في الفلسفة الهندية

شهدت الهند مجموعة من النظم المعرفية المتماهية بين الأسطورة والدين والفلسفة. وتجلت في عدد من التيارات الفكرية ذات الصبغة الأخلاقية التعليمية. وتعتبر الهندوسية (البراهمية) إحداهما، وهي نظرية أخلاقية وفلسفية تقوم على التراتبية الطباقية في المجتمع الهندي.

فالإنسان خلق من الإله (براهما) وفق قوانين (مانو). وقد خلد نظام الطبقات بين طبقة البراهمة وهي الطبقة العليا. وطبقة (الكاشتر) وهي طبقة المحاربين. وطبقة (الويش) وهي طبقة الزراع والتجار. وطبقة (الشودر) وهي طبقة المنبوذين. وللعمل وفق نظام الطبقات لا بد من وجود نظام أخلاقي متحكم في ذلك ويمنع هذه الطبقات من التداخل. وعلى كل طبقة أن تخدم الأخرى من الأدنى إلى الأعلى. وعلى الرغم من تعارض التقسيم الطبقي مع كرامة الإنسان إلا أن العمل ما زال جارياً بها حتى هذا الوقت، مع بعض التعديلات التي لا تمس الجوهر.

أما في فلسفة (بوذا) فقد اختلفت

واعتمدت هذه الفلسفة الأخلاقية على أن الحياة صراع دائم بين الخير والشر. ذلك يعني أن الحياة مجاهدة. والإنسان جزء من الكون. وبالتالي على الإنسان أن يجاهد في سبيل سعادة تلك النفس، وكان قانونهم الأخلاقي (الطبيعة لا تكون خيرة إلا إذا منعت صاحبها أن يفعل بغيره ما ليس خيراً هو نفسه). أعظم فضائلهم: التقوى ثم الشرف والأمانة بالنظرية والممارسة. لقد ساد في بلاد فارس مجموعة من السجاياء الأخلاقية اتسمت بالود والتسامح والكرم والصراحة. كما هو الترتيب والاحترام في صفوف المجتمع. كما جعلوا (الضمير الخلقى مقياس الثواب والعقاب).

من قلب الزرادشتية ظهرت مذاهب أخرى أقل أهمية وأكثر رغبة في التغيير متأثرة بالمحيط الخارجي كما هي في المزدكية والمانوية.

فلسفة الأخلاق في الشرق العربي

القديم

التوغل في تاريخ الحضارات القديمة يضيف أشياء كثيرة ولا سيما في مجال دراسة الأخلاق. ففي بلاد سومر كان الطقس التعبدية والنظام الأخلاقي وليد تلك العصور. فكانوا من دعاة التثليث في مفردات الحكم والأمثال التي دونوها. فقد

أخلاقية واقعية تتوجه إلى إصلاح الفرد والأسرة والجماعة، لذلك يقول: الفضيلة لا توجد إلا بوجود من يطبقها. وكان محور عمله هو الإنسان في علاقته بالكون، لا العكس. والنظام الأخلاقي لدى كونفوشيوس يعمل على الوسطية والاعتدال. تحترم مبادئ كونفوشيوس العادات والتقاليد الموروثة. وشدد على أن تسود الأخلاق والفضيلة بين أفراد المجتمع، وغرس الأخلاق الطيبة.

أما (لاو-تسو) فقد أنشأ ما سمي بالفلسفة (التاوية). والتاوية تعني الطريق أو المنهج في الحياة، وتطلق من أن ثمة شيء لا صورة له إلا أنه كامل، قائم قبل أن توجد السموات والأرض. لا صوت لها ولا جوهر. موجود لا يتغير، يتخلل كل شيء. إنه منشأ جميع ما في الكون، لا نعرف اسمه لكن نصلح عليه بكلمة (تاو). والتاوية تعشق الصفات المتعلقة بالطبيعة لا المجتمع. وهي تحاول الخروج من حالة الصراع والتنافس التي تسود البشرية للوصول إلى حالة العدالة. فالإنسان مسير لا مخير. إن الفلسفة التاوية تستمد طريقها من الطبيعة، معتمدة على معرفة الإنسان وحواسه بوجود الأشياء.

الأخلاق في بلاد فارس

في بلاد فارس سادت تعاليم الزرادشتية نسبة إلى مؤسسها زرادشت وكتابه (الأفستا).

الأخلاق في فلسفات الشرق

العربي الإسلامي من الديانة الإسلامية المتجلية في الكتاب وسنة نبيه. ذلك لأن الكتاب والسنة هي كلها مبادئ ومعايير أخلاق. فقد حدد القرآن رسالة الإنسان بين عبادة الله، وبين خلافته في الأرض (فالعبادة علاقة بين الإنسان والله) ويبين العفة أحكامها وتفصيلها. فالقيم الإسلامية تحض على الفضيلة والعمل بالخير ونبت الشر. كما عرفت النفس الإنسانية معنى الخير (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا). والإسلام هو الأحكام والمعايير الناظمة للسلوك الأخلاقي. والفعل الأخلاقي لا يقتصر على الفرد، بل في جدل العلاقة مع الآخر.

لقد أكد الإسلام على العلاقات بين الناس خاصة الجوار حيث تبدأ الفضلية بين الناس من تلك العلاقة التي يجب أن تسود بين الجيران. وإن الخلل في هذه العلاقة يشكل خللاً اجتماعياً، وهذا ما ينهى عنه الإسلام.

الأخلاق عند الفلاسفة المسلمين

يتميز علم الأخلاق عند الفلاسفة المسلمين باعتماده على النص الديني (القرآن) والسنة الشريفة. وما نتج عنهما من نظم أخلاقية. وسنحاول في هذا العرض الوقوف على شخصية هامة، نعت حياتها

طوروا نظمهم الأخلاقية في التعامل مع الآخر، ومع الآلهة والابتعاد عن الشرور. ولدى البابليين. فقد قدموا أول رسالة قانونية في تاريخ البشرية. وكانوا من دعاة التوحيد وفكرة الإله الواحد، وارتبط قانونهم السياسي بفكرة العدالة. فالارتقاء بالقانون لدى حمورابي يقيم العدل بين الناس.

أما لدى المصريين القدماء فكان فكرهم من المزج في شيء: أسطورة وديناً وفلسفة. وكذا بين الأساطير والسير الشعبية. كما امتزج التعليم الأخلاقي مع الرسم الديني. فقد كان للفكر الأخلاقي المصري من القوة ما دفع الملوك إلى التشبه بالآلهة، بل هم الآلهة. وكانوا دعاة توحيد. ولخلود النفس لديهم قيمة كبيرة. فالذات في الأرض هي الذات الكونية على الأقل في طبقة الحكام.

الأخلاق في الفلسفة العربية

الإسلامية

عاش العرب في شبه الجزيرة العربية في مزج معرفي تخالط بين الطقوس الدينية والديانات الإنسانية والسموية، وأصناف العبادات الأخرى. كل ذلك ضمن قلة من الفضائل والمثل العليا المتلازمة مع ذلك والمتعايشة مع الحياة اليومية لإنسان تلك المنطقة.

نشأت النظرية الأخلاقية في الفكر

وفي كل المجتمعات هناك معايير أخلاقية، أخذت تعابير ومصطلحات من مثل: الفضيلة والواجب والخير والمنفعة. يتجسد كل ذلك في سلوكية إنسانية فردية وجمعية في آن. وفي ذلك يقول (كانط): إن الدين الوحيد الحقيقي لا ينطوي إلا على نواميس، أي مبادئ عملية ذات ضرورة مطلقة، ضرورة نستطيع أن نعيها فنعترف، بأنها من وحي العقل المحض. وللايديولوجيا كذلك منظومتها الأخلاقية. وهي أخلاق دنيوية ترتبط بالثواب والعقاب الدنيوي.

إصدارات

- الفكر الحي: ضمن إصداراته الحوارية، صدر للباحث محفوظ أيوب كتاب تحت عنوان «الفكر الحي». الكتاب من إصدار دار الينابيع بدمشق لعام /٢٠٠٩/ ويقع في /٤١٢/ صفحة من القطع الوسط. وهو كتاب يضم بين دفتيه جواهر الفكر الإنساني وتياراته الفلسفية والدينية، في جميع المجالات الحياتية.

- مظاهر الدراما الشعائرية: صدر عن دار الفكر بدمشق كتاب تحت عنوان: مظاهر الدراما الشعائرية، لمؤلفه الباحث «منير الحافظ». يتمحور الكتاب على أهمية

في البحث الأخلاقي المرتبط بالفلسفة العامة والنص الديني.

يعتبر ابن مسكويه من أهم الباحثين في مجال علم الأخلاق. له كتابه الشهير (تهذيب الأخلاق) بحث فيه أخلاق اليونان في مجموعها، وقسم قوى النفس إلى طبقات ثلاث هي: القوة المفكرة والقوة الغضبية والقوة الشهوية. وبالتالي يجب أن يكون عدد الفضائل بحسب أعداد هذه القوى. كما اعتبر ابن مسكويه الحكمة هي الوسط بين السفه والبله. وهي نظرية أرسطية في الأصل.

ويعتبر ابن مسكويه إن للفضائل الأربعة مبادئ: الحكمة هي فضيلة النفس الناطقة. والشجاعة فضيلة النفس الغضبية. والعدالة فضيلة النفس العاقلة.

ويرى أن هذه الفضائل موجودة لدى كل الناس. لكن ما يباين ذلك هو قوة هذه الفضائل لدى الفرد وبالتالي فإن الحكم الأخلاقي يتم عن تعادلية بين الأطراف.

الأخلاق بين الدين والأيديولوجيا

تعتبر الأخلاق الناظم الوسطي بين الدين والأيديولوجيا. وخاصة باعتبار الغاية النهائية في الفكر الديني أم الأيديولوجي. فللدين منظومته المعرفية وهدفه، وكذلك للأيديولوجية منظومتها المعرفية وغايتها.

- مدخل إلى علم جمال وعلم نفس
السينما: كتاب صدر عن المؤسسة العامة
للسينما ضمن سلسلة الفن السابع حاملاً
الرقم /١٦٩/. الكتاب من تأليف «جان
مترى» وترجمة السيد «عبد الله عويشق».
- الرحيل: صدر للأديب الجزائري
الطاهر بن جلون رواية مكتوبة باللغة
الفرنسية تحت عنوان «الرحيل». قام
بترجمتها إلى العربية الأستاذ «محمد
عبد الكريم إبراهيم». وصدرت عن دار
علاء الدين بدمشق. ومن إصدارات عام
./٢٠٠٩/.

الفن الدرامي رغم بدائيته والذي من خلاله
نؤسس لمشاهد طقسية دينية وفلسفية
مختلفة الأشكال. يقع الكتاب في /٢٤٩/
صفحة من القطع الكبير.

- هاربة من الزمن: مجموعة شعرية
صدرت حديثاً للأديبة الإسبانية «إميليا
كوزأس». وهي مكتوبة باللغتين العربية
المترجمة إليها والإسبانية اللغة الأم. قدم
للمجموعة الناقد «مالك نجار» وفيه يقول:
مجموعة من الأحلام المرسله بلغة الكتابة،
متجاوزة الكلمة والصورة الفنية مع الطبيعة
الحقيقية للشعر.



جواهر الموسيقى

رئيس التحرير

من يتابع دراسة عالم الموسيقى الرحب، يدرك جيداً أن بين الموسيقى والأدب وسائر الفنون روابط وثيقة، فقد تأثرت عبر مسيرتها الأزلية بالشعر وفن العمارة والنحت والتصوير والرقص والتمثيل والفنون الآلية، إلى جانب تأثيرها في هذه الفنون، كما أنها كانت موضع اهتمام الفلسفة والدين والعلوم الأخرى..

حتى ندرك خصائص فن الموسيقى الجوهريّة، لا بد من إرجاع صلتها الحقيقية بالعالم الطبيعي والروحي، لنصل إلى صلتها بالحضارة والفنون الرفيعة والأحوال الاجتماعية ونظم المجتمع في العصور المختلفة، وما زال - حتى اليوم - لبعض المصطلحات معان خاصة في تاريخ الموسيقى، فنقول: موسيقى رومانسية، وموسيقى عصر «النهضة»، وموسيقى عصر «الباروك» وموسيقى عصر «الروكوكو» وموسيقى «رومانتيكية» و«تعبيرية» وعلى سبيل المثال: لا يمكن فهم الموسيقى «الرومانتيكية» التي ظهرت في أوروبا في بداية القرن التاسع عشر فهماً صحيحاً دون دراية بالحركة «الرومانتيكية» التي حدثت في الشعر والدراما والقصة في السنوات (١٨٣٠-١٨٦٠م). ولشومان وشوبان وبرليوز وليست وفاجنر، نظراء في الأدب هم: هايني وفيكتور هوجو وشيلي وألفريد دي موسيه وجورج صائد ويرون وغيرهم..

الحركة الرومانتيكية في الأدب والفن كانت من أهم المظاهر التي تميز بها القرن التاسع عشر، وفي الموسيقى، كانت هذه الحركة قوية فعالة إلى أبعد حد، إذ عادت بنتائج مثمرة جديدة وذات أثر، حتى إنه يتعذر فهم الموسيقى الأكثر حداثة فهماً صحيحاً، إذا لم تعرف الجوانب المختلفة التي يتكون منها أي عمل فني «رومانتيكي» وكلمة «رومانتيكية» انحدرت من كلمة «رومانس» بكلا معنييها، أي بمعنى حكاية، وبمعنى لغة، ويوجه عام تطلق كلمة «رومانتيكي» على الدقائق الخرافية والوفيرة التي تميزت بها «رومانسيات» أدب العصور الوسطى، أي الأشعار الفرنسية والإيطالية والإسبانية، التي شاعت حوالي سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٥٠٠م، وتأثر بها الأدبان الإنكليزي والألماني تأثراً عظيماً.

العناية بالفولكلور وبالأغنية الشعبية، من السمات البارزة للرومانتيكية وإذا رجعنا إلى الموسيقيين «فيبر» و«مندلسون» و«شومان» و«برامز» نرى أن الأغنية قد أصبحت ذات أهمية كبيرة، إذ أصبحت في النرويج وبوهيميا والمجر وبولندا وروسيا، ضرورة بوصفها أساساً للفن القومي الجديد الذي يعد نتيجة للحركة

الرومانتيكية العظيمة التي سادت أوروبا كلها، ويكفي أن نذكر أسماء مثل «شوبان» و«جلنكا» و«ريمسكي كورسا كوف» و«موسورسكي» و«سميتانا» كي ندرك إلى أي حد بلغت الأغنية الشعبية في القرن التاسع عشر، وإلى أي حد امتد أثرها.

في موسيقانا العربية، كانت، وما زالت، الأغنية الشعبية أكثر ألوان الغناء التصاقاً بالناس، وخاصة تلك التي لها جذورها القديمة، ولكن العناية بها لم تكن على مستوى الأهمية المطلوبة، وتُركت عرضة للتشويه والاقْتباس المسوخ البعيد عن الأصالة، مع الإشارة إلى أن هناك تجارب ناجحة قام بها: أبو بكر خيرت، وحليم الضبع، ورفعت حرانه، وصلحي الوادي، وعطية شرارة وجمال سلامة، وجمال عبد الرحيم ويليغ حمدي، في معالجة صياغات آلية جديدة لبعض أغنيات وألحان الأغاني الشعبية العربية، ولا أدري لماذا توقفت هذه التجارب المهمة التي لو استمرت بشكل علمي مدروس - كما فعل الموسيقار الخالد سيد درويش - الذي كان لأعماله الخالدة تأثير كبير على موسيقانا، وفعلها التاريخي في تعبيد الطريق أمام أنماط جديدة نابغة من خيال موسيقي خصب، وحس مرهف بمعاني الكلمات ونبض إيقاعها وانعكاساتها على المسار اللحني، ونابغة من التجاوب الصادق مع الأحداث الوطنية والاجتماعية..



اللوحة: إلفة - الفنان: شفيق اشتي - (السويداء - ١٩٥٨)



تمثل هذه اللوحة، الملامح العامة لتجربة الفنان التشكيلي السوري (شفيق اشتي) الذي درس الفن في دمشق والاتحاد السوفياتي السابق، ويقوم بتدريسه حالياً، في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق. يشتغل الفنان (اشتي) على الصيغة الواقعية المختزلة، وعلى الجمع بين الهيئة المشخصة ومفردات بصرية جلها مستوحى من العمارة القديمة والآثار الدارسة.

تقوم عمارة اللوحة لديه، على اللمسة اللونية الموضوعية بانفعال وحيوية فوق سطحها، وعلى تعاضد الخط (الرسم) معها. تسيطر على ألوانه بشكل عام، مساحة من القتامة والكمود، فهي لاتخرج من الأسود والزيتي الغامق والبني والكحلي، ولتحريك هذا الكمود فيها، يضيف إليها لمسات من الأبيض والأصفر والزهري.

تتحرك لوحة الفنان (اشتي) بين قطبي التشخيص والتجريد، وبين الاختزال الشديد والتشخيص الواهي الذي يحافظ على بنية العنصر وهيكلته، لكن صياغته التشكيلية هذه، بدأت تميل إلى مزيد من الاختزال والانفعال العنيف الذي يطول سطح اللوحة بكامله، وينم عن شخصية فنان أكاديمي، متمكن من التشريح ونسبه وأدواته التعبيرية بشكل عام، غير أن لوحته عموماً، طافحة بالشغب الانفعالي، والحركة القوية التي تعكس حالة إنسان يغلي من الداخل، وجد في السطح الأبيض أمامه، متنفساً للتخلص بوساطته منه، إذ يقوم الفنان (اشتي) ودون أدنى تردد، برمي هذا الشغب فوق سطح اللوحة، غير عابئ بالتداعيات اللاحقة.

على هذا الأساس، يشكل الفن لدى (شفيق اشتي) متنفساً، به وعبره، يتخلص من فيض الطاقة داخله، فيتوازن جسداً وروحاً، وهو ما يجعل اجتراحه له، حاجة ضرورية، يمارسها فيرتاح، لكنه من جهة أخرى، يقوم بتوريط المتلقي بها!!.



أعمال برونزية للفنان فؤاد طوبال

في العدد القادم:

- الثورة المعرفية ودورها في إعادة هيكلة الاقتصاد.
- فن التربية على التسامح.
- نبض المقاومة في أدبنا القديم.
- المفهوم والقدرة الإبداعية.
- الأنا والآخر.
- بين الشيخ محي الدين بن عربي ودانتي.